تاريخ
الأدب العربى
١٠

عصر
الدول والإمارات

الجزائر – المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الأولى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربى خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأته بالحديث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقى منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية فى تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة فى فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهدية . ويتحول المعز العبيدى بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينيب عنه فى تونس والبلاد المغربية بلكين الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويعلن المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سُلَيْم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع أبناؤه أن يداوروا بنى هلال وتَسْلَم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولاة دولته الدولةَ الحفصيةَ فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، ويغضب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرَّر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتتحرر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعت الجزائر الدولة العثمانيّة وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر – مع أهلها من البربر – عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الحنيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التى انتظمت فى جيوشهم . وظل ينزلها فى المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان فى صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمى الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوربا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت فى الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة فى الجزائر زراعة القمح والشعير ورعى الأنعام ، وتكثر بها أشجار النُّقْل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلى وأوانى الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية ، ومعاصرُ الزيتون كانت منتشرة فى بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والحيتان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرّ إلى رفه فى الملبس والمأكل والمسكن ، حتى لنشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتمم هذه الحضارة وما طُوى فيها من رفَهٍ عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن – بعد الفتح – حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكانوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر فى محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكتب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفى فى عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت فى الجزائر نَزْعة صوفية ؛ ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفى الأندلسى وفى مقدمتهم أبو مدين شعيب ، غير أن التصوف السنى هو الذى ساد فى الجزائر وانتشرت طريقتاه القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة أو قبيلة يأخذ فى تحفيظ معتنقى الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعضَ كلم العربية فى التخاطب وفروضَ الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية فى الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتاتيب والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تُلْقَى محاضرات فى مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة فى النمو تأسيسُ المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفى المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التى نشأت فى الجزائر ، الدولة الإباضيةفى تاهرت ودولة بنى حماد فى بجاية وقلعتها ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وكان من العوامل القوية فى نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف فى القرن السابع الهجرى والحادى عشر . وعرضتُ علماءها الأعلام فى علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفى الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل عَلَمٍ من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كتبه ، ومع كل عِلْمٍ ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آبائه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى ألسنة البربر ، لأنها لغة دينهم الحنيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية. وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبى على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثر شعراؤه ، وذكرتُ أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفصِّل الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى (قاضى ميلة) وابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوف ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبو حمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء الهجاء ، ومن كبار الهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر التعليمى ومن أفذاذهم عبد الرحمن الأخضرى ناظم السلم المرونق فى علم المنطق. وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأريسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمته فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لعلَمه : محمد بن على بن حماد القلعى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمية وفى بجاية وتلمسان مع الإلمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبو حمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحلَّلت رسالة ابن الربيب المشهورة ملاحظا شيوع السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهمذانى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذة الأدبية .

وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن القالمى والوهرانى وأبو الفضل بن محشرة .

٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به فى الأعوام السبعين المتممة للقرن الأول الهجرى وجنَّد الولاة العظام حينئذ بعض الشباب المغربى فى الجيش العربى فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية فى القرن الثانى الهجرى انحرفوا عن هذه السياسة التى يأمر الدين الحنيف باتباعها فى الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهز الفرصة الصفرية من الخوارج وأرسلوا دعاتهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفرية المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قُضِىَ على ثورتهم فى الشمال وانسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفرية ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن على بن أبى طالب أن يكوِّن فى فاس دولة الأدارسة ، وهى أول دولة إسلامية عربية فى المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلامية والعربية، وقُضِىَ عليها فى القرن الرابع الهجرى . وتُظِلُّ دولة المرابطين المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وتحدث به نهضة علمية وأدبية، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتنشر الإسلام فى ربوع إفريقيا المدارية ، وتخلفها دولة الموحدين محاولة أن تنشر لزعيمها ابن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادىء الشيعة والمعتزلة ، وتبلو هذه الدولة بلاء حسنا فى إنقاذ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من النورمان والتنكيل بنصارى الإسبان فى غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التى سُحقوا فيها سحقا . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم فى منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تخاذلت فى أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالى لبعض الموانى على المحيط والزقاق . ونوهتُ بشابين مغربيين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون ومحقوا البرتغاليين محقا فى معركة وادى المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانى التى استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد العياشى محرر العرائش وآزمور والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والعرائش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة ، ويعتلى عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضارية وفكرية ، وفى رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

وعناصر السكان فى المغرب الأقصى هم البربر سكانه منذ العصور السحيقة ومن استقر بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم فى جيوشهم من الشعوب الإسلامية الآسيوية والإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى فى عهد الحكم الربضى بالقرن الثانى الهجرى ومن هاجر بعدهم فى القرنين السابع الهجرى والحادى عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب فى عهد الفينيقيين والرومان والعهود الإسلامية ، والنصارى وظلت منهم بقايا فى المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى حرسا من الروم عداده خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى أوربا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من الحيوانات الوحشية : النعام والوعول والبقر الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصباغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا فى بنى يازعة « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مما هيأ لبناء بعض المدن والمنشآت العمرانية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس فى المدن الكبيرة والمواني ، وكان بفاس مائة حمام ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمآكل ولعب التسلية وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وعنوا بالموسيقى عناية واسعة . وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تحظى بمكانة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالمات وأديبات وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلقين فيها الشعراء ويحاورنهم وينقدن بعض أشعارهم ويمنحنهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء فيه الطلاب ، وألممت بشيوع المذهب المالكى الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصفرية والمعتزلة اللتين انتشرتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة الموحدين ، وألممت بحركتى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن الفاتحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا والمكتبات وعن إنماء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضتُ علوم الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ ، ومع كل عِلْم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ، ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأُسِّست دولة

الأدارسة فى فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعملت - بقوة - على تعريب المغرب الأقصى ، وعُنيت بفتح الكتاتيب فى المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم وأنشأتْ فى المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومَنْ يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام فى المغرب الأقصى . وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . ويدور الزمن ، ويدخل المرابطون المغرب الأقصى ويطهرونه من الروافض ومن نحلة برغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون فى عهد تلك الدولة يندمجون فى سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره فى تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب فى الجزائر : من قبائل الأثبج وزغبة ورياح وقرة ، امتزجوا بسكانه ، وفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد فى الأندلس ولبَّاه كثيرون ، ولنفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأثبج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط فى الشمال وأزغار فى الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة فى الغرب والأثبج فى منطقى دكالة وتادلة ، وانساح كثيرون من هؤلاء الأعراب فى ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة فى عصر دولة المرابطين وما تلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين فى كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس فى فن التوشيح وظهور وشاحين مغاربة نابهين ، وترجمت منهم لابن غُزْلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأزجال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازى . وعرضت شعراء المديح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجراوى وابن عبد المنَّان والهوزالى وأحمد بن القاضى والدغوغى والبوعنانى ، كما عرضت شعراء الفخر والهجاء وترجمت للشاذلى ولأصحاب الشعر التعليمى وترجمت لعبد العزيز الملزوزى وابن الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبى الربيع الموحدى ولعمر السلمى ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالى ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن المحلى ، وشعراء المدائح النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتَّابه ، وبدأت بالخطب والمواعظ مع بيان أهم الخطباء والوعاظ ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتابها مع عرض بعض الرسائل فى مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتابها ، وعرضت

الرحلات المهمة وفى مقدمتها ر- ابن رشيد ورحلة العبدرىّ ورحلة العياشى ، وألممت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الغسانى ورحلة محمد بن عثمان المكناسى ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : القاضى عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن على الفشتالى ومحمد بن الطيب العلمى .

٣

وتحولت إلى موريتانيا فعرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عقبة بن نافع وقيام إمارة لهم فى أَوْدغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطين ودفعه لهم للجهاد فى السودان الغربى وتطهير قائدهم أبى بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المدارى لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإسبان. وضمَّها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان ، ونشر الإسلام فى شعوب السودان بإفريقيا المدارية . ويبدو أن دولة المرابطين فى موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبى بكر بن عمر ، وتتبع بعض مدنها غانة ، ويفر بعض الفقهاء من عاصمتها كومبى صالح إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكتو حين غزتها مالى . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدى فى غزوه للسودان المدارى ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع فى موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشب بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزلها كثيرون من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية ، ويعيش السكان على زراعة الشعير والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلأ ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقتاتوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعى . ولهم مع أهل السودان المدارى تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذُهل لها ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان الغربى فى إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم ، وأنه هو الشىء الوحيد الذى يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخّر سريعا . وتلى تجارة الملح فى الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترون بهما ما يريدون قدموا

للبائع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعيّن القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعىّ مالكى ، والصداق والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتاتيب ، وتتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الحنيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن أتعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكانت النساء هن اللائى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتاتيب ينتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبى بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقه وكتبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قراءة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقه وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا – وربما أيضا فى ولاته – كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعربها ولكنها لم تنطق العربية ، إنما نطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعراء الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعراء المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد اليدالى الديمانى وحرم بن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهجاء ، وترجمت للمختار بن بون ومحمد بن سيدىّ الأبْيَيْرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد بيب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحول الحسنى ومحمد بن الطلبة اليعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديًّا ، وعن شعراء المدائح النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ولمحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسنى ، وبالمثل تحدثت عن الشعراء والشعر التعليمى ومنظوماتهم العلمية .

٤

ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضى السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبية شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٣١هـ/٦٥٢م أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجَّة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتنشب حروب بين النوبة والمماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضاؤل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشره هناك تجار الكانم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى واداى ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سنار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصوَّع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشىء خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويُشْرِك السودانيين فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل بيكر ثم غردون الإنجليزيين حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالى النيل . ويقوم المهدى بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدى سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى وينتصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يقوده كتشنر الإنجليزى ، وانتصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جُمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءًا لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانية

مكانة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنتظم بين مريديهم وتنشد أحيانا فى حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد فى العهد الذى يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذى يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قويمة . وشجع محمد على الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعاتها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفى المكى أحد دعاته إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغنى ، فنشر طريقته من وادى حلفا إلى دنقلة وفى كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السمانية ، وهى فرع من القادرية . وظهر المهدى بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادىء هى : الزهد ، والعمل بالشريعة المحمدية ، والأخذ بالبساطة فى الحياة ومتاعها ، ونبذ جميع الطرق الصوفية ، ونبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادىء حية فى عهد خليفته التعايشى وانتهت الدعوة بوفاته . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة فى السودان تحفظ القرآن الكريم فى الكتاتيب والخلوات ، وتنتقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية فى عهد دولة الفونج نشيطة بل مزدهرة وأرَّخ لها ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ، وفيه ترجم لنحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض فى ذكر من درسوا من علماء السودان فى الأزهر والمدينة بالحجاز كما أفاض فى ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد على السودان شجَّع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجَّع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المبتديان ، وأنشأ الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهدا دينيا كبيرا على غرار الأزهر ، وأنشأ خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاعة الطهطاوى ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات ومدرسة سادسة فى مدينة سواكن . ووقف المهدى هذا النشاط التعليمى حتى إذا قام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عاد وازداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشىء معهد دينى فى أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشىء نادٍ للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان فى حملة وجَّه بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة – كما ذكرنا – حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجّة فى شرقى السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودى فى القرن الرابع الهجرى ، وظل الإسلام - ومعه العربية - ينتشر فى قبائل البجّة ببطء ، وبالمثل فى بلاد النوبة . أما فى الغرب فكان التعرب سريعا بفضل الكتلة الضخمة من قبائل زواوة البربرية وشاوة العربية النازلة فى دارفور بالقرن الخامس الهجرى. ونشرت دولةُ الفونج العربيةَ فى ربوعها ، وبالمثل مملكةُ تقلى فى جبال النوبا وسلطنةُ دارفور وفى كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حتى يكون السودان تعرَّب ما عدا بعض الجبال الشاهقة فى أقصى الغرب ومنطقة الغابة فى الجنوب وقبيلة الأمرأر البجاوية . وعرضت شعراء المديح وترجمت للشيخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحماسة وترجمت للشيخ يحيى السلاوى السودانى ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسى وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبى القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبد الله البنا وصالح عبد القادر ، وعرضت شعراء التصوف وشعراء المدائح النبوية ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبد الله الرحمن . ولم أؤرخ للنثر الأدبى السودانى قبل العصر الحديث إذ تكثر فيه الألفاظ العامية فى عصر الفونج ، وكُتبت بعض رسائل فصيحة فى القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا تتيح لباحث دراسة خصبة فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السودانى حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى فى تأليف هذا الجزء، وخاصة ما كتبه الأعلام المعاصرون فى كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه، إذ كان لى منارات تهدينى الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربى وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعنيت بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلكّ أعلام الفلسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ فى كل بلد عربى على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبى والفلسفى والعلمى والحضارى قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولى الهدى والتوفيق .

القاهرة فى أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقى ضيف

القسم الأول

الجزائر

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

تتوسط الجزائر فى الشمال الإفريقى بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترًا ، وهو ساحل صخرى حجرى ، ولذلك تقل عليه – بل تنعدم – الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانى الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة (بونة قديما) فإسكيكدة ، فجيجل ، فبجاية ، فدلس ، فالجزائر (المدينة) فشرشال ، فتنس ، فأزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أيدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبى تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلّى بادئة بجبال مجردة ، فجبال البابور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيبان جنوبا ، فجبال تيطرى وشماليها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريش ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمرانا ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغاباتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة فى الشرق ، ومليانة جنوبى شرشال وتلمسان فى الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلى هضبة كبيرة ، وهى قفار واسعة ينبت بها شجر الحلفا وعشب كثير فى الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتنسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوّق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

---

(١) انظر فى جغرافية الجزائر كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق للإدريسى) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدنى (طبع الجزائر) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الميلى (طبع الجزائر) ص٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

الحضنة ، وأنشأ فى أحد سهولك الخليفة الفاطمي المهدى مدينة المَسيلة (المحمدية قديما) وشرقى سهلها خرائب مدينة طُبْنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا فى سلسلة جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلِّى وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقى منها أرض تُقْرت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وبعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب من هذه القسم الصحراوى الشرقى أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهى أكثر جدبا من القسم الشرقى ، وإليها هاجر الإياضيون حين دالت دولتهم فى تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ فى الجزائر منذ شهر أكتوبر وتغزر فى شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة الأطلس التلِّى ، وتأخذ فى القلة بالهضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ، وتكاد تنعدم فى أكثر أجزاء الأطلس الصحراوى وجنوبيه فى الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ، وهى جميعا لا تجرى إلا فى الشتاء فصل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه إلى البحيرات المالحة فى الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب فى طبقات الرمال . وأهم أنهارها مجردة فى الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنعرجات فى مجراه الجبلى ، ويخترق شرقى الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجة فى البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة فى الديار التونسية . وأطول أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور فى الأطلس الصحراوى ، ويتجه إلى الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلِّى ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبى شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب فى خليج أزرو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها نهير سيبوز النابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من عنابة ، ونهير العروش ومصبه بالقرب من إسكيكدة ، ونهير الرمل أو الوادى الكبير ويرفده بومرزوق المخترق لقسنطينة ويصب شرقىَّ جيجل ، ونهير الصمام ومصبه بالقرب من بجاية ، ونهير حميز ومصبه فى خليج مدينة الجزائر ، ونهير الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قريب من مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة. والنهيرات الداخلية ، منها

نهير جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغليغ، ونهير ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتتجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

ووراء الموانى على الساحل سهول تُعِد لنمو أشجار التارنج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والغروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلقاك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفات ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تتراءى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بِسْكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارّة جافّه . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والثلوج تتوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلّية والصحراوية قارّى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحى الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

٢

التاريخ[١] القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماد بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز (طبع القاهرة) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى (طبع دار المعارف بالقاهرة) وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الميلى : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرّفون على المواقع التى تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالى الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة (عنابة الحالية) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدين لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها - من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنقل ، وعلّموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التى نشروها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفّتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نحبه ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فأنف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خانه وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن رومانى ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريتانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما أسسوه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الرومانى نيفسته ، وفى شماليها الشرقى واحة بِسْكرة ، واسمها الرومانى فيسيكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقيين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التى أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخُرِّبت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) . وسموها قسطنطينة وسماها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة فى مدن الجزائر الداخلية . وأرهق الرومان الجزائريين طوال حكمهم بصور شتى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى أخذت فى نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التى استوطنت المدن الجزائرية ، فبُنيت الكنائس والأسقفيات فى غير مدينة لا فى المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا فى المدن الداخلية مثل قالمة جنوبى عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر فى تلك المدن بعض القديسيين مثل أوغسطين قديس بونة فى القرن الرابع الميلادى ، ويُعَدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادى تكتسح البلاد موجات الوندال التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب فى الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشئات العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطى المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر – من حينئذ – تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هى المسيطرة فى البلاد طوال العهد البيزنطى . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاة تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالبطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرَّتين فى تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلع طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

٣

الفتح والولاة – الأغالبة – الإباضية – تلمسان

(أ) الفتح[١] والولاة

بينما جريجوريوس غارق فى حلمه بتكوين دولة له مستقلة فى البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والى مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربى مجاهد فى سبيل الله لتعقب الروم فى برقة وديار المغرب تأمينًا لحدود مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غربًا

(١) انظر فى الفتح والولاة: فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم والكامل فى التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب لابن عذارى، وتاريخ ابن خلدون، وفتوح البلدان للبلاذرى ومقدمات كتاب رياض النفوس للمالكى، والجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى.

ففتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يغزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحتمى بحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سبيطلة خوفًا من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشًا ضخمًا من الروم وغيرهم استعدادا لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وفتحت بلدانها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبى سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعاده إليها معاوية بن أبى سفيان ، فنازل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فارّين ، وولاها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ /٦٧١م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائدا حربيًّا ممتازًا بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقرا له ودارًا لا يبرحها ، وأخذ توا فى بناء مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥هـ /٦٧٦م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودورًا لقواده وجنوده ، وبنى حولها سورًا منيعًا ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل وولّى المغرب بعده أو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبو المهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى موريتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبو المهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انهزم فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبو المهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبو المهاجر سنة ٦٢هـ/٦٨٣م وتولّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائدا حربيًّا باسلا ، غير أنه لم يكن سيوسا ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصُرّ على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاقتحم بلاد الزاب فى وسط الجزائر يحالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وفتح السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط فبلّ قوائم فرسه منه ، ونادى ربه قائلا : « اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبَد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشَه وبقى فى جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكًا على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظرًا لمدد ضخم ، وكان قد توفى يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشًا وولاه على المغرب سنة ٦٩هـ/٦٩٠م وواقع كسيلة ، وأنزل الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتِلَ فى الواقعة كسيلة المرتد الباغى الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو فى نفر قليل من أصحابه عند برقة – وقيل عند طرابلس – إذ هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنازلهم وكتبت له عند ربه الشهادة .

وفى سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام فى القرن الأول الهجرى ورأى فى بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ ما دامت قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التى تنزلها ، والتى تتجسس منها لحساب بيزنطة والتى تعيث وتفسد فى البلاد موغرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وفرَّت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها مختبئين مرة ثانية ، وطهَّر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ،وفرض الجزية على من بقى على دينه المسيحى منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زناتة بجبال أوراس فى الجزائر بزعامة كاهنة هناك ، ونازلها بجيش جرار قرب باغاية شمالى جبال الأوراس وانهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت فى ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتبك مع الكاهنة فى حرب ضروس بجبال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة مع جيشها ، وولَّت وجهها نحو تبسَّه هاربة ولحقتها كتيبة فتكت بها ، واستأمن إليه من بقى من جيشها على الإسلام فأمَّنهم وأمَّن سكان أوراس الجزائريين جميعًا على أن يكون منهم اثنا عشر ألفًا مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيما إداريًا وماليًا محكمًا إذ دوَّن الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للرىّ ، وأقام لإفريقية التونسية ميناء جديدًا ليكون قاعدة لأسطول لها يحمى السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشىء مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولا ضخمًا وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام فى ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بحملته الكبرى فاكتسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربرى . وكان يترك فى النواحى التى لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر فى أيامه . وأتم التنظيم الإدارى لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربى المغرب الأوسط (الجزائر) عاصمته تلمسان ، وشرقى المغرب الأوسط (إفريقية التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها فى إقليمها الجنوبى والأوسط المسمى – فيما بعد – باسم الأندلس ، وهو شرف للبطلين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربى للربوع المغربية ونشر الإسلام فى جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة – كما يقول الرقيق القيروانى – عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم فى الدولة ، ويرسل إلى إفريقية والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف فى الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر والى القيروان بين فترتى عقبة بن نافع الذى فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوّى فيها – كما أمر عمر بن عبد العزيز – بين البربر والعرب ، وعمل بقوة – مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر – على نشر الدين الحنيف فى المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم فى جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فساس المغرب بسياسة الحجاج الغاشمة التى قامت على التفرقة بين العرب والموالى المسلمين فى العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا فى سلك الجيوش التى أتمت فتح المغربين الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية فى الجيش الذى فتح إيبيريا وأدخل الشطر الأعظم منها فى الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا – بالقياس إلى العرب – رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولّى على المغرب فى نفس السنة بشر ابن صفوان الكلبى ، وكان رءوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بغنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولّى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صقلية وعادت فى ريح عاصفة فغرقت كثرة منها . وتولَّى بعده عبيدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذى بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله فى جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا فى جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا – فى إصرار غريب – التسوية بين العرب والبربر فى الشئون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهه أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما آثما أنها فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

وكان طبيعيًا أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارجُ صُفْرِيَّة وإباضيَّة قد أخذوا ينشرون فى المغرب مبادئهم التى تحتِّم التسوية بين العرب والموالى المسلمين فى جميع الشئون المالية وفى الخلافة فهى حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعا عربًا وموالى . واعتنق البربر فى جبل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التى لا يكفِّر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُّفْرِيَّة الذين يكفِّرون غيرهم من المسلمين ويوجبون على أنفسهم حربهم ، وتزعَّم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة يدعى ميسرة ، وبايعه البربر واتخذوه إمامًا لهم ، وكوَّن منهم جيشا ضخما احتلَّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هُزم فى بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ،وولت الصفْرية فى المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ إمامًا لها وقائدًا ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به فى الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصفْرية وقُتل فيها كثيرون من أشراف العرب ، ولذلك سُمِّيت معركة الأشراف . ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولِّى المغرب كلثوم بن عياض القشيرى وشدّ أزره بابن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى فى جيش ضخم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصفْرية جنوبى طنجة معركة ضارية ، ويهزمان ويتوفَّى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصفْرية فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر فى المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدَّه بجيش جرَّار . وعرف أن قائدين صُفْريين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشدا جموع الصفرية فى الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا فى طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة ومزَّق جيشه ، وأخذ يستعد فى القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزَّع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلأ الجيش حمية ، ودارت المعركة فسُحق جيش عبد الواحد

وحُملت رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدًا . وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فأحسَّ عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بدنوِّ أجل الدولة الأموية فأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م وكان حنظلة تقيا فكره أن يتقاتل المسلمون وعاد إلى المشرق . ولما أصبح صولجان الخلافة بيد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م أقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على المغرب دَرْءًا للفتن هناك ، ولأنه أعلم من غيره بشئونها إذ هى داره ودار جده عقبة بن نافع ، وثارت الإباضية بطرابلس سنة ١٣٠ بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبى وأخمد الثورة ، وبايع الإباضيةُ هناك الحارث بن تليد بالإمامة واتخذ عبد الجبار بن قيس المرادى وزيرًا له ومستشارا ، وأدارا الحرب مع جيوش عبد الرحمن واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وفى نفس السنة تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب فى ولايته ، وسمع بتجمع للصفرية بتلمسان فى الجزائر سنة ١٣٥ ففاجأهم وكُتب له النصر عليهم . وأرسل حملة إلى صقلية رجعت بكثير من الغنائم ، واستولى على جزيرة قوصرة التى تبعد عن الشاطئ التونسى نحو ثلاثين ميلا ، وتنازل عنها — فيما بعد — أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية بتونس لفردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة « ملك صقلية » سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م . وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه سنة ١٣٧ وتولى بعده إلياس ، وقتله ابن أخيه : حبيب بن عبد الرحمن وتولَّى مكانه ، ولم تلبث قبيلة وَرْفجومة النفزاوية الصفرية الغالية أن هاجمته واستولت على القيروان واستباحتها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحاول حبيب أن يستردها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م ففتكت به ورفجومة . وكانت قد استحلت المحارم فى القيروان فغضب لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية بطرابلس وجبل نفوسة ، فهاجم ورفجومة وخلَّص منها القيروان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولَّى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد قواده ، ولم يلبث محمد بن الأشعث والى مصر أن قدم على رأس جيش ضخم ، فاشتبك مع أبى الخطاب فى معركة ضارية قتل فيها أبو الخطاب ، وفرَّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب فى الجزائر وأسس فى شماليه دولة للإباضية بمدينة تاهرت ظلت بعده حتى سنة ٢٩٦ . وولَّى ابن الأشعث على الزاب الأغلب بن سالم التميمى ولم يلبث أن تولَّى على المغرب الأدنى سنة ١٤٨هـ/٧٦٢م ويقتل فى بعض حروبه سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويتولى على المغرب عمرو بن حفص الملهبى (هزارمرد) بانى طَبْنة بالزاب ، ونازل فى الجزائر الصفرية والإباضية بتاهرت ، وثارت عليه إباضية طرابلس وحاصرت القيروان وخرج إليها واستشهد فى المعركة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ ويقول عنه الرقيق القيروانى : « كان كثير الشَّبه بجدِّه المهلب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وكان خبيرًا بشئون الإدارة فرتَّب القيروان وسوقها ، كما كان خبيرًا بشئون السياسة والحرب ، فقلم أظفار الصفرية فى الجزائر ولم يعد لهم نشاط إلا فى ديار زناتة بالصحراء ، وقلَّم بالمثل أظفار الإباضية ، فلم يعد لهم نشاط إلا فى تاهرت وجبل نفوسة ،

وهدأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أديبا ، وأسبغ عطاياه على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث فى القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدَّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر فى عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أو شرقى الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحنكة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب فى أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفى عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية فى وَليلى جنوبى طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر فى الاقليم التونسى والطرابلسى الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليًا إبراهيم بن الأغلب التميمى ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل العكِّى إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفًا سيىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكوِّن به أسرةً حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آنفا .

(ب) الأغالبة[١]

كانت الجزائر تحظى حينئذ فى شرقيها (نوميديا القديمة) بدولة الأغالبة المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسى إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طُبْنة . ونعم هذا القسم من الجزائر فى عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فى ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقق لحكامها الأغالبة من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الحنيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فتحا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها فى الإقليمين التونسى والجزائرى ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالبة بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

---

(١) انظر فى الأغالبة المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيراء لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى والجزء الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أمرائها .

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون وبقاع إيطالية كثيرة جنوبيها ، واستولى على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١هـ/٨٧٤م - ٢٨٩هـ/٩٠١م) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملأ الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغالبة على وعى كبير بالسياسة وتدبير شئون الحكم ، فكانوا يولون على شرقى الجزائر فى طُبْنة ولاة يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاة نزهين تقاة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لعهد الأغالبة - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

(جـ) الإباضيون(١)

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى موريتانيا الشرقية ، أسَّسَها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذًا مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أ... كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادىء الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولِّى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويُبايَعُ الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماؤه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعيِّن القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوماتها وتطوف فى المدينة أوالقبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

(١) انظر فى الدولة الإباضية بتاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ص٤٣٦ وما بعدها .

بالعدالة والتقوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثى ، وأدَّى ذلك إلى انشقاق فى صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمرَّدت عليه فى شمالى الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبةإلى زعيم المعتزلة فى البصرة واصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنتها ، وانضم إلى مذهبه الإباضى جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاقٌ جماعة الإباضية شاهرة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها وتشتت أنصاره فى البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبواليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة فى الضعف وتفاقم فى عهد ابنيه أبى حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الفاطمى قد نشر الدعوة الفاطمية فى قبيلة كتامة وأيدته فى القضاء على الدولة الرستمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م .ومما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المدارية فى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا وإلى السودان النيلى فى مناطق كردفان وواداى . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت فى الواحات وفى كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام فى كل البقاع التى كانت تنزلها القوافل ، وهى خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قُضى على الدولة الإباضية فى تاهرت انحاز الإباضيون فى الجزائر إلى الجنوب – حتى اليوم – فى أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرستمية سيطرة المذهب السنى – وخاصة مذهب مالك – على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا فى الصحراء الإفريقية المدارية والسودان النيلى .

(د) تلمسان

فى أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة فى حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . ونراهم فى سنة ١٤٨ يبايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرة اليفرنى الزناتى ، ويُعِدّ فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمى فى ولايته على المغرب الأدنى (الإقليم التونسى وشرقى الجزائر) ويبلغ النبأ الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اقترب منه هرب وتفرَّقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٧٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ فى إعداد جيش لمنازلة أبى قرة ويحصن طبنة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرة أعد جيشا كثيفا لملاقاته ، وتقدم إلى طبنة ، غير أن خلافا دبٌ فى جيشه ، وتفرُّق عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هوارة بطرابلس عليه ، وانتهز أبوقرة غيابه عن طَبنة فهاجمها ، وكان عمر بن حفص ترك بها المهنأ مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبي قرة فهزمه وولّى الأدبار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبي قرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بني يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسني دولة الأدارسة في وَليلي بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكته رأى الزحف على تلمسان وما جاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم بزحفه محمد بن خزر المغراوي فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وبايعه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعيَّنه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى وليلي وتوفي سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثاني حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما في مهام الأمور ، وهو الذي بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظَّم فيها شئونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزلها - كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين - عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثاني أو ابنه محمد تركها له فتملكها وبايعه أهلها ، وتوارثها هي وإقليمها في الجزائر عنه أبناؤه وأحفاده إلى أن أخذها منهم موسى بن أبي العافية في القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد

(أ) الدولة العبيدية[1]

لم يلبث أبو عبد الله الشيعي أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى في عام واحد على الدول الثلاث التي كانت تتقاسم الجزائر : دولة الأغالبة في شرقيها ودولة الإباضيين بتاهرت في وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله في غربيها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدي الفاطمي من القيروان ثم من مدينة المهدية التي بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر في أيامه رخاء وأمنا وانتعشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأيضا بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب علي بن حمدون الزناتي بسهل الحضنة مدينة المسيلة (المحمدية) سنة ٣١٥ ، ويتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفي أيامه أخذ ثائر بربري من الخوارج يُعِدّ العدة في الجزائر للانتقاض عليه والثورة يُدْعَى أبا يزيد مخلد بن كيداد ،

---

(١) انظر في الدولة العبيدية اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزي وكتابه الخطط والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بني عبيد وسيرتهم لابن حماد وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان وكتابه المجالس والمسايرات وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي ص٥٠٢ وما بعدها .

أصله من مدينة توزر التونسية فى بلاد الجريد ، وكان فى أوائل حياته يحفّظ الصبية والغلمان القرآن الكريم فى مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت فى أواخر أيام الرستميين ، ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكّارية ، وأخذ يجتمع إليه كثيرون من قبيلته زناتة ومن البربر الخوارج إباضيين وصفريين ، وكوّن منهم جيشا لقى به قبيلة كتامة فى الأربس وغير الأربس وهزمها مرارا . وكان يبيح لجيشه نهب البلاد وحرقها وسّبى النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن إباضىّ العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويبدو أنه قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سّبى النساء وقتل الأطفال ، فاقتدى بهم ، وبئس القدوة . وماتوافى سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م حتى يحشد جيشًا ضخمًا يستولى به على كثير من البلدان فى الجزائر والإقليم التونسى ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيديين لمحاولتهم فرض عقيدتهم الإسماعيلية عليهم ومحو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة المهدية عاصمة العبيديين وحاصرها . وتوفّى الخليفة العبيدى القائم فى أثناء حصاره لها سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا، واستصرخ زيرى زعيمَ صنهاجة فى الجزائر، فلبى صراخه ، وانهزم ابن كيداد هزيمة ساحقة ، وولّى الأدبار إلى الجزائر، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه فى باغاية بجبال الأوراس وغير باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، ففتك به سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته انتهت ثورات الخوارج فى الجزائر .

(ب) الدولة[1] الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كتامة الجزائرية هى التى لعبت الدور الأول فى نصرة أبى عبد الله الشيعى على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة فى تلمسان والإباضيين فى تاهرت والأغالبة فى القسم الشرقى من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هى التى كان لها الدور الأول فى القضاء على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الصُّفرى ، والقبيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كتامة إلى الشرق وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرانس المتحضرة . وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البُتْر المتبدّية ، وكانت شعبها

(١) انظر فى الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان فى تراجم باديس والمعز وتميم وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص ٥٢٩ وما بعدها .

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبى الإقليم التونسى وطرابلس شرقا . وولّى الخليفة الفاطمى المنصور زيرى الصنهاجى على المنطقة الغربية فى الجزائر وحين تولى المعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢م أبقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة ويتضح ذلك فى بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقى من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥م واتخاذها عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين – فيما بعد – لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط ومدينة مليانة جنوبى شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى من مليانة . وساعد زيرى جوهرا الصقلى فى سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨م فى حملته التى استولى بها على جميع بلدان المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى قرطبة . وكان جوهر الصقلى قد استولى على مصر للمعز سنة ٣٥٩ هـ/٩٦٨م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدى المعز سيترك عاصمته المهدّية فى إفريقية التونسية إلى مصر ، وسيولّى زيرى على المغرب جميعه نائبا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن على بن حمدون الزناتى والى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠م وكانت بينه وبين زيرى ضغائن وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة ولايته التى بناها أبوه فى ولايته عليها كما مرَّ بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالعا طاعة المعز ، واحتفت به قبيلته وملّكته عليها ، واستطاع فى سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف به على أراضى صنهاجة ، وعلم زيرى فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان ورجحت كفة جعفر بن على وزناتة وقتل زيرى فى المعركة . وكان ابنه بلكين فى أشير وجاءه نبأ مصرع أبيه ، فأعدَّ العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزناتة ومزّق جموعها ونكّل بها تنكيلاً شديدًا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقرّه على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب جميعه فى ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ/٩٧٢م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغى أن يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم فى المغرب ويرتّب شئونه ، وهو بربرى مغربى من صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهى أول مرة فى التاريخ الإسلامى تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعى إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ، يتدربون قرونا – طوال الحكم العربى – على النظم الإسلامية فى إدارة الدولة وأخذوا يحكمون أقاليمها المختلفة . وآن أن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه فى كتابه : « البربر المسلمون فى العصور الوسطى » وكتابه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول فى المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيقا لآمال البربر فى الاستقلال عن العرب ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعى لتمرُّن البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضا بناءُ المدن ، ومرَّ بنا آنفا بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيرى لمدينة أشير وبناء بلكين لمدينتى الجزائر ومليانة .

واتخذ بلكين القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة العبيدى المعز سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م وتولَّى ابنه العزيز وثبَّته فى ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت فى أوائل عهده بالجزائر تاهرت وباغاية وتلمسان واستسلمت له سريعا ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توعز لزناتة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلكين ، وقاد فى سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٩ م جيشا كثيفا إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعا . وتوفى فى أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م فعقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعى المؤيد قد أعان زيرى ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أخاه يطوفت أن يقود جيشا إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيرى ، وصدع بأمره ، غير أن زيرى هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيرى زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التى أنهكت قواهما طويلا . وعرف العزيز الفاطمى فى القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائيا ، فأرسل إلى كتامة فى الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة يثير الكتاميين ويجمعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه فى سطيف شرقى تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمة مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزرون فولاَّه على طبنة ، وتوفى سنة ٣٨٢ فولَّى ابنه فلفلا مكانه . وعم الجزائر الأمن والهدوء فى بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس فى الثالثة عشرة من عمره فدبَّر له أمور الدولة فى إفريقية التونسية والجزائر أعمامه ، وخاصة يطوفت فى تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوافى سنة ٣٨٩ حتى يُعِد زيرى بن عطية صاحب فاس جيشا ضخما ويحاصر يطوفت فى تاهرت ، وينجده سريعا حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبى العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوما على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولى جيشهم الأدبار تاركين وراءهم مضاربهم ومافيها من الأموال والسلاح غنيمة لزناتة وزيرى . وبلغ باديس الخبر فخرج على رأس جيش للقاء زيرى ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلفل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفرَّ إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ماكسن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست صنهاجة وحماد الصعداء ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

(جـ) بنو حماد[1]

كان حماد – كما يقول لسان الدين بن الخطيب – نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب « الجدال » وفكر جادًّا فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه بناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعر فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة (المحمدية) وأحالها سريعا إلى مدينة تكتظ بالأحياء والفنادق والمساجد تتوسطها قصبة أو بعبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرائبها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمَّم حماد على إعلان استقلاله . وماتوافى سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتنقا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشًا ضخمًا لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبَّر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفرَّ على وجهه إلى القلعة محتميا بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتمَّ ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبناؤه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتُعَدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبناؤه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية لإسماعيل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٦٠٢ وما بعدها وراجع مادة : « بنوحماد » فى دائرة المعارف الإسلامية.

وألّف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإباضية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر وبيوتهم العريقة فى صنهاجة ، وبذلك كانت دولة بربرية بحتة ، وأيضا فإنها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت - بكل وسيلة - على نشرها لا فى العاصمة فحسب ، بل أيضا بين القبائل ، وعملت أيضا - بكل ما استطاعت - على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هانئا بقلعته ودولته حتى سنة ٤١٩ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المعز سنة ٤٣٢ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلُكِّين بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المعز بن باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيديين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكتسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المعز بن باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهدية سنة ٤٤٩ وبقى بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين ينهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وانصبّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثبج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة أبى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشتت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثبج وعدىّ الأريافَ ينهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبى وهران وقتله ثأرًا لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقا له ، وأعلن نفسه حاكما للقلعة وصنهاجة مكانه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحنكة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المعز بن باديس وابنه تميم إلى المهدية وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوعز إلى أمراء بنى رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونازلهم فى سبيبة شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان فى الاقليم التونسى حتى القيروان . وكان يحدث شغب فى كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصافته زناتة ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البابا جريجورى السابع بتكريس قسيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة وافتدى جميع الأسرى المسيحيين فى بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب فى نفس البابا فأجابه إلى تكريس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدى العربان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بَنَى بجاية على البحر المتوسط فى الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعُنى بتخطيطها وتشييد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م وفى أول حكمه ازداد ضغط القبائل الهلالية عليه واضطرته إلى أن تتقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م . وخلال السنتين اللتين قضاهما فى القلعة شيَّد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار فى بونة وقسنطينة ، وعادتا إليه ، واشتبك مع زناتة فى الجنوب الغربى وردَّ المرابطين إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامانو الزناتية وتزوج بنت زعيمها ماخوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدباء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البابور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الهلالية فى التخريب والقضاء على العمران فى الجزائر وخوفا على ما فى القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ للهجرة .

٥

دولة الموحدين – الدولة الحفصية – بنو عبد الواد

(أ) دولة[1] الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراكش ، واتسع فى إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد فى الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا فى القلعة وبجاية عاصمتيهما نهضة فى الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأوا عظيما ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان فى الجنوب ومع أوربا فى الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمخر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمده بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكتساحهم للزاب بإبلهم وخيلهم ورجلهم فى القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل فى إفساد الزاب ، وحدثت الطامة فى القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البابور وامتدوا شرقا حتى سهول بونة (عنابة) وأصبح بنو حماد وبجاية فى حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين فى مراكش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقا وطارد فلولهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتعد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين فى الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتغرَّبون أو يصبحون جزءا من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن فى حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة فى معركة الأرَك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهدية سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلهما من عبد المؤمن النجدة ، فسار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم فى الجزائر وإفريقية التونسية أظفار الأمراء المستبدين بالبلاد ، وحاصر المهدية ثم طرابلس برا وبحرا سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق فى الأقليمين التونسي والجزائرى ما اتخذه فى المغرب من التراتيب المخزنية فى إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة فى عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المعجب للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان .

سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م. وفى عهده ثار عليه بنو غانيَّة ولاة المرابطين فى جزيرة ميورقة، ونزل منهم على وأخوه فى الجزائر والإقليم التونسى يحاولان أن يقيما فيهما دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ويعدا جيشا لحربهم . وأحدث على قلاقل كثيرة فى الساحل الجزائرى بين بجاية ومليانة وكذلك فى الساحل التونسى، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه فى بلدان الجزائر وتونس يبنى المساجد كابينى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقى مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته.وخلف على فى شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الهلالية، ومرة ينتصر ومرة ينهزم حتى توفى فى برية تلمسان سنة ٦٣١.

(ب) الدولة[1] الحفصية بتونس

فى هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية ، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية ، واستطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفًا شديدًا ، فاستقام له حكم البلدين حكمًا رشيدًا يقوم على نشر العدل والأمن فى البلاد ، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تعلن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ/١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد ، وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة ، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعمل بعض أتباعه على أن تبايعه مكة بالخلافة وبايعته ، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله ، وكان عهده فى الجزائر شرقًا وغربًا – كعهد أبيه – عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ/١٢٥٨ م . وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربى الجزائر كما أخذ المرينيون يتخلصون من الولاء لهم ، واقتحم الجزائر أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المرينى سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١ م ودخل بجاية وخرَّب بستانها المسمَّى بالبديع وعاد أدراجه . وانتهى من حينئذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر ، فلم تعد تمد سلطانها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر ، إذ تراجع حكمها – حتى نهاية أيامها فى القرن العاشر الهجرى – إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب . وفى الأكثر كانت تفرض تلمسان فى عهد بنى زيان سلطانها على الجزائر الغربية وأحيانا كان يفرضه عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية . وحاول الخليفة الحفصى أبو عصيدة تلافى هذه الخصومة سريعا ، فأرسل فى سنة ٧٠٣ وفدا

---

(١) انظر فى الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى والأدلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع والفارسية فى مبادى الدولة الحفصية لابن قنفذ وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى .

إلى السلطان المرينى لتحسين العلاقات بينهما، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى، مما جعل السلطان المرينى أبا الحسن يجتاح تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م ويظل بها سنتين، ويعلم بثورة أبى عنان ابنه عليه فى المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم فى طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية، ويحاول أبو عنان - بعد توليه الحكم - الاستيلاء من جديد على تونس ويكتسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها فى الزاب، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها فى الجزائر الشرقية وتتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها فى عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز فيعدُّ سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربى الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المرينى رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمروننا به نمتثله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء، وثارت عليه تلمسان فاستردَّ ولاءها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهمين، وتوفى سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده فى التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد فى إقليم الجزائر الشرقية .

(جـ) بنو عبد[1] الواد بتلمسان

لم نفصل القول حتى الآن عن تلمسان، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها، ومر بنا أن الأدارسة استولوا عليها، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم، وانحسرت عنهم دولتهم، أو ثاروا عليها، مما جعل صنهاجة بزعامة بلكين تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم بزعامة زيرى بن عطية سنة ٣٨٩ وتهزمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين بمراكش سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم، وتتبع بعدهم دولة الموحدين . وقرَّبوا منهم بنى عبد الواد الزناتيين . وفى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ولوا منهم جابر بن يوسف

(١) انظر فى بنى عبد الواد أوبنى زيان كتاب تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسى تحقيق د.محمود بو عياد وكتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد ليحيى بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد حاجيات وكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حمو موسى الزيانى للدكتور عبد الحميد حاجيات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى

على تلمسان. فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفى سريعا ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَغْمُراسن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصَّب نفسه أميرًا للمسلمين ، وسيَّر إليه أبو زكريا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه يغمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدرأ خطرها ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبَّت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسَّع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المدية فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفى السلطان المرينى يوسف وفكَّ المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيل سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولعا بتشييد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصهاره فتشفَّع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غربيها لسكناه سماها المنصورة وضيَّق عليها الحصار وشدَّ الخناق سنتين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها ما يقرب من سنتين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمته ، وجاءته أخبار بأن أبا عنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سريعا إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلهما السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزيانى أبا حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهَّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المرينيين وأعادها إلى أسرته . ولم تتسمَّ الدولة حينئذ دولة بنى عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بنى زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبَّر أبو حمو أمور الدولة تدبيرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لها نظاما شبيها بنظم الخلافة فى الشرق فصَّل القول فيه الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذى يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبو حمو موسى الثانى سنة ٧٩١ وتنازع أبناؤه وتقاتلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق وقتل سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م بيد أخيه أبى محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م وأخذ يكثر فى الأسرة القتل والخلع ، وتتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفى سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصى على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية فى تولية حكام الدولة الزيانية، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصى أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبى حمو ويتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بنى زيان بتلمسان وغربى الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية فى شرقى الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم فى تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمى ثغورهما على البحر المتوسط ، واستولى فى الساحل الغربى للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربى من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى فى الساحل الشرقى للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكأنما أصبح الساحل الجزائرى جميعه غربا وشرقا فى قبضته ، إذ أهمل التلمسانيون والحفصيون الرباطات والمحارس الساحلية التى أكثرَ الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

٦

العهد[1] العثمانى

وفى هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عرّوج وخير الدين (بربروس) وكانا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية ، وغضبا غضبا شديدًا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إنقاذها منهم ، واتفقا مع الخليفة أبى عبد الله الحفصى أن يتخذا جزيرة جربة فى تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسبانى وتحرير الساحل الجزائرى . ولم يلبثا أن استوليا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأخذا يديران منها معارك حامية مع الإسبان ، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان ، وحميت المعارك وأخذت بعض الموانى الساحلية تسقط فى حجر البطلين ، وتوفى عروج قبل الأوان ، ومضى خير الدين فى حملاته ، ورأى – بثاقب نظره – أنه لا يستطيع إقامة ملك تركى مستقل بالجزائر ، فأرسل إلى السلطان العثمانى بولائه له هو وفتوحاته فى الساحل الجزائرى ، وقبل منه ذلك ، وسماه : « بايلاريك » أى أمير الأمراء ، وأمده بجند وأسطول ، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين ، واستطاع خير الدين (بربروس) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحرر الساحل الشرقى والغربى من الجزائر ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ودمَّر الأسطول الإسبانى فى مواقع عديدة . وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية ، وأنقذ الإسلام فى إفريقيا ، وأسس بقوة السلاح – فى الجزائر – دولة إسلامية عثمانية . وظلت الملحمة الحربية دائرة فى الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثله الترك . ويخلف خير الدين (بربروس) ابنه حسن ، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه ، وكان على شاكلته بطلا مقداما . وشَنَّ شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستعد لها طويلا ، وما إن ألم أسطوله بها حتى سُحق سحقا أمام المدينة ، وغنم البايلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد . واستولى البايلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه ، كما استولى عنوة على كل المواضع التى كان يحتلُّها الإسبان هناك ما عدا وهران ، فقد بقيت فى يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن فى عهد الباشا محمد بكداش فَتْحها وطَرْدَ الإسبان منها ، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طُردوا

---

(١) انظر فى العهد العثمانى بالجزائر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكتاب تاريخ الجزائر لعبد الرحمن الجيلالى وكتاب تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجرى للدكتور أبى القاسم سعد الله ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

منها نهائيا فى عهد الباى محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى المرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وما وراءه ، وهو ما حدث للأسطول الدانماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ولحملة أدريلى الإسبانية آخر القرن الثانى عشر الهجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والداخل ، وكان ملوك تلمسان الزنانيون يناورونه - كما ناوروا أباه خير الدين - فتارة معه وتارة مع الإسبان ، وسئم أهلها من هذا الصنيع ، وأفتى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نحبه ، وأظلَّ الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناوشات حربية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى سنتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدواوين وقدَّر الرواتب ، وخلَّف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباءُ فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضُربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك (أمير الأمراء) حتى سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م ، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التل وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولَّى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية ورؤساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمة الحكم ولم يعد للباشوات إلا بعض المهام التشريفية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالى ، وبلغوا حتى الاحتلال الفرنسى ثمانية وعشرين دايا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد فى فساده أن القرصنة التى كانت مصدر دخل كبير للدولة فى القرنين السادس عشر الميلادى والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوَّض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثمانى فى هذا العهد - وخاصة فى أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الداى - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه فى الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخَوْل وهو جابى الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباش كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف . وبجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكرى ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضى الحنفى ، وكان فى أول الأمر يأتى من الآستانة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبى الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تيطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البايلاريك أو الباشا أو الأغا أو الداى ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثمانى فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين ينبغى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالمثل فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسما تتفاوت تبعيته للداى أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضريبته تسمى لازمة ، وقسما مواليا للدولة معفىً من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالمحاربين وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظين على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضى ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحاميات العسكرية ،

وفرضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مرَّ بنا ، وبالمثل كانوا يجلُّون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية .

وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها بطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسبانى ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لدينهم معا ، فكان ينبغى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المنتصر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آباؤهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداى الحاكم للبلاد باستثناء البايلاريك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لهب الثورة كان ينطفىء سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فُرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقُضى عليها حين جنّدت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد مُنيت – منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموالَ عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات بعيدين عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثمانى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تَجْبى الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد إزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القراصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بغنائم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندة ونابولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلافا من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانى الساحل الجزائرى بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون - حسب تعاليم الإسلام - معاملة كريمة ويؤدون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأقدامها حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء فى الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعانى من أزمة اقتصادية خانقة فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) بسبب تضاؤل موارد القرصنة إذا شركتان يهوديتان ليهودى يسمى نفتالى تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨٠م ومايزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة فقتلوه مع كثيرين من إخوانه فى الدين . وفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حطم الداى على خوجه النفوذ التركى باعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية فى الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة فى نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين فى الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين دايًا ، وفى هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشابيل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزى فرنسى لإقناع الداى بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصرَّ على إبقائها مع كل دولة لا تؤدِّى للجزائر إتاوة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركتان اليهوديتان المذكورتان آنفا مدينتين للداى والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكانتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشترتها ، وقررت فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أن تدفع للشركتين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداى أبلغها ماله على الشركتين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تعره التفاتا مما أثار غضبه ، وفى استقبال الداى لرجال السلك السياسى بأبريل سنة ١٢٤٣هـ/١٩٢٧م تحاور مع القنصل الفرنسى ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة فى يده مسَّها طرفه وطرده . وعدَّت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداى اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفى يونية من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت فى الإعداد لحملة عسكرية ، وفى مارس سنة ١٨٣٠هـ/١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا فى خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسى فيه فائدة للمسيحية ، وكأنه عدَّ حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفى آخر مايو سنة ١٨٣٠م أقلع وزير الحرب الفرنسى دى بورمون بأسطول حربى ضخم أرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداى بعدها إلى الاستسلام فى الخامس من

شهر يوليه وأُجْبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين فى الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسى الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أُيدى المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة فى شرقى الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سى سليمان وبته من عشيرة سيدى شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقْرانى وأخوه فى منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكانها فى صحف تاريخ الأدب الجزائرى فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

المجتمع الجزائرى

١

عناصر[١] السكان

البربر هم العنصر الأول الذى ملأ بقبائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر ، مثله فى ذلك مثل بقية أقاليم المغرب ، واختلف المؤرخون طويلا فى نسب البربر من الأمم القديمة ، فقيل إنهم أخلاط من اليمن فى آسيا ، وقيل إنهم من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها ، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا فى أرجائها ، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين ، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا ، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين ، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ، وكان مازيغ أخا لفلسطين ، وبارح أبناؤه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون . ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال فى أنساب البربر وما يماثلها بقوله : إنها « أحاديث خرافة » ، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ، ولا يُحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » . ويذكر ابن خلدون أن من النسابين البربر من يزعم فى بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة ، ثم يقول : الحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب » . وابن خلدون محق فى قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة ، ولا حاجة — أى حاجة — للبربر به ، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم ، عاشت

---

(١) انظر فى تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ المغرب الكبير لدبوز والجزء الأول من تاريخ المغرب لرشيد الناضورى وتاريخ المغرب فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

قبائله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور سحيقة ، وهم لا يمتون إلى الساميين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعَدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعلى وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكما أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تمتم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدادا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعنهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد — وربما قبله أو بعده بقليل — أخذ الشعب الفينيقى اللبنانى — وكان شعبا يحترف الملاحة — تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يبحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة (عنابة) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غربيها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظَنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنهم . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائرى والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائرى والتونسى فى سنة ٣٩: للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد بيزنطى سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفوهم الإغريقيون . ومعنى ذلك أنه كان يعيش فى الجزائر بالقرن السادس الميلادى سبع سلالات : سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان واليونان .

ويقتحم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تقتحمها جيوش عربية لإكمال الفتح وللقضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجرى ، وتستجيب الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام فى هذا القرن الذين سوّوا فيه بمنتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر فى جميع الحقوق والواجبات : فى الضرائب وفى دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثانى الهجرى ولاة طغاة بغاة أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التى شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتنقون مذهبى الإباضية والصفرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب فى الخراج وغير الخراج وحتى فى الخلافة فلا يصح أن تقتصر على قريش وحدها ، وهبّت ثورات متعاقبة منذ سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩م يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . وإنما نذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ، ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن كل هذه العناصر استقرت سلالات فى الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل فى المدن الساحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا فى الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجرى تحدث هجرة قبيلتى بنى هلال وسليم إلى الإقليمين التونسى والجزائرى انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة العبيدية الفاطمية وخلع طاعة الخليفة وانضوى تحت لواء الخليفة العباسى ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم فى أيدى القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أنزلتهم فى القفار بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك دياره ، فانقضّوا عليها واكتسحتها سيولهم اكتساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره إلى الانسحاب من القيروان إلى المهدية ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أثبج ورياح وعامر ومعقل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دياب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب فى الجزائر ، غير أنها أفادتها فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت فى التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادىء العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلتق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائرى ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربرى صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من الجزائريين عربا فى اللغة والزىّ وعادات المآتم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩٢م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم - إن لم يكن جمهورهم - من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها. وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتها فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتها فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ/١٦٠٩م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين - كإخوانهم السالفين - فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حملوا من الأندلس إلى الجزائر من مدنيتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان وبطشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحاميات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر - كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى - بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوَّجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرَّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملئون قلوب البحارة الترك حماسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانًا وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولغة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أمم كثيرة : فينيقيون وروماں ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها . وكان كل من ينزلها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن ينفصل عن موطنه ويزايل صبغته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهويَّة الراسخة .

٢

المعيشة[(١)]

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر ومما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يموج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحى الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرَّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زبرجدى بالقرب من مصب نهر سيبوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

(١) راجع فى المعيشة كتاب أبى عبيد البكرى : المسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان (وصفة المغرب وأرض السودان ومصر - مقتبس من كتاب نزهة المشتاق) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد بتحقيق إسماعيل العربى ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتنسى تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

يسمونها هيبون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفّف ويصدّر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضى ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيجل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء فى الساحل الجزائرى ، ويقول الإدريسى : الحنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهى ثغر رومانى جدَّد بناءه بنو مزغنّة ، ثم زيرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضى المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقى نهر نُصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولاسيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربيها مدينة شرشال وهى ميناء فينيقى رومانى ويقول الإدريسى : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت فى أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفاس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقوط غرناطة بأيدى النصارى فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م فقصدها كثير من الغرناطيين (الأندلسيين المسلمين) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربيها مدينة تنيس ، وهى ميناء فينيقى قديم ، ويقول الإدريسى : بها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرِّبت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الغرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربيها مدينة وهران ويقول الإدريسى : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها فى خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثمن اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزلها كثيرون من الغرناطيين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالى إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قالمة جنوبى بونة أو عنابة وهى مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى إنها اشتهرت بتربية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود فى الجزائر ، وبه صفات لا توجد فى غيره ، ويذكر أنه يوجد بقربها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهى تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية » . ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقانا مدينة قسنطينة وهى مدينة فينيقية رومية ، جدد بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهى – كما يقول الأستاذ المدنى – أم المدن بالناحية الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضى الزراعية الواقعة حول المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما بذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهى مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان إن منطقتها ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربيها جنوبا مدينة المسيلة (المحمدية) وهى مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ، كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيل ، وبنهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ، ويقول الإدريسى إنه لم ير فى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طبنة عاصمة الزاب الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهير يسقى بساتينها وزروعها وحقول الحنطة والكتان ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طبنة والمسيلة مدينة سطيف وهى مدينة رومانية وتتوسط منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إباضيون انحازوا إليها بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسّة ، وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وينوّه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبه . وإلى الجنوب الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا وكان بها قديما أسقفية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية ، وهى على سفح جبل يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله : « فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشمًّا » وينوه الإدريسى بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيل ، ويقول إنها وافرة العسل والسمن . وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهى مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين زاخرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسى عنها : حسنة البقعة كريمة المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها » . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخمائل النضرة وسهول مكتظة بالزروع والبساتين الخلابة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أرْحِية وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد فى خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكبر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعنابا من كل الألوان وذات نكهة رائعة ، وكرزا من كل نوع تبلغ وفرته حدا لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجفَّف ليؤكل فى الشتاء ، ودرَّاقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهرها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبى تاهرت لقيتنا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى وافرة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا إباضيون وكان آباؤهم حين قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة (ورجلان) فى الجنوب الشرقى من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم فى تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقى بلاد ميزاب وادى سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضى ميزاب إلى أراضى الجريد فى تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعى أن تغطى الهضاب الصحراوية الكثيرة فى جنوبى الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، ويتنقل البدو فيها لرعى أغنامهم وإبلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل ظعنهم وهم المجاورون لتخوم جبال أطلس والجبل التلى ، وبدو أو رعاة رحَّل وهم المتنقلون فى الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة (عنابة) تشتهر بمصانعه ، ومنها الرصاص والزنك فى جبال الونشريس ونواحى سطيف ، وكان ببجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغا الجودة يجلبان إليها من أقاليمها كما يقول الإدريسى ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربى بجاية بأن أكثر سكانه — كما يقول الحسن الوزان — من الصباغين لكثرة ما فيها من الينابيع والجداول ومثلها فى ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين — أو الكثرة — من سكانها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يحيون حياة هادئة ممتعة وينعمون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثنيات ويلبسون أحذية تصعد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسى : « منها تُحْمَل ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر فى أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية ، واشتهرت بونة (عنابة) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحاكة . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون فى هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : فى مدينة ميلة عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون فى نسج الأقمشة من الصوف التى تصنع منها أغطية الأسرَّة . ويطيل الحسن الوزان فى تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحتفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنما وضعت عليها بالأمس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحاكة ، وقلما يذكرون مايقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحاكة ومن الخراطين الذين يصنعون أوانى جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أوانى جميلة من الخزف الملون والجص المجزَّع ، ولابد أن تفننوا طويلا فى صناعة الحلى إرضاء للمرأة ، وبالمثل فى صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون منتشرة فى بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولابد أن صناعة الورق من الكتان كانت منتشرة وخاصة فى المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبما انبثَّ فى الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد فى الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدى المهدى سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيرى الصنهاجى والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدى المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقى من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبى شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى منها ، وبنى حماد بن زيرى قلعة ضخمة شمالى المسيلة عاصمة لدولته وجدَّد الناصر الحمادى مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة فى عاصمته على نحو ما نقرأ فى دولة بنى زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن أبى تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ) فقد كان مولعا بتشييد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبلِّطين للخزف وزوَّاقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور وأبا فهر وغيرها والصهريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بنوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء (الموزايكو) فى الحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهَّزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التنسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جانبها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجص المجزَّع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته » . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتقاء صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتقاء فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبَّ الحسن الوزان كما خلبه جمال البيوت وعمارتها وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيَّأ هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلوات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقفال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتِّبر والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كتبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانى والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التى يجلبها الجنويون (تجار جنوة) الذين يترددون على مينائهم » . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غربيها أنه يوجد به الكثير من شجر الجوز والتين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجاريا كبرى ، وفيها يقول الإدريسى : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية فى عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسى عن ميناء تينس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحطٌ ، وبه الحنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق فى المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطالونيين (الإسبان) والجنويين (الطليان) ولا زال فيها — لعصره فى القرن العاشر الهجرى — بيت يُدْعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة فى الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحرير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويباع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والعبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين فى العام فى قافلة تجارية ، ونظرًا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس (إذ كانت جزءا من مملكتها) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن مَتْجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب منتجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنويين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب فى الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانى الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة ما بساحلها من المرجان ، وهو شجر فى البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمرَّ وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق فى صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطىء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنويين أو غيرهم فى احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم فى احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ما سوّل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

الثراء(١) – الرفه – الموسيقى

(أ) الثراء

طبيعى أن أهلّت التجارة الواسعة فى موانى الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكلٌّ ثراؤه حسب قدرته فى التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التى كان يتجر أهلها مع الجنويين فى الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد على الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهى تربح من تجارتها مع الجنويين (تجارجنوة) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعى فى الجبال المجاورة لها البضائع التى جلبها الجنويون وتجنى من ذلك كسبا ضخما . ومثلها فى هذا الاتجار والغنى بقية الموانى الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارات كثيرة كأن يقول البكرى عن بونة (عنابة) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددًا كبيرًا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشى كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومرَّ بنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخمًا وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يقلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم فى العهد العثمانى اتساعًا كبيرًا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثراء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدًا بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوِّه – كما مر بنا – بالصناع وثيابهم اللائقة ، ويقول أفضل الناس كساء فى تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقى التجارى بين تجار مدينتى بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة وَرْقلة (ورجلان) الداخلة فى الصحراء

(١) انظر فى الثراء المصادر السالفة فى المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع فى الرفه ويراجع معها كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد فى وصف المكانة أو الساعة ٤٠/٢ ونقلها عنه التنسى فى تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسى المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض . وراجع فى الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية – على مر العصور – تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قراصنة الجزائر من يتخذ بونة (عنابة) فى عهدهم مركزًا ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : «كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكانوا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء» وكثير منهم كانوا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانى الشمالية حين استقر بها الغرناطيون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوهم من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين (بربروس) وعروج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانى التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر ووهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسبانى . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم ينبغى أن نعرف أنه كان يُجْلَبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقراصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيبات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

(ب) الرَّفه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرَّفه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبُلَهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نِقاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلا فسيحًا جدا ومجهزا بكل ما تمسُّ الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهنّ أبيض ، وشعورهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، وبيوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أنيقة جدا وبهيجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرَّيحان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تُسْقَى منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكعيبة بديعة تعطى فى الصيف ظلاًّ ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيا حينا طويلا من الدهر ويأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيافين من حفاوة وترحاب » . ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عناب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانى الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ما تنتجه سهولها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكتظة بالأزهار العطرة وتكعيبته التى تتيح لساكنيه فى الصيف ظلا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوسًا من فراديس الجنان امتلأ برفاهية لا حدَّ لها ولا نهاية ، وإنه لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطئتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن – أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضًا الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانيها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البنيان » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستانات والحمامات والفنادق . ويفيض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، ومما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية » . ومرَّ بنا ما ذكره من أن سكانها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودرَّاقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينوه بملابس أهلها من صناع وغير صناع ومن أساتذة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورئيس التشريعات ، وكأننا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل أبلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن على بن أحمد الملقب بابن الفحام من صنع منكانة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها فى خزانه كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيكة - أو شجرة ملتفة - تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما ثعبان نافذ من كوة بجذر الأيكة يحاول الصعود ينتظر غفلته ، وبصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية - إذ كانت توضع فى الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م -٧٩١هـ/١٣٨٩م) - ويصاقب (يجاور) طرفى هذه الأبواب بابان مغلقان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكتمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ويسامت (يوازى) أول كل ساعة بابها المُرْتج (المغلق) فينقضُّ من البابين الكبيرين عُقابان بظفرى كل واحد منهما صنجة من الصُّفْر يلقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرنّ وينقضُّ الثعبان على أحد الفرخين فيَصفِر له أبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة (الحالية) وتبرز منه دمية على هيئة جارية بخصرها حزام كأظرف ما أنت راء ، بيمناها صحيفة فيها رقم ساعتها (العاشرة مثلا) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكأنها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سيأخذه مرافقه السويسرى قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفى الجزء العلوى منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفى الحال يصيح ديك على اليسار ويحرك أحد جناحيه ، ويواجهه تمثال أسد مايزال يحرك رأسه وتمثال عمدة يحرك عصاه وتدور مجموعة من الدببة ، وفى الساعة الثانية عشرة تماما تدق الساعة ويصيح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التى يفتخر السويسريون باختراع أحد مواطنيهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبدع من ساعة ابن الفحام التى اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون فى تلمسان من رفه من جهة ثانية .

(جـ) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء فى الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن سكان ميناء دلس الواقعة غربى مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مرحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آلتى العود والقانون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يغنونها دائما أو فى بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على ألحان بسيطة ، حتى إذا كانت هجرة الغرناطيين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة فى أيدى فردناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التى استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُقُمٍ مضبوطة (أى نُوَت جمع نوتة) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثمانى عن طريق الطاقم الموسيقى العسكرى الذى كان يلازم الوالى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تتسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتألفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر الهجرى الموسيقى الجزائرية بطوابعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون في ديوان موسيقاهم مصطلح البشرف وهى كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أو يغنى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوبة ، ولكل نوبة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناى والعود والرباب والقانون والكمنجة والطبل والدربكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضر فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنى بها وإنشاءها من آبائهم فى الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا يتنقلون فيها، وأخذها عنهم جيرانهم من البربر المتبدين مثلهم، وكانوا ينشدونها مع طبل وزمر أحيانًا فى أسمارهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

٤

الدين – المالكية والحنفية – الإباضية – المعتزلة

(أ) الدين[١]

كان البربر فى القطر الجزائرى – مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية – وثنيين

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة الناصر بن علناس الحمادى بالبابا جريجوار السابع كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العربى وفى نشاط القرصنة وصف إفريقيا لدابرDapper وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام وتحولهم إلى شعب عربى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان المغرب لابن عذارى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقيمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدسون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلدانى بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم ببيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودى بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون فى جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التى اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفى ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم فى المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف فى قسنطينة والجزائر وغيرهما من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، ومازالت المدن الجزائرية تفسح لهم فى المعيشة بها ، حتى إذا كانوا فى أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائرى فخففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك فى الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر فى الجزائر منذ القرن الثانى للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية دينًا رسميا للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس فى المدن الساحلية وفى الداخل فقد كان لهم أسقفية فى بونة (عنابة) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت فى قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك فى باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل فى الجنوب إذ توجد بعض كلمات فى لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحى مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا – قبل الإسلام – لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصورهم لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهرا وبطشا شديدا ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية جاهدين فى أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون ممن

اعتنقوها يعتنقون الدين الحنيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية واسترقاق وظلم مع محوه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سواء فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى القطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحيتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حريتهم الدينية . وظل ذلك لا فى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلعة يرسل - كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى - خطابا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطابا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على أبرشية بونة (عنابة) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه افتدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشراف روما لهذا العمل النبيل محييا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين - كما يقول - فى الاعتقاد بإله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدنها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم - مثل اليهود - مقابر خاصة . ومرَّ بنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدَّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط (إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكريتيين وصقليين ويونان) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دابر Dapper فى وصف إفريقية أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويكونون أسَرًا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الحنيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد أبى المهاجر دينار (٥٥ هـ/٦٧٤م - ٦٢ هـ/٦٨١ م) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الحنيف فيها وكانت قد فتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتم ذلك كله ، متخذا له جيشًا جرارًا من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميلة إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فنازلهم واحتل البلدة واتخذها مركزًا لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة فى الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعدادًا واسعًا للقاء أبى المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه – كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى –الدوائر ، ووقع أسيرًا فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل – وتدخل معه قبيلته أوربة – فى الدين الحنيف . وخلف أبا المهاجر فى ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/٦٨٣م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعا ، وأعدَّ جيشًا ضخمًا أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسى . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أدناها إلى أقصاها بلادا إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربى معاملة أغضبته وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائدا بالجيش فى المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طبنة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لمثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة فى موقعة ضارية خرَّ صريعا فيها وتفرَّق من معه فى البلاد والجبال . وعاد زهير فتولَّى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتتح قرطاجة التى كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقى منهم فُرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تتزعم البربر فى جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقيها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأتاه المدد سنة ٨١ هـ/٧٠٠م فنازلها وسحق جيشها سحقًا ذريعًا وأمَّن من بقى منه وأمَّن سكان أوراس فى الجزائر جميعا وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة فى جيشه عدادها اثنا عشر ألفا . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربية إسلامية تعتنق الدين الحنيف وتجاهد فى سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حسانا على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر فى الجيش وحكم المدن وفى جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوَّج ذلك بالبعثة التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه فى البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر – مثل بقية البلاد المغربية – عربية إسلامية ، وحقا ولى على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى ولاة أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءا شديدًا فلم يسوُّوا بينهم وبين العرب فى الحقوق وظلموهم فى الخراج والضرائب ظلمًا شديدًا ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب فى كل الحقوق حتى فى ولاية الأمة وخلافتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشيا بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبدًا جشيا ، وسارع إليهم دعاة مذهبي الإباضية والصفرية ، وكان المذهب الأول معتدلا وقريبا من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعاته جبل نفوسة فى طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة فى تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخصها فيما يلى بحديث مستقل ، أما فرقة الصفرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستبيح دماء المسلمين ، وتأسست فى سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضى الجزائر فى ذهابها لحرب ولاة المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وبقاع محدودة فى الجزائر هى التى شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور فى الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

(ب) المالكية[1] والحنفية

ظل شرقى الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت – كما مرَّ فى القسم الخاص بالإقليم التونسى – إلى الاعتماد فى الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفى وخاصة فى عهد الأغالبة الذين تابعوا بغداد فى اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، إذ خيمَّت – حينئذ – العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائرى والتونسى ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السنى المالكى والحنفى حتى إذا فارقوا المهدية إلى القاهرة فى أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكى ، وتولى المعز بن باديس شئون القيروان وشرقى الجزائر سنة ٤٠٦ واشتد فى عهده تذمر أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيديين والدعاء لهم فى خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجًا على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذارى إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، وانصرف ، فصلَّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة فى القيروان زمنا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦م وفى نفس هذه السنة قتلت العامة من أنصار العبيديين خلقا كثيرا رجالا ونساء ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تثور بهم العامة فى القيروان وأيضا فى المهدية عاصمة العبيديين ومدينتهم المنصورية حتى إذا كانت

---

(١) انظر فى المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكى والديباج المذهب لابن فرحون وفى المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن المحاضرة للسيوطى وراجع فى قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحمل أهل المغرب على مذهب مالك البيان المغرب لابن عذارى والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر فى تعليله لاتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدمته فى الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفى فى العهد العثمانى بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثقافى فى العهد العثمانى لأبى القاسم سعد الله .

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفى ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثمانى حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضى المالكى قاضيا حنفيا ، وكان يأتى فى أول العهد من إستانبول . وكان حكم القاضى المالكى لا يصبح نافذا إلا إذا وقّع غليه القاضى الحنفى ، وتبعت هذا القضاء الحنفى مدارس تعنى بالفقه الحنفى ، وأخذت تنشأ فئة كبيرة من فقهائه ومدرسيه ، وبعد أن كان القاضى الحنفى يأتى فى صدز العهد العثمانى من إستانبول أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت المذهب فى الجزائر .

(جـ) الإباضية[1] والصفرية

الإباضية - قديما - من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذى ارتضاه على بن أبى طالب فى الحرب الدائرة بينه وبين معاوية فى صِفّين ، وقالوا إن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لا يصح أن تقصر على قريش ، إذ ليست حقا لها ، بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبدًا جبشيا ، وحاربهم على بن أبى طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفرية والأزارقة الذين عدُّوا دار المسلمين دار حرب ينبغى حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفرية كثيرون فى سجلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وخاضوا معهم حرباطاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموى والعباسى ومن بعدهما الحاكم العبيدى لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتنق العقيدة الصفرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة فى مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيدالله الشيعى داعية المهدى العبيدى انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا فى غرداية وقرى ميزاب ، ولايزالون إلى اليوم فى كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو - من قديم - غلو فرقة الصفرية ، فهى لا تعدّ دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دمائهم مثل الصفرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهى لا تعد - مثل الصفرية والأزارقة - مرتكب الكبيرة كافر ملةٍ يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغى قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

(١) انظر فى الإباضية والصفرية كتاب الملل والنحل للشهرستانى وراجع فى الإباضية السير للشماخى والأزهار الرياضية لسليمان - البارونى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثانى من تايخ المغرب الكبير لدبوز .

سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء فى الحواضر والبوادى ، ولم يتمكن المعز من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نبذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانيةً وخلع طاعة خلفائها فى القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل فى السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى السنى الذى تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها لا فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر فحسب ، بل فى جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا فى طرابلس وبرقة وأخذ يدرس فى كل بلد مغربى وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون – فى المقدمة – إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كالمذهب الحنفى والمذهب الشافعى لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفى رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سنرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال فى الجزائر – ومثلها المغرب الأقصى – ومعروف أن البصرة هى التى وضعته دون الكوفة لأن عقلها – كما قلت فى كتاب المدارس النحوية – كان أدق وأعمق من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليونانى ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلّل إيثارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويزورون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته فى المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثانى للهجرة وحملوا عنه موطّأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصريين النابهين يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرّع على المذهب فروعا فى مدوَّنة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها فى طلابه ، وأصبحت فى البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمًّا للمذهب المالكى مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتمسون المذهب المالكى عند أئمته المصريين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ/٨٠٦م وخلفه على إمامة المذهب المالكى بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩م وإمام المالكية بعده فى الفسطاط أصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود فى المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون فى ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية فى الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ المذهب الحنفى وفقهاؤه ينشطون فى العهد العثمانى إذ كانت الدولة العثمانية

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الحنيف وتعاليمه إنماهم فرقة إسلامية كانت – ولاتزال – ترى أن تكون الخلافة – أو إمامة المسلمين –- جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم – إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم – مثل المعتزلة – ينفون تشبيه اللهبالمخلوقين نفيا مطلقا ، والآيات القرآنية التى قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوّل كما أوّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كمالا مطلقًا ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خُلد فى النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوَّض إلى مشيئة ربه إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفرما دون ذلك لمن يشاء﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمنًا إلا إذا أدَّى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة فى قريش ، بينما يرى الإباضية –كما أسلفنا– أنها حق للمسلمين جميعا يتولاها أصلحهم لها. وكلها خلافات يمكن عدّها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

(د) المعتزلة[١]

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق – فى أواخر العصر الأموى – فى عملين كبيرين : وعظه المؤثر فى الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه فى الاعتزال ومبادئه التى كان يدعولها ، وفى مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمنًا أو كافرًا ، وكانت المرجئة تعده مؤمنًا وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا وكان أهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا ، وعدَّه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنه فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ فى الاعتزال أربعة مبادىء أخرى هى وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومرَّ بنا أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالى ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث انفاذ الوعد بثواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العاصين الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به فى المجالين شباب موطنه البصرة إعجابًا شديدًا ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نحلته الاعتزالية ، فى أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصارى فى مدحته له التى أنشدها الجاحظ فى أوائل الجزء الأول من بيانه قائلا :

---

(١) انظر فى مبادىء المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى وكتابنا عن العصر العباسى الأول ، وراجع فى قصيدة صفوان الجزء الأول من البيان والتبيين ، وانظر فى مجادلاتهم للإمام الإباضى عبد الوهاب وعلماء الإباضية وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير لدبوز .

لـه خلفَ شَعْب الصِّين في كلِّ ثُغْرَةٍ | إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجـــالٌ دعـــاةٌ لا يفـلُّ عزيمَهم | تهكُّمُ جبَّـــارٍ ولا كيـــدُ مـــاكـــر
وأوتـــادُ أرضِ الله في كلِّ بلـــــدةٍ | ومو ضع فُتْياها وعلــمِ التشــاجُرِ

ويصفهم صفوان بالقدرة على التشاجر والجدال وقرع الحجة بالحجة البيِّنة ، ويصفهم في أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعاته وحاملو مبادئة الاعتزالية إلى أطراف الأرض في أقصى الشرق حتى الصين وفي أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نحلته الاعتزالية جماعات في الجزائر شمالا بين ميناءى مستغانم و وهران وجنوبا في وادى ميزاب بمدينة العطفا ، ولاتزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محتدمة في تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شماليها وكانوا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات في عهد إمام الإباضية عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١هـ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة في طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدُى ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت في الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة في التاريخ العربي . ويبدو أن الدعوة الشيعية التي قضت على الدولة الإباضية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لا في الجزائر وحدها بل أيضا في المغرب الأقصى .

٥

الزهد[١] والتصوف

أخذت تشيع في الجزائر نزعة مبكرة للزهد في متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله في الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى في نفوس الجزائريين الوعَّاظ في أيام الجمع بالمساجد وفي غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينفِّرون الناس من ملذات الدنيا مذكِّرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتقاة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التي تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هي الوجهة المفلحة

---

(١) تفيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين في كتاب عنوان الدراية للغبريني والديباج المذهب لابن فرحون بأخبار زهد الزهاد . وفي كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات التادلي وكتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم تراجم عن أعلام الصوفية ، وانظر في صوفية الأندلس المذكورين كتابنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

والصفقة الرابحة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد فى البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن ينعت العديد من الفقهاء والمحدِّثين بالزهد فى خيرات الحياة وإيثار التقشف والرضا بالقليل .

وتظل موجة الزهد حادة فى الجزائر ، وتتدافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) وبنائه على الساحل التونسى لرباط المنستير الذى آوى إليه كثرة من العُبَّاد لحراسة الساحل التونسى ، وأخذت تبنى رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أمم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزلها كثير من النسَّاك والفقهاء للإسهام فى هذه الحماية قيامًا بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قرونًا إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النساك لهم فى المدن مراكز يتابعون فيها تنسكهم وما قد يُلْقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدِّثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويتبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصَّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لا فى المدن فحسب ، بل أيضا فى سفوح الجبال وفى الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت فى المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ /١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ/١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية فى الجزائر أكثر عددًا . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما فى المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسة المتوفى سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشوذى الإشبيلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تتلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشوذى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتجولا فى بعض مدن الجزائر ، ونزلها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شعيب وسنترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمته طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

أبي الحسن على بن عبدالله الحسنى الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٩م ولم يكد يدعو إليها فى شاذلة بالقرب من تونس وفى تونس نفسها حتى تكاثر أتباعه فى البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبى العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لا فى مصر وحدها ، بل أيضا فى الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم فى الجزائر منذ القرن الثامن الهجرى ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفى مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه فى كتابه « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف فى القرن التاسع الهجرى ويزدادون زيادة مفرطة فى العهد العثمانى ، لعنايته بالتصوف وتقريبه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويزورون أضرحة المتوفَّين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التى اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومى ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هى والطرق التى اشتقت منها مثل المليانية والزيانية والرحمانية والدرقاوية أهم الطرق التى استوعبت جماهير الجزائر فى المدن والقرى والهضاب والصحارى . ولابد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة اندس بينها كثيرون فى الحقب الأخيرة من هذا العصر يدَّعون لأنفسهم التقوى وهى منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، واندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو فى ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثانى فى المتشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث فى المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثانى والثالث مليئان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو ما يسمى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصيح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين فى السرعة التى انتشر بها الإسلام فى الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجرى ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطارًا إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا – وحدهم – فى البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالى ، وحاولوا نشر المسيحية فى تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقى ، وكان تأثيرهم فى المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعامة محافظين على دينهم الوثنى ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثانى هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح فى الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيتهم أن ينتظموا فى جيوش المجاهدين فى سبيل الله ابتغاء نشر دينه الحنيف فى أرجاء الأرض .

كان الجندى فى الجيش العربى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة جزائرية أو مغربية أو فى أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدْخل فى الدين الحنيف من يأنسون إليه من البربر ، فيحفِّظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية فى التخاطب . وأخذت الكتاتيب تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتحفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان (٧١-٨٦هـ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قادته قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمته ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلمام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جنّد حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجند العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدَّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فُتحت صلحا لا عَنْوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاتحين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويرهقونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم ما للفاتحين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسانا موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فوثّق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلّف معلمين يحفّظون الناس القرآن ويعلّمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاة من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولا نبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام وما تقوم عليه من الإيمان بوحدانية الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا ما تقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقيتهم على يديه » وعلى أيدى معاونيه من الفقهاء التسعة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحُبُلى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سوادة

الجذامى وجعثل بن عمير وموهد بن حى المعافرى وطلق بن حابان وسعيد بن مسعود التجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كتّابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعَدّون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاة المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدينَ الحنيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

الكتاتيب

أخذت تتأسس عقب الفتوح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتاتيب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وتعريفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتاتيب تُبْنىَ مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتاتيب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادىء الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إنما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارسة الحساب وغيره من مبادىء العلوم ، وكانت الكتاتيب منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تعد بالعشرات فى طبنة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادىء العربية والعلوم فى الكتاتيب تتجه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقه

ومايصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدِّم فى دروسه أوليات المواد والعلوم فى الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشىء وفقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقرءون – ويشرحون – بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقرءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرءون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يغرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم النقلية والعقلية . وكانت تلحق به وببعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفُرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعدّ لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنفَق على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يحبسون عليها من عقارات . ومن التوابع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصابيح المضيئة والميضات للوضوء والطهارة .

المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعا لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عُنى بعض حكامها بتشييد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبو حمو موسى الأول (٧٠١–٧١٨هـ) للفقيهين أبى زيد وأبى موسى ابنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨–٧٣١هـ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠–٧٩١هـ) المدرسة اليعقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافا جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا (لعلها المدارس السابقة) ومزدانة بالبلاط الملّون وسواه من الأعمال الفنية . وأخذت

المدارس تتكاثر فى العهد العثمانى بالجزائر لا فى العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا فى المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس فى مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة فى العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفى أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغرباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث وبمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجرى الزوايا فى أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدَّى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء (الزهاد) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغرباء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فينصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتحول كثير منها - وخاصة فى المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

المكتبات

فى كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ المكتبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذوو اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تُحبَّسُ لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر إبراهيم الثانى الأغلبى باتخاذه فى عاصمة رقادة بقرب القيروان بيتا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنما أراد بها أن ينافس الدولة الرستمية فى تاهرت التى عنيت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم (١٦٠-١٧١هـ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب (١٧١-٢١١هـ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتبا بها ، فاشتروا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول الباروني في الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب في الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيديين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ما عدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا في عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا في عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان في زاوية إبراهيم التازي بالقرن التاسع الهجري من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت — طوال القرون المختلفة في العصر — الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع في المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء في كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف في المشرق ولا في تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : في القراءات والتفسير أو الحديث النبوي أو الفقه المالكي أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسي . فالتيار العلمي في الأقطار العربية كان جارفا ، وكانت كتبه شرقا وغربا تصبُّ في مكتبات كل بلد عربي جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التي كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكون في قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب ينفقون في جمعها أموالا طائلة ، وكانوا منبثِّين لا في المدن فحسب بل أيضا في الواحات والصحاري ، ويذكر العياشي في القرن الحادي عشر الهجري برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمته مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

(جـ) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو في الجزائر منذ القرن الثاني الهجري ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها في شرقيِّ الجزائر في بونة (عنابة) وقسنطينية وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة في غربي الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد علي دبوز في الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قائلا إن الدولة الرستمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنها وقراها ، حتى

ليعدون بالمئات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطانها ، فشمل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلى بالقرب من المسيلة (المحمدية) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر فى القلعة من المساجد والفنادق فاستبحرت فى العمارة واتسعت فى التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت – من حينئذ – مركزا كبيرًا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادى منها سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات فى مجالسهم وبعثوا فى القلعة ثم فى بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمَّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادح المنصور بن الناصر بن علناس (٤٨١ – ٤٩٨) بالقصائد الطنانة فى مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز (٤٩٨ – ٥١٨هـ) بأن بلاده كانت سلاما وأمنا وأن العلماء – كما يقول ابن خلدون – كانوا يتناظرون فى مجالسه وقد بذل جهودا خصبة فى إنماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخمًا لا بعلمائها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المنتقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكانة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية للغُبْرينى إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغبرينى عن أبى على المسيلى المتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م من أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغبرينى على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة فى القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنساك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ/١٢٤٠م تنشأ فى تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثَّتْ فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغْمُراسن (٦٣٣ – ٦٨١هـ) إنه كان له فى أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله ، وممن استقدمهم إبراهيم بن يخلف

التنسى وأقطعه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبوبكربن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسى عن حفيده أبى حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله معتنيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمدبن عبدالله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالى للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التى سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيًّا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبوموسى عمران المشدالى الزواوى احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبوحمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) فى رعاية العلم والعلماء، وكان أديبا وشاعرًا بارعًا وله كتاب نظم السلوك فى سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بليلة المولد النبوى، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبى عبدالله محمد بن أحمد الإدريسى أن بَنَى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسى بأبى زيان محمدبن أبى حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه « كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه، فلم تَخْلُ حضرته من مناظرة ولا عمرت إلابمذاكرة ومحاضرة، وكتب بيده نسخًا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخارى ونسخًا من كتاب الشــفا بتعريف حقــوق المصطفى للقاضى عياض ، ووقفها جميعا بخزانته فى مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة فى حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة . وينوه التنسى بأبى مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: «فى أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون (يسرعون) من كل حَدَب (موضع) فينقلبون بُجُرَ (مملوئى) الحقائب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر العطايا). ونرى يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد يعدِّد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء ا لصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوّى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك فى عهد يحيى بن خلدون المتوفى فى أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشــك - تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى فى كتابه : « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تتراجع علميا وثقافيا فى العهد العثمانى ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبثوثين فى عاصمتى بنى حماد وبنى زيان وبونة وبسكره وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها فى العهد العثمانى نشاط علمى غزير .

ولم أتحدث – حتى الآن – عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحدين فى واقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة الإسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل يهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجىء إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط فى حجر الإسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجرى ، وسقطت جوهرتهم الكبرى قرطبة ، وتبعتها فى السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالى فى الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون فى السهول والوديان – وربما نزلوا فى سفوح الجبال كما كانوا ينزلون فى الأندلس – وكانوا يعنون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكتظ بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة (عنابة) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية بالقرن السابع الهجرى سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبًا ، وكانوا من العوامل الفعالة فى نهضتها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالى مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرًا من الغرناطيين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يومًا بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطَّنوها مثل إخوانهم فى المدن الجزائرية الأخرى ، وبنوا كثيرا من سفن الملاحة لمطاردة السفن الإسبانية فى البحر المتوسط والاستيلاء على ما فيها من غنائم انتقامًا من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى سنتى ١٠١٦ – ١٠١٧هـ/١٦٠٨ – ١٦٠٩م فينفى ملك إسبانيا كل من بقى فى إسبانيا من المسلمين ، وتتجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع فى الجزائر أثناء العهد العثمانى . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإنفاق على فقرائهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين فى مدينة الجزائر ، ولابد أن كانت لهم مدارس فى المدن الأخرى ، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإنفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتنبه العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين فى المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .

٢

علوم[1] الأوائل

اهتمت الجزائر – كما اهتمت البلدان العربية المختلفة – بمدارسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصبت عناية علمائها خاصة على ما سموه علوم التعاليم ، يقصدون بها علوم الرياضيات ومايتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك . ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر ، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أويقال إن فلانا بذَّ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعوت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا مايجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسًا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه : البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة وانتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيما نفع . وظل الجزائريون يعنون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها ، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية ، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه . وكتب عالم قسطنطينة المشهور ابن قنفذ المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحًا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية . ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عُدَّت – منذ زمنه – ألفيَّة لعلم الإسطرلاب كألفية ابن مالك فى النحو . وقد شرحت مرارًا وممن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تتدارس حتى نهاية هذا العصر . ومن الأعمال الفلكية بعده

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغبرينى وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الهيئة والعدد وبغية الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ووفيات ابن قنفذ والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض .

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخضرى التى الفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مرارًا وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتابًا فى علم الإسطرلاب سماه : « القلادة الجوهرية فى العمل بالصفيحة العجمية» جعله فى مقدمة وخمسة عشر بابا وخاتمة ، ولعبدالرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م منظومة الياسمينية فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقبانى التلمسانى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولمعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سمى أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمحيص فى شرح التلخيص » وسمىّ الثانى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب ». وممن شرح التلخيص معاصرهما على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعرا . ونزل البلاد المغربية القَلصَادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضيا كبيرًا وظل المغاربة يتداولون كتبه وخاصة كتابه : « كشف الجلباب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عُنى عبدالرحمن الأخضرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيهما منظومة سماها «الدرة البيضاء» طبعت مع شرحها بمصر .

ويبدو أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن عالما تلمسانيا رياضيا ومهندسًا كبيرا فى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أيكة تحمل طائرا معه فرخاه احتضنهما تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يختاله فيهما ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقضُّ منه عقابان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتتراءى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق. ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلا وأحقها عملا وأخفها حملا ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولمن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعنيت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، ويلقانا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليح ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب. ونلتقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبوجعفر القلعى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، ومن مؤلفاته حواشٍ على كتاب القانون فى الطب لابن سينا. ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغبرينى إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القانون، وكان يحضر دروسه نبهاء الطلبة ويثير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانه، وكان متوليًا لطب الولاة ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدواء، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعملى ، وكان مزاولا له يعالج المرضى . وننتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التلالسى أحد أطباء أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا. ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيبين :طبيبًا مسلمًا هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تدريس الطب ومزاولة المهنة، وطبيبًا يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بابن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازمًا لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثغرى وله معجم صغير فى الطب. ونلتقى فى العهد العثمانى بعبد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجوهر المكنون من بحر القانون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز.

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مُرْسية المتوفى

سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ويقول الغبريني إنه كان أعلم الناس بالطبيعيات والإلهيات ، وإنه كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعيات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فاتحته إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران المليانى المتوفى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالى ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضًا كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فنلتقى بالشريف الحسنى التلمسانى المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م والذى انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقلى ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقْرَأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقْرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقيه من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع الهجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوذاك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعيات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحل محل ذلك أنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يتبرك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصلحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطًا أو شطرًا من الزمن فى العهد العثمانى ازدادت موجة التصوف — كما مر بنا فى الفصل الماضى — حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعًا من فروع الفلسفة ظل مزدهرًا فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالى المار ذكره كتابًا سماه « المعقولات الأُوَل » . وألف الْخَونجى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتابًا فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريعا يدرسونه للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع الهجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمسانى المار آنفا شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء انتفعوا به وأكبّوا عليه قراءة ونسخا . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد العقباني معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل فى شرح الجمل للخونجى . ولمحمد بن يوسف السنوسى المحدث المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ثلاثة أعمال فى المنطق : مختصر له فيه شُرح مرارا ، وشرح على الجمل للخُونَجى ، وحاشية على شرح إيساغوجى فى المنطق للبقاعى . وللفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى المتوفى سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا فى المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخونجى ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطى المصرى المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء فى ذمه ، فكتب إليه قصيدة بديعة يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس فى الأزهر كما يدرس فى الجزائر وشُغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضرى القسنطينى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وسماها السلَّم وشرحها وهى فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها فى الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول فى مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضرى على منظومته كالتذييل لما أغفله فى شرحه ، مظهرًا لمقاصده ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم فى الجزائر مختصر السنوسى فى المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضرى وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

٣

علوم[1] اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ ألَّم بها أبو على القالى فى طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسى وقد حمل عنه كتابه الأمالى ومحاضراته فى اللغة ، ونجد مدينة طبنة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارستها ، وينبغ فيها زيادة الله بن على الطبنى نزيل قرطبة فى عهد المنصور بن أبى عامر وزير

(١) انظر فى علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباه الرواة للقفطى وبغية الوعاة للسيوطى وعنوان الدراية للغبريني وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض ، وتاريخ الجزائر الثقافى لأبى القاسم سعد الله ، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وراجع فى النهشلى الأنموذج لابن رشيق ص ١٧٠ وكتابه العمدة فى مواضع متعددة . ونشر الدكتور المنجى الكعبى كتابه الممتع .

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذه نديمه إذكان من أمتع الناس حديثا وأنصعهم ظرفا ، وأحذقهم بالملاطفة وآخذهم بالقلوب ، وكان عالما لغويا يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علما كثيرا ، وكان كثير الإغراب » توفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك — وكان محدثا — تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماما فى اللغة له رواية وسماع . وتنهض الدولة الحمادية بالقلعة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجتذبان كثيرا من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلا عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتابا ضخما فى ثمانية عشر مجلدا سماه الحاوى ضاهى به كتاب الغريبين فى القرآن والحديث للهروى . وللفقيه التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجمهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكتب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م يقرأ للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحريرى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمتنبى ، وكان شاعرا ونحويا كبيرا مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللّبلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب الممتع لابن عصفور . ومن لغويى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمتنبى والأشعار الستة برواية الشنتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزوميات والحماسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية .

ولعل فى عمل ابن يخلف اللغوى ببجاية ما يدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عُنى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوَّه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح القلصادى المتوفى سنة ٨٩١ . وتتكاثر الشروح اللغوية فى العهد العثمانى ومن أهمها شَرْح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحيى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدَّر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشٍ على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيبويه . ولعبيد الله النفزى الشاطبى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتقن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نحاة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشرى ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م أو متنه النحوى المقتضب الذى أخذه عن ابن بُرِّى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبرينى فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعانى والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نوادر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف ومحبا للتعليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتُقْرَأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبرينى من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلعى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيبويه والمفصل للزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نحاة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزيل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتاب سيبويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبريني ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى فكانا عنده من المبادىء دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ولمحمد بن عبد الرحمن الخزرجي قاضى بجاية المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللفقيه الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطينى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادىء علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يُقْرأ عليه - كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولمعاصره إبراهيم بن فائد القسنطينى المتوفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألَّف ابن آجُرُّوم الصنهاجي الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م متنه البديع فى النحو المسمَّى الآجُرُّومية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلسمان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثمانى يعنون بشرح متن الأجرومية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرومية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعى من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إنه « يرقص لها المبتدى لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنْعَتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطينى المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، وليحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجمهرة . وينظم ضياء الدين الخزرجى السبتى فى عصر الموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمَّنها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأً لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بسط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه : « المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثمانى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى .

وكانت الجزائر – فيما يبدو – تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لا فى القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة المتون البلاغية وشروحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنَّفه أو كتابه المفتاح وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه الخطيب القزوينى وصنع لعَرْض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياه فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعْنَوْنَ عناية واسعة بكتابيه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ أخذ يتجرد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسانيان ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسانى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهما بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ، فحضرا دروسه وحملا عنه مصنفيه البلاغيين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعاهما فى موطنهما ، وكأن الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ، ونرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولمعاصره إبراهيم بن فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المغيلى . ويضع عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثمانى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشُرح مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى المتوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه : « موضح السر المدفون فى الجوهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين حاشية على شرح السعد التفتازانى لمتن التلخيص .

وتُهدى مدينة المسيلة (المحمدية) فى الجزائر إلى القيروان ناقدًا مبكرًا فى أواخر عهد المنصور بن بلكين (٣٦٨ - ٣٨٦ هـ) هو عبد الكريم النهشلى ، وكان شاعرا يحسن الكتابة كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م . وله فى النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية فى البلاد المغربية هو كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكعبى اختيارا منه لأحد الأدباء السابقين يقع فى خمسمائة صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشلى بنى الكتاب على منتخبات شعرية ونثرية تتخلَّلها نظرات نقدية ، ووزَّع المنتخبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق فى تأليفه لكتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى فى هوامش التحقيق ببيان ما يلتقى فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من الممتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقتها ووقائعها وتضمين مآثرها ، إذ كان المنطق هو المؤدى عن عقولهم ، وألسنتهم خدم أفئدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » . ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا فى فضل الشعر ، ويتابعه ابن رشيق بفصل مماثل يردد فيه ما يقوله (انظر صفحتى ٢٤ و ٢٥) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن فى مواطن معدودة من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو فى العمدة (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذبهم به عن الأعراض ص ٢٢٠ وهو عند ابن رشيق فى ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى فى الهامش : « وتجد عند ابن رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز فى الجزء الثانى من العمدة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطَّه الهجاء ص٢٤٣ وهو عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل فى كل باب وفى كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية ونثرية بديعة تدل - دلالة واضحة -على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشلى من ذوق أدبى مرهف مع حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد فى الجزء الأول من العمدة فصلا للقدماء والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة فى أنه ينبغى أن لا يقدَّم فى الشعر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعوَّل فى ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ، ولا يلبث أن يقول : « ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم (النهشلى) فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويُستَحْسَنُ عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استُجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدِّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم . قال : والذى أختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحشيِّ المستكره ، ويرتفع عن المولد المنتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

فعبد الكريم يرى أن الجودة فى الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحداثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولَّدا سفسافا غثًّا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارعة . ونمضى مع ابن رشيق فى الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا فى الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتنّ به من المعانى والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرَّع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسَّب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما يَنْفُقُ فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتى إليه من جهة فهمه » .

وهى أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخيِّر الذى يهدى إلى السَّنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إيثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفانى، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعانى الطريفة، ومنه ماهو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذى ينتهك الأعراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذى يعود على صاحبه بالنفع فى كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لعبدالكريم قوله :

« يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرَّع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد والخمر والمخمور » . وفنون الشعر الأربعة التى ذكرها عبد الكريم نقلها عن ابن وهب فى كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمديح منه الرثاء إذ هو مديح لميت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذى نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضله ، ومن السهل إدخال الذم فى الهجاء أما العقاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشيء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال فى الحكمة كما يدخل فيها

التزهيد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل فى مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء فى الآخرة ، ويدخل فى اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالغزل أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن » .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفِقَر الثلاث السالفة التى نقلها ابن رشيق عن كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى جانبا من نظراته النقدية التى ضمنها كتابه ، ونظن ظنا أنه كان فى الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهملها – كما ذكرنا – صانع هذا الاختيار الذى حققه ونشره الدكتور منجى الكعبى . ولم يظهر بعد عبد الكريم فى الجزائر ناقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيق الناقد الفذ مواطنه الذى ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة وهاجر فى سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطننا لها بقية حياته بحيث عُدَّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تحدثنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى عنه وعن كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يُعَد بحق أروع عمل نقدى أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

٤

علوم[١] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعكف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها فى المشرق مقرئون كثيرون فى المغرب ولا بدأن

(١) راجع فى القراء غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى وعنوان الدراية فى علماء بجاية للغبرينى وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى وتاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعد الله . وانظر فى المفسرين عنوان الدراية وبغية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى فى الحالة العلمية فى الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع فى المحدثين طبقات أبى العرب والديباج المذهب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام فى أسرة بنى الطبنى وعنوان الدراية وبغية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدنى وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله . وانظر فى الفقهاء طبقات أبى العرب والخشنى والرياض للمالكى وما ذكر من مصادر الإباضية والديباج المذهب لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر فى المحدثين ، وعلم الفقه فى مقدمة ابن خلدون . وراجع فى المذاهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبناه عنهما فى العصرين العباسيين الأول والثانى وكذلك ما كتبناه فى تونس وانظر فى مبادىء الإباضية دبوز فى تاريخ المغرب الكبير ، وراجع فى الاعتزال ونشره فى المغرب والجزائر لعهد واصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر فى المناظرة بين إباضية تاهرت والمعتزلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ، وانظر فى تآليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافى ، وراجع فى كتابات الإباضيين فى علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكم بن إبراهيم نزيل بجاية تلميذ ابن خيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقى ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئا من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخا . ومن قراء القرن السادس ابن عفراء محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلعى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبرينى إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانتفعوا به . وكان يعاصره ببجاية المقرىء أحمد بن محمد المعافرى قرأ عليه عالَمٌ واستفاد منه خلق كثير ، وله مختصر كتاب التيسير للدانى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكنانى المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٧ م ولى إقامة الفريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ما ينيف على ثلاثين عاما ، وكان مع إملائه القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشرى ودواوين الأشعار الستة وأبى تمام والمتنبى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكنانى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقى ببجاية ، وكان يقرىء القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرىء قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرىء بجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدىء القراءة المكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصريه محمد بن شقرون الوهرانى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر (طرق الروايات) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أسانيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثمانى بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولابد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط فى التفسير مماثل لنشاطها فى القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجرى ، وفيه نلتقى بيوسف بن إبراهيم الورجلانى الإباضى المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدنى فى كتاب الجزائر أنه كان له فى التفسير كتاب كبير فى ٧٠ جزءًا . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم على بن أحمد الحرالى نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبرينى : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا » ومن مفسرى القرن السابع بتلمسان ابن أبى العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون فى كتابه بغية الرواد : له مشاركات فى فنون العلم وكان مؤلفا متقنا فسَّر الكتاب العزيز . ومن مفسرى القرن الثامن الهجرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد إمام المغرب قاطبة ، وفيه يقول ابن مريم : « فسَّر القرآن فى خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب ، وكان عالما بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسرى القرن التاسع سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاتحة أتى فيه بفوائد جليلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . ونلتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبى التلمسانى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ/١٤٧٠ م وله تفسير دوَّت شهرته فى عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطيه الأندلسى ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول فى مقدمته : « ضمنته – بحمد الله – المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود فى المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوَّلت ، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع فى الزلل » وقد سمى تفسيره : « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع فى التأليف إلى مائة تفسير يدل – بوضوح – على أن المشرق لم يؤلف تفسيرا مهما إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمى المشرقى إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث فى القراءات والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسى مختصر حاشية التفتازانى على تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبى محمد بن عبد الكريم المغيلى المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر المنير فى علوم التفسير » . ونلتقى فى العهد العثمانى بيحيى الشاوى المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/١٦٨٥ م وله فى

التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمخشرى . وبأخرة من هذا العصر نلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثر بها المحدثون من أبنائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصحابى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح التابعيين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أناس كثيرون فى طرابلس والقيروان وقسطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى مناكير فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . وممن بكروا فى النزوح إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائى كتابه السُّنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسماع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طبنة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطبنى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطبنى نزيل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بمرسية فى الأندلس أبا على الصدفى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدَّث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبيلى نزيل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبيلى نزيل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا عالى الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإباضيين يوسف بن إبراهيم الورجلانى المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقْرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سنٍّ عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التى اعتمد عليها اليونينى فى إخراج صحيح البخارى وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبى الحسن الداودى عن ابن حموية عن محمد بن يوسف الفَرَبْرى عن الإمام محمد بن إسماعيل البخارى . وهو سند عال لصحيح البخارى ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخارى عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلى نزيل بجاية المتوفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكانت له فى الحديث رواية عالية . وكان يعاصرهما حسن بن على بن قنفذ محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضى الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الغبرينى صاحب كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية .

ومن محدثى القرن الثامن الهجرى محمد بن يحيى الباهلى البجائى المتوفى سنة ٧٤٤ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنفذ فى كتابه الوفيات : كان له طريق واضح فى الحديث وأُسْمَعنا حديث البخارى وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام فى الحديث ، وأيضا شرح على كتاب الشفاء للقاضى عياض . وفى سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيها حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين فى القرن التاسع الهجرى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علما عقليا ولا نقليا إلا ألف فيه ، فهو يؤلف فى المنطق كما مر بنا وفى النحو وفى الفقه وينظم فى علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى وسنن أبى داود وعمدة الأحكام فى الحديث سوى الأمهات فى الفقه المالكى والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخارى وشرح على صحيح مسلم . ونلتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسى ، وله مختصر لشرح الأُبى على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخارى ومختصر لشرح الزركشى عليه . ونلتقى فى العهد العثمانى بأسماء علماء كثيرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخارى ، وكانت تقام المهرجانات لختمه فى رمضان . وكان ابن أبى جمرة قد عُنى بوضع مختصر لصحيح البخارى فشرحه عبد القادر المجاجى . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثمينى الإباضى مختصرا لحاشية مسند الربيع بن حبيب فى ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخارى .

ومنذ الفتح الإسلامى يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام فى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومرَّ بنا فى هذا

الفصل كيف أن موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك فى كل بلد مغربى فى الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويفقهونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قائمين بذلك طوال القرن الأول الهجرى ، وكان عمر بن عبد العزيز فى آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر فى القيروان – عاصمة المغرب جميعه حينذاك – الدراسات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمونها ليحسنوا معرفة الفقه ويبثوها فى بلدانهم ، وكان منهم – من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهائه الكبار فى الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوى . ونلتقى مع أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة بفقيه جزائرى هو إبراهيم الطبنى الذى كان يشارك أسد بن الفرات فى القضاء .

وكانت الدولة الرستمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثانى وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ دبوز فى تاريخ المغرب الكبير كتابًا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاة مالكية فى أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون فى بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضى القيروان : عاصمة الإقليم التونسى وشرقى الجزائر حينذاك منهم حمدون قاضى طبنة وعلى بن منصور قاضى ميلة ويحيى بن خالد السهمى قاضى الزاب ، وكانوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكى الذى درسوه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى عبد الملك بن سيانح أستاذ فضل بن سلمة البجائى المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعْرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرْحَلُ إليه للسَّماع منه ، أقرأ – ودرَّس – بالمسجد الجامع فى بجاية ، وله مختصر لمدوَّنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكى المصرى ابن المواز . ونلتقى فى القرن الخامس بمروان بن على نزيل بونة (عنابة) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوَّه به ابن فرحون .

وفى نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادى ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذى أسس هيئة العزابة فى بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ ، وهى هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضى فى كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتى

وناظر الأوقاف ومؤدِّب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبين أفعال العباد .

ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى قنون المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م وله المقتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للغزالى . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الوهرانى الظاهرى المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالى ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الورجلانى المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين - المحدثين ، وله كتاب العدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمسانى المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المنتقى للباجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بابن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدوَّنة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . ومنهم إبراهيم بن أبى بكر التلمسانى المتوفى بأخرة من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وكان فقيها نابها ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقِّبت بلقب « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحَها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والحباك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م وأبو موسى بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م نزلا تلمسان أيام أبى حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالى المتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبى زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدوَّنة المنسوبة إليه خطأ وهى من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان فى عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لمالك فى كثير من المسائل . ونلتقى فى القرن الثامن بالإمام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسنى التلمسانى المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م ومرَّ ذكره فى علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهى المالكى فى عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول فى بناء الفروع على الأصول طبَّق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملأ المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسى المتوفى سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء فى بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة فى الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضى قسنطينة المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى وشرح ثانٍ على كتاب التفريع لابن الجلاب المالكى وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة الرائض فى مبادىء الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره فى علوم الأوائل وبين العروضيين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر خليل بن إسحق الفقيه المصرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب الموجز وشروحه تتكاثر فى الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصرى المالكى المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمسانى المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ، ومن تآليفه شرح التلمسانية فى الفرائض .

ونلتقى بعبد الرحمن الثعالبى كبير المفسرين فى العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن الحاجب الفرعى فى سفرين ، وجواهر المدوَّنة وعيون مسائلها فى سفرين ، وجامع الأمهات فى أحكام العبادات . ويلقانا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازونى المتوفى سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة فى نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم فى سفرين . ونلتقى فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل لواء المذهب المالكى فى أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعى ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعى والقواعد فى الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب فى ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب الفقه فى العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فى الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولاتهم قضاة

أحنافا ، وعادة كانوا يعودون مع الولاة بعد حكمهم نحو سنتين ، ويأتى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجوامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاة يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستانبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائما كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أُخِذَ بفتواه وقد يعزلان معا ويولَّى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلا يمكثون سنتين فى الجزائر ويعودون إلى استانبول فلم تهيَّأ لهم الفرصة حينئذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إنما تهيأ ذلك حين أصبح القضاة يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنابى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثانى عشر ولكنه عُنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالعهد العثمانى متصلا فيه وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم المتون ، ولمصطفى الرماصى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيرًا لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون (الحفيد) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسانى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراشى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمه سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب النيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد البسام فى رياض الأحكام ، وله مختصر المنهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرَّ بنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى وما كان يتبعه من شرقى الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديمًا فى البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحسنى فى حربه لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية فى المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأنحائها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم فى كورتى طنجة والبيضاء أتباع كثيرون ، فوضعوا أيديهم فى أيدى إدريس ، وأعانوه فى تأسيس دولته كما أعان - من قبل - معتزلة البصرة أخاه إبراهيم فى ثورته على المنصور ،ونراهم يتكاثرون فى شمال الجزائر الغربى لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية (١٧١ - ٢١١هـ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدَّر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك فى الجزائر قائمة . وطبيعى أنهم كانوا يعتنقون مبادىء المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهى التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسمًا ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحتمية وعد الله - جَلَّ شأنه - بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأناب ، ونفذوا فى مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملَّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذى اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعانى الداعية الإسماعيلى العبيدى كما قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضى أيضا على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تعتنقها فى الجزائر والمغرب ، إنما يلقانا من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتنقونها .

وكان أبو الحسن القابسى المتوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبى الحسن الأشعرى الكلامى إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع فى الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر فى أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله قال إنها لله خلقا وتقديرا وللإنسان كسبًا وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أزلى غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فألفاظه دلالات على كلام الله الأزلى والدلالات مخلوقة محدثة والمدلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراء مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعرى الماتريدى السمرقندى المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعرى فى التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه فى العالم العربى إنما الذى شاع مذهب الأشعرى حتى فى بيئة الماتريدى فى خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذى رأس المدرسة النظامية فى نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد فى أصول الدين فى تراجم عنوان الدراية للغبرينى فى القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا فى علم الكلام – أو كما يسمى أحيانًا علم التوحيد – وخاصة منذ القرن التاسع الهجرى ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحدا لم تنل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا فى علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر فى زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائرى قصيدته فى علم التوحيد المسماة باسم « القصيد فى علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضا شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضى فى نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك ، ثم رأى أن يؤلف فى نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت فى مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وَضْعِها وطوال العهد العثمانى لا فى الجزائر وحدها بل فى بلدان المغرب والعالم الإسلامى ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح تلميذه محمد بن عمر الملالى وشرح عمر الوزان فى قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الأخريين ومن كتب أخرى فى علم الكلام أو علم التوحيد .

وللإباضيين نشاط واضح فى هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافى الورجلانى فى القرن الخامس الهجرى ، إذ له « الموجز فى علم الكلام » كتاب فى جزءين ، ولتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلانى « الدليل والبرهان » فى علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنى به علماء الإباضية وشرحوه مرارًا ، ولعبد العزيز الثمينى كتاب « معالم الدين » فى علم الكلام وأصول الدين .

٥

التاريخ[1]

نلتقى فى التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستميين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة إباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد ألممنا بها فى حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم أبى حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤هـ) . ولم يكن ابن الصغير إباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها مفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان فقد عُنى بتاريخها وعرض حكّامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حقَّقه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحائها ويترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة يغمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أبى حمو الثانى حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م .

وكتب ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتابا مجملا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادى الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدَّم فى ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

---

(١) انظر فى التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهي القسم الأول فى الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام فى السياسة وفى طرف من الأخبار والنوادر من النثر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان حتى عصر المتوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) الدكتور محمود بوعياد محققًا له ومعلقا عليه ومقدما له .

ونمضى إلى العهد العثمانى فيكتب إبراهيم المرينى البجائى كتاب عنوان الأخيار فيما مر على بجاية من الأخبار فى القرن العاشر الهجرى مؤرخًا مامرَّ بها من الأحداث فى استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كتابا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين (بربارُوس) عليها ويتحدث عنه وعمن خلفه من ولاة العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى . والكتابان المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستولى محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ/ ١٧٠٨ م فيكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كتابا باسم : التحفة المرضية فى الدولة البكداشية ، ويستعيدها الإسبان سنة ١١٤٥هـ/ ١٧٣٣ م ويستردها الباى محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١ وتُنظم فى فتحه لها قصائد كثيرة .

وتكتب فى السيرة النبوية مؤلفات كثيرة فى العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار فى آيات النبى المختار لعبد الرحمن الثعالبى المتوفى سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وتنظم فى الرسول مدائح كثيرة تتناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البونى فى العصر العثمانى سيرة نبوية بديعة باسم تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجرى تتكاثر كتب التراجم عن العلماء فى البلدان الكبرى بالجزائر ، ومما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبرينى المتوفى سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م وبينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرازقة المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م كتابا عن السلطان أبى الحسن المرينى باسم « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م لخص فيه تاريخ الدولة المرينية ثم أرَّخ لأبى الحسن تاريخا مفصلا . ولا نبالغ إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون فى التراث العربى التاريخى والحضارى كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية فى أقدم عهودها وما يتصل بها فى عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر فى العصور الماضية .

ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استهلّه بانتقال سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبه على العقود أو على العشرات فى كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو بعبارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب فى طبقات علماء قسنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسى وأدولف فور كتابه أنس الفقير وعز الحقير فى رجال من أهل التصوف كأبى مدين شعيب وأصحابه . ومن حينئذ يتكاثر تأليف الجزائريين فى المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجى . وكان الشيخ محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م محدثا وفقيها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه وممن ترجم له منهم أحمد العبادى ومحمد بن عمر الملاتى وسمى ترجمته : « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » ولابن صعد المتوفى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م كتاب النجم الثاقب فى الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة النسرين فى مناقب الأربعة المتأخرين : محمد الهوارى وإبراهيم التازى والحسن أبركان وأحمد الغمارى .

ويكبُّ العلماء فى العهد العثمانى على الترجمة لمشايخ الطرق . ومن أهم كتب التراجم التى تجمع فى هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض فى أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتباض » وكتاب نفح الطيب فى أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم فى القسم الثانى من أزهار الرياض لحافظ سبتة وفقيهها : عياض كما يترجم فى القسم الثانى من نفح الطيب لابن الخطيب أما فى القسم الأول فى الكتابين فيفيض فى أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب فقدت أو فقد الكثير منهامع مر الزمن وقد أشرت فى سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقى من أوراق كتاب المغرب فى حُلى المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد فى مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفح الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة فى التعريف بالأندلس وتاريخها الحضارى . ونلتقى بعده فى العهد العثمانى بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا فى كتب وأراجيز على نحو ما يلقانا لأحمد بن قاسم البونى بأوائل القرن الثانى عشر الهجرى فى أرجوزته : الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة (عنابة) وهى أرجوزة طويلة . وللبونى كتاب فى تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين فى تراجم بعض مشاهير النحاة واللغويين » .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب[1] الجزائر

ذكرنا – فيما أسلفنا – أنه كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينيقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم فى جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها فى العهدين الأموى والعباسى ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر فى البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسى مختلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التى حررت البربر من ظلم الدول السابقة التى احتلت ديارهم قرونا متطاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع العسف والبغى الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رأوه دينا قويما يسوِّى بين أتباعه فى جميع الحقوق ، والعامل الثانى سياسة ولاته وخاصة فى القرن الأول الهجرى وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق : فى الجهاد وفى غنائم الحرب وفى الولاية على القبائل والمدن . وعُنى موسى بن نصير الوالى هناك (٨٦–٩٦هـ) بأن يعهد فى الأنحاء التى لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهده فى الدين الحنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه فى فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعُنى عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة – كما مر بنا – لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجرى . وينحرف حكام بنى أمية – منذ أوائل القرن الثانى – عن جادة الإسلام الرشيدة فى حكم الشعوب التى اعتنقته ، ويثور البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، وتَقْدُم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة فى ديارهم . ويحدث ذلك نفسه فى أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولى يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤–١٧٠هـ) هدأت المغرب فى الجزائر وغير الجزائر وعمَّ الأمن والرخاء فى البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين ، فضرب الإسلام بجرانه » أى ثبت واستقر نهائيا فى الديار المغربية .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمَّ تعرب البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحوَّل الدعوة فى ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيعته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخِلَع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤازرهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدثان غير قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالهجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للهجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المنتشر لا يمرون بشىء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للهجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخرَّبوا المبانى وطمسوا معالم الحسن والرونق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت يبابا ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمَّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكتسحت سيولهم الجزائر واقتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل الجزيرية هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرهما حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا الناصر بن علناس الحمادى صاحب القلعة وخربوا جنباتها وجنبات طبنة والمسيلة (المحمدية) وغيرهما . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضياع حتى أصبحت قاعا صفصفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن علنَّاس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدَّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيم هؤلاء الأعراب ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فاقتسموا السهول الخصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمالى

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنازلهم فى الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصانعهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وأبلوا فيها بلاء عظيما ، وأنزلوا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمراكش ، واستوطن كثيرون منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطباغه بصبغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يَفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعائرهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هوارة إنهم صاروا فى عداد الناجعة (طلاب المراعى) من عرب بنى سليم فى اللغة والزىِّ وسُكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرِّق بينهم » . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر ومدنها إلا من اعتصم بالجبال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور بعروبته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع الأنحاء المغربية شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمنية والمضرية وتتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحميتهم للدين الحنيف .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الجزائر – منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى – أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة (عنابة) والمدن الساحلية التى سكنها هؤلاء الأعراب . والمظنون أنها ظلت فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى فى ألسنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكانت كثرتهم فى الجزائر من القبائل الهلالية ، ونزلت منها الأثبج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة (عنابة) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحى جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحى تلمسان ، ونزل بنو رياح الهلاليون فى قسنطينة بينما نزل بنو عامر فى وهران وأنحائها . ويسهب ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل الهلالية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بنى هلال الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، وولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه فى استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكتموا عنه مقصودهم من رحلتهم مموِّهين عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ثم يعودون إلى منازلهم ، ورآهم يبعدون فى ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه فى مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومتها فى مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفِّى على أخبار قيس (صاحب ليلى) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية محكمة المبانى متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما أخلُّوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفُقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحروبهم مع زناتة (فى المغرب) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل » . والحكاية التى يتحدث عنها ابن خلدون هى حكاية الهلالية المعروفة فى الملحمة المشهورة باسم « سيرة بنى هلال » وتعرف أيضا باسم قصة أبى زيد الهلالى ، وكانت إلى عهد قريب ينشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربابة فى مقاهى مصر وبلدانها المختلفة . والتاريخ الحقيقى للرحلة الهلالية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية الهلالية بشكر بن أبى الفتوح أمير مكة الحسنى (٤٣٠-٤٥٣هـ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدًا الذى خلفه فى الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبويها وعشيرتها حين كانوا ينوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتَرْوِى على لسانها أشعارًا بديعة ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مُرْشدة :

ولا خير فى الطفل الصغير إذا نَشَا وكانَــهُ رَقَّـــادًا كثـير هَمائدُهْ
وإما يمت يرتـاح من عيشــة الرَّدَى وإلا يَعُدْ كالصَّقر مـالى مخالبــه

وهى تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نواما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج فى طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا فى ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة التعسة الضنك ، وإما أن يعود كالصقر

الجارح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بنى دريد الهلاليين من عشيرة الجازية مفاخرًا بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها فى أول قدومهم إلى الإقليم رامزا لها بصبرة التى بناها فى جنوبيها المنصور العبيدى :

دريدٌ سَراةُ البـــدو للجـود مَنْقَعٌ ... كما كلُّ أرضٍ منقعُ المـا خِيارُهـا
وهم غَرَّبوا الأعـراب حتى تعرَّفتْ ... بطُرْقِ المعـالى مـا يوفِّى قصارها
وطرُّوا طريــق البـــارمين ثنيَّةٌ ... وقد كان ما تقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشراف البدو ومنقع الجود ينهل منه كل ظامىء ، وهم أصحاب الفضل فى قيادة الهلاليين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالى المفرطة الطول الشاقة وقد طرّوا أى مهّدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات فى الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة ما به من الحجارة والصخور ، فأصبح ممهدا ذلولا . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية فى الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص فى الهلالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وُضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار فى المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية فى الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والمشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ فى بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لعهده فى القرن الثامن الهجرى فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر فى كلامهم كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصَّبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت (دور) إلى آخر القصيدة شبيها بالمربعات والمخمسات التى أحدثها المتأخرون من المولدين . ولهؤلاء العرب (البدو) فى هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

(المتخلفون) . والكثيرون من المتحلين للعلوم لهذا العهد — وخصوصا علم اللسان — يستنكرون هذه الفنون التى لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أنشِد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب » . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمة الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يبكى الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضى بن مقرب ورثاء بعض شعرائهم للزناتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بأبيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا فى الزمن بعد عصر ابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبى . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح فى العهد العثمانى ، وكان ينظم فى المولد النبوى وفى الجهاد الحربى للأجانب وفى الأزمات الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنى بها غير شارح ، وممن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان فى القرن الثانى عشر الهجرى ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكى والزناقى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم — كما فى كتاب تاريخ الجزائر الثقافى — من رحلة حجازية منظومة

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفّته على كفّة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعْنَى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت — منذ القرن الخامس الهجرى — أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادى وسفوح الجبال والسهول والحواضر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودَفْعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتقهقر وتتراجع أمامها إلى الجبال والمعاقل النائية المنيعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر — منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل — يعدون شعبا عربيا تاما فى دينه الحنيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الراسيات .

٢

كثرة الشعراء

طبيعى أن لا نلتقى بشعراء كثيرين فى الجزائر طوال القرن الأول الهجرى وشطر غير قليل من القرن الثانى إلا ما كان يجرى على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرستمية فى تاهرت (١٦٠-٢٩٦هـ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشىء يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمه ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمى (٢١١-٢٤٠هـ) وله قصيدة طويلة فى الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكانت الأسرة الرستمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر فى عهدها أكبر شاعر عرفته فى القرن الثالث الهجرى ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتى .

وكان القسم الشرقى من الجزائر - حينئذ - تابعا للدولة الأغلبية فى القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ، ثم أصبح تابعا للدولة الصنهاجية وحكامها فى القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تتفتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية فى الدولة ، وقد يظلون بها ويتخذونها موطنا لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرباه الأدبى تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرباه الأدبى تكامل فى الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطبنى الذى هاجر بأسرته الطبنية إلى قرطبة فى الأندلس واستقر بها . وممن نزل القيروان بعد نضجه الأدبى فى موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشلى المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة (المحمدية) ومنهم ابن قاضى ميلة المعاصر للنهشلى ، والحسن بن محمد التميمى المعروف باسم ابن الربيب المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله على بن أبى الرجال الفلكى المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتى .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتى أشير والمسيلة (المحمدية) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر فى الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتمَّ له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مرَّ بنا فى الفصل الأول ، واستكثر حماد فى القلعة من المساجد والفنادق ، واتسعت فى التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ، وعُنى فى قلعته بالحركة العلمية ، ورحل إليها من الثغور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه أبناؤه وأحفاده فى الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس (عَلاء الناس) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمى والأدبى حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء فى عهد الدولة الحمادية ، وذاعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حمديس الصقلى الذى أقام فى بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى (٤٨١-٤٩٨هـ) وله فيه وفى وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته فى مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسى ، وبها تصدّر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرجة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، وممن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمراء تلك الدولة ، وابن أبى المليح الطبيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز (٤٩٨-٥١٥هـ) وطبيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وأنشد له مقطوعة فى مديح قاض ، والفقيه عمر بن فلفول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز (٥١٨ - ٥٤٧هـ) وأنشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م قوّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدث على بن غانيّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتلمسان سنة ٥٩٤ ومنهم أبو عبد الله الشوذى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا محيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبا مدين شعيب الصوفى فترة معجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الفكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن على بن جبل الوهرانى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور الموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمسانى المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن على بن حماد القلعى المشهور بمراثيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتتقاسم الجزائرَ – منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى – الدولة الحفصية فى الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششترى ، ويقال إنه تتلمذ لأصحاب أبى مدين شعيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق فى موجات التصوف التى عمت فى البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ونلتقى – منذ هذا القرن – بشعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقاسمان فى الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لعهدهما فى القرن السابع الهجرى عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسى وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلعى المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد الغسانى نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة فى المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبى دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمسانى الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله فى التصوف شعر كثير .

ويفتتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره فى تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره فى مليانة أحمد بن على المليانى المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكشى من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبى حجلة التلمسانى نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبى حمو موسى الثانى ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى فى نفس السنة . ويزدهر شعر المولديات الذى ينشد فى مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبى جمعة التلالسى . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزيانى أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . ونلتقى فى القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثمانى بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ٨٠٩ وله أشعار دينية ، وابنُ مرزوق الحفيد التلمسانى المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفى الكبير إبراهيم التازى المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضى المشهور محمد بن أحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية فى الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة فى علم التوحيد ومرثية بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبى ، ومحمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان فى علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسى مؤرخ دولة بنى زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة فى الأمير الزيانى المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوف القسنطينى المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصى أبى عمرو عثمان ، وعاصرهما محمد بن عبد الرحمن الحوضى المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بمرثية له فى أستاذه السنوسى ، وله غزل ومديح نبوى وغير نبوى ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلى المتوفى سنة ٩٠٩ وله – كما أسلفنا – قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطى فى الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفجيجى صاحب قصيدة فى الصيد مشهورة ، وعنى ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد فى تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها فى غير هذا الموضع . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فى القرن العاشر الهجرى بمحمد بن على بهلول المجاجى المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفى كثير ومنظومات علمية ، ولتلميذه أحمد المانجلاتى مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللمانجلاتى مديح نبوى كثير وديوانان وموشحات . ونلتقى بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة فى الحث على الجهاد وفى الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البونى المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير فى الخمر ، وتلاهم أحمد المقرى صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبى راشد وله أشعار فى الجهاد وفى وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالى سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والهزل والمجون . وجاء فى إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية فى نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان فى المديح النبوى . وكان يعاصره محمد القوجيلى المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مديح ورثاء وغزل . ويلقانا فى القرن الثانى عشر الهجرى محمد بن أحمد البونى المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن على مفتى الجزائر الحنفى وله شعر كثير فى جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وفتحه لوهران سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م وقد قيلت فيه وفى هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون فى كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار المفتى المالكى المتوفى فى أوائل

القرن الثالث عشر الهجرى ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباى محمد الكبير صاحب الفتح الثانى لوهران بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وتغنى بهذا الفتح النهائى لوهران كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجمانى » .

٣

شعراء المديح

يُعَدّ المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغنى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم سادتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وسادته وأمراؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وكان من أمرائها مَنْ يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠هـ) وله قصيدة - كما مرَّ بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقانا من مبكرى شعرائها أحمد بن فتح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها - حينئذ - بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت - ومثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدى العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة (المحمدية) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طبنة سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدى العبيدى وخلفائه العبيديين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طبنية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطبنى ويرحِّب عبد الرحمن الناصر به وبمن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وبطانته ، ويكثر من مديحه ، حتى ليقول ابن حيان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقرِّبه بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥هـ) حين استولى على صولجان الخلافة بعد أبيه ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جيمية مهيئا الناس لما كان يريده المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له[1] :

---

(١) نظر المقتبس لابن حيان (تحقيق د . عبد الرحمن الحجى) ص ٨٣ .

حَصَّنْ بــه ديــنَ النبيِّ محمــدٍ ۝ وأَقِمْ بـه أوَدَ الزمــانِ الأعــوجِ
لهجتْ ببيعته النفــوسُ فأخْـذُهـا ۝ من واجــب الأشياء لـو لم تَلْهَج
عــودُ النبوَّة والخــلافــة أصلـهُ ۝ والفَرْع من تلك العروق الوُشَّجِ[1]
وارْمِ المشــارق باســمه فَلْيَفتحنْ ۝ ما بين مصرَ إلى بــلاد الرُّخَّجِ[2]

وواضح أنه كان يضع نفسه فى خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب فى حبلها إلى أن توفى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م . وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه على وأنجب ابنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعُنى بتربيته وأصبح – فيما بعد – نديما للمنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به[3] :

تخيَّر اللهُ والسلطـان للأمم ۝ ولىَّ عَهْدٍ بَراه الله من كرمِ
اختاره الله للإسلام يحفظه ۝ وخصَّه بعلوِّ القـدر والهمم

وكان صنيع شنجول المذكور سببا فى القضاء عليه وفى فتنة قضت على الدولة الأموية فى الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يتريث وأن لايكيل الثناء لشنجول، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عنى بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له فى كتابه المغرب إنه كان إمامًا فى علم الحديث وكان شاعرًا وأشعر منه ابن أخيه على بن عبدالعزيز، وفيه يقول الحجارى إنه أشعر بنى الطبنى وأنشد له ابن سعيد أشعارا فى الخمر والغزل.

وإذا كانت طبنة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطبنى فى القرن الرابع الهجرى وكل ما نظمه أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى المسيلة عاصمة الزاب الحديثة وواليها من قبل العبيديين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م جعفر بن على بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذى أسسها – كما مرَّ بنا – وكانا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، وممن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها الفذ ابن هانىء ، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه ، ومن قوله فيه[4] :

المشرقـاتُ النيِّرات ثـلاثـةٌ ۝ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

---

(١) الوشج : الملتفة المتشابكة .

(٢) بلاد الرخج : بلاد بالقرب من مدينة كابل فى أفغانستان .

(٣) انظر البيتين التاليين وأبياتًا أخرى فى تهنئة شنجول بولاية العهد فى أعمال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢ وما بعدها ولقب الشاعر محرف .

(٤) راجع أشعار ابن هانىء فى ديوانه المطبوع بالهند .

ويقول مخاطبًا له فى إحدى مدائحه :

لـم تُدْنِنى أرضٌ إليـك وإنمـا ... جِئْتُ السمـاءَ ففتَّحَتْ أبوابـا
ورأيت حـولى وفـدَ كلِّ قبيلةٍ ... حتى توهمتُ العـراقَ الزّابـا[1]
أرضٌ وطئتُ الدرَّ من حَصْبائها ... والمسكَ تُرْبًا والرِّيـاضَ جنابـا

وسمع بالشاعر ومدائحه فى جعفر الخليفةُ المعز العبيدى الفاطمى فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحسَّ حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصوَّر ذلك فى إحدى قصائده منشدا :

خليـلىَّ أيـن الزَّابُ منى وجعفرٌ ... وجنَّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عنهـا وكَوْثَرُ
وقبلى نَأى عن جَنَّـة الخلـد آدمٌ ... فما راقه من جانب الأرض مَنْظر

وهو يتحسَّر على فراقه للزاب وجعفر ، فقد فارق جنَّة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد فى الأرض ولا منظر .

وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربى شاعرا كبيرا فى القرن الثالث الهجرى هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه فى النصف الثانى من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخى المعروف باسم ابن قاضى مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربى من مدينة قسنطينة ، واشتهر بمدحةٍ فائية مدح بها والى صقلية يوسف ثقة الدولة وسنخصه بترجمة . والثانى عبد الكريم النهشلى المسيلى شاعر المنصور الصنهاجى وابنه باديس ، وسنفرد له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية فى القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجرى حركة أدبية وعلمية نشيطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء ليمنحوهم الجوائز والصلات من أمثال ابن الفكاه أبى القاسم عبد الخالق القرشى القيروانى مادح الناصر بن علناس (٤٥٤ -٤٨١هـ) وفيه أنشد[2] :

قالـت سـعاد وقـد زُمَّتْ ركائبُنا ... مهـلا عليـك فأنت الرائحُ الغـادى
فقلـتُ تالله لا أنفـكُّ ذا سفـرٍ ... تجرى بىَ الفُلْك أو يحدو بىَ الحادى
حـتى أقبِّـل تُرْب العـزِّ منتصـرًا ... بالنـاصر بن علنَّـاسِ بن حمَّـاد

وكان ابنه المنصور (٤٨١ - ٤٩٨هـ) كاتبا شاعرا وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذى حضَّر ملك بنى حماد وصيَّر بجاية دار المملكة وجدَّد قصورها وشيَّد جامعها وتأنق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه فى الرياض والبساتين ، فبنى فى القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى فى بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية الفذ فقلده صلات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

---

(١) الزاب : أرض سهول فى وسط الجزائر وراء جبال الأوراس شرقا .

(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ٩٦/٣ زمت ركائبنا : شدت بالزمام استعدادًا للرحيل .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسْد المذهبة تمج المياه البلورية من أفواهها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصَّع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلىء الصافية ، يقول[1] :

قصرٌ لو انَّك قد كحلتَ بنـــورِهِ ... أعمى لعـــاد إلى المقـــام بصيرا
أذكرْتنـــا الفـــردوسَ حين أريتنا ... غرفا رفعتَ بناءهـــا وقصـــورا
فـلكٌ مــن الأفـــلاك إلا أنـــه ... حقَر البـدورَ فأطلـــع المنصورا
وضراغـمٍ سكنتْ عَرينَ رئاســةٍ ... تركتْ خريرَ المـاء فيـه زئيرا[2]
وكأنمـا غَشَّىَ النضارُ جسومَهـا ... وأذاب فى أفواههـــا البلّـــورا[3]
وبديعـــة الثمرات تعبر نحوهـــا ... عيناىَ بحرَ عجـــائبٍ مَسْجورا[4]
قد صوفحتْ أغصانُها فكأنمـــا ... قبضَتْ بهنَّ من الفضـاء طيورا
خُرْسٌ تُعَدُّ من الفُصّاح فإنْ شَدَتْ ... جعلتْ تغـرُّدُ بالميــــاهِ صَفِيرا

وأبيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقَّرى بعد إنشاده لها فى كتابه « نفح الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة فى لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه الخريدة لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى ، وقد ترجم لنفر[5] من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشرون المهدوى القيروانى مع نعته لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : على بن الزيتونى الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبى المليح الطبيب ، وقال عن على بن الزيتونى إنه شاعر المغرب الأوسط (الجزائر) وأديبه ، وألمعيُّه وأريبه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأنشد له قطعة من قصيدة فى مديح قاض ، وفيها يقول :

نَهـــاهُ عـنْ محارمِـــه نُهاهُ ... وقرَّبه لخالقــــه تُقـــاه[6]
وشدَّ به عُرَى الإســـلام حتى ... رأينا النُّجْحَ وانعقدتْ عُراه[7]
أمـــينٌ عدلُـــه غَمَرَ البَرايَـــا ... فما يُخْشَى على أحـدٍ قضاه
لقـــد ظفرتْ يـدٌ عَلِقَتْ نَداه ... ومـن تـاواه قد تَبَّتْ يداه[8]

---

(١) ديوان ابن حمديس (تحقيق د. إحسان عباس) .
(٢) عرين الأسد : مأواه .
(٣) النضار : الذهب
(٤) مسجورا : مملوءا .
(٥) انظر فيهم وفى الأشعار التالية الخريدة (قسم المغرب) طبع تونس ١٨٠/١ وما بعدها .
(٦) النهى : العقل .
(٧) عرى الإسلام : مواثيقة التى لا تنفصل عنه .
(٨) تبَّت : خسرت خسرانا كبيرا .

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله فى بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكمُ إلا همــامٌ حَــوَى مناقبًا جُلّى ومجــدا صُرَاحْ[1]
وتبذلــون الرِّفْـدَ يــوم النَّــدى وتَسْعرون الحرب يوم الكفــاح[2]
وترفعــون الجـار فــوق السُّهَا وتكرمون الضيف مهما استماح[3]
لا زلتــمُ تجنــون زهــرَ العُــلا فى معــرضِ العزِّ بحدِّ الصِّفاح[4]

أما ابن أبى المليح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيبا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جالبة للحب سالبة للبِّ ولم يرو منها شيئا له، إنما روى قطعة من قصيدة يهنىء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله، يقول:

وجالتْ به جُرْدُ المَذاكى كأنهــا عذارَى ولكنْ نُطْقهنَّ تَحَمْحُمُ[5]
وصفــراءَ كالتِّبْرِ العتيقِ صقيلـةٍ ودهمـاءَ يتلوهـا كُمَيْتٌ وأَدْهَمُ[6]
وأشـقرَ لو يجْرِى مع البَرْق جُهْدَه لكان لـه يوم الرِّهــان التقــدم
وحــامَ لــواءُ النَّصْر يتبع رايــةً بها العِزُّ معقــودٌ عليها متمِّمُ[7]

ويترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قدما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلعى الأصم وعلى بن إسماعيل القلعى، أما محمد فينقل عن كتاب جِنان الجنان ورياض الأذهان للرشيد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه: «كان جيد الشعر، وارِىَ[8] زناد الفكر» وأنشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مديح كرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحــاكيــةٍ بالمــاءِ لــونَ اضطرابــهِ قوامًــا وحُسْنا حين يبدو ويُوبِصُ[9]
قضيـــبَ لُجَيْنٍ أَلمــع الصَّقْلُ مَتْنَـــه وأخلصه فى السَّبْكِ من قبلُ مخْلِصُ[10]
تســـامى قليـــلا ثم عـــاد كأنــه جمانٌ حواليها على المــاء يَرْقُصُ[11]
كأنَّ نــوالا من يمـــين « كرامــةٍ » يمــدُّ بـهِ إذ لا ترى المــاء يَنْقص

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصا .
(٢) الرفد : العطاء . تسعرون : توقدون .
(٣) السها : كوكب صغير خفى الضوء . استماح : اتسع فى الطلب .
(٤) الصفاح : السيوف .
(٥) المذاكى : الخيل المدرَّبة . التحمحم : صوت الخيل دون العالى .
(٦) التبر : الذهب . صقيلة : مدربة . دهماء : سوداء . كميت : أحمر ضارب إلى السواد .
(٧) حام : دار .
(٨) وارى : متقد .
(٩) يوبص : يبرق ويلمع
(١٠) لجين : فضة .
(١١) جمان : لؤلؤ .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان مبخوس الجَدّ[1] وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (الفسطاط) وأقام بهما زمانا لا يجد من يَرْوِي ظَمْأَته ويسدّ خلّته[2] ، وعاد إلى المغرب ونزل ببنى الأشقر فى طرابلس الغربَ ، وامتدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جائزته ، ومن قوله فى مديحهم :

وفى ذا الحِمَى المأمول يأمنُ خائفٌ ... وفى ذا النَّدى المعسول يَنْقَعُ حائم[3]
عَضَدْتم على أحسابكم بفعالكم ... كما عضدتْ أُسٌّ البناء الدعائم[4]
على كلِّ أرضٍ من نَدَاكم مياسمٌ ... وفى كل نادٍ من ثَناكم مواسم[5]

وأما على بن إسماعيل القلعى فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان هو وأبوه وجده سنين ، ويبدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة : « حَيَّ على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن على بن إسماعيل القلعى نظم فى هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليلٍ صحبتُ السيف يَرْعَد حَدّهُ ... وقد شابَ فيه مفرقُ الصَّعْدَة السَّمْرا[6]
إلى أن بدا وجه الصَّباح كأنه ... لحافظِ دين اللّهِ آيتُهُ الكبرى

ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيِّعا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية فى بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حينئذ شاعران : الحسن بن على بن عمر القسنطينى المعروف باسم ابن الفكون وسنخصه بترجمة ، ومحمد[7] « بن على بن مروان بن جبل الهمدانى الوهرانى الأصل الناشىء بتلمسان ، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور الموحدى (٥٨٠–٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمراكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل فى أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاده ابنه الناصر إلى أن توفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) خلته : حاجته .
(٣) ينقع حائم : يروى ظامىء .
(٤) عضدتم : أعنتم .
(٥) مياسم : جمع ميسم : علامة وأثر .
(٦) الصعدة : القناة .
(٧) انظره فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١ والمعجب للمراكشى ص ٢٦٤ و٣١٢ والتكملة لابن الأبار رقم ١٠٦٣ .

أسيِّدنا يا بن الإمامين أمركم   منوطٌ بأمر الله ما عنه معدلُ
نُصِرتم لأن الحقَّ آن ظهورُه   وناصره فى الله ما كان يُخذَل
ملأتم بِبساط الأرض عدلا وما بَقِى   فأخبارُكم فيه تسيرُ وتُنقَل

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاة حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجرى ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت فى كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا فى شرقى الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بنى حماد فى بجاية التى قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيانيين فى تلمسان التى سنلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا فى بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر شعر مديح فى حاكم كبير ، وحقا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام فى صديقه على بن سيد الناس وعشيرته[1] :

شمسُ السعادة لاسَنا النُّبراسِ   حلَّتْ بأفْقِ عَلى بن سيد الَّناسِ
من معشرٍ بذلُ النوالِ شِعارهم   وهم الأسود لدى احتدام الباس
فالبَسْ رداء الفخر جرِّرْ ذيلَهُ   وانعم بطيب العيش والإيناسِ

وأهم شاعر مديح أتجه شرقى الجزائر فى عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطينى شاعر السلطان أبى عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسَّس بتلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يَغْمُراسن مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأ دبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون فى مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمديحهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يَغْمُراسَن حين هاجمه السعيد الموحدى صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنئا له بالانتصار[2] :

بُشْرَى بعاجل فتح أوجب العُرُسا   وأسفر الدَّهْرُ عنه بعد ما عَبَسَا[3]
فتحٌ تبجَّست الأنواءُ صادقةً   بِوَدْقه ومحتْ أنوارُه الغَلَسا[4]
فتح تفتَّح بابُ السعد عن كَثَبٍ   عنه وأنجز فيه اليُمْنُ ما التمسا[5]
فتحٌ جَرَى فى الوَرَى مجرى الحياة فقد   سَرَى فمازج منَّا النَّفْسَ والنَّفَسا

(١) عنوان الدراية ص ٣٤٣ .
(٢) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان للتنسى (تحقيق محمود بوعياد) ص ١١٩ .
(٣) أسفر : انكشف . عبس : قطَّب وجهه وتجهَّم
(٤) تبجست : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٥) كثب : قرب .

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث فى الحرب ومقتل السعيد الموحدى ويشيد بشجاعة الجيش التلمسانى وبأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التى استولى عليها يَغْمُراسن من محلة الأمير الموحدى السعيد والتى بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسى العقدُ اليتيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون فى تاريخه، وعضاد[1] الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذى خطَّه بيمينه ، وكان قد صار إلى بنى أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل فى قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم فى مواضع منها لآلىء نفيسة وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم فى أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يغمراسن أن حظى به ، إن صحَّ ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارع ابن خميس كاتب أبى سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن (٦٨١- ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرد له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبى حجلة الذى ترجمنا له فى الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل فى بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكتب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أى إناء السكر ، وديوان الصبابة أهداهما للسلطان حسن المملوكى ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله فى الكتاب الأخير :

مليكٌ أُسـودُ الغاب تحذر بأسَهُ ... لأن ملوك الأرض طُرًّا تحاذرُهْ
وأىُّ كمـاةٍ لم يرعْهـم نزالُـهُ ... وأى مكانٍ ما علتْه منابـره

ولعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) الذى خلَّص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديبًا فذًّا وشاعرًا ماهرًا ونهضت تلمسان فى عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبمدائحها فيه التنسى فى كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتَّابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامى ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضا محمد بن أبى جمعة التلالسى أحد أطبائه ، وفيه يقول فى قصيدة[2] :

مطـاع شـجاعٌ فى الوَغى ذو مهابةٍ ... حسامٌ على الباغين فى الأرض قد سُلاَّ
لـه راحـةٌ كالغيث ينهـلُّ وَدْقُهـا ... وصـارمُ نَصْرٍ مرهـفُ الحَـدِّ لا أُفُلاَّ
إمـامٌ حَبـاهُ اللَّـهُ ملـكا مـؤزَّرًا ... فلا مَـلِكٌ إلاَّ لعـزَّتـه ذَلاَّ
من الـزَّاب وافانـا عـزيزا مظفَّـرا ... يجرُّ من النَّصْر المنـوط بـه ذَيْـلاً

(١) العضاد : الحلية توضع فى العضد .

(٢) بغية الرواد ١/ ٩٠ .

لطاعتـــه كلُّ الأنـــام تبـادرتْ فياسَـعْد من وافى ويياويْحَ مَنْ ولّى
لقـــد جـــبر اللّـــهُ البلادَ بملكـــه به مُلئتْ أمْنًا بـــه ملئـــتْ عَـــدْلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلالسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير أبى مدين شعيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مديح أبي حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أنشدها المقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم ، ومن مديحه له فيها[1] :

مَنْ لم يـزل يســمو إلى المعالى كلَّ حينْ
ذاك أبـوحَمُّـــو المولى أميرُ المسلمين
طاعتـــهُ غُنْـــمُ نِلْنا بها دنيا وديـن

وكان أبو حموّ استنَّ فى تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفلَ بإنشاد مدحتِه النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفع إليه من مدائح شعراء البلاط فى أبى حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسنترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغرى .
وممن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثانى (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وكان كلفا بالعلم والأدب - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) والطريف أنه وجَّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلَّها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة ، ومن قوله بها فى مديح السلطان برقوق[2] :

مـلكٌ بـه نـام الأنـــامُ وأُمِّنَتْ سُبُلُ المخـاوف، لا يُخَـافُ سبيلُ
والملك ضَخْـمٌ والجنـــاب مؤمَّلٌ والفضـــل جَمٌّ والعطـــاء جزيـلُ
والصُّنْعُ أجمــلُ والفخـــار مؤثَّلٌ والمجـــد أكملُ والوفــاء أصيلُ[3]،
ياخـــادمَ الحرمين حـــقٌّ لك الهنَا وحَبَــاك من روح الإلـــه قَبـول

وممن انتعش الأدب فى أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزيانى (٨١٤ - ٨٢٧ هـ) ويقول التنسى إن الأدباء جاءوا إلى بابه يَنْسلون من كل حَدَب[4] فينقلبون بُجْر[5] الحقائب ، ظافرين

---

(١) أزهار الرياض ٢٤٧/١ .
(٢) تاريخ بني زيان للتنسى ص ٢٢٥ .
(٣) مؤثّل : أصيل .
(٤) ينسلون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .
(٥) بجر الحقائب : مملوئى الحقائب ، كناية عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسانيين قصيدة لشاعر فاسيّ يسمى على العَشَّاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا[1] :

ملكٌ تجلَّل بالمهابة وارتدى ... وسما فدانَ له الزمانُ الأسْعَدُ
كم بيَّنتْ آراؤه من مشكلٍ ... واللهُ يكفلُ ملكه ويؤيِّد
ملك أبى الرحمنُ إلا نَصْرَه ... فمن الذى يُخْفى سَناهُ ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيانى بتلمسان بعده المتوكل (٨٦٦ - ٨ هـ) ويعنى الفقيه التنسى بوضع كتاب أرَّخ فيه له ولأسرته - كما مرَّ بنا - سماه نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة فى مديحه ومديح أبنائه الستة ، وفيه يقول[2] :

حَوَى فى صباه من وثاقة رأيه ... مع الحزم ما لم تحوه اللِّمَمُ الشُّمْطُ[3]
هو البحر جودًا من جميع جهاته ... فمعروفه لُجٌ وإحسانه الشَّطُّ
وكلُّ بَنى الآمال ساعون نحوه ... كذا كلٌّ من أضناه من دهره قَسْطُ[4]
وبرَّز من بين الملوك مجليا ... وأعطاه ربُّ العرش فوق الذى أُعْطوا

وتضعف الدولتان الزيانية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين (بربروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م ومايزال خير الدين ينازله مستوليا منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم فى سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهنئه الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله[5] :

هنيئا لكم باشا الجزائر والغربِ ... بفتح أساس الكفر مرسى قُرَى الكلبِ
وأبقاك ربى فاتحا لحصونهم ... وكهفا منيعا ذا عتوٍّ وذا ضَرْبِ

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فسحقها البايلاريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، ومايزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين فى فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذى يستحث الداى « باب حسن » على فتحها فى حماسية طويلة منشدا :

(١) التنسى ص ٢٣٨ .
(٢) التنسى ص ٢٦٥ .
(٣) اللمم الشمط : المختلط فيها سواد الشعر ببياضه .
(٤) قسط : جور وظلم ، وهى من ألفاظ الأضداد .
(٥) البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم ص ١٣٢ .

نادتك وهــرانٌ فَلْــبِّ نِداهـــا وانزلْ بها لا تقصدنّ ســـواها
واســتدع طائفةَ العساكر نحوها يغزونهـــا ولينزلـــوا بفِنـاهـــا
أضحى الصَّليب مؤيدا والدينُ قد درستْ معالمُهُ فلست تراهـــا
فادْعُ الغـــزاةَ لغزوهـا مستنجدا وانهض إليهـا وانزلنْ مرســـاها

وعلى شاكلته محمد القوجيلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل فى نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم فى فتح وهران ، ويهنئه يحيى بن أبى راشد مشيدا به فى مثل قوله :

ملك تفرَّد بالكمـــال ولم يكن لكماله فى الســالفين مثـــالُ
دانتْ له الأيَّـــام طرًّا مثلمـــا دانتْ لليثِ الغابة الأشبـــالُ
خضعتْ لسطوته الملوكُ وسلَّمت لجلاله الأمــراء والأقْيـــال[1]

ويكثر الشعراء من استثارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب فى تهنئته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته فى كتابه « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية » وجعله فى ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم البونى ومحمد القوجيلي والمستغانمى وابن على الذى هنَّأه تهنئته حارة مصورا كيف يسحقهم سحقا لا يبقى ولا يذر بمثل قوله :

إمــامٌ سقى الكفــار كأس منيَّةٍ لهـم شبَّةٌ بالنَّمْل والسيفُ حاطمُ
ومزَّقهـــم فى الأرض كلَّ ممـزَّقٍ فَربْعهمُ –بعد العمارة– طاسِـمُ[2]
وعـاد لوهـران السنيَّةِ فخرُهـــا وعـاد إليها عهدُهـــا المتقـــادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل فى حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لعهد الباى محمد الكبير ، فيفتتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومى ومحمد بن الطيب المازرى وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله فى فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمـدًا لمن آزر نصرَ الدِّيـن ودان ناصريه أسنى الدِّيـن
وفتَّح الأقطار بالجهـــاد حتى غـدت ليِّنة المهـادِ

وشرح الأرجوزة شرحًا أدبيًا تاريخيًا سماه : « الثغر الجُمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » وصف فيه الفتح وسيرة الباى والشعراء الذين مجَّدوه وبعض أشعارهم فى تهنئته بالفتح ،

(١) الأقيال : جمع قيل : ملوك اليمن .
(٢) طاسـم : دارس .

ووصف منشئاته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شا
أحمد القرومى :

وترى المدرّسَ قد علا كرسيَّه
تَحْويه مدرسةٌ غدتْ آثارُ

وكانت عقيدة الأشعرى قد شاعت
منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن
فى زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصا
ويمدحون » ويضيف أن الشعر الفصيح شاع
والمعانى .

ويكثر فى العهد العثمانى مديح التلامذة لشيوخهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجيل
فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى
الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس
أن نتوقف لنترجم لبعض شعراء المديح .

عبد[2] الكريم النهشلى

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة (المحمدية) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب . وبها
مرباه وتلمذته لشيوخها فى الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن ينتظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصور بن بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرهما . ومر بنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه الممتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه الممتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م وأنشد له أبياتا من قصيدة فى مديح المنصور بن بلكين وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعد الله ٢٧١/٢ .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشلى المراجع التى سبق ذكرها فى هامش ص ٨٩ .

الخيل الكريمة والإبل البخاتيّ النجيبة وحمارا مخططا من حمر الوحش وفيلا ضخما ، ووصفها النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هنّتْك أميرَ الجود خيرُ هديَّةٍ ... تقدَّمها الإيمانُ واليُمْنُ والفَخْرُ

ومضى يصف الهدية ، وكان حريا بابن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذى كان يبرع فيه براعة فائقة كما تشهد بذلك بائية له فى المنصور بن بلكين أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه الممتع ، وفيها يصور هيبة مجلسه منشدا :

ومجلسِ موقـورِ الجلالـة تَنْثنى ... عيونُ الـورى عنه وينبـو خِطابُها
ترى فيه رفع الطَّرْف خَفْضًا كأنما ... لحـاظ الرجـال ريبةً تستريبُها
إذا حُكْتُها ظلَّتْ نـواسـجُ عبقـرٍ ... حواسـدَ مدسوسـا إلىَّ عتـابُها
علـى ملكٍ تُهْدَى إلى مَكْرُماتِـهِ ... عقائلُ أشـعارٍ يـرفُّ شبابُهـا
همـامٌ دعـت كفَّاه قاصيـةَ العُلا ... فلبَّاه منهـا صَفْوهـا ولُبابُها

فهو مجلس محفوف بالجلال حتى لتنثنى عنه العيون مهابة ويتعثر الكلام فى الأفواه وينخفض الطرف ريبة يستشعرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تزفّ إليه ، وإنه لهمام تستجيب إليه ذروة العلا فينال منها صفوها ولبابها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصـور أرضًا تهلَّلتْ ... وجـوه رُبـاها واستهلَّ رَبابُها(1)
إذا اغبرَّت الآفـاقُ بلَّتْ سمـاؤُهُ ... ثَـراها بأيدٍ مـا يجفُّ رَغابُها(2)
كأن العـوالى الزُّرْق عنه مَضاؤها ... وخُضْر السحاب من نداه عُبابُها(3)
فمـن يُولـهِ سعدا يَنَلْه ومَنْ يُرِد ... بـه شِقْوةً تُخْلَعْ عليـه ثيابُها
يحـلُّ بنـا – مـا حلَّها – البِرُّ والتُّقى ... ويخضرُّ من بعـد اصفرارٍ جنابُها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلىء رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغبرّ الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سمائه ما يرويها ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداه وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحلّ بها يحلّ فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

ومـا بلدٌ لم يؤتك الطَّوْعَ أهلُها ... بآمنـةٍ أن لاتُـدَكَّ هضابُهـا
تحطُّ بها الأُسْدُ الضوارى خواضعًا ... لديـك ولـو أن الكواكـب غابُها

---

(1) الرباب : السحاب .
(2) الرُّغاب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .
(3) العوالى : الرماح . عباب السحاب : الأمطار المنهمرة .

ولو أنهـا عاصتْكَ غير مجيبـةٍ — أجابتْكَ من تحت السيوف رقابُها
تهابُك آفـاتُ الخطـوب فتنتهي — ولاتنتهي عـن خُطَّـةٍ فتهابُهـا
رماحُك أحنـاءُ الضلـوع ثِقافهـا — وخيلك تامورُ النفوسِ شرابُها[1]

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدكّ هضابها دكًا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحطّ لديك خواضع مهما كان غابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خانعة ، وإن الخطوب – مهما عظمت – لتهابك ، بينما أنت لا تهاب خطة ، إذ لا تزال تبرم الخطط ، وتلك رماحك لا تزال تضرب فى أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيدة مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تقرع الآذان قرعا بموسيقاها اللجبة ، وكأنما تمتلىء برعد قاصف . وبدون ريب كان عبد الكريم النهشلى شاعرا مبدعا .

عبد[2] الله بن محمد التنوخي (ابن قاضى ميلة)

تقع ميلة فى الشمال الغربى لقسنطينة والجنوب الشرقى من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن محمد التنوخى فى بيت علم إذ كان أبوه قاضيها ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضى ميلة ، ويقول ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاتصل عن طريقه بواليها ثقة الدولة (٣٧٩–٣٨٨هـ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيتها سياسة عادلة حببته إليها ، ودوّخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل فَجٍّ ، فأكرمهم وفى مقدمتهم قاضى ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة فائية بارعة ، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكثا طويلا بصقلية . وأشاد بابن قاضى ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لَسِنٌ مقتدر يؤثر الاستعارة ويسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات ، وله فى الشعر قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ فى الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهجٌ بذلك طالبٌ له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب فى الأدب بأعلى قِدْح وافترّ عنه على أوضح صبح » . ونوه ابن خلكان بفائيته فى ثقة الدولة ، ويقول أحببت إثباتها لحسنها وغرابتها ، وأنشدها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين فى الحج ، وهو غزل بديع سنذكر طرفا منه فى غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة والى صقلية فى يوم عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

---

(١) الثقاف : مضرب الرماح . تامور : دم .

(٢) انظر فى ابن قاضى ميلة أنموذج الزمان لابن رشيق ص٢٠٩ وابن خلكان ١٥٩/٦ وراجع ٨٤٣/٥ والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

أغــرُّ قُضــاعيٌّ يــكاد نَوالُــــهُ لكثرة مايدعو إلى الشُّكْر يجحف[١]
سَعَى وسَعَى الأمـلاكُ فى طلب العُلا ففـــاز وأكْدَوا إذ أخفَّ وأقْطفوا[٢]
ويقظـان شـاب البطش بالبِرِّ والتُّقَى بكفَّيـــــه ما يُرْجَى وما يُتخَـوَّف
حســامٌ على من ناصب الدين مصلتٌ وســترٌ على من راقب الله مُغْدِفُ[٣]
يســايـرُه جيشــان : رأىٌ وفَيْلقٌ ويصحبـه سـيفان: عـزمٌ ومُرْهَفُ
مطــلٌّ عــلى مــن شــاءَه فكأنمـــا على حكمـه صَرْفُ الرَّدى يتصرَّفُ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تُكلِّف من الشكر ما لا يكاد يطاق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله فى طلب العلا ففاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطئوا فتخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففى كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكأنما ينزل صرف الهلاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعو له الله أن يرعاه :

رَعَى اللّـــه مَنْ تَرْعى حِمَى الدين عَيْنُه ويحمى حِمى الإسلام والليلُ أَغْضَفُ[٤]
ومَنْ وَعْدهُ فى مســرح الحمــد مطلقٌ وإيعـــاده فى ذمَّـة الحِلْـم موقَـفُ
ومــن يضــربُ الأعــداء هَــبْرًا فتنثني صناديدُهم والبِيضُ بالهــام تقذفُ[٥]
رماهـــم بِمَجْرٍ ضَعْضَــعَ الأرضَ رَزُّهُ كأن الروابى منـه بالنَّبْــل تَدْلُـف[٦]
كأن الرُّدَينيَّـــات فى رونـــق الضُّحَى أراقمُ فى طـــامٍ من الآل تزحـف[٧]
يعـــود الدُّجَى من بِيضـــه وهْو أبيـضٌ ويبدو الضحى من نَقْعه وهْو أَكْلَفُ[٨]

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والممسك بوعيده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرءوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكأن الروابى تقدم إليها ، وكأن الرماح أراقم تزحف فى أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا فى احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

(١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .
(٢) أكدوا : خابوا . أخف : أسرع . أقطفوا : أبطئوا
(٣) مصلت : مسلول . مغدف : مسبل .
(٤) أغضف : مظلم شديد الإظلام .
(٥) هبرا : ضربا . البيض : السيوف .
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تدلف : تسير مبطئة .
(٧) الردينيات : الرماح . أراقم : حيات . الآل : السراب .
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فيا ثقةَ الملك الذى الملك سَهمُهُ يُراشُ لأكباد الأعادى ويُرصَفُ[1]
هنيئًا لك العيدُ الذى منك حُسْنُه يروقُ ومن أوصافك الغُرِّ يوصف
بدا مُعْلَمَ الأرجاء يُزهى كأنما على عِطْفه وَشْىُ العراق المشفَّف[2]
أتى بعد حول زائرا عن تشوّفٍ وقد كان ذا طَرْفٍ للقياك يَطْرِفُ
فطوّقته عِزًّا وشنّفته به فلاحَ لنا وهو المحلّى المشنَّف[3]
ولا زلت تُستجْدَى فتُولى وتُرْتَجَى فتكفى وتُستَدْعَى لخطبٍ فتكشف

وهو يقول له يا ثقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدَّدُ إلى أكباد الأعادى فينفذ فيها ويُصميها وهنيئا لك العيد الذى يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلىء زهوا بما على جوانبه من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحليته بطوق رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستحدَى فتنعم وترتجَى فتُلَبِّى وتستدعى لخطب فتكشف نوازله .

وأنشد ابن رشيق من مديحه قوله :

طَبٌّ بأدواء الجهاد إذا صدَم العَجاجُ قوادمَ النَّسْرِ
وإذا احْتَبى فى شَمْلَةٍ ضربتْ بِيضُ النَّوال جماجمَ الفَقْرِ
يَنْدَى وأيدى المُزْنِ جامدةٌ ويلينُ عند قساوة الدهر

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتحتدم ويصدم عجاجها وغبارها الكثيف قوادم النسور وأجنحتها المحلقة . هذا شأنه فى الحرب أما فى السلم فلا تزال سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودا متصلا حين تشح أيدى السحاب ، وإن جانبه ليلين لوارديه عند قساوة الدهر وشدته . وواضح ما يتميز به ابن قاضى ميلة من التعمق والبعد فى التصاوير .

ابن[1] خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميرى الحَجْرى الرُّعينى التلمسانى ، ويتضح من نسبه أنه ينمى إلى حمير من عرب اليمن فى الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذى رُعَين ، وذكر ذلك فى شعره مفاخرا به قائلا :

---

(١) يراش ويرصف : يسدَّد .
(٢) المشفَّف : الرقيق .
(٣) شنفته به : زينته بقرط .
(٤) انظر فى شعر ابن خميس وترجمته ديوانه باسم المنتحب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس من عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر بحثه وخاصة الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى ٣٠١/٢ وما بعدها .

وإن انتسبتُ فإنَّنِي مِن دوحةٍ تَتفيَّأُ الأنسابُ بَرْدَ ظلالها
من حِمْيَرٍ من ذى رُعَيْنٍ من ذُرَا حجْرٍ من العظماء من أقيالها[1]

ولد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ/١٣٥٣م أو قبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومرباه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرف بين أقرانه بذكائه . وتتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان التلمسانى يَغْمُراسَن ثم فى عهد ابنه أبى سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ) وقد التقى بالعبدرى الرحالة وأكثر العبدرى من مجالسته ورواية أشعاره فى رحلته وأثنى عليه . وحدث فى أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبد الحق المرينى تلمسان ومات سلطانها أبو سعيد فى أثناء الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م . ونجد ابن خميس يغادر تلمسان فى نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان ومحققه المقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول فى طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون فى قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغـروا بنفسىَ طَلاَّبَهـا سِرارًا فجاءوا لقتلى صُراحا
فشـاورتُ نفسىَ فى ذا فمـا رأتْ لى بغير الفَلاةِ فلاحا

وقد فَرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمرائها من أسرة بنى العَزَفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نوالهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكرين من شيوخها دسُّوا عليه أسئلة نحوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجَاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة أواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث (٧٠١ – ٧٠٨هـ) ووزيره أبو عبدالله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطاياه ، وأخذ ا بن خميس يضفى عليه مدائحه ،وجال فى المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان فى غرناطه بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرىء فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبَّر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة فى الجزائر بل فى المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان فى المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان – رحمه الله – من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، يصرِّف العويص ،

(١) حجر ذى رعين : قبيلة يمنية . أقيالها : أمراؤها وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافى ، ويطير فى القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافى » ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدَّباج الذى لانظير له، ويقول محققه إنه « يمتاز فى شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغرابة الألفاظ ، وقلَّ من شعراء القرن السابع من يضارعه فى قوة العارضة وخصب القريحة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من يماثله فى سلاسة المبانى وسلاسة المعانى». والقصص عنده قصص تاريخى ولذلك يحتاج قارؤه فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قائلا فى بعض شعره :

مـا ذاق طعـمَ بلاغـةٍ　　　من ليس للوحشىِّ ماضغْ

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنما كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية القديمة إمعانًا فى العروبة . ولم يكن يفزع إلى الغريب دائما إنما كان يفزع إليه فى مخاطبة بنى العزفى وابن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسوهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره فى بنى العزفى خائية طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف المرينى منذ سنة ٦٩٨ وتعطل معاهد أنسه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن نصحوهم بالدخول فى طاعة المرينيين حتى يفكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج إلى مدح سبتة وبنى العَزَفى منشدا :

تركـتُ لِمينـــا سَبْتَةٍ كلَّ نُجْعَــةٍ　　　كما تُرِكَتْ للعِزِّ أَهْضابُهــا الشُّمْخُ(١)
وآليـت أن لا أرْتَــوِى غيرَ مائهــا　　　ولـو حلَّ لى فـى غَيْره المَنُّ والمَذْخُ(٢)
فأملاكهـا الصِّيدُ المقاولـــةُ الأُلَى　　　لعزِّهـمُ تَعْنُو الطَّراخمـــة البُلْـخُ(٣)
كواكب هَدْىٍ فـى سمـــاء رياسةٍ　　　تضىء فما يَدْجُو ضلالٌ ولا يَطْخو(٤)
بنو العَزَفِيِّن الأُلَى من صدورهـمْ　　　وأيديهمُ تُمْلا القراطيسُ والطِّــرْخ(٥)
رياســةُ أخيــارٍ وملكُ أفاضـلٍ　　　كرامٍ لهم فـى كلِّ صالحـةٍ رَضْخُ(٦)

وهو يقول إنه ترك لميناء سبتة كل ما يرجى من نجعة ومعروف ، كما تُرِكَتْ للعز وديانها الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له فى غيرها عسل المن المذكور فى القرآن وعسل الرمان ، فحسبه أن ينعم بلقاء ملوكها العظام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ، وإنهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلىء القراطيس والطوامير

(١) النجعة: المعروف والكلأ . أهضابها : هضباتها . الشمخ : العالية .
(٢) المن والمذخ : نوعان من العسل .
(٣) الصيد المقاولة : السادة العظام . تعنو : تذل . الطراخمة البلخ : الأشراف المتكبرون .
(٤) يطخو : يظلم .
(٥) الطرخ : القطعة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها كانت تصنع من ورق البردى .
(٦) رَضْخ : عطاء .

بعلمهم ، أخيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضخ أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنِى العَزَفِيِّينَ ابْلُغُوا ما أردتمُ ... فمادون ما تبغون وَحْلٌ ولازَلْخُ(١)
ولا تقعدوا عمن أراد سِجالكم ... فما غَرْبُكم جُفٌّ ولا غَرْفكم وَضْخ(٢)
وخلّوا وراءً كلَّ طالبِ غاية ... وتيهوا على من رام شأوكُمُ وانخوا(٣)
ولا تذروا الجَوْزاءَ تَعلُو عليكمُ ... ففى رأسِها من وَطْءِ أسلافكم شَدْخ(٤)

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تتمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتعى مفاخرتكم بأعماله ،فما دَلْوكم خال ولا غَرْفكم قليل ، وخلّوا وراءكم كل طالب غاية وتيهوا وامتلئوا افتخارًا على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجوزاء تشعر بأنها تعلو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شدوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الغرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة همزية يستهلها بحنين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مديح الوزير منشدا :

ولولا جِوارُ ابنِ الحكيم محمدٍ ... لمافات نفسى من بنى الدهر إقماء(٥)
حمانى فلم تَنْشَبْ محلِّى نوائبٌ ... بسوءٍ ولم تَرْزأْ فؤادىَ أَرْزاءُ(٦)
دعانى إلى المجد الذى كنت آملا ... فلم يَكُ لى عن دعوة المجد إبطاء
وبوّأنى من هَضْبة المجد تَلْعَةً ... يناجى السُّهَا منها صُعودٌ وطَأْطَاءُ(٧)
يشيِّعنى منها إذا سرتُ حافظٌ ... ويَكْلَؤنى فيها إذا نمتُ كِلاءُ(٨)
ولا مثل نومى فى كفالة غيره ... وللذئب إلمامٌ وللصِّلِّ إلماءُ(٩)
إذا كان لى من نائب المُلْكِ كافلٌ ... ففى حيثما هوّمْتُ كِنٌّ وإدْفاءُ

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الغرناطى عليه من منة مشكورة، فلولاه لساق إليه الناس ما يشعره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر ومحنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتمنى من مجد وأنزله من هضبته مكانا عليا يناجى منه نجم السُّها صعودا وهبوطا ، وحافظ يشيِّعه إذا سار وحافظ يكلؤه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكِنّ مريح يرد البرد ودفء ما بعده دفء . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصورا بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

(١) زلخ : تزحلق .
(٢) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير . جف : خال . وَضْخ : قليل .
(٣) شأوكم : مداكم وغايتكم . انخوا : تيهوا وتكبروا .
(٤) الجوزاء: كوكب معروف. شدخ : شرخ وجرح .
(٥) إقماء : إذلال .
(٦) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .
(٧) تلعة : ربوة . طأطاء : هبوط .
(٨) يكلؤنى : يرعانى ويحفظنى . كلاّء : حافظ .
(٩) إلماء : انقضاض .

والطباق حين يريدهما ، وهو يعد فى الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسننشد له أشعارا فى الطبيعة وفى النزعة الصوفية إذ كان فنانا كبيرا فى كل ما ألم به من موضوعات .

محمد[1] بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى

أهم شعراء الجزائر فى المائة الثامنة لعهد أبى حمو موسى الثانى، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبى جمعة التلالسى وعبد المؤمن بن يوسف المديونى ومحمد بن صالح الشقرونى وابن ميمون السنوسى ومحمد بن على العصامى ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبى للثغرى ، غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبى يختار للعمل فى دواوين الدولة ، واختير الثغرى وأصبح كاتب الإنشاء لأبى حمو الثانى، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطبيعى أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوى منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفى مقدمتهم الثغرى ، وكانوا يستطردون فيها من مديح الرسول ﷺ إلى مديحه ، وسنلم بذلك فى حديثنا عن المديح النبوى إنما تهمنا الآن مدائح الثغرى فى أبى حمو موسى الثانى وابنيه أبى ناشفين وأبى زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

ياإمـــامَ الهدى وشمسَ المعالى — وغمـــام النّدَى وبدرَ النّوَادِى
لـكَ بين الملـــوك سِـرٌّ خَفِىٌّ — ليس معنـاه للعقـــول ببادِى
وكأنّ البـــلادَ كفُّك مهمـــا — كان فيهـــا من ينتمى لعِنـــادِ
لم تـــزل دائمـــا تحنُّ إليكـــم — كحنـــين السَّقيم للعُـــوّادِ
قـــد أطاعتكـــمُ البلادُ جميعًا — طاعةً أُرغمتْ أنوفَ الأعادى
فأريحُوا الجيـــادَ أتعبتموهـــا — وأقِرُّوا السُّيُوفَ فى الأغْمـادِ

وهو يشيد به ، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالى وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادى ويقول إن له سرا خفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكأنما يقبض على البلاد بكفه ، بل هى كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ،وإنها لاتزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد ،

(١) انظر فى محمد بن يوسف الثغرى التلمسانى كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص٢٩٤ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان لمحمد بن عبد الله التنسى (انظر فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفح الطيب وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

فأنت بلسمها المداوى الشافى . ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التى طالما أتعبتها وأقِرَّ السيوف فى أغمادها وعش قرير العين مطمئن البال . وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة ، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول :

فُرْسانُ عبدالوادِ آسادُ الوَغَى ... حاموا الذِّمارِ أولو الفَخار الأطولِ
وإذا أمير المؤمنين رأيته ... فالثَمْ ثَرى ذاك البِساط وقبِّل
بُشرَى لعبدالوادِ بالملك الذى ... خلصوا به من كل خطبٍ مُعْضلِ
وكفاهمُ سعدًا أبوحمّو الذى ... يحمى حِماهم بالحسام الفَيْصَلِ
وبحسن نِيَّته لهم وبجدّه ... وبسعده وبسعْيه المتقبَّل
ذُو الهمَّة العَلْيا التى آثارها ... حلَّت به فوق السِّماك الأعْزلِ

وهو يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذى خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمته القعساء التى حلَّت به فوق نجم السماك المصعد فى السماء . وكان مايزال ينظم مولديات فى احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوى وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله فى إحداها :

ظفر التُّقَى والعَدْلُ من موسى الرِّضا ... بالجوهر الفرد الذى لا يُتْأمُ
ياأيها الملك التقىّ ومن له ... شرفٌ على سَمْك السِّماك مخيِّم
أعطيتَ بالعدل الخلافة حقَّها ... فملوكها فى حقها لك سلَّموا
جودٌ وإحسانٌ وقصدٌ فى الهدى ... حسنٌ و عقد فى التقى مستحكم
وتواضعٌ يعلى وقدرٌ يعتلى ... وندَى يدٍ تَهْمِى وبشرٌ يبسم
والحلمُ أوسع والجناب مؤمَّلٌ ... والعزُّ أمنع والسجيَّة أكرم

وهو يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجوهر الفرد الذى لا نظير له ، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماك الأعلى ، وبالمثل عدله الذى يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلِّمون لك عن يد ، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمى ويهطل وبشر يبسم وحلم أوسع وكنف مؤمَّل وعز منيع وسجايا كريمة . ويظل يوصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبى حمو الثانى شاعرًا لابنه أبى تاشفين (٧٩١-٧٩٥هـ) وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله فى الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :

إمــامٌ تولّــى اللّــهُ تشييدَ فخــرهِ   فمــا شئت من مجدٍ ومن كــرمٍ عِدِّ
يعــدُّ إلى الأعــداء كلَّ كتيـــــبةٍ   بهــا الجُرْدُ تَرْدِى والفوارسُ كالأُسْدِ
يُهــاب ويُرْجَى فى جــلال جمالــهِ   كليثٍ وغيثٍ فى وعيدٍ وفى وَعْدِ
فيا مالــكا يحمى الرعيَّــة رَعْيُـــهُ   ويحييهمُ بالبـــذل والعيشة الرَّغْــدِ
ويكفلهم بالعــدل والفضــل والنَّــدَى   ويشملهم بالجـــود والرفق والرِّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتائب تضرب خيلها الأرض بحوافرها الصلبة ويضرب فرسانها الأعداء ضربات مصمية ، وإنه ليهاب كليث فى وعيده ويرجى كغيث فى وعده ، ودائما يحمى الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المدرار . ويلحق الشاعر عصر أبى زيان (٧٩٦ - ٨٠١هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لئن كان بحــرا فى العلــوم فإن فى   بَنــان يديــه للنَّدَى أبحــرا عَشْــرا
ومــاهمُّـــه إلاكتـــابٌ وســـنّةٌ   بنسخهما قد أحرز الفخر والأَجْرا
فنَسْخُ كتــاب الله جَـــلَّ جــلالهُ   ونَسْخُ البخــارى ضامنان له النَّصْرَا
ومَنْ كان يعتــدّ الشفـــاءَ شفاءَهُ   فمــن عـــلل الأوزار فى نَسْخه يَبْرا
ولم أدر والأوراقُ راقـــتْ بخطِّــه   أمسكا على الـكافور يُنثَرُ أم حِبْرا
ألاهــكذا فَلْيَسْم للمجد مَنْ سَمَا   ويُجْرِىْ لآمــاد الفضائل من أجْرَى

وكان أبو زيان كلفا بالعلم كما وصفه التنسى ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة ، وكان غيثا مدرارا فى الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغرى والتنسى - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحتفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهى على رق غزال ومحلاة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب .وكتب نسخة من صحيح البخارى ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض . وبحق ما يقوله الثغرى من أن من يعتد شفاء القاضى عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخارى وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغرى إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منثورًا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه لنفسه أبو زيان ، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفى الثغرى ، وأكبر الظن أنه توفى فى آخر القرن الثامن أو فى أوائل التاسع الهجرى .

الشهاب[1] بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبى القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقبا الحميرى نسبا ، ولد لأبيه فى قسنطينة سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م وقصد بابنه بعد ولادته توًّا لأداء فريضة الحج ، وظل مجاورا بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفى سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، فحفظ القرآن واختلف – بعد حفظه – إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيرا مما عندهم ، وشُغف – منذ صباه – بالأدب شعرا ونثرا كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه فى مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال فى إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت مجنّ ولع بعصفورى النظم والنثر فى الصبا ، مستوهبا من دوحتيهما نسمتى القبول والصَّبا ، مقتطفا لزهرتيهما من رياض الآداب ، ملتقطا لدرتيهما من أصداف الطّلاب[2] ، لا أسلك واديا لم يترنم فيه حمامهما ، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غمامهما ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما[3] ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحتويت من كنانتيهما[4] على كل سهم مصيب » . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأمَّل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحه بالهجرة إليها فى تاريخ غير معروف ، ويظن أنه هاجر إليها فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدباء ، مما أتاح له وهو فى السادسة والعشرين أن يكون فى مقدمة المهنئين لسلطان تونس عثمان الحفصى (٨٣٨ – ٨٩٣ هـ) باقتران ابنه وولى عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش فى حاشيتهما واتخذه المسعود كاتبا له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب فى حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مرارا وتكرارا فى مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله فى الكتابة بديوان المسعود الشاعر محمد الخيِّر المالقى الذى كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل فى القاهرة نحو أربع سنوات تنعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع فى الأدب ومتعلقاته »

(١) انظر فى ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودرة الحجال لابن القاضى والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد ونيل الابتهاج للتنبكتى وإتحاف أهل الزمان لابن أبى الضياف وتاريخ الأدب التونسى لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق الديوان الدكتور هشام بوقمرة (طبع تونس) وله طبعة قديمة فى القرن الماضى غير محققة .

(٢) الطلاب : المطلوب .

(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضيء .

(٤) الكنانة : جعبة السهام .

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتابة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضي عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتبا له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفى نفس السنة توفى السلطان عثمان الحفصى ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنأ به طويلا فقد ثأر منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل خريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمة الحكم ، وصوَّر ذلك ابن الخلوف فى رائية له يمدحه بها قائلا :

حُزْتَ الخلافة عاصبا لا غاصبا — والحـق ورَّثك النفيسَ المدَّخَرْ

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصبا أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصبا عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضا توفى فيه الشهاب بن الخلوف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكتفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المديح والرثاء والغزل والخمريات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتَّب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيرا من الشعر التعليمى وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المغنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضا منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، وله بديعية صوَّر فيها ألوان البديع ومحسناته لعصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آنفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جَنا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المديح النبوى ، ويبدو أن له كثيرا من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاما يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

إمـامٌ بَـراه اللهُ أولى عبـاده — بحـقٍّ وأهداهـم لأوضح حُجَّةِ
تؤمَّل نُعمـاه ويُخْشَى انتقامُه — لطالـب سِلْمٍ أولطالـب فتنـةِ
يصـولُ ويحمى شِرْعـةً نبويَّةً — بِسُمْرٍ رِشاقٍ أو بِبيضٍ جَلِيَّةِ[1]
له دولةٌ أربَـتْ على كل دولـةٍ — بتأييـدِ آراءٍ وتأييـدِ نُصْرَةِ
يحنُّ إلى المعـروف حتى يُنيلـه — كما حنَّ مشتاقٌ لوصل الأحبَّة

(١) السمر : الرماح . البيض : السيوف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويذود عنها بالرماح والسيوف المصممية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيِّرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملَّكَ رِقَّ الجود واستخدم الغِنَى ... فلم يبق عانٍ يشتكى ألَمَ الفقْرِ[1]
إذا مادعاه العُسْرُ يا محيِيَ الوَفا ... بدا فدعاه اليُسْرُ يا قاتل العُسْرِ
رَوَى الفَضْلُ أخبارَ التُّقَى عن كمالِه ... كما نمَّ عن طِيب الرُّبى طيِّبُ النَّشْرِ[2]
لقد ذُكرتْ للأوَّلين فضائلٌ ... ولكنَّ هذا الفضل لم يَجْرِ فى ذِكْرِ
سخاءُ يدٍ تَرْوِى الجداولُ ماءها ... عن السَّيْل عن قَطْر الغمام عن البَحْر
ومجدٌ كما تَرْوِى الأشعَّةُ نورها ... عن البَرْق عن زهر النجوم عن البَدْر
وحَسْبُك يافَرْعَ المكارم والعُلا ... أصولٌ زكتْ فى رَوْضة المجد والفَخْرِ

وهو يصفه بأنه استرقَّ الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى ألم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيى الوفاء ، ولم يكد يبدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى ينمان عن كماله ونبل خلقه وشمائله كما ينم الشَّذَى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينوه بفضله ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يماثله ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكأنما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تتدفق أمواجه ، وهى مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التى نمت فى روضة المجد والفخر الذى ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد فى إحدى مدائحه :

ملكٌ إذا هزَّ الحسامَ بكفِّهِ ... خرَّتْ لبارق رَعْده الخُرْصانُ[3]
لو فُرِّقتْ عزماته وهباتُه ... فى الناس لم يك باخلٌ وجبانُ
ويرى العواقبَ فى صحيفة فكره ... فكأنما أفكاره كُهَّانُ
تُعْزَى إلى الغيثِ السَّكوبِ هباتُه ... هيهات أين الغيث والطوفانُ
يُصْغى الزمانُ لأمرِهِ ولنَهْيه ... وتطيع الانسُ لحكمه والجان

(1) عان : بائس فقير .
(2) النشر : الرائحة الذكية الساطعة .
(3) الخرصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

وتراه ما بين الأسنَّة سافرا كالبدر دارتْ حوله الشُّهْبانُ[1]
أنتَ الإمام ومَنْ عداك رعيَّةٌ أنت المقدَّم والورَى أعوانُ

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال فى ميادين الحروب وهزَّ حسامه سقطت السيوف من أيدى أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر فى مبالغاته فلو وزعت هباته وعزماته فى الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكأن تنبؤاته أفكار كهان يبصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجان ، وإنه ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله فى مديحه موشحة بديعة ، يقول فى تضاعيفها :

قابل النورُ ظلمة الحَلَكِ بمصباحٍ منير[2]
ورقا النجمُ ذروةَ الفلَكِ خائفًا مستجير
بأبى عمرو الرضا الملكِ من سَعير الهجير[3]

مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرِ بطريق الصِّحاحْ
وسَرَى فى النُّهَى على قدرِ بمطايا الفلاح
لو رأى البدر وجهه الطَّلْقا لاعتراه السجودْ
لو رأى الغيث جوده الغَدْقا لاستَحَى أن يجود
فاق خَلْقًا وقد حوى خُلُقا قارنته السعود

بَوَّأ الملكَ رتبة الظَّفَرِ بعوالى الرِّماحْ
ومَحى عَزْمُه دُجَى الغِيَرِ بصباحِ الصِّفاحْ[4]

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بديعا ويخرج منه إلى مديح أبى عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبى عمرو المحبوب من نار الهجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المنتسبين إلى عمر بن الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى فى مبالغاته فلو رأى البدر وجهه المستبشر لخرَّ ساجدا ولو رأى الغيث جوده المدرار لعلاه الخجل والاستحياء ونوَّه به خَلْقًا وخُلُقا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم المضىء والشعلة الساطعة .
(٢) الحلك : سواد الليل
(٣) الهجير : نصف النهار فى القيظ .
(٤) الصفاح : السيوف . الغير : الأحداث .

له أن يقترن هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوف اتضح لنا اتضاحا تاما ، وهو صوت يكتظ بالعذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمتانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال ممتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد[1] القوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدها العثمانى ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوّده على قرائه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أعدَّه ليصبح قاضيا من قضاة الدولة . وشغف مبكرا بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما اتجه إلى المشاركة فى الشئون السياسية والتعبير عن أمانى أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمانيها فى بواكير شبابه تخليص وهران من أيدى الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م يهنئه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فرارا ، بل حتى يسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرحتْ جزائرُنا بكم وتأنَّستْ ... بمقامكم فيها بحال حُبورِ[2]
فَلْتَلْتفتْ نحو الجهاد بقوةٍ ... والكفرِ فاقطعْ أصله بذكورِ[3]
وبغَرْبِنا وهرانُ ضِرْسٌ مؤلمٌ ... سهلُ اقتلاعٍ فى اعتناءٍ يسيرِ
فانهضْ بعزمك نحوها مستنصرا ... باللّه فى جِدٍّ وفى تَشْميرِ
بعساكرٍ مثل السيول تزاحمتْ ... للسبق تحت لوائك المنصورِ

ونرى القوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراءَ وكتابا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاة العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يعنون برجال الدين فضلا عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم - حينئذ - كان تركيا خالصا ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل القوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تنتكس الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثمانى :

---

(١) انظر فى ترجمة محمد القوجيلى كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقافى (انظر الفهرس) .

(٢) حبور : سرور .

(٣) الذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

العلـمُ ميراث النبـوَّة نالـه | قومٌ لهم حـظٌّ من التنويـرِ
كم في بلادك من نجيبٍ حافظٍ | ومشـاركٍ فى النظم والمنثور
ومحقـقٍ ومـدقـق ومناظـر | من كل درَّاك الحِجَى نِحْريـر
لكنهم فقـدوا الإعانة واغتدوا | ما إن يراعيهـم ذوو التأميـرِ
ضاعوا وجاعوا لا محالة وابتُلوا | فى ذا الزمان الصعب بالتقتير

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم فى البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقيه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل نحرير حاذق فى عمله كل الحذق ، غير أنهم فقدوا ما يسد رمقهم ، وابتلوا فى العصر بالتقتير والتضييق عليهم فى النفقة ، إذ لا يراعيهم أمراؤهم أو ذوو التأمير .

ويصبح القوجيلى قاضيا فى تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكبَّ على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة فى مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكثر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيتطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

اِهنَـأْ أبـا عـبد الإلـــه بخِطَّةٍ | جاءتْك وهْى لدى الزمان جمالُ[1]
والأرض قـد فرحـتْ بمـا خُوِّلْتمُ | مرحتْ بسائطُها ومـال جبـال[2]
وتحـرَّكتْ أرْجاؤهـا طربًا بكـم | مـا مسَّها رَجْفٌ ولا زلْـزالُ
بل إنمـا ماستْ لذلك نخـوةً | حتى لقد رقصتْ بنـا الأطلال[3]

والأبيات تدل على أن ملكته الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه نحس أو شؤم فألا حسنا لفرح وسرور وحياة هنيئة طيبة . وانعقدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

(١) يريد بالخطة منصب الفتوى .
(٢) خولتم : أعطيتم . ويريد بسائطها : المنبسط من الأرض .
(٣) ماست : اختالت .

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته فى إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلى يمدحه بقصائد متعددة . وهى ظاهرة كبرى فى العهد العثمانى بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقلَّ منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبغونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلى فى إكثاره من مديح الحافظ الفقيه على بن عبد الواحد الأنصارى ، يمدحه - كما يمدح أمثاله من الشيوخ - لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلَّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مديح القوجيلى للشيخ الأنصارى قوله فى إحدى مدائحه :

أبو الصلاح علىٌّ فى الكـرام عَلا	من لا يماثلـه فى الناس من أحَدِ
بحـرٌ طَمَى فرمى دُرًّا لملتقـطٍ	غيثٌ هَمَى فنَما نفعًا لمجتهـد[1]
أكرمْ بمجلسه السامى فقد ظهرتْ	لنـا به نفحـاتُ العَوْن والمـددِ
تلاطمتْ فيه أنـواع العلـوم كما	تلاطم البحـر بالأمـواج والزَّبَدِ
من يُحْرم الرِّىَّ من صافى مشاربه	يعضُّ من نـدمٍ فى شفـةٍ ويـدِ

وهو ينعت الشيخ الأنصارى بالصلاح حتى ليجعله أياه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمى وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تتلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد فى البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول فى مدحة ثانية :

علاَّمةٌ أحيا العلوم وقـد	خفيتْ معانيهـا على الكُثُرِ
يا طالبًا للعلـم هـل لك فى	رُشْدٍ وفى الإكثـار من خَيَرِ
اقصـد لمجلسـه تَنَلْ شرفًا	وتحوز فخـرًا أيَّما فَخْرِ[2]
إن جئت مجلسَه تجدْ عجبا	منه العلـوم تفيض كالبحـر
بدرايـةٍ وروايـةٍ ثبتـتْ	بصحيح إسـنادٍ عن الغُرُرِ[3]

وهو يشيد بعلمه وتناهيه فيه أو بلوغه منتهاه ، حتى ليعدّه محييا له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأسانيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات فى

(١) طما : امتلأ . همى : سال .

(٢) رفع تحوز ولم يجزمها عطفا على فعل تنل فى جواب الأمر لضرورة الشعر .

(٣) الغر : الثقات .

العقد الحادى عشر الهجرى وظُنَّ أن الباب العا
ونرى القوجيلى يذهب إلى إسطانبول على
من السلطان -وكان حينئذ محمد خان الرابع- موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف با
وما إن يضع القوجيلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطانبول أبى سعيا
يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفده
فيها :

سعدتَ فدُمْ فى العِزّ واستكمل العَليا
وكُنْ ملجأً للوافدين فمن يُعِنْ
شكايتنا مما دهانا بقُطْرنا
وكم من أميرٍ ظُنَّ يكشف ضُرَّه
وأولاهمُ فى العزم والحزم والوفا ... سمى الذى فى السجن قد عبّر الرّؤيا
فكن عَوْنَنا عند الخليفة وامْضِيَنْ ... بنا بين أيدينا لحضرته العليا

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سمىّ الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبيه أى أنه يوسف باشا سمى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأملون . ولا نعرف شيئا عن القوجيلى بعد هذه الوفادة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أنبه شعراء العهد العثمانى .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال العصور التالية إلى اليوم مثاليتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبياتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

---

(١) المعلوات جمع معلوة : الرفعة والشرف .
(٢) الغى : الضلال .
(٣) يلفى من ألفى : وجد . وهى : ضعف .

ما يلقانا فى الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبى الرجال الشيبانى وزير المعز بن باديس مفتخرًا بقومه(١) :

يا آل شيبانَ لا غـارتْ نجومكـمُ ... ولا خبَتْ نـارُكم مـن بعد توقيدِ
أنتم دعـائمُ هذا الملك مذ ركضتْ ... قَبْلُ الخيولُ لإبـرامٍ وتوكيـد
المنعمـون إذا ما أزمـةٌ أزمـتْ ... والواهبـون عتيقات المزاويـد(٢)
سيوفُكم أفقدتْ كسـرى مرازِبَه ... فى يوم ذى قارَ إذ جـاءوا لموعود

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة فى سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفىء أبدا ، إذهم دعائم الملك العربى منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد المواثيق ، وقد اشتهروا بما ينعمون فى الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذى نكّلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا : منقبة عظيمة لقبيلته شيبان فى الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ .
ونرى الحسن بن الفكون القسنطينى المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى يفتخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا(٣) :

دَعِ العـراق وبغـدادًا وشامَهمُ ... فالناصريَّـةُ ما من مثْلِهـا بلَـدُ
بَرٌّ وبَحْرٌ ومَـرْجٌ للعيـون بـه ... مسـارحٌ بان عنهـا الهمُّ والنكَدُ
حيث الهوى والهواءُ الطلقُ مجتمعٌ ... حيث الغِنى والمُنَى والعيشة الرَّغَدُ
والنَّهْرُ كالصِّلِّ والجنّـاتُ مشرفةٌ ... والنهـر والبحـر كالمرآة وهْوَ يَدُ
إن تنظـر البَرَّ فالأزهـارُ يانعـةٌ ... أو تنظر البحـر فالأمـواجُ تطَّردُ
يا طالبا وَصْفَها إن كنت ذا نَصَفٍ ... قُلْ جنّةُ الخُلْد فيها الأهـلُ والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مَرْج بأشجاره ونباتاته البديعة التى تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهواء الطلق الذى يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجرى كصلٍّ أو أفعوان ، والجنات تحفهُ من كل جانب ، وكأنما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهى - بإنصاف - جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد(٤) بن على الملياني المتوفى سنة ٧١٥ هـ/١٣١٦ م :

(١) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .
(٢) المزاويد جمع مزود : وعاء الزاد .
(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .
(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قبابى | والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابى
والزهرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى | والمسكُ ما أبداهُ نَقْشُ كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحَمَ مَوْردى | والعَزْم يأبى أن يُسامَ جنابى
وإذا بلوتُ صنيعةً جازيتها | بجزيل شكرى أوجزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مودَّةً أجريتها | مجرى طعامى من دمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالعز ما ضُرِبت عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ، والزهر كلماته مماكتبه قلمه ، والمسك نقش كتابته ، وبلغ من المجد أن لا يزاحمه أحد فى مورده كما بلغ من العزم أن لا يُرْعى جنابه ، فحماه لا يسام ولا يضام ، وإذا اختبر صنيعة أو معروفا بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى الطعام من دمه وشرابه . ويفتخر ابن خميس شاعر تلمسان بعروبته ودينه الحنيف ، منشدا :

إنا – بنى قحطانَ – لم نُخْلَقْ لغيرْ | غياثِ ملهوفٍ ومَنْعة لاجى
بسيوفنا البيض اليمانيَّة التى | طُبِعتْ لحزِّ غَلاصمٍ ووِداجِ[1]
تأبى لنا الإحجامَ عن أعدائنا | يوم اللقاء طهارةُ الأمْشاجِ[2]
أنصارُ دين الهاشمىِّ وحزبُه | وحُماتُه فى الجَحْفل الرَّجْراجِ[3]
وحُماته بنفوسهم ونفيسهم | من غدر مغتالٍ وسَوْرة هاجِ[4]
منا التبابعةُ الذين ببابهم | كانت تُنيخ جُباةُ كلِّ خراجِ[5]
ولأمرهم كانت تدينُ ممالك الدُّنْيا | بلا جَبْرٍ ولا إخراجِ
أبوابهم مفتوحةٌ لضيوفهم | أبدا بلا قُفْلٍ ولا مِزْلاجِ

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمنيين الذين إنما خلقوا لغياث الملهوف وحماية اللاجىء لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن أنسابهم لتأبى لهم الإحجام عن لقاء أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمنيين أو من أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماته حين تنشب الحروب حموه بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر مغتال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهاجيهم . ويفخر بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأمراؤها فى الجاهلية الذين كان يُجْبَى لهم الخراج من أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدين لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

---

(١) طبعت: صيغت. الغلاصم جمع غلصمة : الحلق . الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المذبوح .
(٢) الأمشاج جمع مشج : النطفة .
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير لكثرته
(٤) سورة : حدَّة
(٥) تنيخ : تنزل .

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم دائما لا تغلق أبدا . ويعتلى عرش دولة بنى عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر فى الجزائر على مر العصور ، وأقصد أبا حمو موسى الثانى ، وحرى أن أقف قليلا لأترجم له وأعرض أطرافا من فخره .

أبو حمو[1] موسى الثانى

ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن فى أواخر مقامه بغرناطة فى بلاط سلطانها أبى الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م وفى تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (٧١٨ – ٧٣٧ هـ) ولبَّوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبى حمو موسى ومرباه الأول فى تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المرينى على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبى سعيد وأبى ثابت سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩م حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المرينى سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣م رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس وسلطانها أبا إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧م واستولى فيها السلطان المرينى أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصى إلى إقليم الجريد جنوبى الإقليم التونسى ، واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه فى السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصى وأبو حمو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم فى مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بنى عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد الهلالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبى عنان المرينى فى أواخر ذى الحجة سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه فى الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩م وجدَّ فى السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان فى طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولَّى عليها ابنه محمدًا وترك معه حامية ، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناوشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبى حمو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها فى غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسى إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاسُ عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاقٌ يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنضيه ، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه » . وقد غيَّر اسم الدولة ، إذ

(1) انظر فى ترجمة أبى حمو موسى الثانى تاريخ ابن خلدون والجزء الثانى من بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسى ص١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حمو موسى الزيانى : حياته وآثاره للدكتور عبد الحميد حاجيات .

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والديغمراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزها وسلطانها واسترد لها بلدانها فى الجزائر : وهران والجزائر وتدلس ، وكثرت الحروب فى أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبى سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتى المدية ومليانة ، ونشبت بينه وبين أبى حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته فى أواخر سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م وانتهز السلطان عبد العزيز المرينى فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ/١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل فى الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المرينى سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبى تاشفين وإخوته ويُغتال يحيى بن خلدون كاتب أبى حمو ومؤرخه فى مؤامرة دبَّرها ولى العهد سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المرينى - واستولى - على تلمسان ، غير أن الأحداث فى عاصمته فاس اضطرته إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتسوء العلاقات سوءا شديدًا بين ولى العهد أبى تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبى تاشفين سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غيَّر رأيه ، واتجه إلى تلمسان ، واستثار كل من كان فى طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلحق بفاس واستعان بسلطانها المرينى ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبى حمو وتوفىً . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية وقد نهض بالعلم فى دولته واشتهر بها كثير من العلماء فى مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيوخ والطلاب. وكما نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتَّابه وشعرائه محمد بن يوسف الثغرى الذى مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن على العصامى ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، كان يُبدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدْعَى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أديبًا بارعًا وله كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وسنلم به فى حديثنا عن النثر فى الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرًا الدكتور عبد الحميد حاجيات فى كتابه عن أبى حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره فى تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبائه وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقتحامه للزاب وريغ وورقلة والحمادى

والتقائه بالجنود المرينيين وبطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمنـا شَتِيتَ الملك بعد افتراقـهِ — وكم بـات نهبـا شمله دون ناظمِ
شَـدَدْنا له أزرا وشِـدْنا بنـاءه — بأوثـق أركانٍ وأقـوى دعائـم
فصارتْ ملوكُ الأرض تأتى مطيعة — إلى بابنـا تَبْغى التمـاس المكارم
وجاءت لنا من كُلِّ أوبٍ ووجهةٍ — تبايعنـا طوعـا وفـودُ العمـائم
وقمنـا بأمـر الله فى نَصْر دينـهِ — وفى كفٍّ ماقد أُحْدِثَتْ من مظالم

وهو يفتخر بأنه أعاد للملك الزيانى المنهوب نظامه وسلطانه ، وشدَّ أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيُّون من مظالم ، ويفتخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

أنزلتُ النـاس منازلهـم — وتركت الظـالم فى وَجلِ
أحمى المظلـوم وأنصـرُه — وأقيم الحـق على عجـلِ
وأنا للحـرب كَعَنترهـا — وأنا فى السلم أخو جَذلِ
وأنا موسـى وأبو حمـو — أصلحُ للملك ويصلح لى
سـيفى إن صُلْت بقائمِـه — أدْنـى المُرَّاقَ إلى الأجـل
وكذا كفَّاىَ إذا انبسطتْ — مـن كـان مقلاً عادَ مَلِى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عنتر بن شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مِدْرار وإن كفيه لتنثران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليئا ثريا ، ويقول مفاخرا :

وما يِسوى العَلْياء هِمْنا جلالـةً — إذا هـام قومٌ بالحسـان النَّواعمِ
بروقُ السيـوف المشرفيَّـاتِ والقَنا — أحبُّ إلينـا من بـروق المباسـمِ

وأحسنُ من قَدِّ الفتـــاة وخَدِّها		قـدودُ العوالى أوخدود الصوارمِ[1]
وأما صَهيل السابحات لدى الوَغَى		فأشْجَى لدينا من غِنـــاء الحمائمِ
إذا نحن جرَّدنـــا الصـــوارم لم تَعُدْ		لأغمادهـــا إلا بحزِّ الغـــلاصمِ[2]

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة ، وأحسنُ عندنا من قَدِّ الفتاة وقوامها وخدها الجميل قدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل فى الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترانا فى الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأغمادها إلا بحزِّ الغلاصم والرقاب ، ويمضى فى القصيدة قائلا :

ألا أيهـــا الآتى لظِـــلِّ جَنابنـــا		نزلتَ برَحْبٍ فى عِراص المكارمِ[3]
وقوبلـــتَ منـــا بالذى أنت أهلُـهُ		وفـاض عليكَ الجود فيضَ الغمائمِ
بهمَّتنا العليـــا سمونا إلى العُـــلا		وكم دون إدراكِ العلا من ملاحـــم

وهو يبشر من ينزل بجنابهم وفى كنفهم أنه ينزل برحب أو واسع فى عرصات أو ساحات المكارم ويقابَلُ بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الهاطل . ويقول إنهم لذوو همم عالية سمت بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرا فى انتصار له على الدولة المرينية :

لقـد نهضـــتُ بعـــون الله متَّـكلا		على الإلـــه ومن يرجـــوه لم يَخبِ
بعسكرٍ لَجِبٍ ضـــاق الفضـــاء به		كالبحر أعظِمْ به من عســكرٍ لجِبِ
منـن كل لَيْثٍ شجاعٍ فـارسٍ بطـــلٍ		حامى الذِّمار من الأعجام والعَربِ[4]
عـــلى ســوابق خَيْلٍ ضُمَّرٍ عُـــرُبٍ		تُزْهَى بحليتها كالخـــرَّد العُرُبِ[5]
بهـــا وَطِئْنا بـــلادًا لاسبيـل لهـــا		ومـا أردنـا تناولنـــاهُ من كثَبِ[6]

وهو يقول إنه نهض لحرب المرينيين مستعينا بربه متكلا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجاؤه ، وقد نازلهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجيبة

---

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .
(٢) الغلاصم جمع غلصمة : ملتقى اللهاة والمرىء . وهى تقطع مع الرقبة .
(٣) عراص جمع عرصة : الساحة .
(٤) الذمار : الحمى وما يحميه الإنسان من الأهل والولد .
(٥) الخرد جمع خريدة: الجميلة.عرب: معجبة بنفسها.
(٦) كثب : قريب .

تزهى بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذللونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانقادت إلينا انقيادا . وجمع الحافظ التنسى فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى ، وكان فى الأصل لعنات يصبها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلى ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسلّ شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال الهجاء فى العصر الأموى على لسان الفرزدق وجرير إلى ما يشبه مناظرة حادة فى بيان فضائل ومساوىء عشيرتيهما وقبيلة تميم التى كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التى كان يدافع عنها جرير . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسى الأول من الهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوىء الفردية والاجتماعية فى المهجو مع التهوين منه والإيلام إيلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا الهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائرى بكر بن حماد التاهرتى وهو أول شاعر جزائرى له أهاج مختلفة ، وسنترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتى فى القرن الثالث الهجرى ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالى تاهرت على البحر المتوسط ، فقال يأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها[1] :

نأى النوم عنِّى واضمحلَّت عُرَى الصَّبْرِ ... وأصبحتُ عن دار الأحبَّـةِ فى أَسْرِ
وأصبحت عن تاهرتَ فى دار غُرْبَةٍ ... وأسلمنى مرُّ القضـاء من العُـذْرِ
إلى تنـسٍ ذات النحـوس فإنهـا ... يُسـاقُ إليهـا كلُّ منتقص العُمْرِ
بـلادٌ بهـا البرغـوثُ يحمل راجـلا ... ويـأوى إليهـا الذئب فى زمن الحرِّ
تـرى أهلهـا صَرْعى ومـن أمِّ مِلْدَمٍ ... يروحون فى سكرٍ ويغدون فى سكرِ

فالنوم بَعُد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كأنه فى أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التى لا يدفع إليها إلا منتقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملأ عرصاتها صيفا ، أما أم مِلْدم أى الحمى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنهم فى سكر دائم . ولمحمد بن الحسينى الطبنى فى أحد خصومه[2] :

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٤٧ .

(٢) الجذوة للحميدى ص ٥٠ .

ووغْـدٍ إن أردت لـه عقابًـا عَفى عن ذَنْبِه حَسَبى ودينى
يـوِّنبنى بغيبـةِ مستطيـلٍ ويلقـانى بصفحةِ مستكينِ
وقالوا قد هجاك فقلت كلبٌ عَوَى جَهْلا إلى لَيْثِ العَرِينِ

وهو يقول عن خصمه إنه رَذْل دنىء إن فكرت فى عقابه عفا عن ذنبه شرفى ودينى ، يأكل لحمه غائبا ويلقاه خاضعا ذليلا ، وما مثله إلا مثل كلب يعوى إلى أسد فى عرينه ومأواه . وكانت أسرة هذا الشاعر قد هاجرت إلى قرطبة فى أوائل القرن الرابع ، ومنها عبد الملك الطبنى المحدث جليس المنصور بن أبى عامر ، ويروى أن المنصور عدا على شخص يسمى الحَذْلَىّ فى مجلسه وضربه ضربا موجعا ، فقال عبد الملك متشفيا فيه وهاجيا[1] :

شـكرتُ للعامـرىِّ ما صنعـا ولم أقـل للحُذَيْلَمِىّ لَعَـا
ليـثُ عَـرينٍ عـدا لعزَّتـه مفترسًـا فى وِجـارِه ضَبُعا
وَدِدتُ لو كنت شـاهدًا لهمـا حتى ترى العين ذُلَّ مَنْ خضعا
إن طـال منه سجودُه فلقـد طـال لغير السجـود ماركعا

وهو يشكر العامرى ولا يقول للحذلمى : لعا أى أقال الله عثرتك ، ويصور العامرى ليث عرين افترس ضبعا فى وجاره أو بيته ومأواه ، ويقول ليته كان حاضرا ليرى ما ركب الحذلمى من الذل والهوان ، ويرميه بأنه كثيرا ما ركع فى غير الصلاة ، يريد أنه عاهر الخلوة ، وهو هجاء مقذع . وكانت الجزائر وغير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعرى غالبا ، وبلغ من تغلغل عقيدته فى نفوسهم أن نرى ابن مرزوق الخطيب الجزائرى المتوفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م يغضب حين سمع قول الزمخشرى فى كشَّافة معرضا بأهل السنة بل هاجيا هجاء قبيحا قائلا :

وجماعـةٍ سموا هواهـم سنَّةً وأراهـمُ حُمُرًا لعمرى موكَفَهْ
قـد شبَّهوه بخَلْقِه وتخوَّفـوا شُنَـع الـوَرَى فتستَّروا بالبَلْكفه

وهو يقول إن جماعة سمت هواها الذى تعتنقه سنة ، وهم حُمر ، عليها وُكُفُها أو براذعها ، إذ شبهوا الله بخلقه ، فقالوا إنه يُرَى متسترين بالبلكفة أو بقولهم إنه يرى بلاكيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين ، وردَّ على الزمخشرى كثيرون من أهل الجزائر وغيرهم ، وردَّ ابن مرزوقِ الخطيب معنِّفًا له ولأصحابه من المعتزلة جميعا قائلا :

(١) الذخيرة لابن بسام تحقيق د.إحسان عباس ٥٤٣/١ .

وجمــاعةٍ عُرِفَتْ لعمـرى بالسَّفَه ... وتمسَّكتْ بضـلال أهل الفلسفه
عدَلتْ عن النهج القويـم فلُقِّبَتْ ... عَدْلِيَّةً وعـدولُها عن معرفـه
ضَلَّتْ وقـالت لن يُرَى ربُّ الوَرَى ... يوم الجـزاء وألزمتْ نَفْى الصِّفه
وكذاك أسْلمت الأمـورَ لنفسها ... هيهـات تنقذ نفسهـا من مَتْلفه
كيف السبيــلُ لصرفها عن غيِّها ... والعـدلُ يمنع صَرْفها والمعرفـه

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جَلَّ شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينعى على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هى عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنقاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتمنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادىء أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فيه بابن على المفتى الحنفى فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نَصبوا حبـائلَ مكرهم وتعرَّضوا ... بسهامهـم للنَّجْم فى كيوانِـهْ
من كل أهوجَ أرْعَنِ الأخلاق قد ... أرْبَى على فرعـون معْ هامانه
أجلافُ هذا العصر حقـا لو رأوا ... حسَّانَ ما جنحـوا إلى إحسـانه
إن أنكروا فضلى لخُبْـثِ طباعهم ... فالدرُّ ليس يعـزّ فى أوطانـه

وهو يقول إنهم نصبوا حبالات مكرهم وأرسلوا علىَّ سهام هجائهم ولكن أنَّى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان فى بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فى روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمائرهم ، فالدر لا يُعْرف فضله فى وطنه . وكان ولاة العثمانيين يبطشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبى على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسى ، وهو حرى بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتى الذى مر بنا ذكره .

بكر[1] بن حماد التاهرتى

تقع تاهرت مسقط رأس حماد فى الجنوب الغربى من مدينة الجزائر ، ومرَّ بنا فى غير هذا

(١) انظر فى ترجمة بكر رياض النفوس للمالكى ومعالم الإيمان للدباغ ٩٢/٢ والأزهار الرياضية لسليمان البارونى ٧١/٢ وما بعدها وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ٤٥٣/٢ . وقد جمع ديوانه وشرحه وقدَّم له محمد بن رمضان شاوش باسم الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتى .

الموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتنق مذهب الخوارج الإباضية ، وأتته جموع الخوارج من كل مكان فى المغرب . وكان أئمة هذه الدولة – على شاكلته – يفسحون لأهل السنة والمعتزلة فى مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بثّتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل فى سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد المشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل فى رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدَّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده فى الحديث النبوى ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته فى الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة فى اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابى ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته فى الشعر ، ففسحوا له فى مجالسهم ، وتعرّف على دعبل هجّاء الخلفاء : المعتصم العباسى وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائرى مدح المعتصم وأجزل له فى العطاء مما جعله يخاصم دعبلا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرِّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجـو أمـير المؤمنـين وَرَهطَهُ	ويَمْشى على الأرض العريضة دِعْبِلُ
أمـا والذى أرسى ثَبيرا مـكانه	لقد كادت الدنيـا لذاك تَزَلْزَلُ
ولكـنَّ أمـيرُ المؤمنـين بفضله	يهمُّ فيعفـو أويقـول فيفعـل

وكأنه فى الكلمة الأخيرة من أبياته يحرِّض المعتصم على الفتك بدعبل ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتلته يا بكر ، وكأنما أعجبته كلمة أبى تمام – حبيب بن أوس – فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبى تمام قائلا :

وعـاتبنى فيـه حبيـبٌ وقـال لى	لسـانك محـذور وسُمُّك يقتـلُ
وإنى – وإن صرَّفت فى الشعر منطقى–	لأنْصف فيما قلتُ فيـه وأعـدل

ولم يطل ببكر المقام فى بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر فى القيروان عاصمة المغرب الأدنى (الإقليم التونسى) واختلف إلى حلقات شيخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة فى فقه مالك الذى كانت شهرته تدوى فى المغرب ، والثانى محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعى وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ فى البصرة مسند مسدَّد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدَّد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب فى القيروان ، وقد نال فى دراسته للحديث النبوى شيئا من

الشهرة فى زمنه ، إذ يقال إنَّ الحافظ الأندلسى الكبير قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠هـ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتابين المذكورين آنفا أو هما معا .

وكان بكر مع تدريسه الحديث النبوى يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوما الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٩٠هـ) فى قصره حاملا إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواريه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكتب بكر أبياتا فى رقعة ، وتلطف إلى الحاجب فى إيصالها إليه ، وفيها :

خُلقن الغـوانى للرجـال بَلِيَّةً   فهـنَّ موالينـا ونحن عبيدُها
إذا ما أردنا الوِرْدَ فى غير حِينه   أُتتنا به فى كل حينٍ خدودُها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصُرَّة بها مائة دينار ، وإنما روينا هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويثيبونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها فى عهد أميرها الرستمى الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح (٢٨١- ٢٩٤هـ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له فى مدحه :

أبا حاتمٍ مـا كان مـا كان بِغْضةً   ولكنْ أتتْ بعد الأمـور أمورُ
فأكرهنى قـومٌ خشيتُ عقابهم   فداريتهم والدائـراتُ تـدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى وينال جوائزهم، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ٢٩٦للهجرة .

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاوش استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تتناول من أغراض الشعر العربى الهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والرثاء ، وذكر فى الهجاء المقطوعة السالفة فى دعبل التى يحرض فيها الخليفة المعتصم على الفتك به. ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد، حتى المحدِّثون، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م قائلا :

لقـد جفَّت الأقلامُ بالخلق كلهم   فمنهـم شقىٌّ خـائبٌ وسعيدُ
أرى الخيرَ فى الدنيـا يقلّ كثيرهُ   وينقص نقصا والحـديثُ يزيد
ولابنِ معينٍ فى الرجـال مقـالةٌ   سيُسْأل عنهـا والمليكُ شهيـد
فإن يك حقـا قولُـه فَهْو غِيبَةٌ   وإن يك زورا فالقِصاص شديد
وكل شياطـين العبـاد ضعيفةٌ   وشيطانُ أصحاب الحديث مَرِيدُ

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير فى الدنيا آخذ فى القلة والنقص ، والحديث فى ذلك يطول . ويتعرض ليحيى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هيأ بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم محّص رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثّق راويا للحديث يكون مغتابا له أو يكون قد أولاه شرفا رفيعا ؟ ومعاذ الله أن يكون يحيى بن معين قد زوّر على راو صدوق للحديث تجريحا أو اتهاما بسوء ، ومعاذ الله ثانية أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحيى بأنه شيطان مريد أو خبيث للمحدّثين ، نضّر الله وجه يحيى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حِطّان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[1] :

يا ضربـةً من تَقِيٍّ ما أراد بهـا ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأذكـره حينًا فأحسبُـــه ... أَوْفَـى البريَّة عنـد الله مـيزانا

وسمع -أو قرأ- البيتين بكر بن حماد السُّنِّىّ فاستشاط غضبا وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام ليبين مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول:

قل لابن ملجـمَ والأقـدارُ غالبـةٌ ... هدمتَ - ويلك- للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشى على قَـدمٍ ... وأوَّلَ النـاسِ إيمانـا وإسلامـا
وأعلـمَ النـاس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسـول لنا شرعا وتبيانا
صهـرُ النبىِّ ومـولاه وناصـرُه ... أضحتْ مناقبـه نـورا وبرهانـا
وكان منه -على رغم الحسود له- ... مكانَ هرون من موسى بن عِمْرانا
ذكـرتُ قاتلـه والدمـع منحـدرٌ ... فقلت سبحان ربِّ الناس سبحانا
أشقى مُرادٍ إذا عُدَّت عشائرهـا ... وأخسـرُ النـاس عند الله ميزانا
يـا ضَرْبـةً من شقـىٍّ أورثته لظـىً ... مخلَّدا وأتـى الرحمـن غضبانـا

وبكر يصوِّر فضائل الإمام على ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيمانا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارًا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مراد وأخسر البرية ميزانا عند ربه ، ويا لهـا ضربة أو طعنة ستصليه نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنها أهجية مريرة لسنى ضد قاتل

(1) انظر كتابنا : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام على . ولعل فى كل ماأسلفت مايصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر فى القرن الثالث الهجرى لما ينتظر الجزائر فى الشعر من مستقبل خصب .

سعيد[1] المنداسى

هو سعيد بن عبد الله المنداسى الأصل التلمسانى موطنا ومنشأ ، عاش فى القرن الحادى عشَر الهجرى ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شىء عن أسرته ونشأته ، ولابد أن نشأ مثل لداته يعنى بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » فى نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان فى شبابه تغلى دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد المنداسى ، وكثيرا ما كان يذكى ثورة التلمسانيين بشظايا من شعره الشعبى ، وأحيانا يفزع إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوّفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجلماسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى فى الخمسينيات من القرن الحادى عشر الهجرى ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد المنداسى بحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن المنداسى مدحه بقصائد شعبية كثيرة وإنه أغدق عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقرّبه ويجزل له فى العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوى سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع فى الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلّص كثيرا مما كان منها شمالا بيد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدًا المنداسى يتغنى طويلا بحديثه فى شعره الشعبى ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه ، حتى ليقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفى الشاعر فى عهده بسجلماسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد المنداسى سواء الشعر الشعبى والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والغزل

(١) انظر فى ترجمة سعيد المنداسى وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ رابح بونار (طبع الجزائر) . وراجع ديوان المنداسى فى الأدب الشعبى لمحمد بخوشة . وانظر فى الدولة العلوية وعلاقة المنداسى بها الاستقصا فى مواضع مختلفة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء – قبل مبارحته تلمسان – للعثمانيين ، ومن قوله فى وصف أهاجيه :

كأن قـوافى الشعر منّى جنادلٌ وكفُّ الزمان منجنيقٌ بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبحة لحاكم تلمسان العثمانى ، إذ سلط جنده على بعض أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم وذراريهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوَّغ لهم ذلك فى فتوى جائرة ، فصبَّ عليه وعلى العثمانيين فى أهجيته سياط هجائه غاضبا غضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل قوله :

وأكـبرُ شىءٍ أفسدتْـه أكفُّهـم تلمسانُ عَيْنُ الغرب علما وإيمانا
وكانت لهـم لما أرادوا فسادهـا أراذلُ منهم كالبطـارق أعوانـا

وهو يقول إن أكبر شىء أو مدينة أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أراذل كبطارقة النصارى العتاة ، ويلتفت للفقيه ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سوّلت للحاكم العثمانى جريمته الآثمة فيقول :

فقـل لابن زاغـو للضلال أئمـةٌ تدبَّرْ – لحاك الله – ما قال مولانا
ولاتركنوا – والرُّكْنُ منك سجيَّةٌ – كأنـك لم تسمـع من الله قرآنـا
قتلتَ فُحـولَ العلم صَبْرًا ولم تزل على عهدك المعلوم فى الزَّيْغ هَيْمانا
فأيَّمتَ بالفتـوى نسـاءً كريمـةً ويتَّمتَ بالقـول المضلِّل ولدانـا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى الأرض ، ويتجه إليه قائلا : تدبَّر – قبَّحك الله – ما قال الله فى كتابه : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبئس الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزيغ والضلال ، لقد أيمت نساء وجعلتهن ثكلى فاقدات لأزواجهن الذين يعولونهن باكيات عليهم نادبات ويتمت أطفالا صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء وما حملوا من رءوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكتب التوحيد من مثل السنوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويعود إلى تصوير فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اقتلـوا فالقتلُ يَرْدَعُ غيرهـم ... ولا رَقَّ ذاك القلـبُ منه ولا لانا
تعالـوا تروا ضِلّيلَ فى زىِّ ناسـكٍ ... يطوّل من ثـوب الضلالـة أرْدانا
وقـد قُدَّ ذاك الثوبُ من كل موضعٍ ... ومـرَّ بأبصـار الخلائـق عُرْيانا
إذا شيـم منه الخيرُ فالبرق كاذبٌ ... وإن صال منه الرعدُ يهلك بُلْدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لزجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكأنما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطوّل من ثوب الضلالة أردانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قُدَّ وشقّق ومزّق حتى أصبح – رغم لبسه له – عريانا ، وحتى لو رُؤى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيـا آلَ ديـن اللّـه مـالى أراكـمُ ... نيامًا وكان الطَّرْفُ من قبـلُ يقظانا
أمـا تذكـرون الأهـل والزمن الذى ... عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرانا
وهـلا سألتـم عن يتـامى تفرَّقتْ ... أيـادى سَبًا فى الغَرْب أنثى وذُكرانـا
فقُـل لابن زاغـو رأس كلِّ خطيئةٍ ... قِلًى تحسبـون الفتك بالأهـل سُلْوانا
ألا إنك الدَّجَّـال للنـاس فتنـةً ... تأهَّبْ لزَوْحِ الله فالحَيْنُ قـد حانـا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل ويذودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويتّموا أبناءهن وتفرقوا فى البلدان مِزَقا أناثا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قِلًى وبغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبابه ، وإن فاته أن يحمل السلاح فى وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامى سهاما يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رءوسهم وصدورهم محاولا – بكل جهده – أن يستثير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذيقوهم نكالا ووبالا .

٥

الشعراء والشعر التعليمى

مرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيأ لاستحداث الشعر التعليمى الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كليلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك الفرس وأيضا له منظومة فى الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم فى هذا الفن التعليمى الأصمعى فى الملوك والأمم البائدة كما نظم إبراهيم الفزارى منظومة طويلة فى الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسى الأول رسخ هذا الفن فى الشعر العربى وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلح أبان وأصحابه فى العصر المذكور على أن يُنْظَمَ من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربى أنغاما ومن أكثرها قبولا للتغير فى تفاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية. وأخذت الأقاليم العربية تسهم فى هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماؤها ، إذ يرون أن يضعوا فى علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع فى هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، ونلتقى فى القرن الخامس الهجرى بابن أبى الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م وله أرجوزة فى الفلك والتنجيم ، ويلقانا فى القرن السابع يحيى[1] بن عبد المعطى المولود سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ فى بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبى فى الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدر لإقراء الطلاب فى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وكان يقرأ لهم ألفيته التى نظمها فى النحو ويفسر أبياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك ومازال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة فى النحو . ونمضى فى القرن السابع ونلتقى بأبى إسحق[2] إبراهيم بن أبى بكر الأنصارى التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م وقد نظم فى الفرائض (علم الميراث) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسانية ، وهى أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبة الوضع لم يصنف فى فنها مثلها وقد طارت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . وممن كثر نظمهم فى الشعر التعليمى ابن[3] مرزوق الحفيد وله ألفية فى القراءات فى محاذاة ألفية الشاطبى : حرز الأمانى ، وأرجوزتان فى علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة فى تلخيص كتاب المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى ، وأرجوزة فى الميقات أو الفلك

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور ٢٧٤/١ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته فى البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٢٨/١ ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ص ٣٠٥ .

فى ألف وسبعمائة بيت سماها المقنع الشافى ، وله أرجوزة فى تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة فى نظم كتاب الجمل فى المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر التعليمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك[١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد[٢] بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلّها بقوله :

الحمد لله وهْو الواحـــدُ الأزلى   سبحانه جلَّ عن شِبْهٍ وعن مثَلِ

نظمها فى مقتبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوَّت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد[٣] بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتتحها بقوله :

الحمـــدُ لله الذى دَلَّ عليـــه   إيجادُنا ثم افتقارُنـــا إليـــه
وبعد فالتوحيدُ أشرفُ العلومْ   وهْو أساسها الذى بـه تقومْ

ولابن[٤] زكرى معاصرهما المتوفى سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب – كما قلنا فى غير هذا الموضع – كانت تعتنق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى ونلتقى بالفقيه أحمد[٥] بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمـــد لله الـــذى عرَّفنـــا   بنفسِـــه وبالهـــدى شرَّفَنـــا
وبعد فالمقصود من هـذا النظامْ   نظمُ عقيدة السَّنوسىِّ الإمـــامْ
من غَـــيْرِ تبديـــلٍ ولا تغـــييرِ   سوى اختلاف اللفظ والتعبيرِ

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخضرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(١) انظره فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله ١/١٠٩ وما بعدها .
(٢) راجع تعريف الخلف ١/٣٨ وسعد الله ١/٨٤ .
(٣) انظره فى البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ١/٩٠ .
(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ١/٨٥ .
(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ – ٢٤ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولمحمد بن علي بهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء[1] :

مَـنْ يَبْتـغ العِـزّ يرفعـنْ هِمّتَـهُ بالضـمّ عـن كل مَخْلوقٍ يَرَى عَجبا
وبـين عينيـه يَنْصِبَنْ منيّتـه بفتـح بابِ اللَّيْثِ المـوتَ قد نُصبا
ويَخفض النّفسَ لا يَبْغي لهـا شَرفـًا بكسـرِ شهوتهـا ينـالُ مـا طلبَا
بـذا يجـرُّ لهـا النّفعَ مجاهدُهـا فإن عصتْـه رمى بسهمـه عَطَبا
واجْزم على اللّهْو نَفْسًا طالما اضطربتْ وبالسكون يكـون الجَـزْمُ خُذْ أدبا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الأبيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة تسمى اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن آجروم الصنهاجي. ونلتقي بأحمد[2] البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٣ م والمتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، ومما يتعلق بالقرآن الكريم نَظَم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض (علم الميراث) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسية في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفى ببجاية سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقي أو مغربي إلا نظمه ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعز بن عبد السلام والتفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسنوسي وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنيين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرىّ بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضري أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد[3] الرحمن الأخضري

ولد عبد الرحمن الأخضري في بنطيوس من قرى بسكرة في الزاب حوالي سنة

---

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .

(٢) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف ٥٢٢/٢ .

(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعد و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ وما بعدها .

١٠٢٠ هـ/١٦١١ م .وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيوخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقرانه من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وآداب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد مترجموه برسوخه فى المعقول والمنقول ، وظل يرعى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألَّف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سحنون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرة البيضاء فى الحساب وعلم الفرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض (علم الميراث) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونُصَّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخضرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حسين الورتلانى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخضرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى وسمى منظومته الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمنهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخضرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المرونق فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمد لله الذى قد أخرجا ... نتائجَ الفكر لأرباب الحِجا
وحطَّ عنهم من سماء العَقْلِ ... كلَّ حجابٍ من سحاب الجهلِ
حتى بدت لهم شموس المعرفه ... رأوا مخدَّراتها منكشفه
نحمده جلَّ على الإنعامِ ... بنعمة الإيمان والإسلامِ
من خَصَّنا بخيرِ من قد أرسلا ... وخيرِ من حاز المقامات العُلا
محمدٌ سيِّدُ كل مقتفَى ... العربى الهاشمى المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين الثانى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شموس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربى القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالى خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحَّح الأفكار ويُهْتَدى فيها إلى الصواب .. ويضع عنوانا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراكُ مفـــردٍ تصـــورا عُلِمْ   وَدَرْكُ نسبةٍ بتصديـــقٍ وُسِمْ
وقدِّمِ الأول عـند الوضــــع   لأنـــه مقـــدَّم بالطَّبْــــعِ
والنظرى مـــا احتـــاج للتأمل   وعكسُه هـو الضرورىّ الجَلِى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقا مثل « العالم حادث » فنسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفى كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقينى مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أووهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بداهة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخضرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالةُ اللفظ على ما وافقه   يدعونها دلالـةَ المطابقه
وجزئهِ تضمنا وما لــزمْ   فَهْو التزامٌ إن بعقلٍ التزمْ

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفراده . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُّ حكمُنا على المجمـوعِ   ككل ذاك ليس ذا وقــوعِ
وحيثما لكل فـردٍ حُكِمـــا   فإنه كليَّـــةٌ قـد عُلمـــا
والحكم للبعض هـو الجزئيه   والجـــزء معرفتـــه جَلِيَّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون »

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد فى المجموع كقولك : « كل إنسان قابل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزئ ما تركب منه ومن غيره كالسمار والخيط للحصير والمبتدأ والخبر للجملة الاسمية . ويعقد فصلا للتعريفات والحدود قائلا :

معـرِّفٌ إلى ثلاثـةٍ قُسِـمْ   حـدٌّ ورسمىٌّ ولفظىٌّ عُلِـمْ
فالحدُّ بالجنس وفَصْلٍ وقعـا   والرسم بالجنس وخاصَّةٍ معا
وناقص الحـدِّ بفصلٍ أو معًا   جنسٌ بعيـد لاقريبٌ وقعـا
وناقص الرسـم بخاصة فقط   أو مع جنسٍ أبعدٍ قد ارتبط
وما بلفظىٌّ لديهـم شُهِـرا   تبديل لفـظ برديفٍ أشْهَـرا

والأخضرى يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌّ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التى لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أى ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهى صفة غالبة غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسانيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظى أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضرى للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمنتهى الوضوح ومنتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لا فى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكب كثيرون على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيرًا وصغيرًا ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٦ م وطبعت مع تقرير عليها للشيخ محمد الإنبابى سنة ١٢٩٧ هـ/١٨٨٠م . وشرحه الشيخ أحمد الدمنهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضرى سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٧ م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرٌّ بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخليل بن إسحاق المصريين فى الفقه المالكى .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يُعَدّ الغزل من أهم الموضوعات التى شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحرمان ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكأنها الفردوس الذى حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادى يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويرا حسيا صادرا فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادى ، ونوع عذرى طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذى يَصْلى بناره فى دخائله وبلوعاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامئا إلى رؤيتها ظمأ متصلا متضرعا ، وكأنها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائما يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثانى من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائرى مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهشلى[1] :

يشكو هواك إلى الدموع متيَّمٌ ... لم يبق فيه للعزاء نَسيسُ
لولا الدموع تحرَّقتْ من شوقه ... يوم الوداع قِبابكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودَّع صاحبته ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نسيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرقت بنار حبه قبابُها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الظاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمائم وسمعها تترنم وتنوح ، فتأثر وأنشد[2] :

---

(١) أنموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

أواجـدةٌ وجـدى حمـائمُ أيْكةٍ تميـل بها مَيْلَ النّزيف غصونُها
نشـاوَى وما مالـتْ بخمرٍ رقابُها بـواكٍ وما فاضتْ بدمعٍ عيونُها
أعيـدِى حماماتِ اللّوَى إن عندنا لشَجْوك أمثالا يعـود حنينُها[1]

ويتساءل النهشلى أهذه الحمائم تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتتمايل بها ميل النزيف أو السكران المنتشى ، وإن الحمائم نفسها لنشاوى سكارى وما شربت خمرا ، وإنها لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير فيه نفس الشجْو وما يعتاده من الحنين والشوق . ونلتقى بابن قاضى ميلة وقصيدته الفائية التى نوه بها ابن خلكان والتى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بغزل حوارى على طريقة عمر بن أبى ربيعة أبدع فيه كل الإبداع ، ونقتطف منه الأبيات التالية[2] :

ولـما التقينـا محرمـين وسَيْرُنـا بلبَّيْك ربًّـا والركائـبُ تَعْسِف[3]
نظـرتُ إليهـا والمطىُّ كأنمـا غواربُها منهـا معاطِسُ رُعَّـفُ[4]
فقالـتْ أما منكـنَّ مَنْ يَعْرِفُ الفتَى فقـد رابنى من طول ما يتشوَّفُ[5]
أراه إذا سِـرْنا يسـيرُ حِـذاءَنا ونوقفُ أخفـاف المَطِىِّ فيوقـفُ[6]
فقلـت لتِربَيْهـا ابلغاهـا بأننى بهـا مستهـامٌ قالتـا نتلطَّـفُ[7]
وقـولا لهـا يا أمَّ عمرو أليـس ذا مِنًى والمُنَى فى خَيْفه ليس تُخْلَفُ[8]
وفى عَرَفـاتٍ ما يخـبِّرُ أننى بعارفةٍ من عطـف قلبك أُسْعَفُ[9]
فأوصَلتـا ما قلتـه فتبسَّمـتْ وقالت: أحاديث العِيافة زُخْرف[10]
وقد أنـذر الإحـرامُ أنَّ وِصالنـا حرامٌ وإنا عن مزارك نَصْدِفُ[11]

وابن قاضى ميلة يذكر التقاءه بصاحبته وهما محرمان يلبيان ربهما قائلين لبيك اللهم لبيك ، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسيل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبته ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقَّف ، فقال لصاحبتيها وقد دنا منهما أبلغاها بأننى هائم بها ، وقولا لها إننا سننزل منى ، وينبغى أن تحقق لى فى خيف

(١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطعه .
(٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنموذج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص٥٣٣ .
(٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . تعسف : تسير فى الطريق على غير هدى .
(٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُعَّف جمع راعف : تسيل . الغارب فى البعير : ما بين السنام والعنق .
(٥) يتشوف : يشرف وينظر .
(٦) أخفاف : جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس .
(٧) لتربيها : المماثلتين لها فى السن . مستهام : هائم أى مشغوف حبا .
(٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحجاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .
(٩) عارفة : الجميل والإحسان . عرفات : جبل به موضع وقوف الحجاج .
(١٠) العيافة هنا : التفاؤل .
(١١) نصدف : نعرض ونميل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقاة ، وحدّثاها عنه فابتسمت وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتفاؤل مزخرف . وإننا محرمان والإحرام يحرم وصالنا ، وإنى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قذفنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات طريفة لشعراء بجاية ، منها قول[1] محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بأبى من لا أرى فى الهـوى سوى   محيـّاه شمسًا أو سَنَا ثَغْـره بَرْقَـا
ولا خمـرَ إلا مِنْ لَمـــاه ولحظــهِ   ولا غُصْنَ إلا القدُّ لا ما ارتقتْ وَرْقا
لئن لدغـــتْ قلبى عقـــاربُ صُدْغهِ   فريقتـــه التِّرْيــاقُ لى وبهـــا أُرْقَى
تعلّمت مـن عينيـــه عشقى لحسنـهِ   فَلِلّهِ ألحـــاظٌ تعلّمنى العِشْقــــا
ولـو أن هاروتـــا رأى ســـحْرَ طَرْفـهِ   أَقَــرَّ بأن السحـر من لحظه اشْتُقّا
فيـا طامعًـا فى الوَصْلِ منـــه تسلَّ هَلْ   سمعتَ بأشـراك تُصـــاد بـهـا العَنْقا

وهو ينوه فى أول الأبيات بجمال صاحبته التى يرى
ولا خمر مسكرة إلا من سمرة شفتيها ولحظ عينيها . ور
لا ما ارتقت الوَرْقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لئ
على صدغها فإن ريقتها الترياق والبلسم الذى يُرْقَى به لشفا . ر
الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى الق
رأى سحر عينيها لأقرَّ بأن السحر مشتق منه . ثم يُلْقى اليأس فى قلوب من يطمعون فى وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأريسى وله غزليات رقيقة ، وسنترجم له عما قليل .

ونهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله[2] :

نظـــرتْ إليــك بمثـل عَيْنَىْ جُؤْذَرِ   وتبسَّمتْ عن مثل سِمْطَىْ جَوْهَرِ[3]
عن ناصـعٍ كالـدرِّ أو كالـبرق أو   كالطَّلْع أو كالأُقحــوان مُؤَشَّـرِ[4]
تجـرى عليـــهِ من لَماهَـــا نُطْفَةٌ   بـل خمــرةٌ لكنهـــا لم تُعْصَرِ[5]

---

(١) عنوان الدراية للغبرينى ص ٣٤٢ .
(٢) الديوان ص ١١٠ وانظر بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١١١ .
(٣) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . السمط : العقد والقلادة .
(٤) مؤشر : مفلج .
(٥) اللمى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

لو لم يكـــن خمــرا سُلافًــا رِيقُها تُـزرى وتلعب بالنُّهَى لم تُحْظَرِ[1]
وكـذاك سـاجى جَفْنها لو لم يكـن فيــه مهنَّــدُ لَحْظِها لم يُحْذَرِ[2]
لو عُجْتَ طَرْفك فى حديقـة خَدِّهـا وأَمِنْتَ سطـوة صُدْغهـا المُتَنَمِّرِ[3]
لرتَعْـتَ من ذاك الحِمَى فى جنَّـــةٍ وكرعـتَ من ذاك اللَّما فى كَوْثَرِ[4]

وابن خميس يشبِّه عينى صاحبته بعينى جؤذر وأسنانها فى ثغرها بعقدى جوهر ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدرّ أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهر الأقحوان الأبيض المفلَّج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلَّجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتى صاحبته نطفة (قطرات) سائغة من الريق بل خمر ، وإن لم يعصرها خمار بخمرة تلعب بالعقول ، غير محرمة ، ولو لم يكن فى فاتر جَفْنها سيف لحظها يحميها ما حُذِرت ، ولو أُتيح لك أن تعطف طرفك فى خدها وجماله المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأَمنت بطش عقرب صدغها المتنمر لنعمتَ بجنَّة رائعة ، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس فى هذا الغزل قائلا :

طرقتْك وَهْنًا والنجـومُ كأنهـا حَصْبـاءُ دُرٍّ فى بسـاطٍ أَخْضَرِ[5]
بَيْضا إذا اعتكرتْ ذوائبُ شعرهـا سَفَرَتْ فأَزْرَتْ بالصباح المسفرِ[6]
طرحـت غِلالتهـا فقلـت سبيكةٌ من فضـةٍ أو دميـةٌ من مَرْمَرِ[7]
مَنحتْـك ما منَعتْك يقظانًـا فلـم تُخْلِـف مواعدَهـا ولم تتغـيَّر
هاجـتْ بلابـلُ نـازحٍ عـن إلْفهِ متشوِّقٍ ذاكى الحشـا متسعِّرِ[8]

وهو يقول إن صاحبته طرقته أو زارته فى منتصف الليل والسماء تنتثر لآلىء نجومها فى بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أحسَّتْ بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أزرتْ بالصباح المضيىء الجميل ، أما إذا خلعتْ غلالتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضَّة أو دمية من مرمر ، ويقول إنه لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشاؤه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكنُّ ضلوعه من مواجعه ، وقد يحيله غزلا صوفيا بديعا . ولمحمد[9] بن عمر المليكشى البجائى المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة ٧٤٠ للهجرة قوله :

---

(١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .
(٢) ساجى : فاتر . المهند : السيف .
(٣) عجت : عطفت .
(٤) رتعت : نعمت . كرعت : نهلت .
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذوائب : ضفائر . سفرت : كشفت وجهها .
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .
(٨) بلابل : هموم وشجون . متسعر : متقد .
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رِضًا نلـتِ ما تَرْضَيْنَ من كل ما يُهْوَى — فلا توقفيني موقف الذلِّ والشكوى
وصفحًا عن الجـاني المسيء لنفسـهِ — كفـاه الذى يلقـاه من شدة البَلْوَى
قفى أتشـكّى لوعـةَ البَيْنِ ساعـةً — ولا يكُ هـذا آخـرَ العهـد بالنَّجْوَى
قفـى ساعـةً فى عَرْصـة الدار وانظرى — إلى عاشـقٍ ما يستفيق من البَلْوَى[1]
وكم قد سألـتُ الرِّيحَ شوقـا إليكـمُ — فمـا حنَّ مَسْراها علىَّ ولا أَلْوى[2]
فيـا ريحُ حتى أنـتِ ممـن يغـارُ بى — ويانَجْدُ حتى أنت تَهْوَى الذى أَهْوَى
خلقـتُ ولى قلب جليـدٌ على النَّوَى — ولكـن عـلى فقـد الأحبَّة لا يَقْوَى

وهو يلتمس رضا صاحبته وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذللا ، وأن تصفح عما قد تظن من تجنِّيه فكفاه ما يلقى من محنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة البين والبعد ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقائها ونجواها ، بل إنه يسألها أن تقف لحظة فى ساحة الدار وتنظر إلى ما اعتراه فى محنة الحب وبلواه ، ويقول إنه ليسأل الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها أخت ليلى معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من غزله[3] :

عِيدٌ وغِيدٌ وعـودٌ وابنـةُ العـودِ — ياليلةً جمعتْ شَمْلِى بها عودى[4]
وشادنٍ خَنِثِ الأعطـاف من تَرفٍ — عُلِّقْتُهُ بَدْرَتِـمٌ فـوق أُمْلـودِ[5]
يَجْنِى فتمحـو جنايـاه محاسِنُهُ — وللجمـال شفيعٌ غـيرُ مـردود
لما سألنـاه عن خمـرِ بريقتـهِ — يحميه بالبِيضِ من أجفانه السود[6]
وسَالِفَيْه وصُدغَيْـه فقـال لنـا — هذى المدامةُ حن تلك العناقيـد[7]

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها فتيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش فى ترف ونعيم شغف بها وبقدها الرشيق وكأنها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه ومحاسنها تشفع لجناياتها شفاعة لا ترد ، ويتمنى لو ارتشف من خمر ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفانها السود وعقربى

(١) عرصة الدار : ساحتها .
(٢) ألوى : عطف .
(٣) بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .
(٤) غيد جمع غادة : الفتاة الناعمة .
(٥) شادن: ولد الظبية. خنث: لين وناعم. الأعطاف: الجوانب. بدرتم: بدر كامل. أملود: غصن ناعم لين .
(٦) البيض : السيوف .
(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

صدغيها وصفحتي جيدها الجميلتين ، ويقول إنهم لما سألوها عن خمر ريقها قالت لهم مدلة إن هذى المدامة من تلك العناقيد . وينشد يحيى بن خلدون للشاعر موشحة محكمة الصنعة مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبدَّت فلكا قلبى ملكا
عيناه مع الهوى دمى سفكا فيه اشتركا
قد أشبهت المها لحظا فتكا والخال حكى
مسكًا مستمسكا على سُوسان غَضٌ عَبِقِ[1]
يُهْدَى كنسيم جنَّة الرضوان للمُنْتَشِقِ

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عيناها مع الهوى فى سفك دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشى حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على سوسان أبيض غضٌ عَطِرٍ ، يُهْدَى كنسيم الفردوس الذكىُّ للمنتشق . وللشهاب بن الخلوف غزليات كثيرة وهى تشغل فى ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات مدائحه من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله[2] :

إذا القُمْرِىُّ غرَّد فى الغصونِ أعانَ المستهامَ على الشُّجون
وإن ناحَ الحمامُ بكيتُ وجدًا بُمزْنِ سحائبِ الدَّمع الهُتُونِ[3]
وقاكَ اللهُ هل أبصرتَ صبًّا حزينَ القلب مقروح الجفون
تطارحه الصبابةُ بالتَّصابى وتُسْلمه الأمانى للمَنُونِ[4]
ينوحُ على الديار وساكنيها إذا ما النُّوقُ سارتْ بالظُّعونِ
ويكتم فى حَشاه الوَجْدَ سِرًّا فتظهرُه المدامعُ فى العيون

وهو يقول إن قمرىَّ الحمام يترنم فى الغصون بتغاريده يثير الشجون فى قلوب المحبين ، وحين ينوح الحمام يبكى وجدا ويذرف الدموع مدرارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب وأوصابه ، ويسأله أرأيت مغرما حزين القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمنيه الشوق أن سيُصْبى صاحبته ، ومايزال يتمنى ذلك حتى الموت . وترحل صاحبته مع أهلها وتسير النوق بالظعون أو الهوادج ، ويكتم نار وجده وحبه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلّة الغزيرة. ونمضى إلى العهد العثمانى وممن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلى من مثل قوله[5] :

(1) غض : حديث . عبق : عطر .
(2) الديوان ص ٣٥٧ .
(3) مزن جمع مزنة : مطرة . الهتون : الغزير .
(4) الصبابة : الحب والشوق .
(5) أشعار جزائرية ص ١٣٠ .

الحــبُّ صعــبٌ والرقيــبُ أعاتَــهْ	والدمــعُ باحَ بِذَا الهــــــوى وأبانَه
والحبُّ يستدعى القلوبَ إلى الهَوَى	فتجيبُـــــه منقــــــادةٌ وَلْهــــانَهْ
وبجسميَ المُضْنَى فتــــاةٌ غازلـتْ	قلـــــبَ الكئيب بأعــــينٍ فتَّانَــــه
خرجــتْ مع الأتراب بين أزاهـــرٍ	فكأنهـــا بــدرٌ تكلَّل بانَـــــه[1]

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يبوح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق فتلبيه خاضعة ولهانة وقد غازلته فتاة جميلة أضنته وشغفته حبا بسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكأنما وجهها بدر يتوّج قامتها الرشيقة . ولسعيد المنداسى معاصره قصيدة نبوية يستهلها بغزل ويطيل فيه طولا شديدا . وهى منسوبة فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضى وبالمثل فى تاريخ الجزائر الثقافى والغالب أنها للمنداسى لوجودها فى ديوانه، وفيها يقول[2]:

أرَذاذُ المُزْنِ مــن عــــينى نــزَلْ	أم دمـــوعُ الشوق إذ رَقَّ الغزل[3]
أبعيــنى ديمــــــةٌ وَكَّافَـــــةٌ	أم شَعِيبٌ للنَّوَى منهــــا انْبَـزل[4]
دَعْ - عَـذولى - اللــومَ إنى شائقٌ	رقَّ طبعى حين صُنِعى فى الأزل[5]
ما الهـــوى إلا عـــــذابٌ للفتى	أو يَخْفى إنْ بقلـب المـــرء حَلّ
لا تلمنى دون علـــمٍ - عـــاذلى -	فبِسَمْعى صمَـمٌ عمــن عَـــذَل
كم دمـــوعٍ من عيـــونى انهمـرت	لعيـــونٍ من عــذابٍ لا تمــلّ
مـــذ دعــــانى البيـــنُ والدمعُ على	صَحْـــن خَدِّى وابلٌ يَهْمِى وَطَلّ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المنتخبة الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهى قطرات سحاب هاطل أم دموع شوقه تتقاطر متوالية ، وهل حقا بعينه سحابة سائلة أو مسيل للنوى انشقّ ، ويقول لعاذله لا تلمنى فإنى رقيق الطبع منذ صُنِعى فى الأزل ، وهل الهوى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر علىّ لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأذنى وَقْرٌ لا أسمعك ، وكأنما تخاطب حجرا أصم ، وكم أسراب دموع سالت من عيونى وصاحبتى لا تمل هذا

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصفصاف تشبه به الجميلات فى الطول واللين .

(٢) الديوان الشعبى للمنداسى نشر محمد نجوشه ص٨٣ . وديوانه الفصيح تحقيق رابح بونار ص ٣١ .

(٣) رذاذ : قطرات .

(٤) ديمة : مطر . وكافة : سائلة . شعيب : مسيل . انبزل : انشق .

(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

العذاب . ومذ دعاه الفراق والدمع يجرى على خدَّيه وكأنه مطر منصبٌّ وطلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعراء الغزل فى الجزائر الأريسى وابن على وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

محمد[1] بن أحمد الأريسى

من شعراء بجاية فى القرن السابع الهجرى ، ولا نعرف شيئًا عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسى فقيها ببجاية وكان اعتماد قاضيها أبى محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبى على بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد فى كتّاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ فى موطنه دارسًا عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وتفتحت موهبته مبكرة فى الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتّاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان ببجاية ، وكما كان يتقن الكتابة والنثر كان يتقن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبى بينما كان صاحبه أبو عبدالله محمد بن الحسن التميمى القلعى يسلك طريقة أبى تمام ، كما يقول الغبرينى ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبرينى عن الأريسى : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبرينى مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفى المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الوُرْق يدعو هَديلَه ... وغنَّى فأغنى عن ضروب التَّلاحين[2]
وذكَّر أيام الصبَّابة والصِّبا ... ولذَّة عيشٍ كان لى غير مَمْنُون[3]
فيا ساكنى نَجْدٍ أأطرقُ حيَّكم ... وأرجعَ مغلوبا بصَفْقة مغبون
ويا ساكنى الجَرْعاء إنْ كان عندكم ... نصيبٌ من الصبر الجميل فواسونى[4]
تركتُ فؤادى عند خَيْمة زَيْنَب ... وما سحرُ عينيها علىَّ بمأمونِ
أغارتْ عليه حين لم يُلفِ ناصرًا ... وأغرته بى حتى تعلَّم يجفونى

فخطيب الحمام دعا الهديل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكَّره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبته من ساكنى نجد متذللا ، أيطرق حيهم ويرجع مغلوبا مغبونا ، وبالمثل نادى ساكنى حَيها فى الجرعاء بنجد هل عندهم

---

(١) انظر فى محمد الأريسى ترجمته فى عنوان الدراية ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبى عبدالله محمد بن الحسن التميمى فى ص ٧٢ وراجع فى الشاعر تعريف الخلف ٣٥٦/٢ .

(٢) الورق جمع أورق وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .

(٣) ممنون : منقطع .

(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه وأبى الرحيل معه . ويقول الأريسى فى قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجرِ تسمحُ يا بدرُ — بوصلٍ فقد أَوْدَى بمهجتيَ الهَجْرُ(١)
أبيتُ كما ترضى الكآبةُ والأسى — وأضحى كما تهوى الصبابةُ والفكرُ
إذا قنطتْ نفسى ينادى بها الرَّجا — رويدكِ كم عُسْرٍ على إثره يُسْرُ(٢)
ولا أنْسَ يومًا للسرور وبَيْننا — عتابٌ كبَرْد الماء لكنه الجَمْرُ
ووالله ما أدرى لطيبِ حديثِها — أضمَّن سحرًا لفظُها أم هو السحرُ
خليلىَّ قولا إنْ بدا لكما الحِمَى — أهَيْلَ الحِمىَ مشغوفكم مسَّه الضُرُّ
علىمَ تناسيتم حديث عهودكم — وليس له ذنبٌ وليس لكم عُذْرُ

والأريسى يتذلل لمحبوبته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهق وإنه ليبيت كئيبا محزونا ويضحى مفكرا مهموما ، وينادى الرجاء عليه لابد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبته كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمر أو أشد ، ومع ذلك لا يدرى لجمال حديثها أضُمِّن سحرا أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبيه إن ألمَّا بالحمى أن يقولا لأهلها إن المشغوف بفتاتكم مسَّه الضر وأصابه الضَّنا ، وقد نسيتم عهودكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهلَ الحمى هل لكم عن قصتى خَبَرُ — وإنَّ لَيْلِى بِلَيْلَى كلّه سَهرُ
وفى ضلوعىَ نيرانٌ يضرِّمها — دَمْعٌ على صفحات الخدِّ يَنْهَمِرُ
لما رأيت بدورَ الحىِّ سافرةً — عن النقاب بدا لى أنه السَّفَرُ
ولا عواملَ إلا من قُدودِهِمُ — ولا صوارمَ إلا ما انتضىَ الحَوَرُ(٣)
سألتك الله يا حادىَ المطىِّ بهم — رفقًا علىَّ لعل الصَّدْعَ يَنْجَبِرُ
عَرِّجْ علىَّ فلى قلبٌ يميلُ إلى — حديثِ من قتلوا منا ومن أسروا
وأنت – يا سعد – إنْ غنَّتْ ظِباؤُهُمُ — فقِفْ تعاينْ فؤادى كيف يَنْفطر(٤)

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لليلى يشغف قلبه حتى ليبيت مسهَّدا ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال ،

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .
(٢) قنطت : يئست .
(٣) العوامل : أسنة الرماح . انتضى الصارم : سلَّ السيف .
(٤) ينفطر : يتشقق .

وكأنما حَوَرُ عيونهن يسلّ سيوفا مصمية ، ويسأل حادى المطى يرفق به لعل الصَّدْع الذى أحدثته صاحبته فى فؤاده ينجبر ، كما يسأله أن يميل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتلن منهم ومن أسرن ، وإن تغنين فقف ليرى فؤاده كيف ينفطر ويتصدَّع ألما . ويعرض حوارا لصاحبته معه منشدا :

تقول والحسنُ يُطغيهـا فتظلمنى ... ولا مـؤازرَ إلا صـارمٌ ذَكَرُ[1]
دَع الحسامَ وضَعْ حمل السلاح فما ... فى كل وقتٍ يفيد الحزم والحذَرُ
مـا للمهنَّد حكـمٌ فى محلّتنا ... بل للمنهَّد فيهـا الحكمُ والنَّظَرُ[2]
فإنْ طمعتَ بلينٍ فى لـواحظنا ... فنحن أهـلُ قلـوبٍ مثلها الحجر
وإن حلتْ لك ألفـاظٌ نردِّدها ... ما بيننا فهنـاك الصَّابُ والصَّبِرُ[3]
فارْحَمْ شبابك وارحَـلْ دون مَغْلبةٍ ... واقْبَلْ من الحسن ما أعطاكه النظر

حدَّثته صاحبته كما يقول وهى شاعرة بحسنها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يحمل سيفا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفتاة ، وإن أطمعك لين فى نواظرنا فنحن أهل قلوبٍ كالحجارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراءها الصَّاب والصبر شديدا المرارة مرارة لا تطاق ، فارْحَمْ شبابك وارحل دون قهر ، واكتف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأريسى على لسان صاحبته لتملأ نفس قارئه إعجابا بخصب شاعريته .

ابن[4] على

هو محمد بن محمد بن محمد المهدى بن رمضان بن يوسف العلج ، وذكرُ العلج فى آبائه يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العلج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آبائه كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى أباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسميّ غوث الغَرْب من مجّاجةٍ ... وافـاك من ربِّ العُـلا إقبالُ

ويريد الشباح بسميٍّ غوث الغرب من مجّاجة محمد بن على المجّاجى ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

---

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .
(٢) المهند : السيف . المنهد :الناهد : الفتاة .
(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصبر : عصارة شجر مر .
(٤) انظر فى ترجمة ابن على ما كتبه د . أبو القاسم سعد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها وكتابه تاريخ الجزائر الثقافى ٣١١/٢ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف ففى مجموعة أشعار جزائرية أبيات له في الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدى قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطانبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضا فإن بيته كان بيت فقه حنفى وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدى عُيِّن مفتيا للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ولقِّب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد العثمانى وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى. وطبيعى أن يكون والد الشاعر فقيها على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ضُرِبت بحسن صنيعهِ الأمثالُ

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعدالله ، مستدلا على ذلك بأنه كان أحد من هنأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتحه لوهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧

وعهدى بحور الشعر عنى أذودُها زمانا

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن
من عمره على الأقل . وكان يكبُّ على حلقات فقهاء المذهـ
الذكر الحكيم مما أهَّله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير
خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة .

مفتيا حنفيا للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلا هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . ويعد ابن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان ينظم فى المديح والمنشئات ووصف الطبيعة والرثاء ، وأكثر من شعر الغزل إكثارًا يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديوانا ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آبائه ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره — أو كثيرا منه — مبثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين وُلِّى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، ووُلِّى منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلا :

لولا — وحقِّـك — خطَّةٌ قُلِّدْتُهـا زهـرتْ بهـا فى الخافقين شموعى
ومنـابرٌ فيهـا رقيـتُ إلى العُـلا وقـد استدار بهـا كثيفُ جُموعِ
لنحـوتُ منْحَى العامـرىِّ صبابـةً ولكان من حُرَق الجَوَى مشفوعى

وهو يقول لولا خطَّة الفتوى — على المذهب الحنفى — التى تقلدتها وتلألأت وتألقت بها شموعى فى الجزائر ، ولولا منابرُ فيها صعدت بها إلى العلا بوعظى الجموع الكثيفة من أهل

الجزائر لظللتُ أنظم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيسٍ العامرى مجنون ليلى كله صبابة وهيام وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتغزّل :

يمينـًا لقـد عـزّتْ علىَّ المطـالبُ ولى أبـدا من سحر عينيكِ طـالبُ
فسبحان من سَوّاكِ فى الحسن صورةً لها اعترفتْ بالحسن حورٌ كواعبُ(1)
مراشفُ من شكل العقيقِ مصوغةٌ ومبسم درٌّ للعقيق مناسبُ(2)
وصدرٌ بدت رمّانتاه كحقّتَىْ لُجَيْنٍ ونحرٌ مشرقٌ وترائبُ(3)
تحوم عليها الشمس غَيْرَى كئيبة تجاذب ثوبًا للسَّنا وتجانبُ(4)
وقد حاولوا منى التسلّى بغيرها لقد أخفقتْ تلك الظنون الكواذبُ
وهل يستوى المصباح والشمسُ فى السَّنا وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عينى صاحبته فى البيت الأول وبجمالها فى البيت الثانى الذى تعترف به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلتئم بها مبسم اللآلئ البديعة ، وينوه بجمال صدرها ونحرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورا منها بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أننى أستطيع التسلّى عنها بغيرها وخابت ظنونهم جميعا ، وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر فى تمّه وكماله بالكواكب والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصونٌ تأوّدتْ أم قدودُ أم ورودٌ تفتّحتْ أم خدودُ(5)
أم وجوه بدتْ لنا أم بدورٌ طالعاتٌ يحفُّهُنَّ السُّعُودُ
فى سماء الجمال تَسْطَعُ نورًا وبقلبى منها — الزمانَ — وَقود
كم لها فى الأسود من فتكاتٍ وبروقٌ — مِن صدِّها — ورعودُ
سحرُ تلك العيون فيه تناهتْ وتفانت زيانبٌ وهنودُ
جَنّتا وَجْنَتيه عذْبَتانى وجَنَا الجنّتين عنى بعيدُ(6)

وهو لا يدرى أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تتثنى دلالا ، وهل يرى خدودا فاتنة بحمرتها أم ورودا تتفتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورًا يحفها السعد بل سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع فى سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود ماينى مشتعلا ، وكم لها فى الأُسْد من فتكات وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(1) كواعب ، جمع كاعب : الفتاة الشابة .
(2) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .
(3) لجين : فضة .
(4) السنا : الضوء .
(5) تأودت : تثنت .
(6) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنوَّ أو القرب من وجنيتها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتعذب عذابا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين فى عصره .

٢

شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بماتقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يروعهم من مشاهدها الحية المتحركة فى الطير والحيوان الوحشى والأليف . ونلتقى ببكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨م ومقطوعة له فى الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد فى بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرستمية قائلا[١] :

ما أخشـنَ الـبردَ ورَيعـانَهُ ... وأطـرفَ الشمسَ بتاهِـرْتِ
تبـدو من الغَيْـم إذا ما بدتْ ... كأنمـا تُنْشَرُ مـن تَخْـتِ
فنحـن فى بحـرٍ بلا لُجَّـةٍ ... تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ
نفـرح بالشمس إذا ما بـدتْ ... كفرحـة الـذمىِّ بالسَّبْت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته فى تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا فى بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودى بيوم السبت يوم عيده الأسبوعى . ولبكر مقطوعة حزينة يبكى بها بلدته تاهرت حين خرَّبها فى سنة ٢٩٦ أباعبيد الله داعية العبيديين وقضى على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول[٢] :

زُرْنـا منـازلَ قـومٍ لم يزورونـا ... إنا لفى غفلـةٍ عما يقاسونا
لو ينطقـون لقالوا الزادُ ويحكمُ ... حلَّ الرحيلُ فما يرجو المقيمونا
الموتُ أجحفَ بالدنيـا فخرَّبها ... وفعْلُنا فعـلُ قـومٍ لا يموتونـا
فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم ... فالحاملـون لعـرش الله يبكونا
ماذا عسى تنفع الدنيـا بأجمعها ... لـو كان جُمِّعَ فيها كنزُ قارونا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم فى قبورهم قضى عليهم أباعبيدالله ولانعرف مايقاسون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حلَّ بالمقيمين الرحيل عماقليل، وقد استأصل الموت أهل

---

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربها، ونحن لانتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يبكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها صار إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المديح في وصف عود وماصار إليه من التغني عليه[1]:

جـــاءتْ بعودٍ يُناغيها ويُسْعدها ... انظرْ بدائعَ ما يأتي به الشَّجَرُ
غنَّتْ عليه ضروبُ الطير ساجعةً ... حينًا فلما ذَوَى غنَّى بـه البَشَر
فلا يزال عليـه – أو بـه – طربٌ ... يَهيجُه الأَعْجَمان: الطَّيْرُ والوَتَرُ

فقد كانت ضروب الطير وصنوفه تغني على هذا العود ، وهو موصول بشجرته ، فلما قُطع منها وذَوَى غنى عليه البشر بما شدُّوا عليه من أوتار ، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان : الطير قديما والوتر حديثا . ويبدو أن سمك القرش المفترس كان يتراءى أحيانا في مياه تونس فقال ابن قاضي ميلة يصفه[2] :

وأَشْغَى بفكَّيْه مثـلُ المُـــدَى ... طـويلُ القرَا مُدْمجُ الأَعْظُمِ[3]
تصرُّفُـه في ضمـــان الميـاهِ ... ومهجتُـــه في يَدِ الخِضْرِمِ[4]
يخاف الهواء و يخشى الضياء ... وإن كانَ أَجْرَأَ مِـنْ ضَيْغَمِ[5]
له داخلَ اليَـمِّ بَطْشُ الأسـودِ ... وتصحبُـــه مِشْيَةُ الأَرْقَـمِ

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل المدى أو السكاكين وإنه طويل الظهر مدمج العظم واللحم ، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء والضياء ، وإن كان أجرأ من أسد فاتك ، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله متلويا في مشيته كالأفعوان . وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوي وسنخصه بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل وإبل وحمار وحشي مخطط وفيل ، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول[6] :

وبُلْقٌ تقــاسَمْنَ الدُّجُنَّـةَ والضُّحَى ... فمـن هـذه شَطْرٌ ومن هـذه شَطْرُ
وصُفْرٌ كأن الزعفـــرانَ خِضابُهـا ... وإلا فمـــن مـــاء العقيق لها قِشْرُ
وشُهْبٌ مـن اللُّجِّ استُعيرتْ متونُهـا ... ومن صور الأقمـار أوجهها قُمْرُ[7]
عليهـا السـروجُ المحكماتُ إذا مشتْ ... بها خُيَـــلاء الخـيل رنَّحها كِبْرُ

والخيل بينها بلق يلتقي فيها السواد بالبياض ، وكأن الظلمة والضحى اقتسما لونها فلكل

---

(١) ابن خلكان ٥/ ٣٤٨ .
(٢) الأنموذج ص ٢١٣ .
(٣) أشغى : متخالف الأسنان . القرا : الظهر .
(٤) الخضرم : البحر : متعاظم الموج ومتلاطمه .
(٥) ضيغم : الأسد الواسع الشدق .
(٦) الأنموذج ص ١٧٣ .
(٧) قمر : مشرقة كالقمر .

منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُضبتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها بياض الشعر بسواده ، وكأنما استعيرت ظهورها من لجِّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأقمار الساطعة ، وتمشى مزهوَّة مشية خيلاء متعالية ، ويقول فى الفيل الذى كان مصاحبا للهدية[1] :

وأضخـــمُ هنـــدىُّ النَّجـــار تُعِدُّهُ ... ملـــوكُ بنى ساســـانَ إنْ رابها أمرُ
يجىءُ كَطَـــوْدٍ جائـــلٍ فـــوق أربعٍ ... مضبَّرةٍ لُمَّتْ كما لُمَّت الصَّخْرُ[2]
لـــه فَخِـــذان كالكثيبين لُبِّـــــدا ... وصـدرٌ كما أوفى من الهَضْبة الصَّدْرُ
ووجـــهٌ بـــه أنفٌ كراووقِ خمرةٍ ... ينـــال به ما تُدْرك الأنْمُلُ العَشْرُ[3]

والنهشلى يقول عن الفيل إنه ضخم هندى الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريبها أمر . ويشبهه بجبل يتحرَّك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامَّت أجزاؤها تضامَّ أجزاء الصخر ، وله فخذان كأنهما كثيبان متراكمان وصدر عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طول عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأنامله العشرة . ونلتقى فى بلاط بنى حماد ببجاية بالطبيب ابن أبى المليح شاعر الأمير العزيز الحمادى (٤٩٨ - ٥١٥هـ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيديَّة منشدا[4] :

وجـــالتْ بهِ جُرْدُ المذاكى كأنَّها ... عـــذارَى ولكن نُطْقهُنَّ تَحَمْحُمُ
بصفراء كالتِّبْرِ العتيـــقِ صقيلةٍ ... ودهمـــاء يتلوهـــا كُمَيْتٌ وأدهـــمُ
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جُهْدُه ... لكان له يـــوم الرِّهـــان التقدُّمُ
وجاء لـــواءُ النَّصْر يتبـــع رايـــةً ... بهـــا العـــزُّ معقـــودٌ عليها متمِّمُ

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تركب لأول مرة : صفراء كالتبر ودهماء كالليل يتلوها كميتٌ وأسود وأشقر ، ولو أن الأشقر سابق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان التقينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابنَ خميس، وكان قد بارحها إلى الأندلس، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدها ومتنزهاتها فى مثل قوله[5] :

---

(١) الأنموذج ص ٧٥ .
(٢) مضبَّرة : مكتنزة اللحم
(٣) الراووق : إبريق الخمر .
(٤) الخريدة ١/ ١٨٤ .
(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

تلمســـانُ جادتْها السحابُ الدَّوَالِحُ ... وأرْسَتْ بواديهـــا الرياحُ اللواقح(1)
فَفــي كل شُفْــرٍ من جفــونيَ ماتــحٌ ... وفى كل شطرٍ من فؤاديَ قــادحٌ(2)
كتمــتُ هواهـا ثم بــرَّح بى الأسَى ... وكيف أطيق الكتمَ والدَّمْعُ فاضح
لساقيــة الــروميِّ عنــدى مزيَّـــةٌ ... وإن رغمتْ تلك الرَّوابى السَّوانح(3)
وكم لى عليهـــا من غــدوٍّ وروحــةٍ ... تســاعدنى فيهــا المنى والمنـائح(4)
ظبـــاءُ مغانيهـــا عــواطٍ عواطفٌ ... وطيرُ مجانيها شــوادٍ صــوادحُ(5)
تقتلهــم فيهـــا عيـــونٌ نـــواظرٌ ... وتُبكيهمُ منهــا عيــونٌ نواضحُ(6)
وإن أنسَ لا أنْسَ الوَرِيــطَ ووقفةً ... أنافح فيهــا روضــه وأفـــاوح(7)
مُطِلاً على ذاك الغديــر وقــد بــدتْ ... لإنسان عينى من صَفَـاه صفائح(8)
أمـــاؤكَ أم دمعى عشيَّـــة صدَّقَتْ ... عُلَيَّةُ ما قـــال العَذول المكاشح(9)
لئن كنــت مـــلآنا بدمعيَ طافحًـــا ... فإنِّيَ سَـــكرانٌ بحبِّـــك طــافح

وابن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغزل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديها الرياح الملقحة المنتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاءه بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فؤاده قادح لنيران الوجد والحب ، وكم كتم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُدٌّ من إعلانه ، ويذكر مشهد القناة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الروابى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يبدين له العطف ، والطير من حوله ترقص وتصدح وتغنى ، وهنَّ يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى متنزه الوريط وما كان ينافحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله أبك ماؤك أم دمع عينى عشيَّة صدَّقتْ عُلَيَّة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملآنا بدمعى طافحا به فإنى سكران طافح بحبى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر(10) :

(1) الدوالح : المثقلة بالأمطار . اللواقح : الملقحة بما تحمل من أمطار وغير أمطار .
(2) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من البئر . قادح : أى للنار .
(3) ساقية الرومى : قناة جميلة بمشاهد الزروع حولها . السوانح : المتعرضة .
(4) المنائح جمع منيحة : العطية .
(5) مغانيها : منازلها . عواط : لا تستصعب .
(6) نواضح : جمع ناضح تنزف كل ما بها من دموع .
(7) الوريط : متنزه . أنافح : أستخرج نفحه وشذاه وكذلك أفاوح .
(8) صفاه : يريد ماءه الصافى .
(9) المكاشح : البغيض .
(10) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

لقــد بَلَّ أرْدانَ الثَّرى دمــعُ مُزْنَةٍ تنــاثر فى أسلاكهــا فتنظَّمــا[1]
وجــرَّ عــلى هــام الرُّبىَ ذَيْلَ وَبْلِهِ فدبَّج أثــواب الربــوع وسهَّما[2]
وخــطَّ بطِرْسِ الجوُ ســطرا مذهبًا فنقَّطه قَطْرُ الغمـــام وأعجما[3]
وشــاب لَجَيْنَ الطَّلِّ عسجدُ بارقٍ فدنَّر أزهــارَ الربيـــع ودَرْهمــا
ودار بساق الغصن خلخالُ جَدْوَلٍ كما ســوَّر التجعيدُ للنهر مِعْصَما

وهو يقول إن دموع السحابة بلَّت آكام الربي وتناثرت فى أسلاكها وانتظمت ، وسحَب المطر على رءوس الربى ذيل وبله فزيَّن ثيابها وخطَّطها تخطيطا بديعا ، وخط على صفحة الجو سطرا مذهبا نقَّطه قطر الغمام ، وشاب لجينَ الطل المتلألئ عسجدُ البرق ، فاستحالت أزهار الربيع دنانير ودراهم ، واستحال ما فى الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتها للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى بأخرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة فى مائتى بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى العهد العثمانى ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبى راشد لمدينة الجزائر فى الربيع ، وفيه يقول[4] :

سقى المطــرُ الهطــال أرضًا تشرَّفتْ بمصرٍ غدتْ للفضل والفخر جامعهْ
بمَزْغَنَّة الفيحـــاء تظهـــر من مَدًى تُرَى كسقيط الثَّلج بيضاءَ ناصعهْ[5]
وحيــث الربيـــع الغَضُّ تم شبابُه ترى أرضهـــا تبــدى النضارة يانعه
تريك احمـــرارا فى ابيضاضٍ كأنهـــا دمـــاءٌ على أرضٍ من الثلـــج واقعه
دواليبُهـــا تسقى الغصـــونَ فتنثنى حمائمُها تشدو على القُضْبِ ساجعه.
فتبصر أغصـــانَ الحـــدائق سُجَّدًا تميد من الصوت الحنــون وراكعــه
وما هى إلا جنَّـــة قد تأرَّجـــتْ مباخرُها بالطيب والمســك ساطعه

وابن أبى راشد يدعو بالسُّقْيا لمدينة الجزائر التى أصبحت مصرا وعاصمة لقطرها فى عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مزغنَّة الفيحاء ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مبانيها جميعا بيضاء بياض الثلج المتساقط الناصع ، وإنها لتُرى فى الربيع وقد لبست ثوبا من رفاهة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بساتينها والحمام يشدو على الغصون مبتهجا ، وكأنما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجى ، فما تزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، وما مدينة الجزائر

(١) اردان جمع ردن : كم .
(٢) دبج : زين ونقش . سهَّم : خطط .
(٣) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .
(٤) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعدالله ٣٠٧/٢.
(٥) مزغنة: القبيلة التى بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

إلاجنة ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نفرد ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .

عبد الله بن محمد الجراوى[1]

شاعرجزائرى من جراوة بين مدينة قسنطينة وقلعة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جراوة داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان –كمايقول ابن رشيق– فى أوائل العقد الرابع من حياته، وتعلق بخدمة المعز بن باديس. ويقول ابن رشيق: كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخاطر، تحسب بديهته رويَّته، يتحدَّر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن يطوفت أحد رجالات صنهاجة: أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك مالى فى الأرض بيت فكيف يكون لى برج فى السماء، فضحك، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه: توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفا وأربعين سنة، وكانوا قد أغروا به القائد حماد بن سيف (العزيز بالله) فدسَّ عليه من قتله ليلا، وعرف خطأه فأسف عليه. وقد أشاد به ابن رشيق كمارأينا فى الشعر إشادة رائعة، وممأأنشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائـنْ نَفَى النـومَ عن عُتْرفـانٍ ... بديـع الملاحـة حلوِ المعانى[2]
بأجفـانِ عينيـه يا قوتتـــانِ ... كـأن وميضهمـــا جمرتـــانِ
على رأسـه التـــاجُ مستشرفًـا ... كتاج ابنِ هرمزَ فى المِهْرجـانِ
وقُرْطـانِ من جوهـرٍ أحمـــرٍ ... يزينانـه زَيْـنَ قُـرْط الحَصَـانِ
لــه عُنُـــقٌ حولهـــا رونقٌ ... كما حوت الخمرَ إحدى القَنانى
ودارَ بُرائِلُـــهُ حولهـــــا ... كما نَوَّرَتْ شَعْـرَةُ الزعْفَرانِ[3]

والجراوى يقول إن النوم انتفى عن الديك وظل مسهدًا طوال الليل بديع الجمال حلو المعانى وبأجفانه ياقوتتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عُرْفه كتاج ابن هرمز فى احتفال يوم المهرجان، وله قرطان من ياقوت أحمر يزينانه كما يزينان المرأة العفيفة الطاهرة، ويستدير حول جيده رونق من الجمال الرائع: وله ريش بديع زاهٍ زهو الزعفران، ويستتم وصفه للديك قائلا:

ودارتْ بجُؤْجُئِـهِ حُلَّـةٌ ... تروقُ كما راقك الخُسْروانى[4]
وقـام به ذَنَـبٌ معجـبٌ ... كباقةِ زهـــرٍ بدتْ من بنان
وقـاس جنـاحًا على سـاقهِ ... قِيـس سِـــترٌ على خيْزُران

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .
(٢) العترفان : الديك .
(٣) برائله : ريش يستدير حول عنقه .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . الخسروانى : الطليسان .

وصفّــق تصفيــقَ مستهترٍ بمحمرَّةٍ من بنــات الدُّنانِ
وغـــرَّد تغريــدَ ذى لوعةٍ يبــوح بأشواقه للغـــوانى

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدره كما يروق الطيلسان الخسروانى ، وبدا له ذيل زاه كباقة زهر ، ورفرف بجناحه على ساقه وكأنه مقيسٌ عليه كستر يُسْدَلُ على خيزران ، وصفَّق به تصفيق مخمور ، وغرد تغريد ملتاع يبوح للغوانى بأشواقه الحارَّة .

إبراهيم[1] بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى أثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غراره يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فاس وتلمسان ولقى علماءهما وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد ابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطولته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والنزاهة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هيبة . ويصف الصقر بمثل قوله :

طويــلُ ثــلاثٍ لا كطــول بُغاثِها جنــاحٌ وعُنْقٌ ثمَّ طــالت أصابعُ[2]
رحيــبُ ثــلاثٍ وهْيَ ما هيَ كفُّه وما بين منكبيه والصــدر واسـع[3]
عظيــم ثــلاث : رأسُــه ثم فَخْذُهُ ومِنْسَرُهُ لجــزرٍ ما هو صــارع[4]
له عُدَّةٌ من نفســه فى مخــالبٍ شديدٍ سوادهـا ، حِدادٍ ، لواسعُ[5]
بِيُمنـاه بــارقٌ محيــطٌ بزَنْــدِهِ من الفضة البيضاء كالسيف لامع[6]
كذلك فى يُسْــراهُ ثــانٍ وجُلْجُلٌ تلــوَّن بالإبريــز أصفــرُ فاقعٌ[7]

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى الفريد فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد بتحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى راس شرح عليها باسم الشقائق النعمانية فى شرح الروضة السلوانية.

(٢) البغاث : من ضعاف الطير .

(٣) رحيب : متسع .

(٤) المنسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر . صارع : فاتك .

(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلسع كالعقرب .

(٦) بارق : خلخال لامع .

(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب الخالص .

إذا انقضَّ خلتَ البرق والريح عاصفًا ورعدًا به رِجْزٌ على الصيد واقــع[1]
دويٌّ جلاجــلٍ ولمــعُ خلاخــلٍ وخَفْقُ جنــاحٍ كلُّ ذلك فاجــع

والفجيجى يقول إن صقره يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين المنكبين عظيم الهامة ممتلىء الفخذين صلب المنقار لجَزْر ما يفتك به ، وعُدَّته مخالبه الشديدة السواد القاطعة التى تلسع لسع العقارب ، وفى يمناه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفى يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظننت البرق والريح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجى انقضاضه على طائر الحبارَى منشدا :

ويلجــأ لاتَ حــين يأويــه ملجــأٌ فلا الأرضُ تنجيــه ولا الجوّ مانعُ
ذؤابتُه فى كــفٍّ مــن لا يُقيلــــه يساق بها للمــوت وهْو يــوادعُ
وتندبُــــه حُبارِيَـــــاتٌ أَلِفْتَــهُ بفيفاء مَجْهــــلٍ وهنَّ جوازع[2]
نوائـــحُ أعرابٍ على الطَّبْل حَلْقةً يحاجِلْنَ مجنونا لحــن تواجــع
شَقَقْنَ جيوبًا ناشراتِ الرءوس قد جرحْــنَ خــدودا ما لهنَّ براقع

والفجيجى يقول إن الحبارى كان يطلب ملجأ حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضاقت عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحُبت ، وأخذ الصقر بذؤابة رأسه وريشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصا ولا خلاصا منه فهو يوادعه موادعة اليائس من الحياة ، وتندبه حباريات ألفنه متجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجى بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بحرقة الحزن ، ويحاجلن نَدَّابهن الذى يزيد فى حزنهن ويشعله فى نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجى متمنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة فى الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحرِّكه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض فى عرض فقه الصيد وما أحلَّه الشارع منه وما حرَّمه وواجبات القانص إزاء ذلك وأجناس صيده فى البر ، ويتجه إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتى بيت قائلا :

أتيتــك بالتحقيــق نظمــا فخُذْ بــــهِ ودَعْ عنــك ما سِواه فهْوَ جَعاجــعُ
فدونكهــا مــن بحــر فكــرىَ دُرَّةً تفجَّــر منهــــا للعلـــوم يَنابِــعُ
فمــن كان ذا جِدٍّ وَعَى خِصْبَ حكمةٍ ومن يبتغ الإحمــاضَ فالمَرْجُ واســع

---

(1) رجز : شدة فى الصوت .

(2) فيفاء : صحراء واسعة .

فقل روضةُ السلوان إن شئت في اسمها   وقل رَحِمَ الرحمن من هو ساجع
ولا تَعْدُوَنْ عيناك عنها لكونها   بدت بدويَّةً وأنَّى واضع
وكم رميةٍ لغير رامٍ فقرطست   وأخرى لرامٍ أخطأتْ هل تنازع ؟
فأغْضُوا على ما كان واعفوا وسامحوا   وإن كان خَرْقٌ فليداركْهُ رافع

وهو يقول لقارىء قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه بمالا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجعاجع التي لا فائدة فيها ولا طائل وراءها ، وقد غُصْتُ عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تتفجر بكثير من المعارف عن الصيد وفقهه ، فمن كان صاحب جِدٍّ وَعَى منها حكمة، ومن كان صاحب لهو وجَد فيها مبتغاه ، وسمّها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تتناول موضوع الصيد البدوى وأنى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصابت الهدف وكم رميات أخرى انحرفت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء . ويطلب من قارئه في تواضع أن يغض الطرف عن هفواته ويعفو، وإن كانت في قصيدته زلة فليتداركها بلطفه .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويبكيه ويتوجع لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يبكى فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى ذلك تأبينا ، وإما أن يفضى إلى ذكر الموت وأنه حوض لابد للحى من وروده ، ويسمى ذلك عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقانا الرثاء مبكرا في الشعر الجزائرى على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجرى ، وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره(١) :

قِفْ بالقبور فنادِ الهامدين بها   من أعظمٍ بَليتْ فيها وأجسادِ
قومٌ تقطَّعت الأسباب بينهمُ   من الوصال وصاروا تحت أطْوادِ
كيف البقاءُ وهذا الموتُ يطلبنا   هيهات هيهات يا بكر بن حمّادِ
بينا ترى المرءَ في لهوٍ وفي لعبٍ   حتى تراه على نَعْشٍ وأعوادِ

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

---

(١) الديوان ص ٨١ .

وبينما المرء لاهٍ عنه في لهو وفي لعب إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حدباء تقذف به في مهاوى القبور . ويبكى ابنه طويلا بمثل قوله[1] :

بكيتُ على الأحبَّـــة إذ تـولَّوْا ولـــو أنيَّ هلكتُ بكـوا عليَّا
فيا وَلَـدى بقـــاؤك كان ذُخرًا وفَقدُك قد كَوى الأكبـاد كيًّا
كفى حَزَنًا بأنـى منك خِلْوٌ وأنـك مَيِّتٌ وبقيتُ حَيَّـا
ولـم أك يائسا فيئستُ لمـــا رميتُ التُّرب فوقك من يديَّـا

وهو يبكى أحبته وفلذة كبده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يماثله ذخر له وقد كوى فقده كبده كيًّا مؤلما أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يداه عليه التراب فأظلمت الدنيا في عينيه . ولابن الرَّبيب يرثى خمسة من القواد فى عهد باديس (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) غامروا بأنفسهم فى معركة خاسرة بالزَّاب ، وفيهم يقول مصورا بأسهم[2] :

أبتْ لهـمُ أن يرتضوا الضَّيْمَ أنْفُسٌ كرامٌ رأتْ رَمْيًا بها المـــوتَ أحْزَمَا
فهبُّوا ومـا هـابوا الرَّدَى فتدرَّعوا على خَطرٍ قِطْعًا من الليـــل مُظْلما[3]
وهوَّنَ وَجْدِى أنهم خمسةٌ مضوا وقد أقْعَصُوا خمسين قَرْمًا مسوَّما[4]
وكان عظيما لـو نَجَوْا غير أنهم رأوا حُسْنَ ما أبقوا من الذكر أعظما
أبـوا أن يَفِرُّوا والقنا فى نحورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سُلَّما
ولـــو أنهـم فـرّوا لفرّوا أعِـــزَّةً ولكنْ رأوا صبرا على المـوت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالعزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفروا بها عن الحرب فرموا بها فى أتونها وضرامها غير هائبين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدَّما وحتى تقطعت السيوف فى أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب فى الأعداء حتى النفس الأخير فإن فى ذلك ذكرا عاطرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفروا خشية الموت ، ولو فروا لفروا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والطعن ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا فى ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضى ميلة فى وصف غريق بالبحر[5] :

ومـا زلتُ أستسقى له القَطْرَ دائبًا وأستودع الـريحَ السـلام المجـدَّدَا

---

(١) الديوان ص ٨٥ .
(٢) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٣ وما بعدها
(٣) الردى : الموت . قطعا : طائفة .
(٤) أقعصوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوَّما : معلما
(٥) الأنموذج ص ٢١٥ .

فكان الذى استسقيتُ أولَ خاتلٍ ... له والذى استودعتُ من أعظم العِدَ[1]
فتى فاظَ بين المـاء والريح روحُهُ ... ومـا زاره أهـلٌ ولا زارَ مُلْحدا[2]

وهو يقول إن الذى كان يستسقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج أمواج البحر ولم يَبِنْ له أثر . ونلتقى فى بجاية بمحمد بن على بن حماد فى القرن السابع ومراثيه للدولة الحمادية ، وسنخصه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) شاعرًا ومرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرثى أباه[3] :

قد كان لى فى الدُّنَى أبٌ يساعدنى ... فصار تحت الثرى فى لحده اكتنفا[4]
مدَدْتُ فى ظل نُعْماه يدى زمنا ... ونلت من رِفْده فى دهرىَ التُّحَفَا
يا فقدَ يوسفَ ما أبقيت لى جلدًا ... يا فقدَ يوسف إنَّ الصبر عنك غَفَا
مـا مثل يوسفَ مفقـودٌ لفاقدِهِ ... ولا كموسى أخـو فَقْدٍ إذا وُصِفا
يا قبرَ يوسفَ لا تعـدوك هـاميةٌ ... من الغمام ولا زال الثـرى وَجِفَا[5]

وأبو حمو موسى يبكى أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسلما ، ويذكر كم مدَّله يده فيملؤها له نعما وتحفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتنفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أفقده موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به أبا مثاليا ويدعو لقبره أن تظل السحب وافدة عليه تهمى وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خافقا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تأبينه مواسيا أبا حمو موسى[6] :

أسفًا لمن فـاق الملـوك جلالةً ... وديـانةً وبكلُ . فَضْلٍ حُوِبِى
أعْظِمْ بـه من زاهدٍ ومجاهدٍ ... ومنيـلِ رِفْـدٍ تـارةً ومنيبِ
هوتِ النجومُ الزاهراتُ لفقدهِ ... وذَوَى من الأزهار كلُّ رطيبِ
وتغيَّرتْ شمسُ النهار له أسىً ... وتبدَّلتْ من نـورها بشحوب
وبكت سيوفُ الهند فى أغمادها ... بدمٍ ، بمـاء فِرِنْدِها مخضـوبِ
ولقد بكتْه جيـادُه بصهيلها ... وغدتْ تحنُّ لـه حنينَ النِّيبِ[7]
مَنْ للوفـود إذا أوَتْ لجنَـابهِ ... يلقـاهـمُ بالبشـر والترحـيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلالة ومهابة وديانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

---

(١) خاتل : غادر .
(٢) فاظ : مات . ملحدا : لحدا .
(٣) كتاب أبوحمو موسى لعبدالحميد حاجيات ص٢٣٦.
(٤) الدنى: جمع دنيا. اكتنفه اللحد: أحاطه من كل جانب.
(٥) وجفا : خافقا .
(٦) انظر الجزء الثانى من بغية الرواد ليحيى بن خلدون .
(٧) النيب : الإبل المعروفة بحنينها إلى أولادها .

وكرم وإنابة لله ، وكأنما هوت النجوم المتلألئة لفقده وذوت الأزهار الغضَّة ، وحتى شمس النهار تغيَّرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التى طالما شهرها على أعدائه لتبكيه بدم مخضوب بما يلمع على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤملة بصهيلها التى تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سيلقى الوفود الكثيرة التى كانت تفد على بابه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوف شاعر السلطان عثمان الحفصى يبكى ابنا له مات صغيرا[1] :

أُصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ ... وقد أهضتَ جناحَ المجـد فاتَّئدِ[2]
ناجزتَ فى صَرْفِ آجالٍ قد اقتربتْ ... إذ لا تسلِّمُهـا إلا يـدًا بِيَـدِ[3]
كم زدتَ فى نَقْصك العَلْيَا جَوَى كبدٍ ... حَرَّى فيا ليت لم تنقص ولم تزد
وكـم تركتَ أبًا يبكى على ولـدٍ ... أذَقته طعـمَ ثُكْلِ الأمِّ للولـدِ
بُنَىَّ ليتك لـم تُخْلَق لِـوَرْى بِلًى ... يا ليتنى لم أُسَمْ بالصبر عن شَهَد[4]
سقى الحَيـا قبرك الـزاكى وواصله ... سحابُ عفـوٍ وغفرانٍ مدى الأبـد[5]

وهو يخاطب الموت لمحزونا ويقول له اتئد ، فقد أصبت عين الأمِّ بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدهم وحطمت جناح المجد وناجزت فى حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابنى يدا بيد ، وكم نقصتَ العليا وزدت الكبد حزنا وحرارة ، وكم أذقت أبا فقده لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق لبلى جسده وعظامه حتى لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيوخهم الأعلام فى تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان فى القرن التاسع الهجرى محمد بن يوسف السنوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حَسَنى من ذرية الحسن بن على بن أبى طالب ، وفيه ألف تلميذه الملالى كتابا سماه « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » وكان فقيها ، بل كان إماما فى الفقه وفى علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشُرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م بقصيدة بديعة ، وفيها يقول[6] :

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) أهضت : حطمت .
(٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .
(٤) ورى بلى : اكتتام بلى . أسم : أكلف .
(٥) الحيا : الغيث . الزاكى الطاهر .
(٦) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

ما للمنــازلِ أظلمتْ أرْجــاؤها والأرضُ رُجَّتْ حين خاب رجاؤها
هـذا الـذى ورث النبىَّ فأصبحتْ عِلَلُ الضـلال بـه استُفيد دواؤها
ودعا إلى التوحـيد دعوةَ مخلصٍ وإلى الشريعــة فاستنــار ضيــاؤها
يــا أوحــد العلمــاء يا علمًا بهِ كلُّ العلـــوم بدتْ لنــا أنحاؤها
مَــنْ للتــــآليف التــى ألَّفتَهــا يُبْدِى بهــا مــا استشكلتْ قُرَّاؤها
مَنْ للعلـــوم على اختلاف فنــونها يـــدى لهـــا نُكتًا يروقُ سَناؤها
يــارَبِّ قَدِّسْ روحَــــهُ وضَرِيحَهُ وبِمَنَ الجِنـــــان تحفُّــه نَعْمــاؤها

والحوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كأنما زلزلت زلزالا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكأنما علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا . وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المضىء ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيوخهم فى العهد العثمانى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لمتن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول[1] :

مصابٌ جسيمٌ كاد يُضْنِى مقاتلى ورُزْءٌ عظيـــمٌ قاطـعٌ للمفاصلِ
ومَنْ لفنـون العلـم نحـوا ومنطقًا وفقها وتوحـيدا وفتـوى لسائلِ
لمنزلــــهِ كانتْ تُشَدُّ رِحــالُنا فمن راكبٍ يَسْعَى إليـــهِ وراجلِ
أحقًّــا قتلتَ الألمعىَّ محمَّـــدا على قول حقٍّ لا على قول باطلِ
قتلتَ امرءًا من شأنه العلمُ والتُّقَى فيــا خيرَ مقتــولٍ ويا شرَّ قاتلِ
ومالَك يـــوم العَرْض إلا جهنَّمٌ تقــادُ إليهــا صــاغرا بالسلاسلِ
عليــه من الرحمـــنِ أوسعُ رحمةٍ وأزكى سلامٍ فى الضُّحَى والأصائلِ

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحوا ومنطقا وفقها وتفسيرا وتوحيدا ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعليه من ربه أوسع رحمة وأطهر سلام وأعطره . ونتوقف قليلا لنترجم لشاعر بجاية محمد بن علي بن حماد .

محمد[1] بن علي بن حماد القلعي

من أهل قلعة بني حماد وفضلائها ، قرأ بها وتفقه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شعيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ لمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ في بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيّنوه - في رأينا - قاضيا بالأندلس في مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سَلا في المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م . وكان شاعرًا بارعًا ، وله قصائد أو مراث مختلفة يرثي بها دولة بني حماد التي أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م ، وفي إحداها يقول[2] :

أين العروسان لا رَسْمٌ ولا طَلَلُ ... فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارةٍ أَوْدَى الزمانُ بهِ ... فأين ما شادَ منه السادةُ الأُوَلُ
وما ورا الكوكبِ العُلْويُّ معتصمٌ ... وقد عَرَا الكوكبَ التغيير والبَدَلُ
وقد عَفَا قصر حمادٍ فليس له ... رَسْمٌ ولا أثرٌ باقٍ ولا طَلَلُ
وإنَّ في القَصْرِ قَصْرِ الملك معتبرًا ... لمن تغرُّرُه الأيـام والدولُ
وما رسومُ المنار الآن ماثلةٌ ... لكنها نُبَذٌ يَجْرِي بها المَثَلُ
حتى المصلَّى امَّحَتْ آياتُهُ وعَفَتْ ... إلا جدارا وما طلَّت بهِ الطُّلَلُ[3]
كرجعك الطَّرْفَ كانت كلُّ آبدةٍ ... مما تراه كذاك العمرُ والأجَلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المبهجان ، لم يعد حتى رسم ولا طلل ولم يعد إلا الفضاء ، وقد امَّحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وامحى قصر الكوكب العلوي وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن في ذلك لعبرة أي عبرة لمن يغتر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يتمثل بها الناس ، وحتى المصلى الذي كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقايا أطلال إذ سرعان ما زايلته النعمة سريعا وزايلت كل آبدة

(١) انظر في ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية ص ٢١٨ وتعريف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب الجزائري للأستاذ محمد الطمار ص ١٢٣ .
(٢) الميلي ص ٦٣٤ والطمار ص ١٢٣ .
(٣) الطُّلَل : جمع طَلَل .

وغريبة مما كان فى القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجعك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول[1]

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى الهوى ما بين تلك الجداولِ
وهل أسْمَعَنْ تلك الطيور عشيَّةً ... تُجاوب فى تلك الغصون البلابل
وهل أرِدَنْ عين السلام على الصَّدَى ... فأبرِدَ من حَرِّ الضلوع النواهل[2]
وأنظر طيقان « المنار » مُطِلَّةً ... على الوجنات الزاهرات الخمائل[3]
كأن القباب المشرفات بأفْقِهِ ... نجومٌ تبدَّتْ فى سعود المنازلِ
فإنْ تنتِ الأيَّامُ عنها أعِنَّتى ... وأنزلْنَنى فى غير تلك المنازل
فصبرٌ جميلٌ غير أنَّ صَبَابتى ... ستبقى بقاء الطالعاتِ الأوافلِ

وابن حماد يتمنى فى غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادى بجاية : وادى الهوى والحبِّ بين جداولها يتسمع إلى الطيور وهى تجاوب البلابل فى المساء ، ويتمنى أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفى ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار وهى مطلّة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا القصر التى كانت تشرف على ما حوله نجومٌ مُسْعدة . ويمتلىء شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول إن ثنت الأيام أعنّتى عنها إلى سَلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأفزع إلى الصبر الجميل ولكن صبابتى ببلدى وموطنى ستظل جاثمة فى فؤادى ما حييت ، وستظل باقية بقاء النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول فى عين السلام[4] :

على عَيْن السلام سلامُ صَبٍّ ... غَذاه ماؤُها العَذْبُ النَّميرُ
تأوَّد أَيْكُها وجَرَتْ صَبَاها ... وشَمٌّ لها كما فُتِقَ العَبيرُ
وأبردُ ما يكون الجوُّ فيها ... وأنْدَى حين يحتدم الهجيرُ
وقد قام المنارُ على ذُراها ... كما قام العروس أو الأمير
بناءٌ يُزْدَرَى إيوانُ كِسْرَى ... لديهِ والخَوَرْنَقُ والسَّديرُ

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التى طالما نهل من مائها العذب الصافى الراكى ، وإن أيكها أو شجرها ليتثنى بفعل الرياح ويهب صَبَاها عليلا حاملا منها شذى عطرا ، وحين تشتد حرارة الهاجرة وراء بجاية فى الصحراء تصبح بجاية أبرد وأندى ما تكون ، وإن قصر المنار ليقف فى أعاليها وكأنه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وإنه

---

(١) المرجعين السالفين .
(٢) الصدى : العطش .
(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .
(٤) انظر فى الأبيات التالية الميلى ص٦٣٤ والطمار ص١٢٣ .

لقصر مشيد يُزْدَرَى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا لملوك الحيرة فى الجاهلية .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد قديم فى الأمة منذ العصر الإسلامى وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون فى أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة فى البيان والتبين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده فى الكتابة عنهم ، ويلقانا منهم فى المغرب كثيرون فى كتاب رياض النفوس للمالكى ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حدباء وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غِرَّة أو غفلة ، وفى ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت[1] :

لقد جمحتْ نفسى فصدَّتْ وأعرضتْ ... وقد مَرقتْ نفسى فطال مروقُها[2]
فيا أسفى من جُنْح ليلٍ يقودها ... وضوءِ نهارٍ لا يزال يسوقها[3]
إلى مشهدٍ لابدَّ لى من شهودهِ ... ومن جُرَعٍ للموت سوف أذوقُها
سحاب المنايا كلَّ يومٍ مظلّةٌ ... فقد هطلتْ حولى ولاحَ بُروقها
تجهَّمتُ خمسًا بعد سبعين حِجّةً ... ودام غروبُ الشمس لى وطلوعها
وأيدى المنايا كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إذا فتَقتْ لا يستطاع رُتوقها
تُصَبِّح أقوامًا على حينِ غَفْلَةٍ ... ويأتيك فى حين البَيَاتِ طروقُها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجُرَعه وما سيَحْسُو منه ، وإن سحاب الموت ليظلّه ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأيدى الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبِّح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسِّيهم ، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

---

(١) الديوان ص ٧٨ .
(٢) جمحت : نفرت . مرقت : خرجت رعصت .
(٣) جنح الليل : ظلامه .
(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى اللغوى محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى ، وكان كثير التلامذة والطلاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك فى شعره طريقة أبى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمديح النبوى ، ومن قوله فى الزهد[٤] :

الخُبْرُ أصدقُ فى المَرْأى من الخبَرِ ... فمهِّد العُذْرَ ليس العَيْنُ كالأثرِ
واعملْ لأخرى ولا تبخلْ بمكرُمَةٍ ... فكلُّ شيء على حَدٍّ إلى قَدَرِ
وكل حَيٍّ وإن طـالتْ سلامتُهُ ... يغتاله المـوتُ بين الوِرْدِ والصَّدَرِ
هـو الحِمام فلا تُبْعِدْ زيـارتَهُ ... ولا تقل ليتنى منه على حَذَرِ
ياويحَ من غَرَّه دَهْرٌ فَسَرَّ به ... لم يخلص الصَّفْوُ إلا شِيبَ بالكدرِ
تنافس الناسُ فى الدنيا وقد علموا ... أن المقـام بهـا كاللَّمْح بِالبَصَرِ
انظُـرْ لمـن باد تنظرْ آيـةً عجبًا ... وعبرةً لأولـى الألبـاب والعِبَرِ

وهو يقول إن التجربة أصدق من الخبر إذ ما يُرَى بالعين ليس كالأثر ، واعمل لآخرتك ولا تبخل بصالحة ، فكل شيء مقدر ، وكل حى وإن طالت سلامته سيغتاله الموت فجأة بين ورده لشيء وصَدَره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستبطىء عنك ، ولا تظن أنك تستطيع أن تكون على حذر منه ، ويا ويح من غرَّه زمن سرَّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياويح الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة اللمح بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن ميمون البجائى الملوك الهالكين : دارا الفارسى وذايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم أفناهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الابتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على ألسنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى العهد العثمانى ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثه[١] محمد بن حواء المستغانمى بربه ، وسميت الغوثية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ، بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال[٢] :

يا سامعَ الدُّعاءِ يا قديرُ ... يا من إليه تَرْجِعُ الأمورُ
يا مالك الملوك يا جبَّارُ ... انْصُرْ ذليلا مـاله أنصارُ

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سعد الله ١٤٨/٢ .

ولعبد الكريم الفكون ، صاحب رسالة فى التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ، قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها[٣] :

بأسمائك اللهم أبدى توسلا فحقق رجائى يا إلهى تفضُّلا

وكثر التوسل فى هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعا ، وللمفتى المالكى محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسلٌ مطلعه[١] :

بأسمائك الحسنى فتحتُ توسلى ومنك رجوتُ العفوَ أسمى مطالبى

(ب) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى يتقدمهم أبو مدين شعيب[٢] المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حرزهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبى عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل فى طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقبره بالعباد فى جوارها ، ومن قوله : « بى قُلْ ، وعلىَّ دُلَّ ، فأنا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالاتحاد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفيا . وممن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله[٣] الشوذى الإشبيلى من كبار العبَّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعها للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود[٤] . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محيى[٥] الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والناشىء فى إشبيلية ، وعلى متصوفيها تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولا فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . وممن نزل بجاية ابن[٦] سبعين عبد الحق وأبو[٧] الحسن الششترى ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششترى أن يتركه إلى أصحاب أبى مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربَّ الجنة فهلمَّ إلىَّ . وكأنه لم يبق فى القرنين السادس

---

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

(٢) افتتح الغبرينى كتابه عنوان الدراية بترجمة ضافية لأبى مدين وانظر أنس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ والتشوف للتادلى رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سبعين للتفتازانى ٧١ - ٧٥ .

(٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع فى ابن سبعين عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجرى ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرًا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبرينى فى عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشوذى نزيل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون فى تعداد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعى أن يكون أكثر المتأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التى نزل بها أبو مدين فى القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلى بن أحمد الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م وفيه يقول الغبرينى : « العالم المطلق الزاهد الورع ، ممن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستولى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ،وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرِّره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظةوحرفا حرفا . وله فى التحقيق أو التصوف[1] :

ما لنا منا سوى الحـــال العَدَمْ ... ولبارينا وجـــودٌ وقِـــدَمْ[2]
نحـــنُ بنيـــانٌ بَنَتْهُ حكمـــةٌ ... وخليقٌ بالبَنـــا أنْ ينهـــدمْ
أشـــرقتْ أنفُسنا من نـــورهِ ... فوجودُ الكلِّ عن فَيْض الكـــرمْ
فترقَّ النفـــسَ عـــن عـالمهـــا ... باختباءٍ ليس تدنيـــه الهـــمم
ليس يـــدرى مـــن أنـا إلا أنـــا ... ها هنا الفهمُ عن العقـــل انبهم
كلمـــا رُمْتُ بذاتـــى وُصْلَةً ... صار لى العقـــلُ مع العلم جَلَم[3]
يَقْطعانى بخيـــالاتِ الفَنـــا ... عن وجـــودٍ لـــم يقَيدْ بِعَـــدَمْ

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جئنا وإليه نمضى ، ولبارينا وجود أزلى وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بنته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهاهى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضى باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سواى يدرى حقيقتى حتى ليغمض الفهم وتحار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتى تصلنى بربى وقف العقل مع العلم فى طريقى يمزقانى بخيالات الفناء دون وجودى المأمول مع ربى الذى لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجى محمد بن أبى زيد المتصوف التلمسانى وسنخصه بترجمة . ومن تلامذة الحرالى أبو زكريا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .
(٢) بارينا : خالقنا .
(٣) الجلم :المقص يقص به الصوف .

يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ومازال به الحرالى حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد – كما يقول الغبريني – جادة الطريق ، وأنشده أبو زكريا – فى معنى ما ظهر له وبيّن له الحال فيما لم يظهر له – هذه الأبيات(١) :

جلتْ لك لَيْلَى من مثنىً نِقابِهــا ... طريقا وأبدت لمعــةً من جمالهــا(٢)
فطيتَ بهـــا عيشا وتِهْتَ لــذاذةً ... وفَيَّأك الإلمـــاعُ بــرْدَ ظـلالها(٣)
فكيف ترى ليلــى إذا هى أَسْفَرَتْ ... ضَحـاءً وأبدتْ وارفـًا من دلالها
وكيف بها إن لم يَغِبْ عنك شَخْصُها ... ولـم تُخْلِ وَقْتًا من مَنــال وصالها
وكيف يكون الأمــر إن أنت كُنْتَها ... وكانتك تحقيقــا فَحُلْتَ لحالهـــا

وهو يكنى عن الذات الإلهية باسم ليلى ، ويقول إنها كشفت قليلا من مثنى نقابها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكأنما أظله الإلماع بجمالها برد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغب عنا شخصها ومنال وصالها ، واتحدتُ بها وأصبحت كأنني هى وتبدلت حالى . ويدون ريب تصوف أستاذه الحرالى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والحس ، ولا تصبح الذات العلية ليلى ولا غير ليلى ممن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذه الحرالى وانتقى منها طائفة من أبياتها من مثل قوله(٤) :

سفرتْ على وجــه الجميل فأسْفَرَا ... وبدا هلالُ الحســن منهـا مُقْمِرا
ودنتْ فكاشفتِ القلــوبَ بسرِّها ... وسقت شرابَ الأُنسِ منها كَوْثرا
ورأيتهــــا فى كلِّ شيءٍ أبصرتْ ... عينـــاىَ حتى عُدْتُ كُلِّى مُبْصِرًا
وسمعتُ نطــقَ الناطقــين فكلُّهم ... بالحمــد والتَّسْبيح عنهــا أخــبرا
وبها فَنِيتُ عن الفناء وغصْتُ فى ... مــاء الحيــــاة مُسَرْمدا ومدهرا
إفصــاحُ قــولى لا يفى بمواجدى ... وبيانُــه لا يستقلُّ بمــا جَــرَى
لــو كان سرُّ الله يكْشَفُ لم يكن ... ســرًّا ولكــن لــم يكن ليذكّرا

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كأنه البدر فى تِمهِ واكتماله ، ودنت فعرفت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأنس . وأحس كأنه يراها فى كل شيء من حوله (فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية) وكأن

(١) عنوان الدراية ص ١٠٣ .
(٢) مثنى : منعطف .
(٣) فيأك : أظلك .
(٤) عنوان الدراية ص ٥٩ .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى رددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرِّح بأن إفصاحه لا يفي بمواجده وكذلك بيانه ، ويقول إن سرَّالله فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذه الحرالى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحرالى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله[1] :

رَوْضُ المعـــارفِ حَضْرَةُ العُرفــاءِ | وجَنَا التفكـــرِ جنَّـــةُ العقلاءِ
ونعيمُ أهـل الحـــق دَرْكُ حقائقٍ | لاحتْ بأفْق القلب حـــالَ صفاءِ
فاقرأ سطورَ الكـونِ فى منشورها | بِعيـــانِ عَيْنٍ أو بِفَرْطِ ذكـــاءِ
وانظر إلى الأكـوان كيف تمايلتْ | طَـــربا لِسرٍّ لاح عند خفـــاءِ
وأفاض عن بحـــر الجمـال أهلَّةً | بهـرتْ محاسنُهنَّ بـدرَ سمـــاءِ
وتذكَّرتْ نجدا فهـــاج لذكـــره | وَجْدٌ ونادى الشوق بالبُرَحَـــاءِ[2]
ورأتْ به كلُّ العوالـــم أُحْكِمَتْ | فتَزَيَّنَتْ وتَـوَشَّحَتْ بضيـــاءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجَنَا الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاعٌ وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وتزينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد[3]الله بن الحجام محمد بن أحمد بن محمد اللخمى واعظ أهل زمانه، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل مايطرق أذنه، استقدمه المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهِّز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٨ م ، ومما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبٍ | عليلُ القلب من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما الليــــل أظلم قام يبكى | ويشكو ما يكنُّ من الوَجِيبِ[4]
يقطِّع ليلــــه فكـــرا وذكـــرًا | وينطق فيــه بالعجب العَجِيبِ

(١) عنوان الدراية ص ٢٣١ .
(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواعجه .
(٣) انظر فيه بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٢/١ وتعريف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجام .
(٤) الوجيب : الخفقان .

بـهِ مـنِ حُبُّ سيدهِ غَـرَامٌ　　　يجـلُّ عـن التطبُّبِ والطبيبِ
ومـن يكُ هكذا عبدا محبًّـا　　　تطيب ثيـابه مـن غير طيب

وهو يصف نفسه بغرابة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهجد ليلا وهو يبكى ويشكو ما يكنِ من خفقان قلبه ، ومايزال يقطع ليله فكرًا وذكرا لربه مسبحا مستغفرا وبه من حبه غرام يعز على التطبب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لائذًا بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . ونلتقى بعد ابن الحجام فى تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجرى بابن أبى العيش وسنترجم له . وتضن علينا كتب التراجم بشعر صوفى فى القرن الثامن حتى إذا كنا فى القرن التاسع الهجرى التقينا بصوفى كبير هو إبراهيم التازى نزيل وهران وسنترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخضرى قصيدة فى التصوف وآدابه يسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فتكثر المنظومات فى الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح ونمثل لذلك بسينية ابن باديس فى طريقة عبد القادرَ الجيلانى البغدادى المتوفى سنة٥٦١ هـ/١١٦٦ م ومطلعها[1] :

ألا سِرْ إلى بغدادَ فَهْيَ مُنَى النَّفْسِ　　　وحدِّثْ بها عمن ثَوَى باطنَ الرَّمْسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائى التلمسانى قاضى بجاية وسمى شرحه : « أنس الجليس فى جَلْو الحناديس عن سينية ابن باديس » . وشُرحت أيضا المنظومات فى التصوف وأحواله وفى مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخضرى ، شرحها الورتلانى وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية » . ويتكاثر فى العصر التصوف الشعبى والدراويش وتدخل عليه شعوذات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبى العيش وإبراهيم التازى .

أبو العيش[2]بن عبد الرحيم الخزرجى

هو محمد بن أبى زيد عبد الرحيم (وفى بعض الروايات عبد الرحمن وفى بعضها عبد الحق) بن محمد بن أبى العيش التلمسانى إشبيلى الأصل وكان فقيها جليلا ، روى ببلده تلمسان عن أبى بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م وعن أبى عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ/١٢١٤ م وعن أبى محمد بن حوط الله

(١) سعد الله ١٣٦/٢ .. والرمس : القبر .

(٢) انظر فى أبى العيش الخزرجى وشعره بغية الرواد ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الابتهاج ص ٣٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى (طبع المغرب) ص ٣١٣ .

المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبى عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنف كتبا فى أصول الفقه وعقائد أصولية فى الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله فى التصوف نظم كثير وكذلك فى الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه البارى جَلَّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتى ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله فى التصوف :

اللَّهَ قُلْ ودَعِ الوجـــودَ وما حَوَى ... إن كنت مرتـــادا بلوغَ كمـــالِ
فالكلُّ دونَ الله إنْ حَقَّقْتَـــــهُ ... عدمٌ على التفصيل والإجمـــالِ
والعارفـــون فَنُوا ولَمَّـــا يَشْهَدُوا ... شيئـــا سوى المتكـبِّر المتعـــالى
ورأوا ســـواه على الحقيقة هالكـــا ... فى الحـــال والمـــاضى والاستقبالِ
من لا وجـــود لذاتـــه من ذاتِهِ ... فوجـــوده لـولاه عَيْنُ مُحـــالِ
فالْمَحْ بطَرْفك أو بعقلك هل ترى ... شيئا سوى فعـلٍ من الأفعـــالِ
وانظر إلى أعلى الوجـــود وسُفْلِهِ ... نظـــرا تـــؤيِّده بالاستـدلال
تجد الجميعَ يشير نحـــو جلالِهِ ... بلسان حـــالٍ أو لسـان مقـــالِ
وجب الوجـــودُ لذاتـــه وصفاتِهِ ... فَـــرْدًا عن الأكفاءِ والأمثـــالِ
يبقى وكلٌّ يضمحلُّ وجـــودُهُ ... مـــا واجِـــبٌ كمقيَّدٍ بزوال

والأبيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس فى الوجود سوى الله فتعلق به ودع ماسواه ، فالكل - كما يقول فى البيت الثانى - عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا فى ربهم ، ولم يشهدوا فى الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كربُ العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثله شىء فى الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

هو مُمْسِكُ الأشياء من عُلْوٍ إلى ... سُفْلٍ ومُبْدِعُها بغير مثـــالِ
فاسكُـــنْ إليـــه بهمَّـــةٍ عُلْوِيَّةٍ ... متنزهـــا عما سوى الفعَّـــالِ
وهو الذى يُرْجَى ويُخْشَى لا تَلُذْ ... بسواه فى حـــالٍ من الأحـــوال
فالشَّرْعُ جاء بذا وأنـــوارُ الهدى ... قد أيَّدَتْـــهُ فَعِشْ خَلِىَّ البـــالِ

وابن أبى العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعَّال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تُلُذْ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسَّك بذلك تعش رضىَّ النفس خلىَّ البال . وله أبيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

قنعتُ بما رُزِقْتُ فلستُ أسْعَى ... لـدارِ أبى فـلانٍ أو فـلانِ
وآثرتُ المقـامَ بِكسْرِ بيتى ... ولا أحـدٌ أراهُ أو يرانـى
ولا أَلْقَى خليـلاً غيرَ صَبْرٍ ... مُعينٍ فـى المعـارف أو معانى
وقـد أيقنت أن الـرِّزْقَ آتٍ ... وإنْ لـم آتـه سَعْيًا أتانى
وقد حققتـُه فهمـا وعلمًا ... وقد شاهدتـه رأىَ العيـانِ
فـلازمْ ذا بإخـلاصٍ تُمَكَّـنْ ... هنـا وهنـاك من أَسْنَى مكانِ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رزقِ الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إننى قانع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أبى فلان ، إذ تكفينى كِسْرَة بيتى ولا أحد يرانى متذللا لأحد ، ولا أبحث عن خليل يعيننى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعانى ، وقد أيقنت أن رزقى آتٍ سعيت إليه أو لم أسع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعلما وخبرة . واعمل بذلك تَحْظَ بأرفع مكان .

إبراهيم[1] التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكبَّ على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف ولبس الخرقة من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الهوارى لقاء حسنا ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، وممن تتلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبسه الخرقة الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معتنيا بكلام شيخه الهوارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه - والجاهل لا تصافيه - والأحمق لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦١ م ذكر ذلك

(١) انظر فى ترجمة التازى تعريف الخلف ١١/٢ والبستان ص ٥٨ .

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفى والنبوى كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة الربانية من مثل قوله :

أبعد الأربعين تـرومُ هَـزْلاً ... وهل بعد العشيَّة من عَـرارِ
فخلِّ حظوظَ نفسِك والْهُ عنها ... وعن ذكر المنازل والديار
فما الدُّنيا وزُخرفُها بشىءٍ ... وما أيَّامُها إلا عَـوَارِى
فتُبْ واخلَعْ عِذارك فى هوى مَنْ ... لـه دارُ النعيم ودارُ نـارِ(1)
جمالُ الله أكملُ كلِّ حُسْنٍ ... فَلِلّهِ الكمالُ ولا مُمارى
وذكرُ الله مرهمُ كلِّ جُرْحٍ ... وأنْقَعُ من زُلالٍ للأُوار(2)
ولا موجودَ إلا اللهُ حقًّا ... فـدَعْ عنك التعلقَ بالشَّنار(3)

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلا بعد سن الأربعين ، والشطر الثانى شطر بيت للصِّمَّة القشيرى ، والعرار نرجس برى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إنه لن يتمتع بعد العشية بعرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازى ، ويقول دع ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم ودار الجحيم ، فجَماله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعَد قبيحا منك أى قبح . وله :

حسامى ومنهاجى القويمُ وشِرْعتى ... ومنجـاىَ فى الدَّارَيْن من كل فتنةِ
محبَّةُ ربِّ العالمين وذكـرُه ... على كلِّ أحْيـانى بقلبى ومهجتى
وأفضلُ أعمـال الفتى ذكرُ ربِّه ... فكُنْ ذاكـرا يذكرْك بـارى البَرِيَّة
وما من حسامٍ للمريدين غَيْرُهُ ... وكم حَسموا ظهرًا لـزارٍ وباهتٍ(4)
وكم بَدَّدوا شمـلا لذى جُرْءةٍ وكم ... أبـادوا عـدوًّا مسَّهـم بِمضَرَّةِ
وكم دافع اللهُ الكريمُ بذكرهمْ ... عن الخلق من مكروهـةٍ ومُبِيرة(5)
وأفضلُ ذكرٍ دعـوةُ الحيِّ فلتكن ... بها لَهِجًا فى كلِّ وقتٍ وحالةِ
فكثرةُ ذكر الشىء آيـةُ حبِّـهِ ... وحَسْبُ الفتى تشريفُه بالمحبَّـةِ

هو يقول إن شجاعتى ومنهاجى القويم فى الحياة وشريعتى ومنجاى فى الدارين من كل

---

(1) خلع العذار : أراد به الشاعر الانهماك فى الحب .
(2) الأوار : حرارة العطش .
(3) الشنار : العيب والقبيح والعار .
(4) زار : عائب . باهت : مندهش .
(5) مبيرة :فاسدة ، مهلكة .

فتنة كل ذلك فى محبة رب العالمين وإنى لأذكره فى كل حين بقلبى ومهجتى ، وهل فى الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فاذكره دائما ، اذكرْ خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكم قضوا على زار هازيءٍ وباهت متعجب وكم بدَّدوا جمعا جريئا وكم أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكم دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكرٍ دعوة الله فكرِّرها فى كل وقت وإن كثرة ذكر الشيء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أى شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت فى الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُـرادى مـن المـــولى وغايةُ آمــــالى ... دوامُ الرِّضا والعَفْوُ عن سوء حـالى
وإسقــاطُ تدبيرى وحــولى وقــوَّتى ... وصدقىَ فى الأحوال والفعل والقالِ

والتازى يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر فى شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له فى حال ولا فى فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلعى فى القرن العاشر الهجرى بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد فى شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالا للسجعة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر فى ترجمته له . ومنها فى وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفى وتابعه :

وغُنْمُ مريدٍ فى انقيـــادٍ لكاملٍ ... له خبرةٌ بالوقتِ والعلـم والحالِ
هو السرُّ والإكسيرُ والكيميا لمن ... أراد وصـــولا أو بَغَى نَيْلَ آمالِ
وقد عَدِمَ النـاسُ الشيوخَ بِقُطْرنا ... وآخرهـم شيخى وموضعُ إجلالى
وقد قال لى : لـم يبق شيخٌ بغَرْبنا ... وذا منذ أعوامٍ خلونَ وأحوالِ(١)
يشير إلى أهـل الكمـــال كمثلهِ ... عليه من اللهِ الرِّضـا ما تَلاَ تالى

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة فى يد شيخه الخبير بزمنه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكليته ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظِّم الشيخ الصوفى إذ يجعله السر الإلهى والإكسير والكيمياء اللذين يحوِّلان المعدن ذهبا ، وبيده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نؤثر أن يترفع الشيخ التازى عن مثل هذه الدعاوى فى شيوخ الصوفية ، التى جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعدَّ ذلك لظهور دجاجلة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفى سنى كبير . والتازى يستمر فيقول إن الناس عدموا

(١) خلون : مضين . أحوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحقيقيين وآخرهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحقيقيين .

٥

شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله(١) :

أمن أجْلِ أن باتــوا فؤادُك مُغْرَمُ ... وقلبُك خفّـاقٌ ودَمْعُك يَسْجُـمُ(٢)
ومـا ذاك إلا أنَّ جسمك منجـدٌ ... وقلبُك مَعْ من سار فى الركب مُتْهِمُ(٣)
ومـا ضرَّهم لـو ودَّعـوا يوم أودعوا ... فـؤادى بتذكـار الصَّبـابةِ يُضْرَم
وإنـى لأدعـو الله دعـوةَ مذنبٍ ... عسى أنظـرُ البيت العتيـق وألْثمُ
فيـا طـول شوقى للنبىِّ وصَحْبِهِ ... ويـا شَدَّ مـا يلقى الفـؤادُ ويكتُم
إليك رسـولَ الله أرفـعُ حـاجتى ... فأنت شفيع الخلـق والخلـقُ هُيَّمُ(٤)
وقد أثقلتْ ظهـرى ذنـوبٌ عظيمةٌ ... ولكـنَّ عفـو الله أعلى وأعظـمُ

وهو لايخفى صبابته بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارة الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أنجد جسمه وفارق قلبه متهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقى الذين ستكتحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعونى يوم رحيلهم حين أودعوا فى فؤادى نار الصبابة مضطرمة ملتهبة ، وإنى لأدعو الله دعوة خاشع بل دعوة مذنب أن يتاح لنظرى أن يكتحل بنور البيت العتيق وأقبِّل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فؤادى وأكظم . وإنى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام آخذ بخناقهم ، وقد أثقلتْ ظهرى ذنوبى ، ولكن أملى فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الغسانى فقيه مدينة الجزائر وأديبها وشاعرها فصاحةَ لسان وإحكامَ بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشر الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله(٥) :

(١) عنوان الدراية ص ٧٠ .
(٢) يسجم : يسيل .
(٣) منجد : فى نجد . متهم : فى تهامة .
(٤) هيم : عطاش .
(٥) عنوان الدراية ص ١١٢ .

لكـــل نبيٍّ دعـــــوةٌ مُستجابَةٌ وسَيِّدُهُمْ طُـــــرًّا خَبَاهَـا لأمَّتِهْ
إلى يـــومَ لا يُغْنِى عن المرءِ منطقٌ فصيحٌ ولا يُدْلــى البليغُ بحجتـــه
ويـــوم يفرّ المَرْءُ من ولـــدٍ له حبيبٍ ولا يُجْزَى أبٌ بأبوَّتــــه
وكــل نبيٍّ يسـألُ الله نَفْسَـــهُ ويَضْرِبُ صَفْحًا عن سؤالٍ لأمَّته[1]
خلا شافـع فينـا كريـــم مشفَّعٍ بـه يشملِ الله العبـــادَ برحمتــه
فيـا ربَّه بَلِّـــغْ عُبَيْدَكَ قـــبره ليحظى بتقبيـــلٍ لطاهـــر تربتـه
وجـــازِهِ عنا بالذى أنت أهلُـــه أعـــزُّ الـــورى أنت الكفيلُ بمِنّته

وهو يقول إن لكل نبى دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبأ دعوته إلى يوم القيامة الموصوف في سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التى تصخ الآذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما (يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أممهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها فى هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يبلغه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير الورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . ونلتقى بإبراهيم[2] بن أبى بكر التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م والذى افتتح به أبو القاسم الحفناوى كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها - كما ذكر من ترجموا له - المعشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أدوار ، وله مدحة فى المولد النبوى ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره فى مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطالع القرن الثامن محمد بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصه بترجمة.

وكان المشرق قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوى فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول فى القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان فى إربل لأوائل القرن الثانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبى والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس[3] العزفى الشريف إلى سبتة مدينته ، وعنها شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يعرض .
(٢) له ترجمة فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف ١٣/١ .
(٣) أزهار الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) . يقول أبو عبد الله التنسى فى كتابيه[1] : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها فى احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق (وسائد) مصفوفة ومجالسٍ مبثوثة وبُسطٍ موشّاة ، ووسائد بالذهب مغشّاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، وتُفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رُتِّبَ فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخزِّ الملون ، بأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . وبعقب ذلك يبدأ المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفِّرات ترغِّب فى الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فى كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزانة المنجانة « الساعة الدقاقة » الموصوفة فى الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زُخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة وبيدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مديح فى أبى حمو[2] :

أمولاى يا بن الملــوك الألى ... لهم فى المعــالى سنىُّ الرُّتَبْ
تولَّتْ ثلاثٌ من الليل أبقَتْ ... لك الفخرَ فى عُجْمها والعرب
فدُمْ حُجَّــةَ الله فى أرضــهِ ... تنــالُ الذى شئته مـن أَرَب

ولايزالون فى هذا الحفل النبوى إلى انبلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حىَّ على الفلاح يبشِّر بصلاة الصباح. وكانت كل ليلة فى المولد النبوى لكل عام تبدأ بمدحة نبوية، وتسمى المدحة فى مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت فى مولده، ومن قول أبى حمو فى إحدى مولدياته[3] :

حيــاتى ومـوتى فى هواكـم وإننى ... أعلِّل نفسى فيكــمُ بالأمــانىُّ
فيا أهل نجدٍ أنجدونى على الهــوى ... فإنِّىَ فى بَحْرٍ من الشّــوق لُجِّىٌّ[4]
مقيمٌ بأقصى الغرب أشكو به الجَوَى ... وحالى على حكم النَّـوى غيرُ مخفىٌّ

(١) أزهار الرياض ٢٤٣/١ ومابعدها وقارن بتاريخ بنى زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان لأبى عبدالله التنسى ص١٦٢.

(٢) انظر فى أبيات المنجانة طوال ساعات الليل أزهار الرياض ٢٤٦/١ .

(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لأبى عبد الله التنسى ص١٦٦ .

(٤) لجى : متراكم الأمواج .

تناسيتـــمُ عهـدى وحفظَ مـودَّتى　　وحُبُّكُمُ فـى القلـــب لـيس بمنسىٍّ
ومـا أرتجـى إلا شفاعـةَ خَيْرِ مَنْ　　أتى بالهُــدَى يهدى بدينٍ حَنيفىٍّ[1]
بهِ يَرْتجى العاصـون غُفـران ذنبهم　　وما عملوا فى الدَّهر من عملٍ سَىٍّ[2]
بمولـده قد أشرق الكـــونُ كلُّه　　وكـــلُّ سَنَا شمسٍ وبَـــدْرٍ ودُرِّىٍّ

فحياة « أبو حمو » وموته فى هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لتمتلىء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق فى بحر لجى كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب فى تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتنتابه لحظة شك ، فيقول : تناسيتم عهدى ومودتى ونار حبكم فى قلبى لا تخمد ولا تنطفىء ، وإن كلى رجاء أن يشفع لى خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنيفى مستقيم لا عوج فيه ، وإن العاصين ليقفون ببابه آملين فى شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب درىّ . وللثغرى مولدية فى نفس السنة التى قال فيها أبو حمو مولديته السالفة وفيها يقول[3] :

شمسُ الرسـالة والنبـوة والهـدى　　بـدرُ الجلالـــة نـورُها المتجسِّمُ
هـو رحمـــةُ الله التى يهمى بهـا　　فى الخلق بالحـق المبين ويحكم[4]
يا من لـــه قبـلَ الـوِلادِ وبعده　　آيـــاتُ إرشادٍ لمـــن يتوسَّمُ[5]
أسْرَيتَ للسبع الطِّبـــاق فأقبلتْ　　أملاكُها طُــــرًّا عليك تسلِّـمُ
وتبرَّكتْ بصــلاتك الأرســالُ إذْ　　صلَّتْ وأنت إمامُهـــا المتقـدمُ
رُفِعَتْ لك الحجُبُ العظيمـة فاعتلى　　بك للعُلَى ذاك المقـــامُ الأعظم
حتى سمـعتَ صَرِيرَ أقــلامٍ بمـا　　فى اللَّوحِ محفوظـــا تَخُطُّ وتَرْسُمُ
تلك المـراتبُ لـم يكن لينالهـــا　　إلا النبىُّ الهـــاشمىُّ الأكـــرم

والثغرى يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة المنير ونورها الدرىّ المتجسِّد ، إنه رحمة الله التى لا تزال تنصبّ فى الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذى سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير ويأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافُّون به يسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس فأمَّ به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهى تكتب فى اللوح المحفوظ ما خُطَّ للناس ورسم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(١) حنيفى : مستقيم لا عوج فيه
(٢) سىٍّ : سىء وخفف للقافية .
(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .
(٤) يهمى بها : يصبّ بها وينشر .
(٥) يتوسم : يتفرس ويتأمل .

بها أحد إلا النبى العربى الهاشمى العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدى أبى حمو موسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سيِّدُ العالمـــين دُنيا وأُخْرَى أشرفُ الخَلْق فى العُلا والسماحِ
صفوة الخلق أرْفَعُ الرُّسْلِ قَدْرًا وسراجُ الهدى وشمسُ الفـلاحِ
من رَقَى فى السَّماء سَبْعًا طباقًا ورأى آىَ ربِّه فى اتضــاحِ(١)
ودنا منــه قـابَ قوسَيْن قُرْبًا ظافـرا فى العلا بكل اقتراح
مَنْ يُجير الوَرَى غدًا يوم يُجْزَى كلُّ عاصٍ وطائـعٍ باجْتراحِ(٢)
مَنْ إلى حَوْضِه وظـلٌ لِـواهُ يلجـأ الناسُ بين ظامٍ وضاحِ(٣)

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وأخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج الهدى وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كما جاء فى سورة النجم ودنا منه أى من جبريل (قاب قوسين أو أدنى) أى قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من محبة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر : يوم الحشر الموعود ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التى تلقى فى الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوى يستطرد يحيى بن خلدون فى مولديته — كما استطرد الثغرى أيضا فى مولديته —لمديح أبى حمو موسى . وعادة يتقدم المديح النبوى فى المولدية نسيب يكتظ بالوجد والصبابة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكرى الصوفى معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعراء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وله فى مديح المدينة قوله(٤) :

دارُ الحبيـــب أحقُّ أنْ تهواهــا وتَحِنَّ من طـربٍ إلى ذِكْراهــا
وعلى الجفون متى هممـتَ بزَوْرةٍ يا بنَ الكرام عليك أن تغشـاها
فـلأنـتَ أنتَ إذا حـللتَ بِطَيْبَةٍ وظَلِلْتَ تَرْتَعُ فى ظلال رُباهـا(٥)
معنى الجمـالِ مُنَى الخواطر والتى سلبتْ عقـولَ العاشقين حُلاها

---

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .
(٢) اجتراح : اكتساب السيئات والحسنات .
(٣) ظام : فى أشد العطش . ضاح : أصابته حرارة الشمس .
(٤) تعريف الخلف ٢/٢٤٠ .
(٥) طيبة : المدينة .

لا تَحْسَبِ المِسْكَ الذَّكِيَّ كتُرْبِها ... هيهات! أين المسكُ من رَيَّاها[1]؟!
طابتْ فإن تَبْغِ التطيُّب يا فتى ... فأدِمْ على الساعاتِ لَثْمَ ثَراها

والبسكرى يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهواها ويملأك الحنين شوقا إلى ذكراها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكتحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حللت بها وتنقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حُلاها عقول عاشقيها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيهات ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ التطيب والتعطر فأدم تقبيل ثراها الذكى العطر .

وتلقانا شروح كثيرة لبردة البوصيرى فى المديح النبوى ، من ذلك شرح لسعيد[2] العقبانى المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة[3] شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة فى شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما فى البردة من البيان والإعراب ، وشرحَ قصيدة الشقراطسى التونسى النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية فى شرح الشقراطسية . ونلتقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجرى ، وله ديوان جميعه مديح نبوى ، ولم يُتَحْ لى أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المدائح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديعا بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول[4] :

يا أرحمَ الراحمين ارْحَمْ وجُدْ كرمًا ... فأنتَ أنتَ أمانُ الخائفِ الوَجِلِ
واغفرْ بطَه ذنوبًا ليس يغفرُها ... إلاَّك يا غافر الأوزار والخطَلِ[5]
ونَجِّنى واعْفُ عنى وَأْتِنِى مِنَحًا ... تنيلنى الفوزَ فى حِلٍّ ومُرْتَحَلِ
وصَلِّ ربٌّ على المختار من مُضَرٍ ... خير النبيين والأملاك والرُّسُلِ
روحُ العوالم سِرُّ الكون أجمعِهِ ... إكْسيرُ كنزِ المعالى عِلَّةُ العللِ[6]
عليه صَلَّى إلهُ العَرْش ما اتضحتْ ... آياتُ شمس الضحى فى دارة الحَمَلِ[7]
وآلهِ الغُرِّ والأصحاب ما خطرتْ ... معاطفُ البان فى أثوابها الخُضُلِ[8]

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفزع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربى خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسير المعالى الذى يرفعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

---

(١) ريَّاها : رائحتها الذكية الطيبة .
(٢) البستان ص ١٠٦ .
(٣) البستان ص ٢١٠ .
(٤) الديوان ص ٦٦ .
(٥) الأوزار : الآثام .
(٦) الإكسير : مادة تحول المعدن ذهبا .
(٧) الدارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى الربيع .
(٨) الخضل : الخضراء الندية .

جميعه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيرى وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلته ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلّى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أزمنة الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريّانة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه يكثر المديح النبوى كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون المتوفىً سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المديح النبوى وقد رتبه على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشفنى بجاه محمد آمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا ففى قافية الهمزة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسانى الذى ترجمنا له فى شعراء الهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ رابح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أنشدنا قطعة من غزل أولاها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مديحها النبوى[1]

هــل رأيتــــم أو سمعتـم حَسنـــًا ... فى الْورى من حُسْنه الحسنُ اكْتَمَلْ
أحمدُ المبعـــــوث فينـا رحمـــةً ... خَيْرُ من قـــام بحـــقٍّ وكَفَـــلْ
آيـــــةُ الله أمـــينٌ صــــادقٌ ... وحبيبُ الله بــــرٌّ مُنْتَضِـــــلْ[2]
قد تحلّـــى – إذ تجلّــــى – بَدْرُهُ ... بالبَها مــن ربِّـه عــزَّ وجَـــلّ
فامتطـى مَتْنَ جـــــوادٍ للعـــلا ... خافـقٍ كالبَرْق للوصـــل رَفَلْ[3]
أمَّ رُسْــــــلَ اللهِ ليـــلاً وارْتقى ... للمنى يطـــوى من السَّاحِ الكِلَلْ[4]
آدمُ المبــــــرور صلَّى خلفَــــهُ ... وأولـــو العـــــزم مصـابيحُ المِلَلْ
قد رأى مـن ربِّــــــه مـالا رأى ... قبلــــــه طَــرْفُ نَبِىٌّ مُرْتسَـل

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورانية ؟ إنه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظمُ من رعى الحقوق وأداها ، آيةُ الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنداسى تحقيق الأستاذ رابح بونار ص ٤٠.
(٢) منتضل : شجاع .
(٣) رفل : زها وتبختر فى سيره
(٤) الساح : يريد السموات . الكلل : يريد الطباق .

الصادق وحبيبه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حفَّه الله بهالة من البهاء ، فسخَّر البُراق له يعرج به إلى السموات السبع ، وأمَّ الرسل ليلا تكريما له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المعراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعا تكريما لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثانية قائلا[1] :

طَهَ الأمـــين الذى تُرجى شفاعتهُ ... يومَ التلاقى وطىُّ الخلـق منشـورُ[2]
مَنْ سَبَقَ الرُّسْلَ عند الله فى أزَلٍ ... فَضْلا وللخلق بعد الرسْـــل تأخير
وانقضَّ إيـــوانُ كسرى عند مولدهِ ... وغابَ من نارِ وَسْطِ الفُرْس تسعير[3]
وجَلَّل الأفقَ منه النـــورُ فى سحَرٍ ... كأنَّ فى الفَجْر هَدْىُ الصبح منحورُ[4]
وفى السمـــاء خيول الشُّهْبِ راكضةٌ ... كأنها فى وغى الجـــو الزنـــابيرُ[5]
وفى المنازل تحت العرش إذ علمتْ ... بمـولد المصطفى الولـــدان والحـــورُ
تزينتْ وازدهــتْ وســاغ مَشْرَبُهـــا ... وطرَّبتْها من الطـــير الزمـــاميرُ[6]
حول الخيـــام الغصونُ اللُّدْنُ ساجدةٌ ... وللمـــلائك تهليـــــلٌ وتكبـــير

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرجْى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشورا تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزلى كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقدِ حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقض إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قرونا ، وعم الأفق منه نور فى السحر ، حتى ظُن أن هَدْى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشارا به . أما فى السماء فإن الشهب – ملأتها – زنابير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت وامتلأت زهوا وسرورا وغنتها الطيور بمختلف الأغانى ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرًا . وهللت الملائكة وكبرت تكبيرا .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد[7] بن عمار بترجمته أن مجلِّى حلبة المولديات ومقدَّم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صعابها ومذللها عاشق الجناب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلِّث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد الماتجلاتى ، أتحفه الله بمنفهق رضوانه ، وألحفه مطارف (حلل) التكريم فى

---

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .
(٢) طى الخلق : الكتاب الذى كان مطويا عن الخلق .
(٣) تسعير : اشتعال وتوهج .
(٤) الهدى : ما يضحى به من الإبل وغيرها نسكا .
(٥) الزنابير جمع زنبور : حشرة تلسع .
(٦) الزمامير : يريد أصوات الطير وألحانها .
(٧) انظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

أعالى جنانه ، ويقول الحفناوى أثبتّ من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويبهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه[1] :

بالله حادى القِطارْ قِفْ لى بتلك الديارْ واقْرَ السَّلامْ
سَلِّم على عُرْب نَجدِ واذكُرْ صبابةَ وَجْدِى كيف يُلامْ
مَنْ بادرتْه الدُّموعْ شوقًا لتلك الربوعْ مع المقامْ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب ويقرئه السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقا لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والمانجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجاء مصليا خلفه (تاليالة) سحبان البلاغة وقُسٌّ البراعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأنشد له موشحًا نبويًّا على غرار موشح المانجلاتى وفيه يقول :

بالله طاوى القفارْ عرِّج بذاك المزارْ حيث الكرامْ
عرِّجْ بربْع المعالْ وابرد بذاك الوصالْ حَرَّ الغرامْ
حسب المشوق الكئيبْ أنْ شَمْلُه بالحبيبْ لـه التئامْ
نأتْ علينا الديارْ وفى الفؤادِ جِمارْ لها انْضِرامْ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عرِّج نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالى وبرِّد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسبى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملتهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يا نسيما بات من زهر الرُّبى يقتفى الركبانْ
احملنْ منى سلامًا طيِّبًا لأُهَيْل البانْ
اقرأنْ منى سلامًا عَبِقًا إن بدت نَجْدُ
إن لى قلبًا إليها شيِّقًا شفَّه وَجْدُ

وموشحته يهبط أسلوبها درجة عن الموشحتين السابقتين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . ونتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله العطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المقطوعة التالية وتاليتيها تعريف الخلف ٢/٩٠ وما بعدها .

محمد[1] بن عبد الله العطار

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلا عنه في آخر ديوانه النبوى الذى سماه : « نظم الدرر فى مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذى اشتهر به الديوان لأنه أخف وأطرف ، وجاء فى ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثانى من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بنى مزغنة من أقصى إفريقية من أرض مَتيجة » . ومتيجة هى الإقليم الذى تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٧ م ويقول المقرى : « ليس هو بابن العطار المشرقى الذى كان معاصرا لابن حجة الحموى [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربى وذلك مشرقى فلم يتفقا لا فى زمان ولا فى مكان سوى فى اشتراكهما بابن العطار » . ويذكر المقرى - وتبعه فى ذلك الحفناوى - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهرى روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم فى مدينة الجزائر فى ذى القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائه . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان فى سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرى على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران ينتهيان بحرف يُلْتَزم فيهما بكل دور كقوله فى تسديس له[2] :

صَلُّوا على البَدْرِ المنيرِ الأكمـلِ ... صَلُّوا على الرَّوْض البهىِّ الأجْمَلِ
صلوا على الهادى النبىِّ الأَحْفَلِ ... المصطفى الأرقى لأنزه محفِلِ
فيــه تقدَّم وحــده تقديمــا ... صَلُّوا عليـــه وسلِّمـــوا تسليما

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهىِّ العاطر الهادى لأمته الحانى عليها والمحتفى بهداها ، المصطفى الذى صعد به ربه لأنزه وأروع مقام ـ تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجى وبه ، صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر فى كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًّا بديعًا للتسديس . ويذكر المقرى للعطار تسديسًا ثانيًا ، نذكر منه هذا الدور :

(١) انظر فى ترجمة العطار نفح الطيب للمقرى (طبعة د. إحسان عباس) ٧/٤٨٠ وما بعدها وكتاب تعريف الخلف لأبى القاسم الحفناوى ٢/٥٥٠ .
(٢) نفس المرجعين السابقين .

صَلُّوا على مَنْ قد تنامى فَخْرُهُ صَلُّوا على من قد تعاظم قَدْرُهُ
صَلُّوا على مَنْ قد تأرَّج نَشْرُهُ صَلُّوا على مَنْ قد تناسق دُرُّهُ
عَقَد السَّنَاءُ لمجده إكليلا صلوا عليه بُكْرَةً وأصيلا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم فى نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعاظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره يفوح من كل جانب ، ومَنْ لآلىء تعاليمه تطرد لأتباعه فى أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجًا عظيمًا ، صلوا عليه بكرة وأصيلا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامى قبله . ويبثُّ العطار فى قصيدة له حنينا ظامئا إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشدا :

أهدتْ لنا طيبَ الروائحِ يَثْرِبُ فهبوبُها عند التنسُّم يُطْربُ
رقَّت فرقَّ من الصبابة والأسى قلبٌ بنيران البعاد يعذَّبُ
شَوْقًا إلى أَسْنَى نَبِيٍّ حبُّه يحلو على مَرِّ الزمان ويعذبُ
فُزْنا به بين الأنام بديمةٍ أبدا علينا بالأمانى تَسْكُبُ
حاز السيادةَ والكمال محمَّدٌ فإليه أشتاتُ المحامد تُنْسَبُ
محبوبُنا ونبيُّنا وشفيعُنا يُدْنى إلى وِرْد الرضا ويقرِّب
إن طابت الأنفاسُ من زهر الرُّبى رَيَّاه أذكى فى النفوس وأطيب

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيبا ، واختلاطها فى هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طربا ، ويقول إنها رقَّت ورق معها قلبى المعذب بالصبابة والوله شوقا إلى أعظم نبى حبه دائما عذب مستحب مهما كان الزمان مُرًّا كريها ، ويقول إننا فزنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونبينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الربى لا يقاس فى شىء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى فى النفوس وأطيب فى القلوب . ومن قوله متشوقا إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أبدا تَشَوُّقُك أو تروقُك يثربُ فإلى متى يُقْصيك عنها المغربُ
هى جَنَّةٌ فى النَّفْس يعذبُ ذِكْرُها والقرب منها والتدانى أعذب
والشَّوْقُ يثنينا إليها كلما وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
يا حبَّذا فى رَبْع طَيْبَةَ وقفةٌ بين الركائب والمدامع تُسْكَبُ
حتى يرقَّ للوعتى وصبابتى ودموع عينى كلُّ من يتغرَّبُ
شوقًا لمن زانَ الوجودَ وحبُّه يدنى إلى ربِّ الرِّضا ويقرِّبُ
خيرُ الوَرى محبوبنا ونبيُّنا حزنا به الجاه الذى لا يُسْلَب

فدائما تشوق العطارَ يثرب ودائما يقصيه عنها المغرب ، إنها الجنة التى يحلو له ذكرها ، والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة فى ربع الأحبة ودموعه تهطل صبًّا ملتاعا حتى ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذى زان الوجود بطلعته السنية ، والذى يدنى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونبيها الذى حازت به جاهها ومكانتها العالمية . ويشيد بالرسول ويحمِّل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ، منشدا :

أسْنَى النبيِّين قَدْرًا نـــورُهُ أبدا ... يزيد حُسْنًا على الأقمـار باهرُهُ
وأفضلُ الخلق من عُرْبٍ ومن عجمٍ ... أربتْ على الرَّمْل أضعافا مآثــره
رَوْضٌ من الحلم غَضٌّ رَاقَ منظرُه ... بحرٌ من العلم عذبٌ فاض زاخره
إن جادَ صاحِ بلقياه الزمانُ فمِلْ ... إلى مقـــام حبيبٍ أنت زائــــرهُ
وصِفْ له حال صَبٌّ مُغْرَمٍ دَنِفٍ ... رام الدنـــوَّ فأقصتْـــه جرائرُهُ[1]
واذْكرْ هناك بعيدَ الـــدار غربَهُ ... غَرْبٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
أهْدِى السلامَ بلا حَـــدٍّ ولا أمـدٍ ... إلى محـــلٍّ رســولُ الله عامــرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأقمار حين تكون بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء وعدًّا ، وإنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتجه إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صبابته بزيارته وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه وأبعدته ذنوبه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز عن الوصول إليه . وإنه ليهدى السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه وقد اكتحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبتهجا :

ولمــا بدتْ أعلام طَيْبَةَ قصَّرتْ ... من الشـــوق ما قد طوَّلته السباسِبُ[2]
وقفنا وسلَّمنا وفاضتْ دموعُنا ... وحنَّت إلى ذاك الجَنَـــابِ الـركائبُ
نزلنـــا وقبَّلنـــا مــن الشـــوق تُربَها ... وطـــابتْ بذاك التُّرْبِ منـــا التَّرائب[3]
فللعـــين من تلك المعـــاهد نزهـــةٌ ... وللقلب فى تلك الرســوم مآربُ
حَوَتْ سيِّد الرُّسْل الذى جَلَّ قدرهُ ... له فى مقام القرب تُقْضَى المطالبُ
ترقىَّ إلى السَّبع الطبـــاق وما بـــدا ... له فى ترقِّيه من الحُجْـــب حاجبُ

---

(١) مغرم دنف : أشفى على الهلاك . جرائره : ذنوبه .
(٢) السباسب جمع سبسب : المفازة والفلاة .
(٣) الترائب : عظام الصدر .

لقد أشرقتْ شمسُ النهـــار بنورهِ   وبدرُ الدُّجَى لمــا بـدا والكــواكبُ
أعلِّل قلبــى بالـوصـــــولِ لقبــرهِ   وإنْ غبتُ ما قلبى - وحقِّك - غائبُ
وإنى أناديـــــه وإن كنتُ نازحــــًا   نـداءَ غــريبٍ غرَّبتــــه المغـــاربُ

والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصَّرت خطا الشوق التى كانت قد طوَّلتها مفازات الطريق فى إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته - كما يقول - فقد وقفوا وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحنت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم نزلوا وقبَّلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأفئدتهم ، ونَعِمَت العيون بمشاهد تلك المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد سيد الرسل الذى تجاب عنده المطالب ، والذى صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإنه لنور خالص ، نور أزلى ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأنما يفيق العطار من حلمه ، فيرى نفسه لا يزال فى مدينة الجزائر لم يبرحها ، ويقول إنه يمنِّى نفسه بزيارة الرسول ، وإن غبت عنه فإن قلبى ليس غائبا ، وإنى أناديه ، وسأظل أناديه نداء غريب ظامىء أشد الظمأ لرؤية قبره العطر الشريف .

الفصل السادس

النثر وكتّابه

١

الخطب والوصايا

طبيعى أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرستمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م إذ كانت دولة إباضية ، وكان أئمتها لايزالون يدعون رعيتهم فى محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم فى بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١ – ٢١١ هـ) حين ولّى على تاهرت فى غيبته عنها السمح بن أبى الخطاب نائبا عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قائلا[1] :

« قد علمتم – معشر المسلمين – أن السمح وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلىّ وأنصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسى ، تتميما لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادّة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ – ٢٤٠هـ) وهى تطرد على هذه الصورة[2] :

« إنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته ، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقتفوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ومَنْ يُشاقق الرسولَ من بعد

---

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ رابح بونار ص ٥٥ .

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٨١ .

ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْلِه جهنَّم وساءت مصيرا﴾ . فاتقوا الله إخوانى واحذروا مخالفة آثار أئمتكم فى القليل والجليل .. وعليكم بالحذر من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أنتم فيها (أى الدنيا) بعد ماجئتكم بها (أى الرسالة) بيضاء نقية حنيفية سمحة سهلة » .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوى ملوحا بهما من بعيد على صحة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (٢٤١ - ٢٨١ هـ) وجَّهها إلى جميع رعاياه فى تاهرت وجبل نفوسة ، وفيها يقول[1] :

« إن أفضل ما تواصى به العباد ويتحاضُّون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزَّجْر عن معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهيئ للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخصُ فيه الأبصار وتتغير فيه الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و ﴿تذهل كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا - رحمكم الله - أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلَّت الخلوف منهم ، فرحم الله امرءًا مسلما احتسب نفسه ، وأرصدها لله فى طلب العلم والنقض على من ضادَّ الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضادَّ المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى العليا والباطل زهوقا . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فاقتفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ، واحذرو الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجم » .

وواضح أن الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح يدعو فى عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرصدوا انفسهم ويحتسبوها للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا فى رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادىء آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبى حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤ هـ) عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية فى عهده أيام الجمعة وفيها يقول[2] :

---

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٢٤٠ .

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٧٩ .

« الحمدلله الذى ابتدأ الخلق بنعمائه ، وتغمّدهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتِيَا طَوْعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدّرها أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدةٍ تُدْرَكُ بالمعاينة ، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة ، وزيّنها للناظرين ، وجعل فيها رجوما للشياطين (فتبارك الله أحسنُ الخالقين) جعل القرآن إمامًا للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأ للمتنازعين ، وحكما بين المتخالفين ، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجلّ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطا عند الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضا من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقابلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالعناية فى الخطابة والعظات ، وتتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلا إن فلانا ولى خطابة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئا من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلا إن أبا تمام الواعظ الوهرانى سكن بجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صورا من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالى عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاّه متربعا ويردد بعض أقوال له منها(١) :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبّت القلوب ثبّت قلبى . العقل أصل دينى ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كنزى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرفتى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرة عينى فى الصلاة » .

والمئات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تقرع أسماع الناس كل يوم فى بجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحيانا

---

(١) عنوان الدراية ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهليهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرميّ المتوفى بقسنطينة سنة٦٣٦ وفيها يقول[1]:

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصيّر ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطَوْله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لايغفل ، الجواد الذى لايبخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لايزال ولا يتحول » .

وألفاظ الوصية مثل ألفاظ الحرالى ألفاظ منتخبة مصفّاة ، وقد يجىء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن النثر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ ويسميه يحيى بن خلدون فى البغية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له – كما مر بنا – كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين ومحجة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكرهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلسمان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا – ولو قليلة – من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ — ٧٩١ هـ) ابنه أبا تاشفين وسماها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والباب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والباب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش ، والباب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرِّح فى خاتمة الكتاب بأنه وضعه لابنه أبى تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة[1] فى الحروب .

« يا بُنَىَّ إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغايتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك[2] ، ناظرًا إلى ساقتك التى هى قلب جيشك ، فلتلزمْ بها الثباتْ ، ولا تتزحزح إلى جهة من الجهات ، ولتشدّ بثباتك الأنجاد[3] والحماة ، والمقاتلين الكُماة[4] ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تنتقل بسببه ، فإن انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسرْ ، لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحَين[5] ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين » .

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظَنَّ أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه ان تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حمو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى السديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يؤدى إلى الهلك وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعا محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

---

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب واسطة السلوك .

(٢) جأشك : قلبك .

(٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .

(٤) الكماة جمع كمى : المقدام المسلح .

(٥) الحين : الهلاك .

وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثمانى سمعنا - كما سمعنا فى الحقب السابقة له - عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطابة الشيخ مصطفى بن عبدالله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشتد ، والإلقاء الذى تميل إليه الهوادى (الأعناق) وتمتد ، والسكينة (الوقار) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أرَ منذ عقلتُ بسنىٍّ ، وعلقت خطابته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطابة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها .. وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمماثل »[1] . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شيء من خطابته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواعظ أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

٢

الرسائل الديوانيـة

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتَّابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرستمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرستمية تدوَّن ويتناقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السمح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية[2] :

« أما بعد فإنى آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعدالله ٢/٢١٣ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص١٨٠ .

بلغنى ما كتبتم إلىّ به من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس « خلفا » له وردُّ أهل الخير ذلك ، فإن مَنْ ولّى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمح ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تفلحون » .

والرسالة مع إيجازها تؤدى الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمح بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعُرْفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا (٢١١ - ٢٤٠ هـ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نُفاث بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله المنة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أنصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمالنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاه لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا ، أمرتهم فيه بخلع كل مَنْ خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكتبت إلىّ كتابا كأنك تسخط ذلك . أترى أنى أؤازر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أؤازر من يسعى فى خلافنا ما كنا على الهدى . ثم قلتَ إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة (منك) ومقصىّ من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة (منه) ومقصىّ من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أبحت لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لابد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه ، وكذّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وإنى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحبّه ، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب ، والله المستعان » .

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسة القيادة ،

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٥ .

وهو يصرفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروجا على طاعة الله وعصيانا لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحا على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضيا إذ ينزل منه بحيث الود والحب . ولأفلح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة[1] :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، وأبقانا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرَّمة التى جعلها الله أمةً وسطا شاهدة لنبيِّها بالتبليغ ، ومصدِّقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منًّا من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيَّه محمدا ﷺ بالهدى ، ووعده بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعده بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿يا أيها الرسوُل بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ فأدَّى – عليه السلام – ما أمره الله به ، ونصح لأمته ، ودعا إلى سبيل ربِّه ، وجاهد عدوَّه ، وغَلُظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم – كما وصفه الله – رءوفًا رحيمًا ، حتى انقضتْ مدته ، وفنيت أيامه ، واختار له ربُّه ما عنده ، فقبضه محمودَ السَّعْى مشكورَ العمل ﷺ ، فلم تبقَ خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيرا . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاء عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقرَّبوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب » .

وأفلح يقول فى عظته إن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمته الأوامر والنواهى الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمته وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدى على الدولة الرستمية سنة ٢٦[illegible]م ولم

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ٢١٤ .

تقم فى الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بنى حماد فى قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلاده وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادى وقد فرَّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريبين من دولته ، وفيها يقول[1] :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرَّ ، رِضًا وتسليما للقدر ، وتعويلا على جزائه الذى يجزى به من شكر ، ونصلِّى على النبى محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاحَ نجم بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار مَنْ خان فى دولتنا وضيَّع ، استفز أهل موالاتنا الشنآن[2] ، وأغرَى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران[3] ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يبصرون ، فكنَّا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ، ويفرُّ من صِلٍّ[4] خبيث إلى حيَّة صمَّاء ، حتى بُغِتَ مكرهم ، وأُعْجِل عن التلافى أمرهم ، ورُدَّ وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ، وملنا إلى مظنَّة الأمَنَة ، وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستنفر مَنْ كنا نراه للمهم عُدَّة ، وأنتم فى هذا الأمر أول مَنْ يُلْهم الخاطر ، وتُثْنَى عليه الخناصر » .

وابن دفرير فى رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليتها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلذ الأسماع حين تصغى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد فى الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقالمى الذى اتخذه عبد المؤمن سنة ٥٤٧ كاتبا له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى وسنخصه بترجمة ، وكان يخدمه فى عمله الكتابى عند الموحدين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكانه لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفرد له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهرانى ، وسنفرد

---

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (نشر الدار التونسية) ١/ ١٧٩ .

(٢) الشنآن : الحقد والضغينة .

(٣) الكفران : الجحود وإنكار المعروف

(٤) صلٌّ : أفعى .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجيدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا[1] .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يَغْمُرَّاسن منذ سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أديبا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتبا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمراء غرناطة ونزل تلمسان فاتخذه كاتبا[2] له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، ولم يعن المؤرخون بذكر كتّابه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المديح كان يكتب له ، وظل – كما يبدو – يكتب لابنه عثمان الأول (٦٨١ – ٧٠٣ هـ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتابى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتابى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط[3] سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحمو موسى الثانى (٧٦٠ – ٧٩١ هـ) اختار لكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن[4] محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالمى والوهرانى وابن محشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمراء الزيانيين فإنهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .
(٢) بغية الرواد ١/ ١٢٩ والإحاطة ٢/ ٢٧٥ .
(٣) بغية الرواد ١/ ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .
(٤) بغية الرواد ١/ ١٢٣ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتفُّ حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى محمدًا القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول[1] :

« جَلَّ الله تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد ، فسُلكت بهم السُّبُل وأمنت بهم البلاد ، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب ، وأن يخلّد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرا ، ورفع له فى درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا ، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضما بعظيم صولته » .

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجعة : « للعباد » واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

٣

الرسائل الشخصية

يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

---

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/ ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبى على ابن الربيب الحسن بن محمد التميمى التاهرتى الذى ترجم له ابن رشيق فى كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا فى بلدته تاهرت وإنه توفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام فى كتابه الذخيرة ، إذ قال فى ترجمة أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو على بن الربيب رقعة يقول فيها[1] :

« إنى فكَّرتُ فى بلدكم أهلَ الأندلس ، إذ كان قرارةَ كل فَضْل ، ومقصد كل طُرْفة ، وموردَ كلِّ تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تُجْلَبُ ، وإن كسَدتْ بضاعة فعندكم تَنْفُق[2] ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورَفْعهم مَنْ رفعه أدبهُ ، وكذلك سيرتهُم فى رجال الحرب ، يقدِّمون مَنْ قَدَّمتْه شجاعتهُ ، وعظمتْ فى الحروب نِكايتُه ، فشجُع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الهَيَّبان[3] ، ونَبُه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العَيِيّ ، وشعر البَكيّ .. وتنافس الناس فى العلوم ، ثم هم مع ذلك فى غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دَّونوا فضائل أعيانهم ، وقلَّدوا الكتب مآثرَ أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا فى الغابرين ، و (لسانَ[4] صِدْقٍ فى الآخرين) . وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وثابتٌ على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنَّف ، أن يعنَّف ، أو (تخطفه[5] الطَّيْرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سحيق) لم يتعب أحد منهم نفسا فى [جمع] مفاخر[أهل] بلده ولم يستعمل نقْسا (مدادا) فى فضائل ملوكه ، ولا بَلَّ قلما بمناقب كتَّابه ووزرائه ، ولا سوَّدَ قرطاسًا بمحاسن قضاته وعلمائه . على أنه لو أُطلقَ ما عقل الإغفالُ من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمالُ من بيانه ، لوجد للقول مساغا ، ولم تَضِقْ عليه المسالك هنالك .

ولكن همُّ كل أحد منهم أن يطلب شأْوَ[6] من تقدَّمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قصَب السَّبْق ، ويفوز بقِدْح[7] ابن مقبل ، ويأخذ بكَظْم[8] دَغْفل ، ويصير شَجًى فى حَلْق

---

(١) الذخيرة ١/١٣٣ .

(٢) تنفق : تروج .

(٣) الهيبان : الهائب الخائف .

(٤) اقتباس من سورة الشعراء .

(٥) اقتباس من سورة الحج .

(٦) شأو : غاية .

(٧) ابن مقبل شاعر يتمثل بقدحه فى الفوز والظفر .

(٨) دغفل : نسابة كبير عند العرب ، يأخذ بكظمه : يماثله فى علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكظمه الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره .

أبى العَمَيْثل[1] ، فإذا أدرك بغيته ، واخترمته – بعد – منيته ، دُفن علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . ومَنْ قَدَّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألَّفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدَّد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحةُ راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث[2] ببلدكم مصدور ، لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور ، فضلا عَمَّنْ فى الدور والقصور ، وتلقَّوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذى سمَّاه بالعقد[3] . على أنه يلحقه فيه بعض اللَّوْم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة[4] عِقْده ، ومناقبَ ملوكه يتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطوَّل ، وأخطأ المِفْصل[5] ، وأطال الهزَّ بسيف غيرمِقْصل[6] ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، وإغفال ما يهمهُّم . فأرْشِدْ أخاك – أرشدك الله – إن كان عندك فى ذلك الجليَّة ، وبيدك فَصْلُ القضية ، إن شاء الله» .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام فى الصياغة ، حتى ليقترب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجعة عفوا سرعان ما يعدل ابن الربيب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف فى العبارات . ونشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها ، مع الإطراف فى الكنايات والاستعارات ، كتعبيره فى تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عمن أهمل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم يبلِّ قلما بمناقبهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه فى مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلا : « على أنه لو أطلقَ ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته فى التعبير عن الفوز والظفر ، إذ يقول : وليستغل قَصَب السَّبْق ، ويفوز بقدح ابن مقبل الذى تغنى فى شعره بفوزه ، ويأخذ بكظم دَغْفَل كأنما يساويه فى قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شَجًى وغُصَّة فى حلق أبى العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريرة حين ردَّ عليه ردًّا مفحما . وتلطف ابن الربيب لمخاطبه أبى المغيرة بن حزم الأندلسى حين قال له :

---

(1) أبو العميثل هو الذى تعرض لأبى تمام يقول له لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا لا تفهم ما يقال .

(2) نفث : نفخ .

(3) هو كتاب العقد الفريد المشهور .

(4) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة فى وسط العقد .

(5) المفصل : كل ملتقى عظمين فى الجسد ويضرب التعبير مثلا للخطأ الجسيم .

(6) المقصل من السيوف : القاطع .

« لو نفث ببلدكم مصدور (مريض بصدره) لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور فضلا عمن فى الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم فى الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسى ألف كتابًا أدبيًّا فى مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا فى أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأدبية فى المشرق ، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسى يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعل الصاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » . وابن الربيب محق فى اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتَّاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الربيب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عنوا بعرض أخبار ولاتهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتابه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، ولابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ افتتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيادلة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الربيب ، وسيكثرون بعد زمن ابن الربيب من كتابة المجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجِّل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الربيب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذتْ تزدان بالسجع منذ ازدانت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تُلْقى بطائفة من صفوة كتابها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها – على الأقل فترة طويلة – غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأفئدتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرًا كبيرًا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبريني الذى ترجم فيه للعلماء والأدباء ببجاية فى القرن السابع وشطر من القرن السادس يحسُّ أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأنقون فى كتابتهم الأدبية واندمج ذوقهم فى الذوق الأندلسى الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة فى الرسائل الشخصية والديوانية ، وحتى فى كتب التراجم كما نجد فى صدر كثير من تراجم الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية ، وفى التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع فى الجزائر – منذ القرن السادس الهجرى – بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حُلَى من المحسنات البديعية لم نكن مبالغين . ونمضى إلى العهد العثمانى وتظل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقَّرى صاحب نفح الطيب راسل عبد الكريم الفكّون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميرًا للحج عن بلده والجزائر عامةً ، وكان المقرى أرسل إليه بمنظومة فى علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردَّ عليه برسالة أثبتها المقرى فى نفح الطيب قائلا فى ديباجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقيهها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون[1] :

« إنى أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإنى أحوجُ الناسِ إليه ، وأشدهم فى ظنى إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمَّارة ، واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرَّارة ، كأنما عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، فتراها فى لُجج هواها خائضة ، وفى ميدان شهواتها راكضة ، طغت فى غيِّها وما لانت ، وجمحت فما انقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسْنَ الألطاف ، والسَّتر عما ارتكبناه من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحِمى العظيم ، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سندنا سيدنا ومولانا وشفيعنا النبى الرءوف الرحيم .. وقد اتصل بيدى جوابكم ، أطال الله فى العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجثوّ[2] لسماعه سُؤْلها ومأمولها .. وقد ذيَّلتموه بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أنى غير قائم بفرضها ونَفْلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرته .. وظننا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاءة الدجنَّة » تقييدا

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٣ وانظر تعريف الخلف ١٣٢/٢ .

(٢) الجثو : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقًا وتسديدًا بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . وواضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجعات ، ويقول إن نفسه عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها ، وقد اجْتُلبت من أجل السجعات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثمانى بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزّى بها عبد الرزّاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه[1] :

« بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها[2]، وأطار النوم من الأجفان وأبلاها، وأضرم لواعج الأشواق، وأذكى[3] زواعج الاحتراق ، بالذى صَدّع أعشار[4] القلوب ، وأفاض على صحن الخدِّ الدموع من الغروب[5].. حتى أدركتنى محنتك وموت ولدك فأخذتنى الصدمة، وهيجت لى المحنة، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا[6]، وتعهدنا خَطْبه فهدَّ عروشا وأركانا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاه وأغصَّه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتبعها بلواعج الأشواق ، ومكانها فى التعزية قلق وأشد منها قلقا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قِطَعَ قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزاً قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

٤

المقامات

يبدو أن الجزائر – مثل بقية البلدان العربية – عرفت المقامات مبكرة ، إذ كانت فنا جديدا أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، ونلتقى فى القرن السادس الهجرى

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢٠٥ .
(٢) أشجاها : أغصَّها .
(٣) أذكى : أوقد .
(٤) أعشار : قطع .
(٥) الغروب : المآقى .
(٦) فأصمانا : أصابنا فى الصميم.

بجزائرى يكتب فى هذا الفن هو الوهرانى المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفرد له ترجمة ، ويذكر الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريرى للطلاب طوال القرن السابع الهجرى مثل عبد الله بن نعيم الحضرمى ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعى ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثمانى لم يحاولوا محاكاة الوهرانى فى مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذانى والحريرى . أما فى عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البونى ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م مقامة[1] فى أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهى فى بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذى جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنوائب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرّغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، واتضعت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا فى الناس الزور والبهتان ، وأهملت أحكام الشريعة ، وتصدّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن فى عيش ظله وريف ، وفى أهنأ لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سعى فى تشتيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وعيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقيه ، بما هو لاقيه ، واعتدّ فى ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم - والله - أوباش أراذل . وما كفاه بثُّ ذلك فى كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأقاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون فى البلاد متفاصحين بأدبهم ، محتالين على الناس حيلا شتى فى أخذ دراهمهم ودنانيرهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريرى ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس النمامين لذوى السلطان للوقيعة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » ، وجعلها فى ستة

---

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢١٨ .

عشر فصلا ، وسمىَّ كل فصل مقامة تحكى جانبا من سيرة الوالى العثمانى محمد بكداش (١١١٧–١١٢١ هـ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا ، وقديما كتب العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعا فى كتابه عنه الذى سماه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهانى فى كتابه : « الفيح القُسِّى فى الفتح القدسى » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائرى المتوفى بأُخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولاها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول[١] :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت غُرَّتين ، كل واحدة فى أفحوصها[٢] فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبا غطاس وطيورًا أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكلأ[٣] ، يبنون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمسّ بيضهم الماء ، وإن مسَّه الماء فسد ، وهو يُبْنَى بناء صحيحا جدا . وأتونا ببيض الغُرّ ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل[٤] ، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير وبيضه ، ويعدُّوْن (يجتازون) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حِزَمِ البردى[٥] ، يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وُسْطَى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدّون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عودا طويلا يكتدُ[٦] به ولا يقذف » .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى (طبع المكتبة الوطنية بالجزائر) ص ٧٣ .
(٢) أفحوص الطائر : مكان بيضه ورقاده عليه – والغرُّ نفس الطائر المعروف فى مصر .
(٣) الكلأ : العشب .
(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .
(٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كانت تصنع أيضا من البردى أيام الفراعنة .
(٦) يكتد بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

وابن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه فى طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الغر فى بركة بأحد المروج ، والغر معروف فى مصر بنفس الاسم ويُرَى كثيرا شتاء فى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق فى البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبنى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلأ ، وإنه ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يمسه الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه فى نفس المرج وبركته من قوارب صيد السمك والطير وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُضَمّ حزمه بعضها إلى بعض بحبال الدوم الرقاق ، وهى بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراعنة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى فى المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التى رآها ابن حمادوش تقذف بمياه أى أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى فى مصر عند صياديها وملاحيها باسم مِدْرَى ، وهى عود طويل من خشب يدفع به النُوتِىّ القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدره بمنتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس فى المقامة كدية ولا شحاذة أدبية بل هى وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد فى رحلته مقامة ثانية باسم المقامة الهركلية ، ويستهلها قائلا[1] :

« الحمد لله حدا بى حادى الرحلة إلى أن دخلت فى بعض أسفارى هركلة[2] ، فنزلت بها فى خان[3] كأنه من أبيات النيران ، أو كنائس الرهبان ، بل لا شك أنه من أبيات العِصْيان ، فلذلك لا يُسَرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فاختصصت منه بحجرة ، أو نقرة فى حجرة ، وكأنى وقعت من السماء فى حفرة ، أو تبعت أفعوانا فدخلت جُحْره ، فغلَّقت بابى ، لأحفظ حيائى وأؤمِّن جنابى ، من شدة أتعابى .. حتى مدَّ الليلُ جناحه ، وأوقد فى السماء مصباحه ، وهدأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت فى حبائل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيأت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهى أضعف من صاحبتها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد هركلة ولعله يريد هرجلة لما سمع فى الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد فى رحلته مقامة ثالثة لكن لا فى وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما فى وصف زوجته التى كانت تمتلىء عليه سخطا كما يقول فى رحلته حين تجده يخسر أمواله فى التجارة ، وكذلك حين

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ص ٧٨ .
(٢) هركلة : بلدة .
(٣) خان : فندق .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تعمد إلى مغاضبته ، وفيها يقول في مقامته الثالثة التى سماها المقامة الحالية واصفا لها[1] :

« قُرِنتُ بجارة غِرَّة[2] ، عيشتها مرة ، آمالها ظنون ورغبتها فيما لا يكون ، الدهر كله ساخطة ، ومطالبها شائطة[3] ، تخزيك أو تحرجك أو تحزنك ، لا تطلب إلا العنقاء[4] ، ولا ترغب إلا فى الرُّخّ[5] ، ولا تتغذى إلا بَيْضَ[6] الأَنُوقِ ، ولا تجنى إلا ثمرةَ الخلاف ، ولا تركن إلا لعدم الإسعاف .. غذتها أُمُّها لبن القرود ، فشبَّتْ لا تألف المقصود .. بيد أنها تسرُّ الناظرين ، وتُصْبِى السّامعين ، يصبو إليها الحليم ، ويرنو إليها الكريم .. أشبهت فى القَدِّ الغُصْنَ القويم ، والسَّمْهَرِىّ[7] المستقيم ، وقد صدق عليها قول الشاعر :

أسيلات أبدانٍ رقاقٌ خُصورها وَثيراتُ ما التاثتْ عليه المآزرُ[8]

كأنها درَّة مصونة ، أو جوهرة مكنونة .. فلذا اخترتها أما لأولادى ، ومنفقة[9] لطارفى وتلادى علما منى أن الدنيا دار كدر ، وقليل فيها ما يسرّ ، نظرا لقول الصادق الصدوق : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل ابن حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصْبِيهم فيهنَّ من حسن وجمال كما أصبى ابن حمادوش ، ومع ذلك فهناك زوجات كثيرات جميلات خلقة وخلقا لأنهن من أصل كريم . وقد صوَّر ابن حمادوش زوجته غرة يسهل انخداعها ، بل جمعت السوء كله إذ عيشتها مرة ، ودائما غاضبة ساخطة تطلب ما لا يتأتّى ولا يكون ، ولا تترك وسيلة لخزى زوجها وإحراجه إلا تقترفها ، ودائما تطلب منه المستحيل من مثل طير العنقاء والرخ الأسطوريين وبيض النوق الذى لا يمكن أن يوجد . ودأبها دائما الخلاف بل لكأنما تجد فيه لذتها فهى تجنيه وتقطفه من كل واد ومن كل طريق ، ولكأنما غذَّتها أُمها بلبن القرود فهى ما تنى تقفز من خلاف إلى خلاف ومن نكد وغمّ إلى نكد وغم . وقد يكون ابن حمادوش أراد أن يداعب زوجته ، فجرته المداعبة إلى هذه المبالغات التى استخدم فيها محفوظاته من مثل العنقاء وطائر الرخ وبيض الأنوق وثمر الخلاف أو شجره . وقد يدل على ذلك أنه عاد يصفها بصفات جمال مختلفة ، ويجعلها درة مصونة أو جوهرة مكنونة . وواضح

---

(١) رحلة ابن حمادوش ص ١٦٤ .
(٢) غرة : يسهل أن تخدع .
(٣) شائطة : متجاوزة الحد .
(٤) العنقاء : طائر خرافى لا وجود له .
(٥) طائر الرخ : طائر خرافى .
(٦) بيض الأنوق : بيض وهمى لأن النوق لا تبيض .
(٧) السمهرى : السيف .
(٨) أسيلات : ناعمات . وثيرات : ممتلئات . التاثت : التفت .
(٩) فى الأصل : نافقة .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريرى ، وكان حريا بابن حمادوش أن لايسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكأن الجزائر لم تعرف فن المقامة برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أديبا سمى عملا له مقامة أو سمَّاه له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

كبار الكتاب

أبو القاسم عبد[1] الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المفصَّل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبَّه إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتَّابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكر أنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاة هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن –كما صحب يحيى– إلى مراكش ،وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوِّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيله بالنصارى فى ضواحى قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الهلاليين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسمائة حتى اندمجوا فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيثون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله[2] :

« من أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته – إلى الطلبة والشيوخ والأعيان

---

(١) انظر فى القالمى كتاب الخريدة ١/١٨٠ وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) رسالتان .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

والكافّة من الموحدين من أهل فاس ، أعزّهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسناه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تمّم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ، وأناف[١] بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب . وبلّغهم فى أعدائهم – الذين ولّوا أمر الله – وقد استقبلهم – جانبَ الإعراض والإدبار ، و ﴿ بدّلوا[٢] نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البَوار﴾ – أمانىَّ الظافر الغالب . ووكّل بهم أيّةً وَلجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النّصر المحالف المصاحب ما يكون لعامّة أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنَ المحافظ المراقب . ومكن لهم إنقاذا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب التقلب فى أفياء[٣] الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم[٤] نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا[٥] بشرف الفتح الجسيم[٦] ، واحتقاب[٧] الحظ العميم ، وابتغوا ﴿ رضوان[٨] الله والله ذو فضل عظيم﴾ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر[٩] العاقب[١٠] ، الصادع[١١] بنوره الثاقب[١٢] ، لبابة[١٣] الانتخاب وسلالة الانتجاب من لؤى بن غالب ، المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق بما خصّه من الضرائب[١٤] المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجَدِّ الثابت اللازب[١٥] والأثرة (المنزلة) المشتملة على شرف المناسب ، وزُلَفِ المناصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدىُّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفّت حُجبُ الغياهب ، وتفرّقت سبل المذاهب ، وخُبِط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاءٍ ولا مخلِّص لذاهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب[١٦] ، وأنقذ به من هوة العاثر وشَفَا العاطب » .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تحميدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ،وكأنه يجعل ذلك استهلالا وإرهاصا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الهلالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التحميد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجعات المقدمة جميعها فى التحميد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

---

(١) أناف : أشرف .
(٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .
(٣) أفياء : ظلال .
(٤) أحظاهم : أتاح لهم حظوة .
(٥) فاءوا : رجعوا .
(٦) الجسيم : العظيم .
(٧) احتقاب : ادخار .
(٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران .
(٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .
(١٠) العاقب: اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل
(١١) الصادع : مبلغ الرسالة .
(١٢) الثاقب : المصيب .
(١٣) لبابة : خلاصة .
(١٤) الضرائب : الطبائع والشمائل .
(١٥) اللازب : المتماسك .
(١٦) اللاحب : البيِّن .

لابن تومرت مهدى الموحدين . وهذا الطول فى السجعات قصد إليه قصدا ، لكى يضمّن كل سجعة فى داخلها سجعتين أو أكثر . وهو يبتدىء ذلك منذ السجعة الثالثة : « وبلّغهم فى أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانبَ الإعراض والإدبار ، و (بدّلو نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار) أمانيَّ الظافر الغالب . والسجعة بائية وفى داخلها سجعتان رائيتان حتى تتشابك الكلمات فى داخلها وتتعانق ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزينه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكلٌ بهم أيَّةٌ ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامةٌ أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْن المحافظ المراقب » . وفى داخل السجعة البائية سجعة جيمبية فى أولها ثم سجعة ميمية ، وكأن الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعانق عن طريق هذه الإرنانات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتبا بارعا حقا .

والرسالة طويلة ، غير أنها — بجانب بلاغتها — ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة فى الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصَّى ويتتبَّع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألهبته نفحة ضَرَم (شرر) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتمثل بالذكر الحكيم : (أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلا) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة[1] الغزو ومصابرة الجهاد . وأما قبيلة جُشَم فهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرون ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفيَّاح[2] ، وكل من هذين الحيَّين : الجشمى والفخذ المحمَّدى الرِّياحى عَزَم — وعُزِم به — على أن تُختَطَّ إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويبوأ هنا لك قرارهم ويُقْصر على خدمة هذا الأمر العزيز (يقصد دعوة الموحدين) جوارهم . فالحيان الأعرابيان الكبيران : فخذ بنى محمد الرياحى الهلالى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأثبج وزغبة فيقول القالمى عنهم إن أعيانهم وصلوا مراكش عاصمة الموحدين يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب القياس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى كانت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

---

(١) مضافرة : معاونة .　　(٢) الفياح : المتداح ، الواسع .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م حتى حرر فيه القالمى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلّم أظفار أعراب الهلالية فى المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمتا إلى جيشه واختط لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته قبائل الأثبج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحدًا بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القالمى . ورسالته لذلك بجانب أنها وثيقة أدبية تُعَدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوَهرانى[1]

هو أبو عبد الله محمدبن محرز الوهرانى ، منشؤه ومرباه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها – مثل بقية بلدان الجزائر – حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهرانى الأدبية مبكرة ، ورأى – بعد نضجه وشهرته بالأدب –أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومَنْ حوله من نبهاء الكتاب ، وأحسَّ أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتابة الأدبية الجادة إلى الكتابة الأدبية الهزلية . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك – أو لعله هو الذى رحل إليها – فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحى دمشق ،وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته » .

والمنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من القطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزلى غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن مناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويلبيه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفسّاق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقاء كل من يلم به أو يمر

(١) انظر ترجمة الوهرانى عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها فى القاهرة إبراهيم شعلان ومحمد نغش باسم : منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار ويحاوره ، ويرى الرسول مقبلا فى موكب عظيم من المقام المحمود يوْمْ مورد الحوض الذى يسقى منه أمته . يقول[1] :

« لما انتهى إلى شاطىء المشرعة[2] تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلّى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فبماذا كانوا ينفعون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقيل له :والله ولا بشىء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر[3] الخرْوع فى البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان » .

وهو نقد مغربى مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشعرهم وخلال لأسنانهم ولا عمل لهم ينفعون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك فى المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبى طالب فى حرب صفين ومن الحسين فى مقتله بكربلاء ، بينما نراه ينوّه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الهزلى ، وهو يستهلها بقوله[4] :

« لما تعذرت مآربى ، واضطربت مغاربى ، ألقيت حبلى على غاربى[5] ، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتى ،ومن أخلاف الأدب وضاعتى ، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته ، واستمطرت راحته ، ولا وزير إلا قرعت بابه ، وطلبت ثوابه ،ولا بقاض إلا أخذت سَيْبه[6] ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بى الأعصار ، وتقاذفتنى الأمصار ، حتى قربت من العراق وسئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام[7] ، لأقضى حجّة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضرُّ ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسى إلى محادثة العقلاء ، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدلّنى بعض السادة الموالى ، إلى دُكّان الشيخ أبى المعالى ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب فى كل علم بنصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلىّ ، ورأى أثر السفر علىّ ، بدأنى بالسلام ، وبسطنى بالكلام ، وقال : من أى البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(١) انظر منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله ٤٩ .
(٢) المشرعة : المورد .
(٣) شجر ورقه كورق التين ثمره مر .
(٤) مقامات الوهرانى ومقاماته ص ١ .
(٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه :ذهب حيث شاء .
(٦) سيبه : عطاءه .
(٧) مدينة السلام : بغداد .

ومن تركته وراء ظهرك » . وسأله عن دولة الملثمين ثم عن دولة الموحدين قائلا :ما تقول فى عبد المؤمن (أول ملوك الموحدين) وأولاده ، وسيرته فى بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلَّط على من فوق الماء ، خضع له ذوو التيجان ،وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إنسانا[1] ، لتألمت ، وتظلمت ، ولأنشدتك فى الملا[2] قول الشيخ أبى العلا[3]

جَلَوْا صارمًا وتَلَوْا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نَعَمْ[4]

ولكن السكوت عن هذا أنجح ، ومسالمة الأفاعى أصلح »

وأول المقامة شبيه بمقامات الحريرى وبديع الزمان فى تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم ودنانيرهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضيىء الخليفة حينئذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعه بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصَّلة .

(جـ) أبو الفضل[5] بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بتربيته علميا وأدبيا ، مما جعل الغبرينى ينعته فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السِنِىّ القَدْر الكاتب البارع . وينعته عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراعة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبرينى : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) إلى حاضرتهم بمراكش وكان يجله لحسن سمته ورُوائه ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالمى

---

(١) إنسانا : إنسان عين .
(٢) الملأ : الجماعة .
(٣) أبى العلا : أبى العلاء المعرى .
(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .
(٥) انظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٣٨ ومجموع رسائل موحدية ص ١٤٩ — ٢٢٨ .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القالمى - لا الخليفة يوسف - هو الذى استدعاه - ربما لمعرفته المظنونة بأبيه القاضى مواطنه أو لمعرفته بفضله . ويقول الغبريني إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كاتبا له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة[1] أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦هـ/١١٤٠م وكأن هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبريني .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافّة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوبى تونس وقضى على ثائر بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغراهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتوح الإسلامية ، وأنهم لبُّوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه[2] :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الهلالية) فذُكِّروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومِنَنه الجسام ، ونُبِّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعُرِّفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استشراؤهم[3] ، وأملى الله لهم فزاد عليه اجتراؤهم . ونُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضِّهم وقَضيضهم[4] ، نفرة من انبتّ[5] عن الوطن ، ونَبَذ عُلَق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسَّت أولا جلودَهم ، وقضوا فيها من الشباب عهودهم ، فالذى ينتقلون إليه من الرِّباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت[6] فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم[7] ، ومارت[8] لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سالت بهم

(١) التكملة (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) استشراؤهم : اشتداد شرهم وتفاقمه .

(٤) بقضهم وقضيضهم : بجميعهم ينقض آخرهم على أولهم ويندفع .

(٥) انبت : انقطع ، وفى الأصل : أنبت .

(٦) تغلغلت : تعمقت ، وفى الأصل : تقلقلت .

(٧) حفائظ جمع حفيظة : الحمية والغضب .

(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح[1] ، وامتلأت بجموعهم الموامى[2] الفسائح .. وإن جموعهم لتكاثر الحصى[3] ، وتعادُ[4] الدَّبى ، وتملأ الغيطان[5] والرُّبى » .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوِّى من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورصانة ألفاظها عامدا فى أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التى يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فتزيدها إيضاحا وبيانا كقوله فى أواخر ما اقتُبِس من رسالته : « وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » . والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيفة ، إذ لم يكتفوا بأن يستشعر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم فى الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير فى رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى فى وقائعهم معهم ، واستنَّ تلك السنة الخليفة يعقوب الموحدى مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر فى موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م . ولم تُفض هذه السياسة إلى انتصار الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كفِّ أيدى الأعراب عن العبث لمدة قرن فى بلاد المغرب وخاصة فى الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها - كما مر بنا - سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدى إلى الطلبة - الموحدين - الأعيان والأشياخ والكافة بسبتة يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصرانى فى غربى الأندلس وتنكيله بمن معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طُرُّش . وهو يستهل الرسالة بقوله[6] :

« الحمد لله الذى أرغم لهذا الأمر العزيز شُمَّ المعاطس[7] ، وألان بأيده قَباح[8] الجامح الشامس ، وأخضع لعزَّته وسطوته كل جيدٍ متطاول ، وأخشع كل لحظ مشاوس[9] ، وحكم بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقَّل[10] فى الشُّمِّ الشوامخ وتوغَّل فى البِيد البسابس[11] ويسَّر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامى البركة والسعادة ، ما تجاوز[12]

---

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان المتسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى .

(٢) الموامى جمع موماة : المفازة الواسعة ، وفى الأصل : المواهى .

(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفى الأصل : الحصر .

(٤) تعاد : تفاخر فى كثرة العدد ، والدَّبى : الجراد وفى الأصل : مُعاد الرُّبى .

(٥) الغيطان جمع غيط : المطمئن الواسع من الأرض . الربى جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض .

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .

(٧) المعاطس جمع معطس : الأنف والمراد بشم المعاطس الأعداء المستعلون .

(٨) قباح : عضد . الشامس : الجامح المستعصى .

(٩) مشاوس : متكبر .

(١٠) توقل : صعَّد .

(١١) البسابس : القفر الخالية .

(١٢) تجاوز : راد عن .

تقدير المقدَّر وقياس القائس ، والصلاة على محمد نبيِّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجْتَبَى ، المختار من أشرف المحاتد[1] وأطيب المغارس ، المسكت بفُرقانه المعجز ، وبيانه الموجز ، كلَّ نافس ، والماحى بنور نبوته الخاتمة للملل ، وشريعته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات الغياهب[2] ومد لهمات الحنادس » .

وابن محشرة فى هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين لسجعاته فيهما ، وبَدْءًا من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتتوازن العبارات أو التعبيرات داخلها بحيث تتشابك ألفاظها وتتعانق فى سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته فى السجع وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عناية واضحة بالتصوير كما فى قوله « ألان بأيده قباح أو عضد الجامح الشامس » وتتوالى كنايات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس ومحا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهمات الحنادس . ويقول – على لسان يعقوب – إن صاحب قشتالة المسيحى فى الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهده مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصرانى فى الغرب . ويصف ابن محشرة انتساف الجيش لزروعه فى شنترين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ، ويصور استيلاء جنوده على قلعة طرُّش المنيعة ، بقوله[3] :

« نهدوا[4] إلى قلعة للأعداء تسمى « طُرُّش » على هضبة منيفة[5] المراقب ، مسامية للكواكب ، قد انقطعت حافاتها ، وبعدت قُذفاتها[6] من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمها ومكانها من نفوسهم أشبُوها[7] بالبناء الشامخ وحصَّنوها ، وألقوا بها جموعهم المؤتشبة[8] ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم وائتمنوها ، واعتدوها[9] قُفْل بلادهم ، فخانتهم – بحمد الله – آمالهم التى أمَّلوها[10]، وكذبتهم ظنونهم التى ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام ، ولا يُهْتَضم[11] المتوقل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربها – لوعورة مراقيها[12] وجوانبها – الأقدام . لولا سعود هذا الأمر[13] الذى تؤيده الأقدار وتنجده الأيام ، والحمد لله

(1) المحاتد جمع محتد : الأصل .
(2) الغياهب جمع غيهب والحنادس جمع حندس وهما الظلمة .
(3) انظر مجموع رسائل موحدية ص ٢٢٣ .
(4) نهد : نهض .
(5) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .
(6) قذفات جمع قذفة : جانب بعيد .
(7) أشبوها هنا : حموها .
(8) المؤتشبة : الملتفة .
(9) اعتدوها : عدوها وفى الأصل : اعتدوا .
(10) بعد أملوها كلمة زائدة: «فى استقصائه»:حُذِفت .
(11) يهتضم المتوقل : يقهر المقيم فيها . يستضام : يظلم .
(12) مراقيها : أماكن الصعود فيها وفى الأصل : مراقبها .
(13) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُسْتَنْجز به المنن وتستدام ، لا ربَّ سواه . فنازلها الموحدون - أعزهم الله - أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صِيَال[1] .. وعندما عضَّتهم الحرب الضروس[2] بنابها[3] ، وجرَّعتهم أكْؤس مُرِّها[4] وصابها .. رُغموا[5] فى أن يخرجوا بحشاشتهم ، ومن معهم من نسائهم وذرياتهم ، ويفرجوا للموحدين -أعزّهم الله - عن كل ما اشتمل عليه حصنهم من أموالهم وأقواتهم » .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات منتخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا الحصن وعدوه قفل بلادهم ، فخانتهم آمالهم وكذبتهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التى تؤيدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعضَّتهم الحروب الضروس بنابها وجرَّعتهم أكؤس مرها وصابها ، فولُّوا على وجوههم خاسئين مدحورين إلى غير مآب .

(١) فى الأصل : مصال .
(٢) الضروس : العضوض المهلكة ..
(٣) فى الأصل : بها .
(٤) فى الأصل : مقرها .
(٥) فى الأصل : رغبوا .

القسم الثانى

المغرب الأقصى

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافيـة(١)

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتحدُّه الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرع منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع محاذ له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتتفرع منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغى أن نعرض مناطقه ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة الهبط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسى ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسى غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول الهبط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواسل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

---

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات أبى عبيد البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصياد وصورة الأرض لابن حوقل وملامح المغرب العربى للدكتورين محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

بطولات بطل شعبي من أبطالهم يسمى « هلّولا » وبطولته في المغرب الأقصى تماثل البطولات التي تحكي في فرنسا عن بطلهم رولان في ملحمته المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هلولا » . وجنوبي هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهي سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تموّن مدينة فاس ، ويؤلف شبابها زهرة الجيش الفاسي . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهي مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وخطت في الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهي تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سَلا وهي ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبي هذه المنطقة منطقة تامسنة وهي منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعَدُّ بالعشرات . وتنتهي في الجنوب بجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أنفة وخلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أنفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهي ميناء على المحيط في وسط سهل كثير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها في العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفي . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتعد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهي منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتزدحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهي هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوي . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوي جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتيوت في الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقي بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة الهبط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التي تحاذي نهر الورغة الواقع في منطقة فاس ، وهي منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس في الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان في مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعناب والزيتون والتين والكتان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهي عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذاة جبال منطقة الحوز شرقي فاس وطولها نحو خمسين ميلا في أربعين ميلا عرضا ، وهي منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولا ومائة وأربعين ميلا عرضا ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازه وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى دبغ الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفزة وأفزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دُكّالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضا محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للنحاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوبا إلى مسافة مائتين وخمسين ميلا . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماسة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوبا إلى مسافة مائة وعشرين ميلا حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماسة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علوا شاهقا ، وهو علو هيأ من جهة لتكوُّن الثلج على قممها وذراها الشامخة ، كما هيأ من جهة ثانية لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتغزر فى الشتاء. وكثرة الجبال على سطحها هيأها لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترقا منطقة فاس وحوضه يعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكانا ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوبا ثم غربا حتى المحيط ويغذى مناطق تادلة وتامسنة ودُكّالة، ونهر تنسيفت ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترقا شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والمغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاءُ المهيَّأة للزراعة كثيرة ، وهي أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى محدودة المساحة وكأنها فى بعض الأنحاء أشرطة ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانى على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهرية وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . ورابعا تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلقاك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنُّقل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ(١) القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتياد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطيبات الخيرات والسلع يُرْسون بها سفنهم ليتبادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبًا ملاحيًّا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : وبمرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يبحثون لتجارتهم عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنقل . واتسعوا فى اتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبى الشرقى لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قادس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينيقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يبحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير – الجزء الأول لمحمد على دبوز – (طبع القاهرة) وكتاب مدنية المغرب العربى للأستاذ أحمد صقر .

المغرب الأقصى ، وأعجبهم موقع غربى مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو فى صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأنما اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية. واختاروا فى آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إقليمها الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكانوا شعبًا عريقًا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وبثوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن بثوا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى – مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين – يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيوان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من التحضر، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغَرْس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأوانى وحلىّ الزينة وحياكة الملابس والدباغة، وعرفوا منهم–فيمايظن– صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعهم اليونان – فيما بعد – وأسسوا لهم مراكز فى شرقى صقلية بمسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعبين أو الفئتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحداهما رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفئتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ – ١٤٦ ق .م) ويكتب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقية

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتهم نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسماها سيجيللوم ماسة ، وحُرِّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدَّته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكانها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعانهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بويا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القريبة من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكتف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سَلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر أبى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسنة، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب. وجاس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وَليلى ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة. وأرهق الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة، وكانوا ينهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية.

وظل البربر يقومون بفتن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى وأبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوربا الشمالية فى اقتسام أراضى الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكتسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كانت سنة ٤٣٤ للميلاد اكتسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقية التونسية والجزائر ونوميديا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعه عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرّين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على جموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعبًا حربيًا فلم يخلفوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كعهد الوندال والرومان. على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شىء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا — سلا — أنفة بنوا مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكّاله كما بنوا مدينة مرامر فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الواندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولاة — ثورة الصفرية — بنو مدرار — الأدارسة — بعد الأدارسة والمدراريين

(أ) فتح[١] المغرب الأقصى وعصر الولاة

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذارى .

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدَّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاقتحم به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم التونسى يسمى « سبطلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ، وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبى سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية . وتتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة للجيوش العربية الفاتحة للمغرب ودارًا لحكومته وتدبير شئونها ، وبعبارة أُخرى اتخذها عاصمة للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وعُزل ، وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأُسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وعُزل أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدى البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ، وأعلنتْ له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والهبط ولاءها وهادنته وسالمته ، وأخضع وليلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة ونازلها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلابيب (طوق) الفرس وهتف قائلا : « اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبَدَ رب سواك » . وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصده فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارًا لمدد يأتيه ، وأتاه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدوَّن دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاجة وطرد منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطوله ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت فى أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازلها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الإنسحاب إلى « سرت » انتظارًا لمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت فى أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالى عليهم وأن يجنِّدوا منهم اثنى عشر ألفا ليكونوا جزءا لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رفقاء سلاح وأصبح منهم ولاة لا فرق بينهم وبين العرب فى شىء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع فى المغرب الأقصى وفى كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكتسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالا فى طنجة وجنوبا فى إقليم السوس ، وخلَّف فى النواحى التى لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم فى أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإدارى للديار المغربية ، فولاية لبرقة هى عاصمتها ، وولاية ثانية لإفريقية التونسية وشرقى المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربى المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس فى المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليِّه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربريا هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائدًا لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية فى حكم المدن وفى قيادة الجيوش وفى الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره فى أطباق الأرض طلبا لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أى فارق بين العربى والبربرى ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم فى القرن الأول الهجرى وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاتحين العظيمين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحا حربيا بل جعلوه فتحا عقائديا أخويا لأمة وثنية أصبحت تدين بوحدانية الله ، وأصبحت تستشعر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين، فهى تشاركهم فى العمل تحت لوائه جهادا فى سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطلين العظيمين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما فى الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربى فى شمال إسبانيا وجنوبى فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم فى الدولة ، وولَّى على القيروان وديار المغرب فقيها هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر الوالى فى فترتى عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سريعا ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م . ويبدأ عهد جديد فى المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر فى جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالى الجائرة فقتلوه فى السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولى عليهم بشر بن صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . ويتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أرهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسووا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، ويبلغ من سفه عامل طنجة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بعدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجو مهيئا لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنما وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحسَّ مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملأ نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى فى تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه – كما يقول ابن خلدون – عَيْثهم فى أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المعطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعيا أن ينتشر فى المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضغرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زنانة وتتغلغل فى بعض المدن فى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضغرة ، وبويع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادى ، وعين عليها واليا من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودانت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهرى فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفرية ، فنحَّوه عن قيادتهم وولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ م وأخذ يعد جيشا للقاء خالد الفهرى ، ونصب له ولجيشه كمينا على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهرى قضاء مبرما وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكماتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه الهزيمة الساحقة ونحَّى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولَّى عليه كلثوم بن عياض القشيرى ، وأعانه بابن أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشا ضخما عداده ثلاثون ألفا ، وزحف بابن أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقيا جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بعشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر فى جميع الديار المغربية ، وولَّى هشام بن عبد الملك عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م ، وتطاير شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغربين الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون فى المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزنانة ، ويفاجأ حنظلة بقائدين صفريين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى يحشدان جموع الصفرية فى الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح فى استمالة أهل القيروان وفى مقدمتهم الفقهاء ، ووزَّع عليهم جميعا السلاح ، وبثَّ القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان فعقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتلنه ، فلمتلأ الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حميد الزناتي ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعامتهم أبو قرة المغيلي ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهوارى معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . وتفاجأ سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيرواني إذ ربطوا دوابهم فى المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهى فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعاتها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى زعيم الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة حين علم بمايرتكبون من المآثم فى القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافرى فى موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية فى تاهرت. وعلى أثر ماحدث من هزيمة الصفرية فى القيروان نجد أبا قرة الصفرى يكوّن له إمارة مستقلة بنواحى تلمسان. وفى الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبوالقاسم سمكو بن واسول ينشىء للصفرية دولة فى سجلماسة، ولم ينشئها فى طنجة ولا فى المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى ممايدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم فى احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم فى المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرة يعدّ العدة فى تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل فى سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمى على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه فى الزاب ، واضطر أبو قرة إلى الإنسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ونازل الصفرية فى الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا فقضى على الصفرية فى المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا فى القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبلىّ مستقل . ونشعر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر فى المغربين الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) فإن من بقى منهم انسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بنى مدرار .

(جـ) بنو[1] مدرار

استقر فى أذهان كثيرين من الصفرية – وخاصة صفرية مكناسة – بعد إخفاق حملتى عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفرى أنه ينبغى أن يبحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منعزلين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م لأنها تقع فى أقصى مكان بالجنوب الشرقى من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذى اختارها زعيم من زعماء الصفرية ممن أسهموا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامى الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناسة ، وكان من حملة العلم وارتحل فى سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تتلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه فى مكناسة يبشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالتقية وأن من حق الصفرى أن يعلن أنه مع الجماعة فى الظاهر ويبطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يعد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعايش معهم ، والصفرى لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح فى وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التى خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسلَّ المسلم السيف فى وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناسة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان الفيافى والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحًا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام فى هذه الدولة سودانيا من رءوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه – ويتجرون فيه – من السلع مع السودان . وظلت الصفرية – مع السنين – تنقم على عيسى بن يزيد – بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/٧٧١ م

---

(١) انظر فى دولة بنى مدرار بسجلماسة كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للبكرى ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدريسى (طبع ليدن) ص ٦٠ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٦ وما بعدها .

نحته عن الإمامة ، ونصّبت مكانه أبا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ/٧٨٣ م وظلت الدولة فى أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بنى مدرار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أساس المبدأين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعمالهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفريين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعكر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بنى الأغلب التى قامت باسمهم فى القيروان . وبهذا الموقف الذى وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفريين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدرارا كان يخطب فى عمله لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى (١٣٦-١٥٨هـ) وابنه المهدى (١٥٨-١٦٩هـ) . وتوالى أبناؤه وأحفاده من بنى مدرار يدعون فى خطبهم لخلفاء بنى العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم .

واتخذت الصفرية فى سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تنقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجْمع أمرها فى سنة ١٩٤ هـ/٨٠٩ م على خلعه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكرىّ أنه هو الذى دبَّر أمر خلع أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعدَّ جيشًا قويا وسَّع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمَّها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبنى بجانب سجلماسة مدينة شيَّد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثنى عشر بابا ، وأصهر بابنه مدرار للحاكم الرستمى عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) فى ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية فى الجزائر ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدرار ، وطالت ولايته ورزق بابنين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يوليه مكانه سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفى أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م وظل هو يلى الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٤م وخلفه ابنه اليسع ، وفى عهده نزل أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الإمام العبيدى كتامة فى الجزائر وظل فيها سنوات يبث دعوته ، ونجح فى بثها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية فى القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدى ، فأرسل إليه يستقدمه ليشارك فى الأحداث الأخيرة ، ولبَّاه المهدى واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م والتزم التخفى من عمال الدولة العباسية فى طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقاءه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدى الشيعى ، فانتظر حتى انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدى من السجن وردَّ حريته إليه ، وعلم اليسع بقدومه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناسة ودارت معركة كتب فيها النصر لأبى عبد الله الشيعى وجيشه ، وقتل اليسع فى المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدى ورفاقه من محبسهم ، وبايعه أبو عبد الله الشيعى ، وبايعه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتقضت على والى المهدى الكتامى وقتلته هو ومن معه من كتامة سنة ٢٩٨ هـ/٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفى سريعا فخلفه أخوه أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فافتتح سجلماسة وقبض على أحمد وولاها ابن عمه المعتز ، وتوفى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال فى المهد ، فثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقّب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبنى العباس ، وإنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم سجلماسة حكمًا عادلاً رشيدا إلى أن اكتسح جوهر الصقلى بجموعه الشيعية من كتامة وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى – فيما استولى – على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السنى محمد بن الفتح أسيرا إلى رقّادة بإفريقية التونسية ، وتوفى بها سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م . وثارت الصفرية على والى جوهر الصقلّى سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المعز العبيدى ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناسة فى الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة فى التألق والسطوع. وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب مغراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدتهم زحف حزرون بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفريين من مكناسة ، وقتل وهزم قومه هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها فى سجلماسة قائمة ، وأقام حزرون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ، وكانت أول دعوة أقيمت لهم فى المغرب الأقصى .

(د) الأدارسة[1]

معروف أن الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب ثار على العباسيين بمكة أيام الخليفة العباسى المهدى فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م وثار معه أهله وفى مقدمتهم

(١) انظر فى دولة الأدارسة كتاب المغرب للبكرى وصفة المغرب للإدريسى وروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع (طبعة الرباط) ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ١/٢٩٩ وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب ٣/١٨٨ وتاريخ ابن خلدون ٤/١٢ وما بعدها والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة لإسماعيل العربى (طبع بيروت) .

عماه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسى فى مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فخ » ودارت الدوائر على الحسين ومَنْ معه فقُتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الدَّيلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاه راشدًا فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدى وعيونه ، وأخذا بنصيحته ، ونزلا فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م فى مدينة وليلى بجبل نزهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلى شيخ قبيلة أوربة ، وعرَّفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونفزة ومكناسة وكافة البرابر بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم المتهوِّدين والمتنصِّرين فدانوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ/٧٨٩ م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة الزناتية وأميرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمَّنه وأمَّن سائر زناتة وبنى مسجدا بتلمسان ونظم شئونها ورجع إلى عاصمته « وَليلى » ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، فقربه منه ، وانتهز فرصة فدسَّ إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاه راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه ولإشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع وَليلى ، وشبَّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدى وأخذ يستكثر فى بطانته من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغالبة حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة وليلى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ توًّا فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ ثائرين على الحكم الربضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحصَروه سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥ م وقاتلهم فتغلب عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لها أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتمم شطرا منها سنة ١٩٢ ويسمَّى العُدْوَة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانيا مقابلا للشطر الأول وسُمِّى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسُمِّى الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودانت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدها ومنبره وأقام بها ثلاث سنوات يدبر شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة والعباسيين ، ولم يستطع الأغالبة منازلة الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثانى ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والهبط بما فيه من سبتة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هوارة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعرائش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزمور وتامسنة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والهبط وتامسنة وهو جد الحموديين الإدريسيين المتملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاتسع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنى بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هوارة — هى أم البنين الفهرية — ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها ، واعتزمت إنفاقها فى وجوه الخير ، فاختطت سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدوة الأندلسية ، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثانى .

وثارت الصفرية بجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخُطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدى وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكناسة على رأس جيش ضخم لمنازلة حكامه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدى وخلع نفسه وإنفاذ البيعة فأبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبى العافية بيحيى فاستصفى أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة الهبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبى العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايعته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل فى دعوة العبيديين مما جعل المستنصر الأموى يعدُّ جيشا لحربه ، ونازله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى إقليم الهبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زناتة ودانت له وتركها له إدريس الثانى ، وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه محمد واقتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستشعر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما بيدهم ، جزء أخذه ابن أبى العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقبل أن نترك الدولة الإدريسية لابد أن نشير إلى أنها أول دولة أُسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعنيت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماؤها بتعليم المغاربة العربية وأصبح فى المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءتها من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطانة إدريس الثانى – كما أسلفنا – خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الربضى – كما أسلفنا – سنة ١٩٠ للهجرة وقاتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروبة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس[١] وسجلماسة[٢] بعد الأدارسة والمدراريين

انتهى حكم الأدارسة فى فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيديون لموسى بن أبى العافية كبير مكناسة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيديين سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المغراوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وافتتحها جوهر الصقلى باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموى فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيديين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المغراوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وبسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أنحاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سَلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدَّحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

---

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب ١٥٣/٣ وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجلماسة كتاب الأعلام لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وخلفه ابنه فتوح ، وفى أيامه ظهرت لمتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المغراوى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فتغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهرًا الصقلى حين افتتحها ولَّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م فتولاها ابنه يصليتن الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجذبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها حزرون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبِّر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لمتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكتب إليه فقهاء سجلماسة أن يغزوها ليرفع عنها العسف والجور ويطهرها مما بها من المنكرات ، ولبَّاهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المعركة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون – الموحدون – بنو مرين

(أ) المرابطون(١)

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المترامية بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورًا منتبذين العمران يعيشون على الأنعام وألبانها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم بين

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها وابن عذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة محمد عبد الله عنان . وقيام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

الأمم ، وكثروا في منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولمطة وجزولة ولمتونة وهي أهمها جميعا . وكان دينهم في جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون في دين الله متأخرين في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا في سبيله أمم السودان ودوَّخوهم وحملوهم على اعتناقه فدانت به كثرتهم ، وأدَّى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم – بسبب اتساع منطقتهم – ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وكان على شيء من التقوى فتجهز لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م وفي عودته منه لقي بالقيروان أبا عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش في الناس هناك وحبذا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم في الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقبل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكتب له رسالة إلى تلميذ له في سجلماسة هو وجاج بن زولو اللمطي لعله يقبل تلك المهمة ،فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نابها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولي ، وما إن نزل في قبائل صنهاجة المتبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لمتونة أن يتنسَّك معه في جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن في قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه في رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدَّتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أي المجاهدون في سبيل الحق وحَمْل كافة الناس عليه ، ولذلك سموا بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملثمين ، وبحق ظلت هذه الدولة – طوال عهدها – دولة رباط وجهاد في سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتوني ، وأخذ يُعِدّ العدة للجهاد في سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الديني بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربي واتجه شمالا فاستولى – كما مر بنا – على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغيَّر ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالي الذي كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل في الجنوب فهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال وانتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبي الذي كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الحنيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفي في نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلامي المجاهدين في سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطين للجهاد فى بلاد المغرب الأقصى فغزا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدانها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومحا أبو بكر منها دعوة الروافض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحَمَّس أنصاره من المرابطين لجهاد برغواطة الفاسقة ، وكانت مواطنها فى ساحل المحيط فى سلا بإقليم فاس وآنفة وآزمور فى تامسنه وآسفى فى إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد ميسرة الصفرى ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبناؤه يتنبّؤون ويشرّعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيديون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازلهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطين فى وقائع سحقهم فيها سحقًا ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومحاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عنيف بين قبيلته ومسوفة فى موطنهم بالصحراء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد فى إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة فى رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر فى بلدانها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدام حتى استشهد فى إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطين فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون – قبل يوسف – وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعًا حازمًا مدبرًا لملكه على خير وجه ، مجاهدا فى سبيل الله طوال حكمه ابتغاء الثواب من ربه ، وكان بحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يبتنى فى السهل الواسع شمالى أغمات وجنوبى تهرتنسيفت مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ فى بنائها سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وهى مدينة مراكش ، وقد شُيِّدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جنَّد يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة فى منطقة الريف إلى

طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثانى سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م وعاد إليها فى السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م فرَّق عماله على بلاد المغرب وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفى سنة ٤٧٢ أرسل قائده مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفى سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفى السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحَّد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدَّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغى أن يتوحَّد تحت راية واحدة هى راية الخليفة العباسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . ومما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والنزاهة ، وضمَّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون .

وكانت الأندلس – فى القرن الخامس الهجرى – قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سمى عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم – قهرا – إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرهما من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يبتلعهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه – مستغيثين – نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الحنيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عَبَر الزقاق سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والمتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازله فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبابا فى روما وجاءته حشود من الفرسان ،والتقت الفئتان فى موضع يُدْعَى الزلاَّقة شمالى بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُزِّق فيها جيش ألفونس شر ممزَّق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومئتى ألف راجل ، فنكَّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرَّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة فى شرذمة قليلة من الفرسان مثخنا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين ، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفى سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لبيط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكتب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبِّه سوى أمير مرسية وأسرَّها فى نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبَّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيرى أمير غرناطة فعَبَر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيرى وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبى بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبى قاتله أو أخذه أسيرا ، وقاتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونازله المعتمد أمير إشبيلية وأسره ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين – بنظره الثاقب – رأى أن تظل مع أمرائها من بنى هود ، لتكون ثغرا حربيا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفى سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م وقيل بل فى سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه على . وفى سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م توفى البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبويع لابنه على بمراكش .

وكان على مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م وجَّه أخاه تميما الوالى على غرناطة بجيش إلى إقليش شرقى طليطلة ، ولقيه ألفونس وهزمه تميم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولى عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرًا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى تميم على حصن إقليش وشَنْتبريَّة . وفى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م عبر على بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طُلَيْطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط. ووادى الحجارة . وفى السنة التالية فتح سير بن أبى بكر مدن شريش وبطليوس وبرتغال ويابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفى سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م توفى سير بن أبى بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفى السنة التالية ٥٠٨ هـ/١١١٤ م توفى القائد مزدلى غازيا ببلاد النصارى . وفى سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ على بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماتها بنى هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شنتمريَّة . وفى سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقابه . وأُجْلَوْا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سَلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنازله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٢ م .

وخلف تاشفين أباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى برمضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنغال وغير السنغال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نحلة البجلية من السوس ونحلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، ووحدته بجدوده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأنقذتها وردتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم – على اتساع أرجائها – عدالة وأمن لم يحظ بهما قطر فى أزمنتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنغال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مغرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدى الموحدين واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون[1]

أنشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان المغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع وتاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (طبع القاهرة) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

وكانت تنتشر فى منطقة ، الهبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر فى كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التى قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة فى مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة الملثمون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل فى السفح الجنوبى لجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من آسفى فى منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهنتانة وتينملل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت الهرغى حول سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرَّ بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجَّ ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا فوَّض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركنا أساسيا فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعيها من المهدية والعصمة ، أما المهدية فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلقب نفسه بالمهدى أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموبقات والمعاصى ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوَّض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سمى نفسه – وسماه أتباعه – الإمام المهدى المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدى ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت فى هذه الصفات التى خلعها على نفسه مستمدا لها من الإمامية الشيعية كتابا فى الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدى معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رئاستها إمام وتتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعاتهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد - مذهبى المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تؤوّل ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . وإنما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صوره . وكان يتهم المرابطين وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتالهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فعبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاّقه وكان لهم جيش فى موريتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفيين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفوا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة - كما رأينا - تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأيى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م وقد فسح فيه -كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالعراق فى هذه السلسلة – للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . ومبدأ ثان من مبادىء المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءًا لا يتجزأً من دعوته ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعارًا للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل قدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعبد المؤمن بن على الكومى من قبيلة كومية ، ويقال إنها زناتية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ، والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى فى المسجد بأمير المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تنزيهه ونفى التشبيه عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماهم بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ، وكأن ذلك كان تمهيدا لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهرى الذى يأخذ بالكتاب والسنة فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغمات ثم بقبيلة هنتانة المصمودية وشيخها أبى حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ/١١٢١ م وبنى بها رباطا للعبادة ، وانثالت عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابة الرسول ، وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفطة المذهب وفقهاءه الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعدَّ جيشا عداده ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين فهزموهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأثخنوا فيهم قتلا وسبيا وسميت هذه المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدى أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م ، وكتم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يموِّهون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ، ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس فى المغرب الأقصى إلى دعوته وانتقض البربر فى سائر أنحاء المغرب على المرابطين . ويتحاشى عبد المؤمن مقابلتهم فى مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها ممر تازا إلى تلمسان ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن على بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ، وفى هذه الأثناء توفى أبوه على بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة وامتنعت عليه ، وكان القاضى عياض هو الذى دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ، وظل عبد المؤمن يتابع تاشفين حتى حصره فى مدينة وهران بالجزائر وبها توفى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط فى حجر الموحدين مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتى فاس ومراكش . وقد ظل عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهى تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن على بن يوسف وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا فى شوال سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م ولم يبق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن على بن يوسف ، وانمحى – كما يقول ابن خلدون – أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن فى بلاد المغرب عند هذا الحد ، إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس وإفريقية التونسية وشطرًا كبيرًا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمراء الطوائف فى إفريقية التونسية مثل بنى خراسان فى تونس وبنى جبارة فى سوسة وبنى جامع فى قابس وبنى الرند فى قفصة . وكان بنو حماد فى بجاية ، وكان المعز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهدية على البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقابلة لقابس ، وسرعان ما استولوا فى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م على المهدية وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها فى قبضة واحدة ، حتى لا تسول لملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م فى جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى فى إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل ما كان بأيديهم من مدن الساحل فى طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفى تاشفين بن على بن يوسف وانتقل صولجان الحكم فى المغرب الأقصى إلى الموحدين اختلَّت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك فى عهد على بن يوسف منذ شُغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلدانهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلدانهم من ولاة المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثانى ، وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقاوم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن والى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يغنه دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثانى ملك نصرانى يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أقليش وقتل ابنه فى معركتها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسى إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار النصارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفها فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهرى فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومرَّ بنا أن من مبادئهم التوحيد وسموا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشابهة الذات العلية للمخلوقين نفيا باتا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما مر بنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب دينى أو سياسى واضح لأنه غابت عنهم معرفة المبادىء التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إنريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الريق وهو صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشنترين وقصر

أبي دانس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس في سنتي ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده محو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراقوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس علهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانيَّة (أمهم من غانة) ولاة المرابطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ وأتمَّ القضاء عليها نهائيا الولاة بعده . ووضع نصب عينيه الاستعانة بالهلاليين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، وليفيد فى جيشه من بسالتهم المشهورة وليبعد عيثهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعدُّ لمعركة كبرى ، واستنفر العرب الهلالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوربا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرَك بين قرطبة وطليطلة ومزَّقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولاذ ألفونس الثامن بالفرار نحو طليطلة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطلة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . ومما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عبَّاد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمه فى الأندلس والمغرب

واضطرمت فى الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وفقدت فى أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحماتها، فبين سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٦ م وسنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م سقطت فى حجور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

(جـ) بنو[1] مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت فى حوض مُلوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمالى سجلماسة ، وكانوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » فى موقعة الأرَك المشهورة ، وقدّمه المنصور الموحدى على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك فى المعركة ، وأصابته فى الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة فى قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقبيلته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر فى وادى تازا وشرقى وادى سبو ، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م وهزمهم ، وتوفى فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنى رياح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون فى مكناسة فهزمهم ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٩ م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو المحقق لأمانى بنى مرين فى تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ ناصب الموحدين العداء ، واستولى منهم على مكناسة ، وهى أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقضوا بيعتهم ، وتحداه يَغْمُراسَن أمير بنى عبد الواد ، والتقيا ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهود فقبل منهم وصفح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبنى عبد الواد فى طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة فى طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويعد – بحق – المؤسس لدولة المرينيين فى المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

(١) انظر فى دولة بنى مرين روضة النسرين فى أخبار دولة بنى مرين لابن الأحمر (طبع الرباط) والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (نشر ابن أبى شنب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن لابن مرزوق الخطيب التلمسانى (طبع الجزائر) وزهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبى الحسن الجزنائى (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن أبى زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفى سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وبسطت الدولة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارسة المذهب الظاهرى ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذى كان يعتنقه الفقهاء فى المغرب منذ حياة صاحبه فى القرن الثانى . وقد عادوا إليه وإلى مدارسة كتابه الموطأ ومدونة سحنون التى أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعى الصقلى والنوادر والزيادات لابن أبى زيد القيروانى وغير ذلك من كتب الفقه المالكى ومطولاته التى كان يجمع منها يعقوب الموحدى الأحمال ويحرقها يريد محو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هى انشقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكى من العوامل فى تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق .
ومنذ عهده بل قبله تلتحم الحروب بين بنى مرين وبنى عبد الواد وستظل تلتحم على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بنى عبد الواد واقعة بأسلى قرب وَجْدة فى الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفى سنة ٦٧٢ هاجم سجلماسة واستخدم فى حصارها البارود لأول مرة فى المغرب الأقصى وأذعنت له ، وفى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثانى للنهر يتفرَّع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثانى سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سمَّاها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى فى عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكى دارسَكٍّ العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصْنَعُ من فضة أو ذهب فى فاس بمنقاش ، وكأن أهل فاس عرفوا – منذ هذا التاريخ على الأقل – نظام الدمغة . وتجهز يعقوب فى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لعبوره الثانى للزقاق على رأس جيش مرينى لجهاد النصارى فى إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفى سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن فى ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لجوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى الإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفى سنة ٦٨٥ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسلة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونذالث دى لارا nuno gonzsalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوبته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لايبغون بجهادهم غنما. إنما يبغون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب – بعهد منه – ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فعبر الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرا لها ثمانى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبنيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولابد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان بيدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأيدوه ، وتم له الأمر ، ووفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعيد بناء المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ربع المغرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبابها

أنه كان فى جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع فى المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وبايعه الناس . وفى شهر شوال من سنة ٧٥٠ أبحر فى أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتحطم أسطوله بساحل زواوة فى الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده ، وشُغل الابن بأبيه حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثانى وأبو ثابت فاستولى عليها وقتل عثمان وفرّ أخوه أبو ثابت إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على معسكره بكل ما كان فيه ، وفرّ أبو ثابت ثانيا وقتل فى فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفى أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م وهو آخر حكام بنى مرين العظام ، وبويع لابنه أبى بكر السعيد وكان طفلا فظل فى الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة سنتين . وطبيعى وقد اضطربت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بنى عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة تزداد اختلالا بتولى أناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتعلة بين بنى مرين وبنى عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام فى سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة يحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المرينية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، ففيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بنى عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون فى الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلّوه على إخوانهم ، وإنما يسلونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين فى الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بنى مرين أدوا دورا عظيما فى الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين فى غنم أو أى كسب مادى . ولا نمضى طويلا فى القرن التاسع الهجرى حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على سبتة سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو آنفه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدينتى أصيلا والعرائش سنة ٨٧٦ هـ /١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف فى الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس فى الجنوب ، ولابد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المرينية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالى الواسع لموانى المغرب على الزقاق والمحيط فإنه كان هناك من الشباب العربى دائما من يستبسلون فى مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة فى الأرواح، من مثل

أبي الحسن[1] على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى، وعزّ عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم، فانسحب إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط. وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس، وأخذ بهذه الكتيبة الصغيرة يغزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم في أشغال التحصينات. ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا سترة من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض. ومثله شاب[2] إدريسى ذهب إلى غرناطة وانخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجربا، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان، واجتمع إليه عدد من الفرسان، وأخذ ينازل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسى على بن موسى بن الرشيد. ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسى والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها. ومرَّ بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين. وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن بيدهم شيء من السلطان الحقيقى. وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ/١٥٢٤ م فأخوه بوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م. وكان الكابوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م وعلى آزمور سنة ٩١٩ وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقيمون فى كل مدينة حاكمًا عسكريا، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها. ولابد أن تذكر أن الوطاسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعو ولكن قدرتهم كانت محدودة، إذ خرجت مراكش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم، وشغلتهم واستنفدت كثيرًا من طاقتهم الفتن الداخلية الكثيرة، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدى الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٥٠ م وسلطانها – في الواقع – انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة.

---

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان ص٣٢٠ (٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣.

٥
السعديون – الطرق الصوفية – العلويون

(أ) السعديون[١]

السعديون ثانى دولة عربية علوية تقوم فى المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا ينتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن على بن أبى طالب . وكان السبب فى قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجرى المقابل للخامس عشر الميلادى يكثرون من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى فى الشمال على الزقاق وفى الغرب على المحيط الأطلسى واستولوا على كثير من الموانى المغربية خلال هذا القرن ، وتمادوا يستولون على مدن فى القرن العاشر الهجرى كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حميته اضطراما لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالى . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إنقاذ البلاد ، وظل يبحث عمن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم فى شخص من أصل حسنى شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض توًّا لجهاد البرتغاليين ونودى به سلطانا فى منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ فى محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتابع سياسة أبيه فى جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هنتانة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى فى آسفى وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبى وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة الهبط عليهم ، وتوفى سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م وخلفه أخوه محمد المهدى وطرد البرتغاليين من آسفى وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى ترودنت فى السوس ، غير أن

(١) انظر فى دولة السعديين كتاب المغرب فى عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا للفشتالى (تحقيق عبد الله كنون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأفرانى والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور لأحمد بن القاضى (تحقيق محمد رزوق) طبع الرباط ، ولابن القاضى أيضا جذوة الاقتباس (طبع الرباط) وكتاب نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى (تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

واحدا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك فى الجزائر واستعان بهم فى الاستيلاء على مدينة فاس فأعانوه واستولى عليها ونودى به سلطانا ، فحاصره محمد المهدى واستولى منه على فاس وقتله . وأدّى صنيع بوحسون بمحمد المهدى إلى تخلصه من الوطاسيين جميعا فى ترودنت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقى لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوى ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التى شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا ، وأى سعد كان ينتظره المغرب فى القرن العاشر الهجرى أكبر من سعده بهم فى تطهيرهم لسواحله من البرتغاليين ما عداهطنجة فى الشمال . وخلف محمدا المهدى ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك فى الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان والعمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمتوكل ، وكان لأبيه أخوان تغربًا فى الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصممّا أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نابهة ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح فى أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمده واليها بكتيبة من الجيش التركى استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فرَّ ابن أخيه المتوكل وبايعه الناس وتلقب بالمعتصم سنة ٩٨٤ هـ/١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المعتصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظّم الجيش على طريقة الجيش التركى وما يتّبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذى لُقّب بالمتوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه فى منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سباستيان ، فوضع يده فى يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهز الفرصة ملك البرتغال وجهز جيشًا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضمَّ إليه محمد المتوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون فى ميناء أصيلا ، ورأى عبدالملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا فى داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادى أمر بهدمه ، ثم لقيهم فى جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالى سحقا ذريعا وقُتل ملكه سباسْتيان ونصيره محمد المتوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المعتصم وفاة طبيعية

لأنه كان مريضا وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يدبِّرها، وكتم خبر وفاة أخيه عن الناس حتى لايعكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درسا أن لايفكروا مرة ثانية فى إنزال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطىء المحيط وأحيانا كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكتسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبايعه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكمًا عظيمًا كبير الهمة بصيرا بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع — ويضم بعضَ رجال الدولة وبعض الشخصيات — للنظر فى الشئون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعًا فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى تُوَات وتيكورارين فأرسل إليهما جيشًا قويًا أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تتاخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرْنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشًا ضخمًا فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوبا إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجْبَى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضربون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفا وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارها وأهلها هيأ لها ازدهارا فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وأنفق عليه أموالا طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطانا فى فاس وبأبى فارس سلطانا فى مراكش ، وتحاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطانا سنة ١٠١٣ هـ/١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة الهبط سنة ١٠١٨ هـ/١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطانا ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ/١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدير الحكم فى أكثر أجزاء المغرب الأقصى .

(ب) الطرق[1] الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر فى المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجرى ، مثله فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفى أو لصوفى كبير ومصلًّى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرباء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية فى أواخر عهد الدولة المرينية وَضُعف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين فى القرن التاسع الهجرى أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آملين أن يجدوا عندهم الحمية للذود عن دار الإسلام وإنقاذ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتفَّ كثيرون منهم حول صوفى شاذلى صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولى صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ/١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازلة ضارية . وبذلك حوَّل الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين النصارى ، وانتصر عليهم بمن آزروه من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليقف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البواسل أن يستردوا كل ما أخذه البرتغاليون واستولوا عليه من موانى المحيط الأطلسى ومدنه كما أسلفنا وقد نازلوهم فى معركة وادى المخازن كما مر بنا ولم تلبث المعركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبحة كبرى للبرتغاليين ، فرُدُّوا إلى صوابهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربى على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل فى أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم – وهو المأمون – لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة الهبط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم فى العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهدية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمّور . وشقّ ذلك على المغاربة . ولاذوا – من جديد – بالمتصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسبانى فينضووا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ،وطمح كثيرون – حتى بين المتصوفة أصحاب الزوايا – أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

---

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كتبه الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (طبع الدار البيضاء) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسخاوى ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادرى تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

الاحتضار . ونكتفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مبانى كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقاومه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستتم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدّى للإسبان حتى خلَّص منهم مدينة العرائش ، كما خلَّص منهم مدينة آزمّور فى جنوبى تامسنة وخلَّص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المنعدم النظير . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م .

(جـ) العلويون(١)

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتى الأدارسة والسعديين ، ومؤسسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، وكانت أسرتهم تعيش من قديم فى منطقة سجلماسة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماسة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة أبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكَّه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماسة وتعقبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمدًا الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماسة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

---

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان ونزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفرانى وتاريخ الدولة العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان ماردة الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت بيعته سنة ١٠٧٥ هـ/١٦٦٥ م وكان قد تولى لابيه وأخيه على مكناس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ/١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأثبج ، وفتح منطقى الهبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها باقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٨ م على مراكش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة ترودنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الهلالية فى الشرق وقبائل حسان والمعقل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر المُلوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكوَّن للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربونٌ فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهده فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطىء المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كاترينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ/١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدى الإسبان إلى أيدى الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة (المهدية) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ/١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلصها منهم العياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول ابتهاجا بعودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أحذية سوداء فلما استردَّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالهم الصفراء المغربية . وفى سنة ١١٠٤ هـ/١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتى أصيلا والعرائش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفجعة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم فى البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى – كما أسلفنا – سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع أبنائه على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن أنقذ البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذى خلف أباه سنة ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م وكان قد أظهر فى عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتى مراكش وآسفى فى دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقرَّ الأمن فى السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وتجوَّل فيها متفقدا لشئونها وحصَّن المدن الكبرى والثغور وشيَّد بهما الأبراج والحصون وزوَّدهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدَّه بكل ما يلزمه من عتاد حربى ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا فى ميناء الجديدة (المعمورة) شمالى سلا سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م فطردهم منها وابتنى ميناء الصويرة فى منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى فى عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩٢م وتولاها أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومُنى فى أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ،وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم فى موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجيلالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل البعوث إلى أوربا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد – فى رأينا – افتتاح العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

الفصل الثانى

المجتمع المغربى

١

عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذى عاشت قبائله وبطونه وعشائره – منذ آماد سحيقه – فى المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسى واختلف مؤرخو العرب ونسابة البربر فى الأصل الذى انحدروا منه اختلافات شتى استقصاها ابن خلدون فى الجزء السادس[1] من تاريخه ، فقيل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لخم وجذام وقيل بل هم مضريون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة فى أصلهم اختلفوا فى موطنهم الأصلى وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قيل أخرجهم داود – بوحى نزل عليه – إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فارّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها وانساحوا فى المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذى أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقبل : بل إفريقش أحد ملوك التبابعة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم فى هجرتهم إلى المغرب حيان يمنيان : كتامة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله[1] : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانبا من الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم » . وابن خلدون محق فى عدٍّ كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء فى ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو فى محاولة التعرف على الأصل الذى نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذى يؤكده المنطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقش - فيما يقال - هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطانتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يُفْهَمُ كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سموا بها أنفسهم وشعوبهم ، أماالقول بأن العرب هم الذين سموا بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة فبعيد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتر أو البُتر ، وتجمع شعوب البرانس عند النسابين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وإزداجة ، وأوريغة ، ولمطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة - السوس - مراكش - جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسنة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء وراءه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لمتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لمطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هوارة من أوريغة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهوارة ، وضريسة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضغرة ويسكُنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبِّه ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زناتة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها يفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده - وكانوا شعبًا ملاحيًّا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسوٌ سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وأنشأوا عليهما مدنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولابد أن أثّروا بحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنحائها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولابد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أتقنها منهم كثيرون . وتنشب منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثانى حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكتب النصر لروما ، وتؤول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقية ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الزقاق مدينة سَبْتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هى سَلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفه (الدار البيضاء) ويتوغلون فى الداخل وينشئون مدينة وَليلِى . وظلوا فى المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعى أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة فى المدن التى كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحى حاولوا نشره فى البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر - وخاصة فى المغرب الأقصى - كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكتسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبًا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شىء من ثقافتهم ولا حضارتهم فى البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثانى فى المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب فى خلافتى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد فى الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاة القرن الأول الهجرى أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون فى الدين الحنيف أفواجا . حتى إذا تكاثر المسلمون منهم فى عهد واليهم حسان بن النعمان كوَّن منهم كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا وولَّى على قبيلة جراوة فى الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاة القرن الأول الهجرى فى المغرب من المساواة بين العرب والبربر فى الجهاد والحكم . ويتسع ذلك فى عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يولِّى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتقاسم شرف هذا الفتح عربى هو موسى بن نصير وبربرى هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد فى ديار المغرب أى فارق بين عربى وبربرى ، غير أننا لا نكاد نمضى فى القرن الثانى الهجرى حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاة جبارين يظلمون أهلها فى الخراج وغير الخراج غير واعين لتعاليم الإسلام فى المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والعته بوالى طنجة أن يصرِّح بأنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقى إنما هو فى اعتناق دعوتهما التى تسوِّى بين المسلمين فى جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية فى المغرب الأقصى كثيرون وكوَّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومرَّ بنا – فى الفصل الماضى – أن قائدين صفريين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلَّصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ - ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراء والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مدنها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجُعلت عاصمتهاعدوتين : عدوة للمغاربة سمتها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوانحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليونا أو يزيدون ،ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، وانساحوا كسيلٍ عَرِم فىبرقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكأنما وجدوا فى كل ذلك ما يغنيهم عن الانسياح فى المغرب الأقصى واكتساحه .ولا يمضى على هذا الطوفان للهلاليين وبنى سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدين لاستيلاء النورمانديِّين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينقذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ببجاية أن القبائل الهلالية ، وهى الأثبج وزغبة ورياح وقرة تتجمع مع صنهاجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازلها ثلاثة أيام وانتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراكش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراكش أمر أن يكتب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردَّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلتهب حماسة ختمها بأبيات من نظمه استهلها بقوله :

أقيموا إلى العَلْيـاء هُوجَ الرَّواحلِ   وقـودوا إلى الهيجـــاء جُرْدَ الصَّواهلِ

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب[1] فأنزل طائفة بنواحي قرطبة وطائفة بنواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨٢ م وفَد على الخليفة بعده ابنه يوسف حشدٌ كبير من قبيلة رياح وضعوا أنفسهم تحت تصرُّفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قفصة وقابس واستعادهما خرجت عليه في هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الهلاليه وأخواتها من قبائل جُشَم والأثبج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكفٍّ عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصدعوا لأمره ، فأنزل بني رياح في مناطق الهبط وأزغار وفاس مما يلي سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بني جشم في تامسنة وما وراءها من الأراضي ، وأنزل الأثبج في منطقتي دكّالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن[2] الوزان في القرن العاشر الهجري أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي مينائها آسفي على المحيط وأن فروعا أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أثبج تحول شمالا وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوبا وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب فتح لعامة العرب نوميديا أي الصحراء في جنوبي الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء في المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية في نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتغلغل إلى وادي ملوية شمالا ووادي أو نهر درعة جنوبا . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد (في القرن الثامن الهجري) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى وينتهون إلى البحر المحيط من الغرب » وبطونهم كثيرة ، وتستولي على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادله وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وانتجعت في الرمال إلى مواطن الملثمين[3] ، ونلتقي بسليم قرب وادي درعة ، وتشتغل بالتجارة[4] وتذهب مع سلعها في قوافل إلى تمبكتو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة في درعة . وكل القبائل التي ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربيا دينا ولغة .

والعنصر الثالث في المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا في الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربضي في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الربض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم في الوقعة ألوفا ، وذهب

(١) انظر في استنفار عبدالمؤمن للأعراب المعجب ص ٢٩٤ وانظر في استنفار يوسف ويعقوب لهم وإسكان يعقوب لقبائلهم المغرب الأقصى ابن خلدون ٦/٢٠، ٢١، ٢٤.

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٦/٥٨ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشدٌ كبير اتجه إلى فاس فى المغرب الأقصى وكان إدريس الثانى يبنيها فجعلها عدوتين : عُدْوة للمغاربة وعُدْوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمائة أسرة سوى من نزلوا فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى فتسقط - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية فى حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثة لها عن موطن جديد فى فاس وفى غير فاس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم فى أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنا ثانيا لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطىء نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا - من قديم - بمن نزل بينهم لعهد الحكم الربضى ثم لعهد سقوط المدن الكبرى فى القرن السابع الهجرى ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراع منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الرى والزراعة والغرس التى ألفوها فى الأندلس سواء فى السهول والوديان أو فى التلال أو فى مرتفعات الجبال، واختار كثيرون منهم - منذ سقوط غرناطة - منطقتى الريف والهبط فى الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قراصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقاما من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسى . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا فى الشعب المغربى اندماجا تاما.

والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم فى المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكثر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنقه بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى فى أثناء المدّ الفينيقى والرومانى ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامى ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية فى إقامة شعائرهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزح إليهم فى العهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرارفيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ،ولاحقوهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا فى مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسّط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفى كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن فى مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم فى منطقة حاحةبمدينة تدنست مائة بيت يهودى وبمدينة آيت دوّاد كثير من الصناع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفى درعة وسجلماسة كثير من صناعهم وتجارهم . ويقول الوزان لهم فى تازه خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمور من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين فى فاس منذ القرن الثامن الهجرى ، إذ يذكر الحسن الوزان فى حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون فى فاس القديمة ونقلهم السلطان المرينى أبو سعيد عثمان الذى تولى الدولة بين سنتى ٨٠١هـ/١٣٩٨م و ٨٢٥هـ/١٤٢١م إلى مدينة فاس الجديدة التى بناها مؤسس دولة بنى مرين سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م وهم يشغلون فيها — كما يقول — شارعا طويلا جدا وعريضا للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط فى زمنه لأوائل القرن العاشر الهجرى بعد سقوط غرناطة فلابد أن أعدادهم فى فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا فى القرن الحادى عشر الهجرى ونراهم — منذ الدولة المرينية — يحاولون أن يكون لهم شىء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيرا منهم يسمى هرون فثارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا فى الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا فى أن تتخذ منهم سفراء إلى أوربا وبعض من يمثلونها فى الصفقات التجارية الكبرى . ولابد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أى التحام ، فقد كان عنصرا دخيلا عليهم لغة ودينا ويقول الوزان فى حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محتقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوما عنصرا من عناصر السكان فى المغرب الأقصى إذ كانوا دائما وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات فى مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان فى حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التى اعتاد النصارى الاحتفال بها والتى لا يزال الناس يعملون بها اليوم (فى زمنه) ولا يدرى أحدشيئا عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففى كل مدينة مغربية يُحْتَفل ببعض الأعياد والعادات التى خلفها النصارى منذ الزمن الذى كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية .ويدخل المغرب الأقصى فى الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلا . ونمضى إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان فى حديثه عن مراكش أن

المنصور الموحدى بنى فى القصبة قصرا للحرس من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسيرون أمام موكب الخليفة حين ينتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلون فيها - كما أسلفنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرَّ بنا من صنيع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمل التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصنتهم ويستحيلون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة الهبط وجدناها وافرة الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أزغار ، وبها كثير من الحبوب والأقوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مثمرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوربا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورود وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتخترق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخيَّل للناظر إليها من بعد أنها غابة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهى خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقنّبيط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل فى الصيف ومثلها فى الشتاء . وتوجد فى حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعناب وهى شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع فى سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التى تبدو عجيبة فى حجمها ونوعهالأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهماغزير جدا ، ويُجْنَى العنّاب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكعيبات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضى المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت وينتفع بها لتغذية دود القز . وأراضى منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من المعز وقليل من الضأن والبقر والخيل . وتليها إلى الداخل منطقة مراكش وسط سهل خصب ، وكان فى المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا ملىء بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر فى وسطه عمود يحمل أسدًا من رخام منحوتا نحتا دقيقا يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفى كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش ببقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والتيوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من المعز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو فى سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجوز ، وجنوبى حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر فى أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية – وخاصة فى بعض الأنحاء – وافرة جدا وبالتالى يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط فى أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمعز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر فى بعض الأنحاء – مثل أزغار على المحيط – أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . وبجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعنب والسفرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبى غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت فى بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المعز والخيول والبغال . وجنوبى الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتتكاثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقى منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والجوز والنيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عنبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطعمه طيب . ويكثر الغنم والمعز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقى السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراع واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقى منها منطقة درعة ، وشماليها على نهر زيز سجلماسة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المعز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من التمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب فى المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديها يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم فى سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذى يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغسَّة إنهم صيادون وملاَّحون . ولابد أن كان كثير من سكان الريف والهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها فى المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسبان واضطروهم إلى الخروج من مؤطنهم فى الأندلس . وضعفت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه فى بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر أم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزمّور بمنطقة دكالة ، وكان يكثر فى مياهه نوع من السمك

يسمى – كما يقول الوزان – الألوز وكان موسم صيده يبدأ فى تشرين الأول (أكتوبر) وينتهى فى أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فنمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكّالة أيضا فى حضن الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماكا أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدًا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونها اللمت والبقر الوحشى ويسمونه ودَّان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة آمجّاو مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشئونه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفِّى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستيتن عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنَّع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحْذَى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجبليون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وسنصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفران فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمحابر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز ففى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأوانى الخزفية ويبيعونها فى فاس وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولا بين جبال الأطلس المحاطة بغابات ضخمة ينتج الفحامون هناك مائة حمل من الفحم ، ونلتقى بمثل هذا الفحم فى مدينة العرائش . وفى قصر المزاليق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإثمد (الكحل) وتلقاه فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالمثل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الهبط خشب البقص فى جبل بنى واغرافت وتصنع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تمليح السردين إعدادًا لبيعه ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أُعمدة وألواحا ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرّادات فى هذه المنطقة ومنطقتى الهبط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافيين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تنسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسنة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمعز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحيك السكان – وخاصة فى جبل مغسَّة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساؤهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتى تفزة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساؤهما ماهرات – كما يقول الوزان – فى شغل الصوف ، ويصنعْن منه برانس وخِمارات جميلة جدا ، وبذلك يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى نتصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوارٍ مع قاعات فسيحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصّارى (مبيِّضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر لبلِّ الخيوط ودَقّها . وتتجهز هذه المصانع بالكثير من المراجل والخوابى المبنية لغلى الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولابد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمنتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى الهجرى تُبْنَى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتدأ بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، ويفيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقوفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويسترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوقد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول – مثل الأزهر – إلى جامعة ضخمة . ويبسط القول فى المدارس والمعاهد والمارستانات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة – فى أثناء حكمهم – يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيَّدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزيين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطيل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته حُلِيَّها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطيل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البنيان والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور – كما مر بنا – بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلافا من العمال والمهندسين والبناءين والحدادين والنجارين والزواقين المزينين للمبانى بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة .

وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعدَّ لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى أنشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلفهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارهما إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط فى العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنويين ماتنى ذاهبة إلى موانى البحر المتوسط آيبة منه محملة بحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنويين تعبر الزقاق إلى موانى المغرب الأقصى على المحيط لتتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنويون والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومنتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سَلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنويين يقصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة ولهؤلاء التجار مستودعاتهم فى كل من فاس وسَلا ، وكانوا يُبْقون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبى شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته فى فاس ثلاثين سنة حتى توفى . ولابد أن كان للجنويين والبنادقة مستودعات مماثلة فى موانى المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة فى الموانى التى احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تتجر مع السودان ، هى السوس وكانت تحمل إلى أهله الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذى كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أوانى النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأقفال وتعود قوافلها محملة بالتبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بثراء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأوانى النحاس وفى منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود التيران والشمع بجبل بنى زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين فى سوق فاس .. لنتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهى تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكانا للمكتبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأوانى النحاسية ، خمسون دكانا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكانا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكانا لباعة القطن ، .فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنَّب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحرير ، فصناع أغمدة السيوف والسكاكين فباعة الأوانى الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجامات والأعنَّة والسروج ولهم ثمانون دكانا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق العشابين للقنّبيط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكانا ، فباعة الزلابية ، فباعة اللحم المقلى والسمك المقلى ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكانا للجزارين وتُذْبَحُ

الحيوانات فى مسلخ خاص ويفحصها المحتسب ويصنع لسعرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيوف وخناجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل فصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حَيًّا ، حيَّان للإسكافيين أو الحذائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحيّ لباعة النطاقات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيادلة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّانين والصبّانين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرِّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق موحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكانس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقيود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكاييل وآلات الحلج والبرادة ، وباعة المحاريث والدواليب وعرائش العربات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالمغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفَّرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعًا داخليا وخارجيًّا .

٣

الثراء – الرَّفه – الموسيقى – المرأة

(أ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثر فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثالين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزلته كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير – كما يقول الوزان – من الصدقات ، ويساعد أهل بلدته بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلدته إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثانى فى مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان أنبلهم أميرها ، وهو – كما يقول الوزان – وجيه أعمى سخى سخاء كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، يستمد منها دخلا كبيرًا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السمن .

وبجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموانى ، إذ كان تجارها يثرون من تجاراتهم وحتى المدن التى كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبى تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكانوا يتأنقون كل التأنق فى ملابسهم . وما بالك بكبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة فى فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل فى الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتتجهز جميعا ببرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير فى إيطاليا أبنية تماثلها إلا فى قصر الكردينال فى دَيْر الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تُطلُّ على ممشى ، ويشيد بالقصور التى بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرَّ بنا فى حديثنا عن المرينيين فى الفصل الماضى ، وقد أنفق سلطانها المرينى أبو عنان على إنشاء معهد – كما يذكر الوزان – أربعمائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية .

ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازينه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلبها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثنى عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطوريته من ماسة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجْبَى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكته يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب الدنانير الذهبية ، ولذلك لُقِّب بالمنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن منطقة بولوان فى منطقة دكَّالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكالة فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصْنَع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود المغربية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من نواحى منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا تفزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكىّ الرائحة ورمان يخلو من البذور وعنَّاب بديع مع وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة الهبط غنية لكثرة موانيها التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس وسجلماسة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماسة تمورهم والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة والمنتجات المغربية وما يصنعون من أوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب وريش النعام والرقيق ، ويدرّ ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرَّفه

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرفه . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلاءها يجده يقول إنهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من سترة (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم لها نصف أكمام ، تمرِّر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشابية) ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخاط من أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ، وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تُطْوَى مرتين حول الرأس وتمر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون في أقدامهم خفًّا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون سترة وبُرْنُسًا بدون الثوب (القشابية) الذى تكلمنا عنه .وربما كان أدق من ذلك ما ذكره في بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « وللنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن في الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن في الصيف قميصا يطوِّقنه بزنار ، وعندمايخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخِمارا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطَّى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن فى آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصَّعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريفات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزان فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تتزين بحلى فضية ، وكأنها كانت هى الحلى الشعبية الشائعة ، ومرَّ بنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة للابسهن وكل أنواع العطارة والروائح الفائحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وحِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغداء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقَى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتى الشطرنج والنرد يتسلَّون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبياذق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكتب النصر لإحداهما كما فى الحرب تماما . أما النرد فتدل خطوطه الأربعة والعشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارته السود والبيض هى الليالى والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وأنشأ ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسلطان قنَّاصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد — كما يقول الوزان —

حرًّا فى الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يمتلىء غضبا ويَشْتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرِّج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحى عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حربة تنتهى بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تفوُّقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهى اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرجٍ ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دنانير وكسوة جديدة .

(جـ) الموسيقى[1]

أول زمن للنهضة الموسيقية فى المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقى بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن فى القرن العاشر الهجرى المقابل للسادس عشر الميلادى ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهله هناك واستمعوا إليها ، وكأنما انتظر المغرب الأقصى حتى اكتسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجرى واتسعت هذه الهجرة – كما مر بنا – فى عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسى المرينى الملقب بالغالب (٩٦٤ – ٩٨١ هـ/ ١٥٥٧ – ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهى رمل الماية –الماية – رصد الذيل – الأصبهان – الرصد – غريبة الحسين – الحجاز الكبير – الحجاز الشرقى – عراق العجم – العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج على البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسى ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أنغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أوأقسام، وهى

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وراجع كناش الحائك لمحمد بن الحسين الحائك (طبعة مصورة لورقة الحاج عبد السلام الرقيراق . طنجة ١٩٨١ م) .

البسيط والقائم والبطائحى والقدام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات ينشدها موسيقار منفرد، وخاصة فى الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوى وهى فيها تكون من رقيق أشعار المتصوفة مثل الششترى، وفى غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحيانا تكون غزلا. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين . والطبوع مفردها طبع وتقابل فى الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة فى موسيقى المشرق العربى ، ومنها مفرد وهو العشاق والحسين والحصار والزوركند والأصبهان والمزموم والرمل والرصد والعجم والمجنب ، ومنها ممزوج ، وهو عراق العرب وعراق العجم والحجاز المشرقى والصيكة أو سلم الرست .

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسيين المرينيين تكملة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج على البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة . ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين – وكانت أربعة – ميزانا جديدا هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبى المردد فى حلقات الذكر بالزوايا . وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية ، من ذلك الآلات النحاسية فى بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطانى . واستمرت الآلات الوترية وفى مقدمتها العود والقانون ، والآلات النقرية وفى مقدمتها الدف والرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفخ وفى مقدمتها الناى والمزامير . والفضل الأول فى تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذى أثارته الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأنغامها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/١٨٠٠ م لتأليفه فيها « كناش الحائك » مسجلا فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج على البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التى تتألف منها أجزاء النوبة ، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية ، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية ، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك ، وبذلك كان عمله فى كناشه مزدوجا فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية .

(د) المرأة[1]

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها ، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية ، وهى حرية قلما حظيت بها أختها فى المشرق ، وكان لذلك أثره فى الحياة السياسية والثقافية ، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

(١) انظر فى المرأة المغربية مواضع مختلفة فى الجزء الأول من كتاب النبوغ المغربى فى الأدب العربى للأستاذ عبد الله كنون ، والقسم الثانى من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى (طبع الرباط) .

القرويين بفاس الذى سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفاس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن تاشفين سيدة حصيفة وكانت تدبر معه دفَّة السياسة والحكم ، وكان رأيها دائما صائبا وانتفع بها فى حياتها فى تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا بالعزة زينب بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت تجيز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طنانة ، ولها أعمال برٍّ كثيرة . وعلى شاكلتهما تميمة بنت سيد المرابطين يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات . ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أبى بكر الذى ظل واليا على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطايا كثيرة ، وللأعمى التطيلى فى مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته فى كتابنا عن الأندلس . ومن السيدات الفضليات فى عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن عمها أبى زيد بن أبى حفص تتلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصولى وكانت عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب خيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أبى الحسن صاحب المدرسة بسبتة ، ومن المتصوفات — وهن كثيرات — منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأديبات من بيت الحكام الموحدين رُمَيْلة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أبى محمد بن الحسن السبتية وحفصة بنت القاضى أبى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أديبة شاعرة . ومن السيدات الفضليات النابغات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقيهة أم هانىء بنت محمد العبدوسى والفقيهة أم البنين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنّان والدة الشيخ ابن غازى وغيرهن كثيرات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأديبات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى وصفية العزفية من بيت العزفيين وصبح زوجة أحمد بن شعيب الجزنائى ، واشتهرت فى الطب عائشة بنت الجيار السبتية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م أن نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مختطّ مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى سبتة ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفىّ فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط وتصدَّت لنصارى سبتة بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعتها السلطان أحمد الوطاسى فاقترن بها سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م .

ونلتقى فى عصر السعديين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الآستانة ببشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بكتيبة عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجابتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دُكالة ، واشتهرت بالعلم والتقوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعديين العريفة بنت خجوّ ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خناثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حصيفة تحسن إبداء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثرت فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى بينما كان زوجها المختار بن أبى بكر الكنتى يدرسه للرجال ، وترجم لهما فى كتاب واحد ابنهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والتالدة فى مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كنون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادىء العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلوحى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النّشء ونشر المعرفة .

٤
المالكية – الصفرية – المعتزلة – الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماؤها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تُعَد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمته ، يلقى فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون – وفى مقدمتهم عبد الرحمن

ابن القاسم - فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتتلمذوا على أئمة الفقه المالكى بعده فى مصر. فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكى فى إفريقية التونسية، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب فى المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذى فرَّع فيه فروعا كثيرة. سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه فى موطنه ونسبت إليه باسم مدوَّنة سحنون. وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسى يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكى بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م. وكانوا يعودون إلى مواطنهم فى المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكى ويشيعونه بين الناس فى بلدانهم، وأظن ظنا أن إدريس منشىء الدولة الإدريسية ومَنْ خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم فى المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور، إذ أفتى الناس بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ~~١٤٥ هـ~~/٧٦٢ م وفى السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان والى المدينة مالكا وجرَّده من ثيابه، وضربه بالسياط عقابا على فتواه. وفرَّ عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عمه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية، فكان طبيعيا أن يرعى لمالك الفقيه الكبير فتواه لابن أخيه، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه، مما جعل المذهب المالكى يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجرى.

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجرى حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه فى الفقه المالكى الذى يدرسونه فى المدن وفى القبائل المختلفة، ومنهم أبو هرون البصرى الذى أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكى المصرى إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبى القاسم بن محرز فقيه الملثمين وعثمان بن مالك فقيه فاس، وله تعليق على مدونة سحنون، ودراس بن إسماعيل الفاسى تلميذ أبى بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز، وعبد الرحيم الكتامى تلميذ فقيه القيروان فى النصف الثانى من القرن الرابع: ابن أبى زيد وأخذ عنه كتابيه: النوادر والمختصر. وينشط المغرب الأقصى فى دارسة الفقه المالكى لعهد المرابطين، وكانوا يعينون فقيها مالكيا مع كل والٍ لملاءمة الأحكام فى عهده للشرع. وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكى لهذا العهد فى الفصل المقبل، ويضعف هذا النشاط فى عصر الموحدين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهرى، وسنخص هذه العناية بحديث فى غير هذا الموضع، ويعود إلى المذهب المالكى نشاطه وازدهاره فى العصور التالية حتى العصر الحديث.

(ب) الصفرية[1]

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط فى القرن الأول الهجرى ولاة عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام القاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ/ ٦٩٠ م - ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدْخل من قومها فى جيشه كتيبة من اثنى عشر ألف رجل تجاهد مع العرب فى سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه فى جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودانوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م - ٩٦ هـ/ ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإدارى للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هى المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم يعد هناك فارق بين أن يكون الوالى لأى ولاية عربيا أو بربريا مغربيا ، وكلفه بأن يفتح إيبريا ، فأعدَّ جيشا أكثره من البربر نحو اثنى عشر ألف جندى ، وفتح الله له الجزء الجنوبى من إيبيريا ولحقه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم فى عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين فى حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد فى سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا ابتغاء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الحنيف وما ينبغى أن يستشعره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة فى إعلاء كلمة الله .

ومُنيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى فى القرن الثانى الهجرى ليسوا فى مستوى أمانة الحكم التى ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولّى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج فتعسف مع البربر فى جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى فى عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ/٧٢٣م - ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م) ولاة ليسوا فى مستوى المهمة ، كان آخر المتعسفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرهق المغاربة هو وعماله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صَبْرُ المغاربة يكاد ينفد إذا بدعاة مذهبى الصفرية والإباضية ينتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول فى عقيدتهم التى تناقض عقيدة حكام بنى أمية وترى فى استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر فى مذهب الصفرية الملل والنحل للشهرستانى.

بربريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعمالهم ووصفوهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدّوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذراريهم ، ومرّ بنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضغرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيرى ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفريين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورفجومة الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشىء بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنحاء .

(جـ) المعتزلة[1]

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحدانية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثله شىء ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاته مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجئة تعده مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وفُتن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدرة الجدلية على الدعوة للمبادىء الاعتزالية ، وفرّقهم

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وكتابنا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ، ١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامى ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شعبِ الصِّين فى كلّ ثُغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهم تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْياها وعلمِ التشاجرِ

فهو قد أرسل دعاته الذين يفحمون خصومهم بالبراهين السديدة ويَعْلون عليهم كلما ناظروهم أو جادلوهم ويقول إن منهم دعاة تغلغلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أنفذ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعْرَفون بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكأن الدولة كانت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكانوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومرَّ بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية[1]

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهبا سمى مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أساسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكفى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك ينبغى الوقوف عند ظاهر الكتاب

---

(١) انظر النصوص الواردة فى المعيار للونشريسى (طبعة حجرية بفاس) ٣٦١/٢ وروض القرطاس لابن أبى زرع ١٩٥ والمعجب للمراكشى (طبعة القاهرة) ص ٣٥٤ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان : ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التى تُبْنَى عليه . وكُتِبَ لهذا المذهب أن يتحمس له عقل أندلسى هو عقل على بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعى ثم آثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهرى ، ولابن حزم فى الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التى يأخذون بها ، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهرى فى عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذه مذهبا فقهيا لها من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كنون فى الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كأنه بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبطل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الونشريسى فى كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهرى وأن ابن أبى زرع فى روض القرطاس فى سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أى أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعا وهى نفس نظرية المذهب الظاهرى ، وفى المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجد : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى الفقه المالكى) فقال لى : يا أبا بكر أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحْدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى – وقطع كلامى : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو السيف » . ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل بعد أن يجرَّد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففُعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدوَّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبى زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعى وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحا نحوها . ولقد شاهدت – أنا يومئذ بمدينة فاس – يؤتى منها الأحمال فتوضع وتطلق فيها النار » ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده فى الجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

برفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم » . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتا قاطعا أن دولة الموحدين كانت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمر العلماء برفض ماعداه من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرَوْا على ذلك سنين بطول إيالتهم (حكمهم) إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم» . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكى فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهاد – المتصوفة

(أ) الزهاد

المسلمون من قديم – يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرىء على ما قدمت يداه ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتوح ، فهم لا يفتحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأتقياء ، فالآخرة هى التى تهمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يعتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعَوْن الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلا قليلا أخذ أناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثيرون من هؤلاء الصلحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن محسود[1] الهوارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقَعْب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدوى الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

(١) انظر فيه وفيمن يليه من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠-٢٧٢ وفى هامش القرطاس مع ابن محسود وأبى جبل وابن حرزهم وعثمان السلالجى ويسكر . ومن مراجع تراجمهم التشوف وجذوة الاقتباس وسلوة الأنفاس .

دينار أنفقها كلها فى سبيل الخير ، وأصابت أهلَ مدينته : فاس مجاعة وكان عنده ألف وَسْق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلمّا حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثائق جميعا فى الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن فى حِلٍّ ، فإنى ما بعت لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . وينتعش الزهد فى عصر المرابطين ، ونشعر إزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف فى المغرب الأقصى مثل أبى جبل المتوفى سنة ٥٠٣ هـ/ ١١١٠ م وكان كثير السياحة فى الأرض . ويتكاثر الزهاد فى عصر الموحدين مثل ابن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبى عبد الله السلالجى الأصولى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م ومثل يسكر الغفجومى المتوفى سنة ٥٩٨ وكان ورعا فاضلا ومثل أبى عبد الله المعروف بابن تخميست المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكتظ كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراكش ، غير أنه لم يترك بلدا فى المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجالا ، ويسميهم فى مقدمته صلحاء ، وهم فى جمهورهم زهاد ونساك المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا فى دواوينهم على نحو ما نجد عند أبى الربيع الموحدى . وكما يقفنا كتاب التشوف على الزهاد فى عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف فى العهد المرينى بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفى الجزء الثانى من كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد فى عصر المرينيين ، وظل مطردا فى عصر السعديين ويذكر الأستاذ كنون منهم الهبطى الطنجى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٩٦٣ هـ/١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى فى الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجو المتوفى سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ويظل للزهد رجاله المشهورون فى عصر العلويين .

(ب) المتصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها يبالغون فى نسكهم فارضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة فى التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواثقين المتوكلين يهملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعى له يفضى إلى فقدان التوكل والثقة فى الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئة) » . وأخذ هذا التعمق فى التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبى البغدادى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذى أودع فيها فكرة الحب الإلهى ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . ولم يلبث أن ظهر الحلاج فى مطلع القرن الرابع الهجرى وظهر معه التصوف الفلسفى وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا فى القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، وأصلحا ما بين الفئتين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفى به إشعاعات من أفكار الحلاج ، وتصوف سنى أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلانى وأحمد الرفاعى . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشوذى وابن عربى وابن سبعين والششترى على ما نحو ما أوضحنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإنما شاع فيه التصوف السنى وما يمثله من مثل طريقة أبى الحسن الشاذلى .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنساكه ، وكان جمهورهم – فى رأيى – نساكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء فى كتاب النبوغ المغربى ابن حرزهم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفى المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبى . ونظن أنه كان عابدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبى مدين أنه أخذ التصوف عن أبى عبد الله الدقاق الصوفى لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتى المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته فى يومه والباقى يتصدق به ، وكان ناسكا وِرْده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وكان بارًّا باليتامى والمساكين . وهى حياة زاهد فى رأيى لا صوفى . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسنى وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستنكرا أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصى رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهى إجابة زاهد لا صوفى ، وإن كان قد درس على يديه الشاذلى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفّر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربى أنه لقيه فى كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربى له لا يدل حتما على أنه صوفى ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفى الحقيقى فى عصر الموحدين يلنور بن ميمون أبو يعزى[1] المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا فى الجبال بمنطقة مراكش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثمانى عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر فى أبى يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٣٥٤ .

الأرض . وإنما نرجح أنه كان صوفيا لأن مترجمى أبى مدين الصوفى المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ أبى يعزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين فى عصر المرينيين الشيخ زرّوق[1] المتوفى سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا فى التصوف منها قواعد التصوف وعدة المريد وعلى شاكلته أحمد الصومعى فى عصر السعديين وله فى أبى يعزى كتاب بعنوان : المعزا فى مناقب الشيخ أبى يعزى وعدة مؤلفات أخرى فى التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجرى فى التصوف حتى يصيبه فى المغرب الأقصى ما أصابه فى البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدَّعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفى فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخلى كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التى يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل المتع مقيمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقّون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغان على الذكر تصور الوجد الملتاع . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذى اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . ومما زاد فى خروج الصوفية عن الجادَّة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامتيّة[2] الإيرانى بينهم وهو مذهب كان معتنقوه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يعد محرما ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن ينعتوهم بأنهم لا يتمسكون بنواهيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامتية أى أهل الملامة ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر فى عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبى رسالة إلى السلطان مرادخان العثمانى يهنئه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو فى المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامتية فى المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطى الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التى شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنساك المتمسكين بأوامر الدين ونواهيه مثل الهبطى الطنجى المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد وحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

---

(١) راجع فى الشيخ زروق كتاب النبوغ المغربى ص٢١٧ ، ٢٢٨ .

(٢) انظر فى الملامتية كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٦٩٠/٣ وما بعدها وراجع تاريخ الأدب العربى فى إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص٥١٧ ..

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرَّ بنا – فى الحديث عن الثقافة بالجزائر – أن فتوح العرب للمغرب حوَّلته بعد قرن واحد إلى شعب عربى ، وقد نزل الفينيقيون دياره وظلوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى – وخلفهم البيزنطيون نحو قرن – ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحى وحضارتهم . وكأنما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب – مهما اختلفت أقطاره وتباينت – هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يبتغون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يبتغون نشر الدين الحنيف ، مما جعل جماهيرهم تستحيل إلى معلمين يحفِّظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادىء العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السمح يسوِّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استنزاف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون فى الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا وراء فوج .

وكان هذا الدين الحنيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقترن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا فى مثل : ﴿وقل ربِّ زدنى علمًا﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين فى الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادىء الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس فى غرف ملحقة بالمساجد أو فى المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتاتيب ، وكانوا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ فى المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شىء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم فى الأقطار المغربية – مثل بقية الأقطار العربية – معتمدا على الكتاتيب لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروسًا فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا فى القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتاتيب والمساجد مؤسسة جديدة هى المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ،حتى إذا كنا فى القرن الثامن الهجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهى مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب – المساجد – المدارس – الزوايا – المكتبات

الكتاتيب

انتشرت الكتاتيب – منذ القرن الأول الهجرى – فى كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته فى الفصل الخاص بتعليم الناشئة فى الكتاتيب « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول :« إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة فى أثناء دراسته برسم ألفاظه ، ويقول إنهم لا يخلطون ذلك بتعليم شىء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبيبة (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون فى تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتاتيب فى المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشىء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن الكتاتيب بفاس إن بها مائتى كتّاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا فى كتاب معين ، وإنما يستعين بألواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشىء القرآن فى نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجادة جزء لا بأس به من القرآن يقدِّم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه فى الكتّاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة – مثل طلاب المعاهد – يومين فى الأسبوع للراحة لا يختلفون فيهما إلى الكتاتيب .

ويذكر الأستاذ كنون – كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع – أن المرأة المغربية هى التى كانت تقوم فى ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَىّ من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة فى إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللائى يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة فى المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تتجه إلى حلقات الشيوخ فى المساجد لتتلقّى ما يُلْقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوى وتعاليم للشريعة ودراسات للعربية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس فى هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادىء فى هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن ثقفوا المبادىء واستوعبوها وخاصة فى الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى فى كل مكان ، ونلتقى بها فى كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازه وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن فى فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزدانه بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تبليطها بالرخام أو ما يشبهه من الميورقى .

ويفصّل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى فى عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م ويُعَدّ أقدم جامعة علمية فى العالم العربى . وعلى نحو ما أحدث الأزهر فى القاهرة من نهضة علمية فى مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا فى فاس وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسى من مختلف الأنواع ، يلقى منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية فى أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته فى العلم والفكر المغربيين فى مختلف الأزمنه . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دوّن تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيّد له منارة فى منتهى

الروعة كمنارة الخيرالدا التى شيدها فى جامع إشبيلية ،وترى زوجته بعد أن شيَّدها أن تبيع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمر – كما ذكرنا فى غير هذا الموضع – أن يصنع بثمنها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تعلو قمة المنارة ليكتمل رونقها . وطبيعى أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين فى عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسا جامع القرويين فى الحركة العلمية ، وتنافسه معهما الجوامع الكبرى فى سجلماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسَلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدرُّ عليها ما يفى بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس فى المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ) إذ شيدَّ طائفة منها فى بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافًا كثيرة تفى بنفقات أساتذتها وطلابها ومكتباتها وعيَّن فى كل مدرسة أساتذة فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطارت شهرة هذه المدارس النظامية فى العالم الإسلامى منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الحصيف (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت – كما يقول الأستاذ كنون فى النبوغ المغربى – باسم مدرسة الصابرين .

ونظن ظنا أنه لابد أن شيدَّ مدرسة ثانية فى عاصمته مراكش .فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنونى يذكر فى كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس فى مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين فى الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسَّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعُنى حفيده يعقوب الموحدى بتأسيس المدارس لا فى المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا فى إفريقية التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيُدت فى عهد الموحدين – ولعلها شيدت فى عهد يعقوب – بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفى رأيى أنه كان بها مساكن أيضا للأساتذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفى الطابق الأرضى قاعة كانت تُلْقَى فيها الدروس فى الماضى ، وكان التلميذ فى هذه المدرسة يُعْفَى من المصاريف ، ويُعْطى كسوة ، وكان الأساتذة يتقاضون راتبًا شهريا فيها بين مائة ومائتى دينار حسب طبيعة الدروس التى يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها فى الماضى عدد كبير من الطلاب ، وقلوّا الآن أى فى القرن العاشر الهجرى قلة شديدة ، ويقول فى القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

وأبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشارى السبتى المتوفى فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبتة ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما يفى بالإنفاق عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشييد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبا سعيد والد أبى الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقة بفاس وأن أبا الحسن ابنه أنشأ مدرسة الصهريج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس وتازة وسبتة وأنفة وأزمّور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافًا كثيرة وألحق بها مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ، ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس لعهده ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره وبيان دلالات كلمه مضيفا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجَّه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور الطلاب ويتناقشون فى معانى النص ودلالاته ، ويشترك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار .

وواضح أنه لم ينته العصرالمرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قداكتظ بالمدارس وبما تخرَّج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يعنون بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سُنَّة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمتصوفة والنساك قبل القرن السابع الهجرى إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع بعض رفاقه كما مرَّ فى حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة آسفى على المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر بسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدرعة فى القرن الثامن

الهجرى باسم زاوية سيد الناس محمد ﷺ . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر الهجرى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكأنما المغاربة يئسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ المتصوفة آملين أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائها الخاسئين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مبانى لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فإنها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يتخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حمية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقضاض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومرَّ بنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتنكيل بهم ، وطبيعى أن يُعَدّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصّادها . وعدَّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدًا كبيرًا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكأنها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميًّا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخهما ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجى فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعدَّ بمراكش أربع مكتبات وبزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعدَّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الغرديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعته الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدّهم فى القرن الرابع الهجرى بكار بن عيسى الغرديسى شرفًا عظيما إذ كان أول من حمل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

(جـ) نمو الحركة العلمية

تأخذ الحركة العلمية بالنمو فى المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس فى عهد إدريس الثانى كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الربضى ويقال إنهم كانوا نحو أربعمائة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمى بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة ،حتى إذا كنا فى منتصف هذا القرن وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهرية جامع القرويين فى عدوة فاس المغربية المقابلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون فى تعليم الشباب الفاسى ، ويظل لهذا النشاط العلمى آثاره فى المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويعود هذا النشاط بقوة فى عهد المرابطين الذين قاموا لإنقاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية فى سجلماسة وبعض الأنحاء وكالمعتزلة فى البصرة والشمال الغربى وكالبرغواطية فى تامسنة وكالبجلية الشيعية الروافض فى ترودنت بالسوس وبذلك وحّدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثين فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديارَ الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة فى الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية فى المغرب الأقصى نموا واسعًا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يفدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماؤه يفدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ/ ١١٤٣م) من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » وفى موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء فى القطرين قضوا شطرا من حياتهم فى وطنهم والشطر الآخر فى الوطن الثانى . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم » . واتخذ - حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت - عشرة مع خمسين من الأشياخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يعدُّون للدعوة إعدادًا علميا . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منه كما يقول - إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيرا من أجزائها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء المتقنين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبِّهه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد » . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للمالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده محو مذهب مالك وحَمْل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسُنَن البزار وأبى شيبة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يمليه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاج العلمى والأدبى بين القطرين المغربى والأندلسى حتى لنرى كتاب التراجم الأندلسيين حين يؤلفون كتابا يمزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعا على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشييد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطيل الوزان الوصف لمعهد بناه السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩هـ/١٣٤٩ م - ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٨م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تتحلى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدةمنمقة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساءوبالذهب الصافى وباللازورد ، والسقف من خشب مجزع ، ويختم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائةوثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أنهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فىحجر الإسبان إخوة تجمعهم أواصر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعوريتعمقهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه ازداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشى حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة يجعله قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تتسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية فى أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد فى نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأً كبيرا فى قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية فى المشرق العربى وخمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضى فى كتابه عن المنصور الذهبى السعدى (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوّه الأستاذ عبدالله كنون فى الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربى بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفى كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادى ومعنوى .

٢

علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراكش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء[1] بن عبد الملك بن زهر ، وله فى الطب تصانيف متعددة وقد أمر السلطان على بن يوسف حين توفى سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م بجمع كتبه الطبية ونسخها فى السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبرييل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله فى مراكش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) انظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطين ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف[١] بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م - ٥٨٠هـ/ ١١٨٥ م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكما لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طبيبه الفيلسوف أبا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغَّبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م - ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمنه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبِّه عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلو سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد- وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرْجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للغزالى ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .وأخذت كتبه تدرس فى الجامعات الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الأخيرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوربى . وهى يَدٌ لابن رشد لا على الفكر الأوربى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ،وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين[٢] المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فَرَجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١ وله كتاب[٣] لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

---

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد المعجب فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) .

(٢) انظر حضارة الموحدين للمنونى ص ٧٤ .

(٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٥/٣٧٥ .

يعقوب الموحدى فى قصبة مراكش والمسجد الذى بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعُمُدٍ وغير عمد ومأذنته البديعة على أنه كان بمدينة مراكش حينئذ كثير من المهندسين المواطنين والمجلوبين من الأندلس المستوطنين فيها ، ومما أحدثوه فى المسجد الكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بعجلات فى أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة[1] .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حينئذ أبو على الحسن المراكشى مؤلف كتاب المبادىء والغايات فى علم الميقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف فى هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذ عبد الله كنون أن أبا على المراكشى رتب هذا الكتاب على أربعة فنون هى الحسابيات فى نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها فى أربعة أبواب أو فصول[2] .

ونمضى إلى عصر المرينيين ونلتقى فى علم الفرائض أو المواريث – وكانوا يلحقونه بالرياضيات – بإبراهيم بن أبى بكر التلمسانى نزيل سبتة الذى مر بنا فى الجزائر وله فى الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت فى سبتة وغير سبتة مرارا ، ولابن الشاط المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م « غنية الرائض فى علم الفرائض » . ونلتقى بمفخرة المغرب فى الرياضيات ابن البناء[3] أبى العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م وقد بلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية فى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك ،وله فى الحساب والجبر التلخيص فى أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب فى جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته فى حياته وقصده الطلاب من كل فج ،وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبلى محمد بن إبراهيم التلمسانى ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦ م . ولابن البناء فى الفلك كتاب اشتهر فى عصره وبعد عصره سماه اليسارة فى تعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائى الفاسى عبد[4] الرحمن بن أبى الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧٢ م فى الرياضيات والهيئة أو الفلك وقد ابتكر إسطرلابا يلصق فى جدار ، والماء يدير شبكته على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

---

(١) انظر المنونى ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من النبوغ المغربى لكنون ص ١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة فى الكتب السالفة مثل جذوة الاقتباس ونيل الابتهاج ودرة الحجال وأزهار الرياض . وانظر فى مؤلفاته النبوغ المغربى ٢٣١/١ .

(٤) انظره فى الدرة لابن القاضى ٨٢/٣ والجذوة ٤٠٢/٢ وكنون ٢٢٤/١ .

ويلقانا بعده عبد[١] الرحمن الجادرى المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م مؤقت جامع القرويين بفاس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفيحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة فى العصر المرينى ابن لبون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الإكسير فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكبًّا على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م شرح باسم فتح الخبير بحسن التدبير لفك رموز الإكسير لابن لبون السالف[٢] . وللبعقيلى[٣] أبى زيد عبد الرحمن الجزولى المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م شروح فلكية على اليسارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجاردى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ولمحمد[٤] بن قاسم بن القاضى المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الرودانى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله إسطرلاب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف[٥] مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطا فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبيعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرَّ بنا أن أبا العلاء[٦] بن زهر الطبيب كان طبيبا ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراكش لرعايتهما الصحية ، ونزلها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبيبا للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبيبا بينما اتخذ ابنه يعقوب أبا بكر بن زهر طبيبه الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحيا بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأحصى الأستاذ المنونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين[٧] طبيبا وصيدليا أندلسيا

---

(١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون ص٢٢٠.

(٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٥٧/١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ٢٦٤/١ .

(٤) النبوغ ٢٧٠/١ .

(٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كنون ٢٩٤/١ .

(٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

(٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المنونى ص ٨٨ وما بعدها .

نزلوا مراكش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أتقنوا الطب والصيدلة فى عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، والشريف الإدريسى المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشىء بسبتة والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م. وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف البيمارستان الذى شيَّده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين دينارًا كل يوم للإنفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى البجائى كان أول رئيس للبيمارستان كما يفهم من ترجمة ابن أبى أصيبعة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية ستة[1] من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيبا فى البلاط المرينى زمن السلطان أبى سعيد عثمان وابنه أبى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكان طبيبا بارعا كما كان شاعرا بارعا . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفا مجهولا لكتاب « بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة[2] بنت الجيار ، ويقول :

« قد كان بسبتة فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجَّارين — يريد الصيادلة العشَّابين — سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكانة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء بإحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة ، ولابد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستانات بديعة وعدة مارستانات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيادلة .

ويعرض الدكتور محمد حجى مؤلفات[3] الأطباء والصيادلة ، ويبدأ بالوزير الغسانى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م ومما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

---

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ١/٢٢٥ .

(٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١/١٦٠ وما بعدها .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواصّ النباتات ، شرحَ فيه الأدوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب أبى الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدوائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

ونبغ فى عصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد[1] القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشقرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد[2] الوهاب أدرَّاق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م وهو من أسرة فاسية اشتغلت بالطب ، وإليه انتهت رياسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد[3] الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وله فى الصيدلة كتاب باسم كشف الرموز فى الأعشاب الطبية وكتاب فى الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما يصور - بوضوح - عناية المغاربة ببحوث الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياه ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماؤهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تتدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب - كعلماء المشرق - فى مدارسته وشرحه لطلابهم . وممن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد[4] الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينعته الغبرينى بأنه المنطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد[5] بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

(١) النبوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .

(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .

(٤) انظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبرينى ص ٢٢٣ .

(٥) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ٢٨١/٤ وانظره فى بغية الوعاة للسيوطى .

بها المتوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرينى . ويذكر الدكتور محمد[١] حجى فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسي المتوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقيلى المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخضرى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجى لمحمد بن عبد الله الهبطى مباحث الكلية والجزئية .

ويعرض الأستاذ عبدالله كنون طائفة[٢] كبيرة من المنظومات والشروح والحواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادرى المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشَرْح سلم الأخضرى الجزائرى اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشَرح السلم أيضا بنانى . ومن الحواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأخضرى لابن منصور الشفشاوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنانى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعْنَى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية وَبَعْثها بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارسة ما ألف فيهما مما هيأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتاتيب ومقرئى القرآن فضلا كبيرًا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض الألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغويين ونحاة ونرمز إلى ذلك فى عصر المرابطين بمروان بن عبد الملك بن سَمَجون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدَّر قديما لإقراء القرآن ،وكان مقرئًا مجودا ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التقعير[٣] وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

---

(١) راجع حجى ١٥٩/١ .
(٢) النبوغ المغربى ٣١٤/١ .
(٣) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٣٧٢/٢/٨ .

ونمضى فى عصر الموحدين ونلتقى بمحمد[1] بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمى مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م وكتابه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيريث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حرَّفتها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزبيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطئته لها فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تثقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وبباب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد وبباب لما تمثلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من امرىء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسًا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليبلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمى بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملىء بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مقصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقانا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب[2] بن محمد بن مسعود الخشنى الجيَّانى الأصل المستوطن لفاس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أديبا وكفاه شرفًا شرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد[3] بن عيسى بن أصبغ المشهور باسم أبى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م وكان فقيها نظارًا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئًا من الآداب شاعرًا مجيدًا مرجِّزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الحِلَى والشيات » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثانية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والظباء وحمر الوحش والنعام وما يتعلق

---

(١) انظر فى ابن هشام اللخمى التكملة ٣٧٠ وبغية الوعاة ٤٨/١ .

(٢) انظر ترجمته فى التكملة : ٧٠٠ وجذوة الإقتباس ٦٣٦ .

(٣) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى ٣٤٥/٢/٨ .

بها » . ومن لغويى عصر الموحدين يوسف[1] بن موسى الهوارى المتوفى بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا فى علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا ويذكر له أبياتا فى ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى فى ترتيب حروف الصحاح للجوهرى .

ونمضى إلى العصر المرينى ونلتقى بالشاعر مالك[2] بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ،ولا نلبث أن نلتقى بأبى القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجنى سماه : « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » وهو منشور ، ونلتقى بأبى زيد المكودى الفاسى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وله البسط والتعريف فى علم التصريف ونظم المعرَّب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والممدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المرينى تؤلف كتب مختلفة فى غريب الحديث مثل « تحفة الناظر فى غريب الحديث » للرعينى الفاسى ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخارى وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوى السجلماسى . وتتكاثر الشروح والحواشى فى العصر السعدى للقصائد النبوية مثل البردة والهمزية للبوصيرى ومقصورة المكودى فى المديح النبوى ولبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهرى ولبعض القصائد المشهورة مثل لامية العرب ولامية العجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبى ، وشُرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافية لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات فى التأليف اللغوى طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور[3] المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحًا على حماسة أبى تمام باسم عنوان النفاسة فى شرح الحماسة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس القوائد فى شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب المزهر للسيوطى باسم المسفر عن خبايا المزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزابادى باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الغواص للحريرى ويعدِّد الأستاذ عبد الله كنون شروحا وحواشى أخرى فى اللغة لكثيرين[4] .

وكان النشاط فى النحو لا يقل عن النشاط فى اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوى كبير نلتقى به فى عصر المرابطين الحسن[5] بن على بن طريف المتوفَّى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

(١) راجع فى يوسف ابن عبد الملك المراكشى بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ . ٤٣٧/٢/٨ .

(٢) انظر فى أعمال مالك والشريف الحسنى والمكودى والرعينى والمغراوى النبوغ المغربى فى مواضع متفرقة

(٣) انظر النبوغ المغربى ٢٢٣/١

(٤) راجع النبوغ المغربى ٣١٥/١ .

(٥) النبوغ المغربى ١٠٠/١ .

ظلَّ يدرس النحو طوال عمره بسبتة ،وهو أستاذ القاضى عياض وغيره من علمائها فى عصر المرابطين ، ونلتقى بعده بعلى[1] بن محمد الجذامى المالقى الذى سكن سبتة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م وكان يقرىء بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد[2] بن الحطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م إذ كان مقرئا للذكر الحكيم كما كان نحويا . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نحاة ، إذ كانوا يحفِّظون الصبيان ويقفونهم على حدود العربية كى ينطقوا بآى الذكر الحكيم نطقا سليما .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى[3] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م فقد حج ومرَّ بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجى ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياه وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرِّف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكراسة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحوىّ الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجى » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القطفى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضا : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعونه من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفا لها لخلت مما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذا بارا لأستاذه ابن برى ،فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئا ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلوبينى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

(١) انظر ابن عبد الملك المراكشى ٢٨١/٥ .

(٢) راجعه فى إنباه الرواة فى طبقات النحاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباه الرواة ٣٧٨/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن عبد الملك ٥٤٧/٢/٨ .

فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ،منهم ابن رحمون عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وكان من عِلْية شيوخ سبتة ، توفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدرى الفاسى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م .

ونلتقى فى أوائل عصر المرينيين بمحمد[1] بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى فى المغرب الأقصى تعنى – كما يقول ابن عبد الملك المراكشى – أنَّ أباه كان قوالا يغنى فى المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم[2] محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقى أبا حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه فى طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته فى العالم العربى بمتن أو مختصر فى تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر – إلى عهد قريب – يجعله أول ما يدرس لطلابه فى علم النحو لإلمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبَّر عن الجر قسيم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبرَّ الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنىّ كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأولى من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوابع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل يازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضمرة بعدها ، وبذلك أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرَّها .ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أولى طبعاتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العددى معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان ابن[2] هانىء اللخمى السبتى معاصرهما المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(١) الذيل والتكملة ٨/٢/٥٢٠ .

(٢) انظره فى النبوغ المغربى ١/٢٢٠ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبى القاسم الشريف الحسنى السبتى المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد[1] بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدى ووُصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رياسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم[2] بن محمد بن القاضى المكناسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله أبيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : قى وعى[3] :

إنى أقــول لمــن ترجى وقايتُه ... قِ المستجيرَ قيــاهُ قوه قَىْ قينا
وإن هُمُ لـم يَعْوا قولى أقول لهم ... عِ القول وَيك عِياه عوه عىْ عينا

ويكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح[4] الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المغنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشاف للزمخشرى وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للقزوينى ، ويفيض الأستاذ عبدالله كنون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والحواشى ومؤلفيها فى العصر بجانب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون – أو يعرض كثير منهم – على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أنشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شىء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرحل الذى مرَّ ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزه

(١) انظر فى القدومى درة الحجال ١٥٦/١ وروضة الآس للمقرى ص ٣٤ .

(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الآس ص ٢٢٥ والصفوة لليفرنى ص ٩٥ والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لابن القاضى (طبع الرباط) ص ٧٩٠ .

(٣) المنتقى ص ٧٩١ .

(٤) راجع النبوغ المغربى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى وغيرها من مؤلفات العصر .

فى علم العروض ورسالتان[1] فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزنين للرباعيات أو الدوبيت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فَعْلن والوزن الثانى فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متنا أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسمى شرحه باسم رياضة الأبىّ فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر الفهرى السبتى الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكتور حجى للعصر السعدى كتابين[2] فى علم العروض : كتابا لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد ببحرى أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وببحريهما أو بوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، وبحر أو وزن الدوبيت أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتّخذ لها وزنان كما أسلفنا وبيَّن ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكتور حجى كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرَّسْموكى . ونلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما نلتقى بحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى والسكاكى وابن أبى الإصبع ، مضيفين إلى ذلك مدارسة بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجناس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارع الذى لا تزال كتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئا

(١) انظر تعريفا بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر الحركة الفكرية ١/١٥١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه فى البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصرًا لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء فى حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقوانين الرياضة ضبط قواعد النحو فى كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع فى كتابه : « الروض[1] المَريع فى صناعة البديع » والمريع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز فى كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور البيانية من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية فى علم المعانى ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعا وكان الزمخشرى أول من ميَّز بين علمى البيان والمعانى كما جاء فى مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذيلا لهما كما يقول السيد الجرجانى فى شرحه لكتاب المفتاح للسكاكى . وبهذا التصور كتب السكاكى وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم لثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م فى كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده — كما عند ابن البناء — تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبى الإصبع فى كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة ونيِّفا ، وبلغت فى كتاب ثان له باسم : « تحرير التجبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسا وعشرين قاعدة . وكأنما رأى ابن البناء بعقله المنطقى أن ييسر تصورها على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين فى قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريا ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة — أو كما نقول الآن بتمهيد — يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلا :« غرضى أن أقرر فى هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفا غير مخلٍّ ، وتأليفًا غير ممل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته فى زيادة المِنَّة ، وفهم الكتاب والسنَّة » ويريد بزيادة المنة زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : والباب الأول مقدمات فى الدلالة والكلام والبديع وهو فى ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى فى أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرون فى الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثانى فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومنثور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطابة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالته على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعذوبته فى السمع ، والصناعة المتكفلة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضا فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والالتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبيه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظير والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتمثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخبر مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفسح لمسألة لغوية هى وصف المؤنث بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صبور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرمانى حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أوالكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أوالكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهاروهو استغناء القول عن تكملته ومجىء الصفات أوالنعوت للتخصيص بعد النكرات وللتعيين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتتميم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أوالعكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أوالكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أوللتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيانى ، ومنه التجنيس وفرَّعه نحو اثنى عشر فرعا . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أوالبلاغة للمنطق ، وان يجعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن أبى الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقا سديدا وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بنشقرون رادًّا كثيرا من مسائله إلى كتب المشارقة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل اللغوية على المصطلحات البديعية ألف معاصرلابن البناء هو أبو محمد القاسم السجلماسي كتابه : « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع[1] وكلمة البديع عنده – كما عند ابن البناء وابن أبي الإصبع وابن المعتز – تشمل كل صور البيان وألوان البديع ومحسنات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كلى لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتابه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز – التخييل – الإشارة – المبالغة – الرصف – المظاهرة – التوضيح – الاتساع – الانثناء – التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويُدْخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجلماسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسَّم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفرع ينقسم إلى فريعات أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميزً هذه الأقسام المتولدة والمتنوعة بأسماء تعيِّنها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلم : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكأنها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعيها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وبتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وانتهاك، والانتهاك أنواع . وهى صعوبة واضحة فى الكتاب ،غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . ونترك جنس الإيجاز إلى جنس التخييل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقابل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخييل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتابه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أوحذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقدبدأها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَّان – طُوال – رَحْمن – شرِّير غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة – فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضا فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كتسمية السبب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشيء بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نَسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ علال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التقسيم والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضى . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهى الجناس باللفظ المماثل ، والمكافأة وهى الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقايضة فى مثل قوله عزَّ وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التحبير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل الترديد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرمانى حسن البيان وفى رأيى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع فى الفصل الرابع أوالكلية الرابعة الخاصةبتفصيل شيء بشيء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعا لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم يتسع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الانثناء ، وهو بأنواعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شيء إلى شيء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرَّع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن وص ١٠٢ من تحرير التحبير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبيانها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكأن ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية – على هدى علم المنطق – إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وأنواعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضاياه ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) ومما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمنطق البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفريعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذيوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسّه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ علال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودراسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى – بعد السجلماسى – عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى – مثل مصر والشام – بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٨٩ م ولعلى الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى .ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح يشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم[1] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى – من قديم – بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه – قبل عصر المرابطين – أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبتة

---

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين طبقات القراء لابن الجزرى والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والديباج لابن فرحون والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور السعدى وما وضع محققه فى هوامشه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب النبوغ المغربى لعبد الله كنون وحضارة الموحدين لمحمد المنونى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمحمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمحمد حجى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . ونلتقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سَمْجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وَلِىَ الصلاة والخطبة بسبتة وتصدَّر قديما لإقراء القرآن وكان – كما يقول ابن الجزرى – مقرئا مجودًا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزيل سبتة المتوفى سنة ٥٣٠ أقرأ بها القرآن ودرَّس العربية زمانا ، وأبو بكر محمد الفَلَنْقى نزيل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقراء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين علىبن محمدبن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت رياسة الإقراء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكتانى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقراء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسانيد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدَّر للإقراء بسبتة فى مسجد زقاق الخشابين نحوا من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان مقرئا مجوِّدا محدثا متسع السماع ، ويحيى بن محمد الهوزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م تصدر للإقراء بسبتة وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سَلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله – كما يقول المراكشى – فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك فأخذ بلُبِّه طيب نغمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية .

ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هانىء محمد بن على اللخمى السبتى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقيه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة الهبطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التى يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا فى المغرب الأقصى إلى الآن فى كتابة المصاحف على ما وضعه ودوَّنه فى هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/١٦٠٧ م إتقان الصنعة فى قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م شرح على مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء فى عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وله منظومة فى القراءات السبع ، ومنظومة ثانية فى رسم المكى فى القرآن ، وكتاب فى قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظمآن لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسى المسمى الطراز فى شرح ضبط الخراز فى رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظمآن للخراز ، ولمحمد بن عبد السلام الفاسى حاشية على شرح الجعبرى على الشاطبية المسماة حرز الأمانى ، وله كتاب فى تجويد القرآن ، وكتاب ثان فى طبقات المقرئين وكتاب ثالث فى مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد فى تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا فى عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبى بكر السبتى محمد بن يعلى المعافرى خال القاضى عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربى لتفسير الذكر الحكيم فى عصر الموحدين مثل عبد الجليل القصرى من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسبتة سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع – فيما يقال – فى ستين مجلدا ، وابن مصالة الفازازى المكناسى المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م وكان طوال حياته معتنيا بتفسير القرآن ، وأبى الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصارى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م سكن سبتة ومراكش وغيرهما وله الناسخ والمنسوخ فى القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة فى إعجاز القرآن وأنشد له ابن عبد الملك المراكشى قصيدة رائية فى اثنين وعشرين بيتا نظمها فى المدنى والمكى من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٨ م أقرأ بسبتة وفاس وَولِىَ الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيل مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين فى عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمى الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وهو تلميذ ابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما فى كتاب السهيلى : التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن على بن العابد الأنصارى الفاسى نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشاف للزمخشرى مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفى سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرياضيين والبلاغيين الباء فى البسملة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصية وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشرى . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بأبى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله اللباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشية على الكشاف للزمخشرى وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلميذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرهما حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير أبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البيضاوى ، ولعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصيلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدينة أصيلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحجَّ فلقى بمكة سنة ٣٥٣ أبا زيد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواته ، ولقى بها الأبهرى رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجانى ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأمَّه العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليونينى الدمشقى فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصيلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها فى المقابلة واتخذ حرف (ص) رمزا له طوال مقابلاته على نحو ما يتضح فى طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده ببكار بن برهون بن عيسى الغرديس السجلماسى ، وكان قد حجَّ ولقى بمكة أباذر الهروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يملى رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها اليونينى فى مقابلاته لإخراج نسخته من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب فى المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم ـ بروايتين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الغرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ مما يجعله أول محدث كبير يلقانا فى عصر المرابطين . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملجوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م وحضر ابن الملجوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثا على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة .وسمع ابن الغرديس وأخذ عنه . وتهدى سبتة فى عصر المرابطين القاضى عياض إلى علوم الحديث ورواياته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش فى عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبتة سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م وله فى الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرِّق هذا الكتاب وغرِّب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقلى المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران فى عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه فى أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م - ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) إنه كان إماما فى الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين فى عصرهم أبو عبد الله بن الغازى السبتى محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستُقضى ببلده سبتة ، توفى سنة ٥٩١ هـ/١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م وكان محدثا

راوية مكثرا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمى الفاسى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م رحل فى طلب الحديث النبوى إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذاكرا للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته « اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء فى الحديث ، ومنها تحفة الطالب ومنية الراغب فى الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل محمد بن عبد الله الحسينى القاضى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلله عارفا برجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، عُنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث ببلده فاس واستدرك على عبد الحق فى كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م كان مستبحرافى علوم الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجاله مميزا صحيحه من سقيمه ، وله فى الحديث مصنفات نافعة ، منها نقع الغلل فى الكلام على أحاديث السنن لأبى داود فى ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب فى الرد على ابن حزم فى كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة فى نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث فى فضل التلاوة والذكر ، ومقالة فى نعت المحدِّثين الحديث بأنه حسن . ومن محدثى عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبى السبتى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م تجوَّل كثيرا فى بلاد الأندلس والشمال الإفريقى والمشرق واستقر أخيرا فى القاهرة وأسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ، ومن مصنفاته الآيات البينات فى ذكر ما فى أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفَى فى أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشى قديما الفاسى حديثا المتوفى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه أبى الحسن بن القطان فى نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة الحديث وعلله مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشارى على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكثرا ثقة عاكفا على العلم جماعة لنفائس الكتب انتقى منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبتة ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهى مَنْقبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرال قاضى الموحدين فى بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م وكان محدثا راوية ثقة فيما يحدِّث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين فى عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدى محمد بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحرّان والموصل

وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلدته سبتة فروى عنه كثيرون من أهلها ونزلائها ، وكان راوية مكثرا ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازى السبتى المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السُّنن الأَبْيَنْ فى السند المُعَنْعَن والمحاكمة بين مسلم والبخارى ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م أقرأ – عمره – بمدينة سبتة ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرَحَ كتاب الشفا للقاضى عياض غير محدِّث ، ومنهم فى القرن التاسع الهجرى الزمورى وابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م اختصار فتح البارى على صحيح البخارى لابن حجر .

ومن المحدثين الكبار فى العصر السعدى سُقَّيْن العاصمى السفيانى عبد الرحمن بن على القصرى المتوفى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م رحل إلى المشرق فى طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصارى وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول فى السودان الغربى ورجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م وأخذ فى إقراء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧م ويذكر فى فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات فى الحديث أخرى مما حمله عن المشارقة والمغاربة ، مما يدل على اتساعه فى الرواية . ومن محدثى العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م ، وكان إماما فى رواية الحديث وكان يقرىء تلاميذه صحيحى البخارى ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخارى .

ومن المحدثين المهمين فى عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى وسنن النسائى ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمى ومسند ابن حنبل ومسند أبى يعلى الموصلى ومسند البزار ومعاجم الطبرانى الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثى العصر إدريس بن محمد الحسيني الفاسى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذى ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطى وتخريج أحاديث الشهاب القضاعى والدرر اللوامع فى الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م وله زاد المجد السارى لمطالع البخارى ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى – منذ القرن الرابع الهجرى – فى الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا أطلقنا الفقه فى أى بلد مغربى ولم نخصِّصه فإنه يراد به الفقه المالكى ، إذ عملت أسباب

مختلفة فى أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى المنتشر بالمغرب فى كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعى ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهبان المالكى والشافعى يتنافسان فيها ، فربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعى ، وقليل جدا من كانوا يعتنقون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكى نلتقى به فى المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجرى دراس بن إسماعيل الفاسى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين أبا الحسن القابسى وابن أبى زيد تتلمذا له ، كما يقال إنه هو الذى أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبى حنيفة الذى كان يدعو إلى اعتناقه الأغالبة فى القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامى المعروف باسم ابن العجوز السبتى المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبى زيد القيروانى مدة وسمع منه كتابيه : النوادر والمختصر ، ونلتقى بأبى عمران الفاسى المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رياسة الفقهاء فى القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صحب ابن أبى زيد بالقيروان وتفقه عليه ، وكان يعاصرهما عثمان بن مالك الفاسى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى فى وقته ، وله تعاليق على مدونة سحنون .

ويدخل عصر المرابطين ومن فقهائه مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده على بن القاسم رأس أسرة بنى القاسم بن عشرة بسَلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجيه أهل بلدته استُقْضى بها وأورث عقبه سؤددا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمى الفاسى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضى عياض الذى افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطين فى عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن على بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقرائها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونُقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجى المتوفى بمراكش وهو قاضيها سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠م وكان عالما بالأحكام مقدما فى معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق فى الفقه المذهب الظاهرى وتدعو إليه ، كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى . فقد ظل المذهب المالكى حيًّا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهرى ، إذ تترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأومن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عمن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهرى يوضح ما نزعم أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجَّر – على هدى المذهب الظاهرى فى الفقه – أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوَّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدِّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُحْصَى من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله – كما قلت فى تحقيق الكتاب – بالفقه الظاهرى وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع – كما أدى فى النحو – إلى ركام هائل من الافتراضات .

وإنما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهرى وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتنقون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم – كما قلت – لا توضح ذلك ، وأنا أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن أتبين الظاهريين بينهم ، وأول من نقف عنده ابن الرمامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعى المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيا . ونلتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمى الفاسى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشى ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكى .

ويلقانا بعده عمربن عبدالله‌بن صمع القرشى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهرى ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكى مصنفا ، ولا ندرى هل كان مالكيا أو كان ظاهريا ينتقد مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد متفننا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهرى وأنصاره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ونلتقى بعده بأبى عبدالله‌بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه على بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية فى عهد الموحدين بأبى الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشى فى ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بنى عبد المؤمن وأنه حظى كثيرا - المنصور فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر فعبد الواحد أخى المنصور فالمعتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخَّر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعاتهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويفسر لهم ما فيها من مبادىء الدعوة . وأيضا مما يؤكد ظاهريته وانتصاره للمذهب الظاهرى ما ذكر من أن أبا على بن الطوير المراكشى عمر بن محمد الصنهاجى معاصره الفقيه المالكى ألف كتابا فى إثبات القياس الذى ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، فردَّ عليه باسم الظاهرية منكرا القياس بكتاب سماه المنزع فى القياس لمناضلة من سلك غير المَهْيع (الطريق الواضح السديد) فى إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقَّف فى القضاء العمل بالمذهب الظاهرى وعاد للمذهب المالكى سلطانه كاملا فى القضاء والفقه ، ومن فقهائه حينئذ محمد بن إبراهيم الغسانى التاجر بمدينة آسفى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسِّير والنحو يقعد فى حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصُّغَيِّر الزرويلى على بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضى بتازه ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطى محمد بن على بن سليمان المتوفى غريقا فى أسطول أبى الحسن المرينى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب فى الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصرى فى البيوع ويقول ابن فرحون فى الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضا شرح قواعد الإسلام للقاضى عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسى فى كتابه المعيار . ومنهم محمد بن الفتوح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذى أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل فى حل مقفل خليل ، بيَّن فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشكلة فى مختصر خليل ، وله أيضا تكميل التقييد أكمل به تقييد أبى الحسن الصغير على المدونة .

ومن أهم الفقهاء فى عصر السعديين اليسيثنى الفاسى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسيثن بالثاء أو بالتاء وكان فقيه فاس ومفتيها ، ومنهم مبارك بن على الجزولى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضى إن قراءته لمختصر خليل فى الفقه المالكى بصورة تحرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن على المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبى وأجازه إجازة عامة فى فهرسه ، وله فى الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مستحضرا لمسائل خليل دءوبا على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسى المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وشيئا من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المهمين فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الدلائى محمد بن أحمد المتوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القبض فى الرد على من أنكر مشروعيته فى صلاتى النفل والفرض ، وصرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو على الحسن بن رحال المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشى عليه ، وله أيضا حاشية على شرح مّيارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودى بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقانى المصرى لموطأ مالك ، وإتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبى الحسن على بن قاسم الزقاق الفاسى المتوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير – وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية – إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير فى ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقصد ظاهرة المحاماة والمحامين بجانب القضاة ، وهى التى استتبعت فى المغرب كما فى الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهى توضح كيفية كتابة العقود فى المعاملات وغيرها كالمزارعات واستئجارات العقار . ويكرر الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم فى عهده لأوائل القرن العاشر الهجرى[١] .

وآن أن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا فى الفصل الماضى حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة فى القرن الثانى الهجرى وأن

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا في عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا - فيما يقال - إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية فى عقيدتهم ، وأن محمد ابن إدريس الثانى بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى واصل البصرى مؤسس الاعتزال فى البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال فى المغرب الأقصى أخذ - فيما بعد - يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعدلها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادىء هى - كما مر بنا فى الفصل الماضى - وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضا وحدانيته فى صفاته بحيث تُعَدُّ نفسَ ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده فى النعيم ووعيده فى الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار فى إرادته وأعماله وأن ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوَّل فمثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ تعنى أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ نؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامى جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب فى مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصُنْعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة فى تأويل الآيات التى تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هى عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعرى فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين فى مسائل أخرى (انظرها فى كتاب العصر العباسى الثانى ص ١٧٧) . وعمَّ مذهبه فى العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسى وأبو عمران الفاسى ، وأصبح هذا المذهب : مذهبُ الأشاعرة المذهبَ الكلامى السائدَ فى البلدان المغربية .

ونجد فى عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبى القاسم المعافرى السبتى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م ومثل أبى بكر السبتى المار ذكره بين المفسرين . وندخل فى عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادىء من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدى الذى يصلح العالم فى آخر الزمان ويسمَّى الإمام المهدى ومبدأ

العصمة من الوقوع فى الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدى المعصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما فى المعجب للمراكشى . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأى صورة من الصور وما جاء فى القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤوّل على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة فى اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات – كما مر بنا – فهى عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرى فمثلا الله عليم سميع بصير أى أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أى أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بحذافيره ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته – كما يقول صاحب المعجب – على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو أحد مبادىء المعتزلة المذكورة آنفا . وله فى الدعوة إلى نحلته مصنفات هى : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيذق وله مصنف فيه ومصنف ثان فى دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بناهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعاتهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكناسى وله مصنف فى إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعاتهم أبو الحسن بن الإشبيلى على بن محمد بن خليد اللخمى نزيل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشى ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المعراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدى سنة ٥٤١ للهجرة ، فحظى عنده ورقاه إلى رتب عليّة نال بسببها دنيا عريضة[١] ، ولعل الكتاب كان فى الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يسندون إليه القيام على إرشاد دعاتهم المسمّين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة فى كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهى المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقراءة أبى عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارىء كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشبيلى غامضها وفتح أقفالها على الطلبة حتى يذللها ويبينها أتم بيان[٢] .

ومن خلفوا أبا الحسن بن الإشبيلى وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين فى طلبتهم أو بعبارة أدق فى دعاتهم أبو الحسن[٣] بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعنى هذا أنه كان يقوم على إرشادهم – فكان

---

(١) الذيل والتكملة ٣٠٤/١/٥ وما بعدها .

(٢) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الهادى التازى ص ١٦٠

(٣) نظر ترجمته فى الذيل والتكملة ١٦٥/١/٨ .

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس فى الأحكام الفقهية والاقتصار على الكتاب والسنة .

ومن علماء الكلام فى عصر الموحدين عثمان السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وله فى عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية فى العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م وكان ماهرا فى علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج تموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م روى عن السلالجى البرهانية . وكان مبرزا فى علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله فى علم الكلام مصنف مفيد ومقالة فى الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاتى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م وكان مبرزا فى علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام فى عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلالجى سماه : « المباحث العقلية فى شرح معانى العقيدة البرهانية » . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين فى العصر السعدى اليسيثنى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة فى خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسنوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى فى التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى فى التوحيد للسنوسى ، وتتكاثر شروحهما فى العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المارذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولمحمد المهدى الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومرَّ بنا توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

٥

التاريخ

نشط المغرب الأقصى فى كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الغرناطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو –

وإن كان غرناطيا - نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر فى ترجمته أنه كان من موظفى أمرائها ، وتوفى سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللمتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متمما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفى القاضى عياض السبتى المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب فى أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب فى شيوخه باسم الغنية .

وتتكاثر فى عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم فى مولد النبى المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير فى مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفَى من أسماء المصطفَى ، والابتهاج فى المعراج ، وله التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق ، وله فى التاريخ العام النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، وتاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى فى تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخى الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيذق وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة . ويكتب مؤرخ رسمى ثان من حواشى الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجرى كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين اسْتُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح فى قسمه الثانى الذى بقى لعصرنا من تاريخه والذى تحتفظ به مكتبة البودليانا فى أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادى التازى مع مقدمة قيمة ونشره فى دار الغرب الإسلامى . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمى هو عبد الواحد المراكشى الذى كان حيا فى العقد الثالث من القرن السابع الهجرى ، وله كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصّل القول فى دولة الموحدين بقلم مؤرخ حصيف محايد دون المبالغة التى نلمسها عند البيذق وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمى الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبى الحسن على بن القطان المتوفى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وكان من رجال الدولة ، ومر بنا ذكر أبيه أبى الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعاتهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعاتهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكامها مجسمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ ويطيل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدى الواجب اتباعه وكفّر من لم يطعه ولم يصلّ عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولابد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة فى الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه فى بيروت . ونُشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين فى طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامى فى بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتى المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم فى هذا العصر كتاب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وريحان العارفين فى ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م ولابن المواق المار ذكره بين المحدثين شيوخُ الدارقطنى ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسى لابن الزبير فى كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حملوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينيين ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزائها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشريفة ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بابن أبى زرع الفاسى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقيل بل توفى سنة ٧٤١ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هانىء اللخمى السبتى المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرهما أبو الحسن الجزنائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م ويلقانا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منهُ ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجى . ويلقانا أحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة الحجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بابا التنبوكتى السودانى نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذييل لكتاب الديباج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسيه :« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب » ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرانى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضا « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية ابن الطيب القادرى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م وله نشر المثانى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذييل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب المغرب الأقصى – كثرة الشعراء

(أ) تعرب المغرب الأقصى

مرَّ بنا . فى الفصل الثانى – أنه كانت تعيش فى بلاد المغرب – من قديم – سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلتها قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربى مثل الإغريق والرومان والفندال . وفى الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ، ونزلها معهم من كان فى جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعربهم وحسن إسلامهم . ولم يفتحوا جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طيِّباته وخيراته ، وإنما فتحوه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فاتحون ومجاهدون فى سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه فى أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا فى تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربى الفاتح من الحقوق فى شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقيتة من الظلم التعس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحلَّ مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوِّى بينهم فى مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم فى الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها فى ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة فى المسيحية ، إنما هو إله واحد يدبر الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربى . لذلك لا نعجب إذا رأينا البربر فى القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووحدانا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .

وصَدَر ولاة القرن الأول الهجرى عن تلك التعاليم فى معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ – ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولَّى على تلك القبيلة ابنا للكاهنة التى هزمها فى معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب فى الجيش العربى ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماما ، وكان من تدبيره السياسى الحكيم أن وزّع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعَم العربية إذ دوَّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى تخاطبهم مع الحكومة العربية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءًا لا يتجزء من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسانا موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ – ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الورفجومى ، وأبقى معه – فى قول بعض المؤرخين – تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس – أو بعبارة أدق –إيبيريا ، فجهَّز جيشا عداده اثنا عشر ألفا اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمِّى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطرا كبيرا من إيبيريا ، واستمدَّ موسى ، فتبعه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وإنما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعا منذ القرن الهجرى الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العربية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاة المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرِّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك عَسْفا لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقتى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانون فى جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادئهما وما تقرَّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى فى تولى الخلافة ، فينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين عربيا أو بربريا أو عبدا حبشيًّا . واعتنق المذهب الصفرى كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولَّى زعامتهم ميسرة ثم خالد بن حميد الزناتى ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مرارا ، وانسحب منهم سمكو بن واسول فكون دولة صفرية فى سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أما صفرية الشمال فى طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة فى عهد بنى العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادىء الخوارج فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى دليلا على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطىء أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوما فى رفض دينهم الحنيف الذى اعتنقوه ولا فى رفض العربية التى تغلغلت فى أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف فى جمع الضرائب المجحفة التى ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربى المسلم والبربرى المسلم فى الحقوق المالية وغير المالية ، فثورتهم إنما كانت مطالبةً شرعية بتطبيق مبادىء دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عربا وبربرا وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتعرب أن نجد قبائلهم جميعا تحاول كل منهم - منذ القرن الثانى الهجرى - أن تلفق لها نسبا يصلها بالعرب ، ومر بنا فى الفصل الثانى أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبُتْر ، وكانت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطانيين ، بينما كانت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم فى المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة وَلِيلى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراما لا مزيد عليه ويطلعه على سره وأنه يريد أن يؤسس للعلويين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وسمعت به قبائل زواغة ومكناسة وغمارة وعشائر من زناتة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشا نازل به تادلة جنوبى وليلى وتامسنة على المحيط ، وكان بعض أهلهما لا يزال وثنيا أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعا . وبذلك تأسست دولة الأدارسة فى وليلى وسرعان ما أسس إدريس الثانى خليفة أبيه إدريس مدينة فاس فى سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست فى المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثانى وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦م ينشرون الإسلام السنى فى تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثانى أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدوة القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الربضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوههم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدوة القرويين، وسمى لذلك العدوة الأندلسية . وأخذ الأدارسة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتاتيب فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ فى المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لعهد الأدارسة وبعد عهدهم ، ولايلبث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيفدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلدانهم يعلمونه فيها ، وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماؤه وفقهاؤه ومحدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره أبى جيدة وغيرهما كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القرويين أو جامعته الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنَتْ هذا الجامع فاستحال – من حينئذ – سريعا إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونَشَرها تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فيدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليحفظهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجلماسة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكوَّن من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيغ والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سُمّوا باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأشاع فيها نحلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين وانتصر عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسنة ونازل فيها برغواطة التى كانت قد اعتنقت نحلة زائغة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان يلى أمرها – حين وفاته – أبو بكر بن عمر اللمتونى ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوسف فعظم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمراء الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فعبر الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يفدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وسبتة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعربها .

وتتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى — أن القبائل الهلالية بالجزائر : الأثبج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شىء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بحملهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الهلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية منتويا بنظره الصائب أن يبعدهم عن الجزائر حتى تتخلص من عَيْثهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم — كما يقول صاحب المعجب — جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحى قرطبة وبعضهم نواحى إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم — كما مر بنا — تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأثبج فى الجزائر على ابنه يعقوب وردها إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأثبج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساح داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى مُلوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواهق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادًا لجهاد الإسبان النصارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الهائلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كتبه بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة – فى بدء عهدها – بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا – والبربرية لا تزال منتشرة فى المغرب الأقصى – على إيصال عقيدة الدولة إلى العامية المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى الهجرى إذ كان بين أمرائها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ – ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب النكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حتى إذا كان القرن الخامس الهجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتى ويحيى بن الزيتونى الفاسى وللفقيه أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمراء الطوائف ، وأن آخرهم انتجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره ونثره ما يستخفُّ رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوَّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زنباع والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهانى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى ومحمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرفا الفاسى وعلى بن يقظان السبتى القائل :

أحـــنُّ إلى مصرٍ حـنينَ متيَّمٍ   بها مستهـامَ القـلب محترقَ الكَبْدِ

وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركتين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م وابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م وابن تولو القرشى التينمللى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م وابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وابن الخبازة ميمون الخطابى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م وابن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٣ م وابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م وابن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م .

ورَعت الدولة المرينية الحركتين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطانين أبى الحسن وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، ونلتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م وعبد العزيز الملزوزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م ومالك بن المرحَّل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م وابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبتى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م وابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٧ م وابن شعيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجُرُّوم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكناسى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصوف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسى وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م وابن يجبش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م وفى نفس السنة الغزانى الفاسى وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوانشريسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبى الغاية فى ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها فى حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء فى الفقه وفى الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان – كما يقول ابن القاضى فى كتابه درة الحجال – له قدم راسخة فى كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعانى والبيان والأصلين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والهيئة والهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمَّ بنواله الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهده الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . ونلتقى فى عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصرى الفاسى المتوفى سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدى المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م ومعاصره داوود الدغوغى ، والزمورى المتوفى سنة١٠٠١هـ/ ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسنى وأخيه أحمد المتوفيين سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م وعلى بن منصور الشيظمى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م والزرهونى المتوفى سنة ١٠١٨ هـ/ ١٦٠٩ م ومحمد بن على الفشتالى المتوفى سنة ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م وأحمد بن القاضى صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م وعبد العزيز الفشتالى وعلى بن أحمد الشامى المتوفيين سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م ومحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م وابن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م وأبى عبد الله المكلاتى المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م ومحمد المسناوى الدلائى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩ م والطيب بن المسناوى المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦ م . وممن ذكر أيضا فى عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدى سنة ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسى مفتى الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوى سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسنى سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٩ م

وأبى على المسفيوى سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٠ م ويسوق المقرى أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتابه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والهوزالى وابن القاضى ، وممن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المريد المراكشى وأبو القاسم الوزير الغسانى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان النجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزياتى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدها محمد بن محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م وأحمد الدغوغى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٠٧٩ م والرودانى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩٢ م ومحمد البوعنانى المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ م وعبد السلام القادرى النسَّابة المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ/ ١٧١٥م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ/ ١٧٢١ م والحسن بن رحال المعدانى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ ومحمد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ/ ١٧٢٩ م ومحمد بن زكرى المتوفى سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وعبد الوهاب أدرّاق المتوفى سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م وأحمد الهلالى السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١هـ/ ١٧٦٧ م وابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادرى المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمغار وأحمد بن المهدى الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥ م وحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ/١٨٢٧ م .

٢

شعراء الموشحات والأزجال

(أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ – منذ عصر دولة المرابطين – علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أمَّ تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانية إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشّاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدهم أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحداها فى كتابه : « توشيع التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبانة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بقى الوشاح الأندلسى نزيل سَلا – بجوار الرباط على المحيط – على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا بحورا فياضة فى الجود فغمروه بعطاياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى أبى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحُسْن اختيار الألفاظ وأخذ ينشىء على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك توًّا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدين التالى لعصرهم على لسان ابن غُزْلة ، وسنفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل أبى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة – ونلتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله[1] :

(١) انظر المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢٢٩/٢ .

يا عُرَيْبَ الحيِّ مـن حَيِّ الحِمَى　　أنتـمُ عِيدى وأنتـمْ عُرُسى

وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المديح النبوى وقد عارض بها موشحتين قفلهما سينى لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظبى الحمى – وجادك الغيث . وفى نهاية الموشحة يقول :

هِمْتُ فى أطلال لَيْلَى وأنا　　ليس فى الأطلال لى من أرَبِ
ما مرادى رامـةٌ والمُنْحَنَى　　لا ولا لَيْلَى وسُعْدَى مَطْلَبِى
إنما سُؤْلى وقَصْدِى والمُنَى　　سَيِّدُ العُجْمِ وتاجُ العَرَبِ
أحمدُ المختارُ طَه مَنْ سَمَا　　الشريفُ بنُ الشَّريفِ الكَيِّسِ
خـاتمُ الرُّسْلِ الكريـمُ المُنْتَمَى　　طاهرُ الأصْـلِ زكىُّ النَّفَسِ

فهو إن هام صبابة بأطلال ليلى ليس له من مأربٍ فيها ولا فى تغنيه برامة والمنحنى حيث اللقاء المأمول ولا مطلبه ليلى ولا سعدى ولا غيرهما ممن يذكرهن إنما سؤله وقصده وكل مناه رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاويت موشحا على غراره ختمه بهذا الابتهال لربه :

طامعٌ فى رحمةِ الله وما　　خاب عَبْدٌ طامعٌ لم يَيْأسِ
يا إلهى جُـدْ علينا كرمـًا　　يا كريما قبل أخذ الأنفسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشّاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبى ، وكان واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبًا شاعرًا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه وعطاياه ، وينوه المؤرخون غربًا وشرقًا به ، وعليه قصَر ابن القاضى كتابه : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسبه وحسبه وشيوخه وخلافته وسياسته وشمائله الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ، ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبى فى غصنها الأخير[1] :

قلتُ لـه وقد نَهَدْ　　وجَدَّ فى حَرْبِى[2]
وغَلَبَ الظَّبْىُ الأسَدْ　　ففـاز بالغَلْبِ
الشمسُ بُرْجُها الأسَدْ　　فـاسْـعَ إلى قلبـى

وهو يستغلّ ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبته وقد اكتمل

(١) المنتقى ص ٦٦٢ .

(٢) نهدت الجارية : اكتمل شبابها .

لها شبابها وجدت فى حربه غلب الظبى الأسد ، إذ الظبى شمس سَنًا جمالا ، ولابد أن تحل الشمس فى برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكنى عنها بالظبى وعنه بالأسد تظرفا . وكان أحمد بن القاضى وشَّاحا ، أنشد له المقرى فى ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس » موشحا نبويا ، استهلَّه بقوله[1] :

لاهتزاز البانِ وقتَ السَّحَرِ　　هـــامـــتِ الأرواحْ
وقيانُ الطير فـــوق الشَّجَرِ　　تجلب الأفـــــراحْ
يا شقيقَ الروح هاتِ القَدَحا　　من دنـــان الحـانْ
قهوةً تُكسِبُ قَلْبى الفَرَحَا　　تطـــربُ النَّشْـوَانْ
كلُّ من دارتْ عليــه شَطَحا　　مِـنْ يَدَىْ وَسْنَانْ[2]

وواضح أنه استهلَّ المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغانٍ تجلب الأفراح . ويلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية فى السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشيع فى قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطح شطحات متوالية . ويتجه فى الغصن الأخير من الموشح للرسول منشدا :

يا رســول الله غَوْثٌ ومدَدْ　　يا منيع الجـــارْ
أنت – والله – الكريمُ المعتمَدْ　　لنزيح الــــدار
كُنْ شفيعى يـا نبيًّا لا يُـــرَدّ　　إنَّك المختـــــار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو الغيث المدرار ، ويضرع أن يكون شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته فى أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلويين فنلتقى بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمى تلميذه ، وموشحاته تموج بالعذوبة ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن[3] غُرْلَة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجأ به فى عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م – ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته فى عصر المرابطين ، وهو أول مغربى تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفى الدين الحلى فى كتابه : « العاطل الحالى » إنه

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .
(٢) وسنان : فاتر الطرف .
(٣) انظر فى ابن غرلة كتاب العاطل الحالى لصفى الدين الحلى تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب (راجع الفهرس) . وانظر موشحته فى النبوغ المغربى ٣/٣٢٠

كان ينظم الموشح والزجل والمزنم فى الفَنَّين أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل ، والمزنم من الزنمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والزجل المزنمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزنمة الموشَّحة الطنانة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرُمَيْلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدين ، وقد قتله بسببها لما وقع فى نفسه من مطلعها وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكانت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفائقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يصيد صَيْدا فليكن كما صَيْدى
صَيْدِى الغزَالَهْ من مراتـع الأُسْدِ
كيف لاَ أصولُ واقْتَنصتُ وَحْشيَّـهْ
ظبيـةٌ تجـولُ فى رِدا سوسيَّـهْ
صاغهـا الجليـلُ فهى شِبْـه حـوريَّهْ
تَنْثنِى رُويدا إذ تميسُ فى البُرْدِ
تَعْجِنُ الغِلالِهْ والرِّدا مـع النَّهْدِ
رُبَّ ذاتِ لَيْلَــهْ زُرْتُها وقد نامتْ
والرَّقيبُ فى غَفْلَهْ والنجومُ قد مالتْ
رُمْتُ منهـا قُبْلـه عند ضَمِّها قـالتْ
قِرًّ قِرًّ وإهْــدَا لا تكـنْ مُتَعَدِّى
تكسِر النبـالا(١) وتَفرُط العقــدِ

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن انتخابها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطريه الثانى والرابع : « لا تكن متعدى – وتفرط العقدِ » والأصل : « لا تكن متعديا – وتفرط العقدَ » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزنَّم ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقتل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أنشدها من نفس وزن هذا الموشح يستنجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

---

(١) النبالا : الأساور بالمغربية الدارجة .

خَدُّها الأسيـــلُ   بدتْ منـــه أنوار
طَرْفُها الكحيلُ   سُلَّ منـــه بتّار
ها أنا القتيـــلُ   فهل يُؤْخذ الثـار
قد أُسِرْتُ عَبْدًا   ولم أَكُنْ بالعبـــدِ
مُتُّ لا محـــاله   فاطلبوا دمى بعدى

وفى كتاب العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات لفيليب الخازن موشح لابن نباتة ص٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع منعقد على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاء اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن[1] الصباغ

يقول المقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصبَّاغ الجذامى » ويذكر المقرى أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعه للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩ م- ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فانتخب المقرى منها غررًا من الموشحات وهى اثنتا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمسا وجميعها فى المديح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تركتُ امتداحَ العالمين ولُذْت مِنْ   مدائحِ خيرِ الخلق بالعُرْوة الوُثْقَى
سأجعلُهـا كَهْفى وحِصْنى ومَلْجئى   لعلىَ بالأمـداح أستوجب العِتْقـا

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المديح النبوى ، وهو يبث فيها هياما ملتاعا لأنه لا يستطيع المثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكتحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائما أملا حارا فى القرب منه ولقائه كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائما يتمنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائما يتجدد شوقه وتتجدد صبابته ويتجدد هيامه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أولى موشحاته :

أَلفَ المُضْنَى الشُّجونا   وارتضى الأحـــزانَ دِينا
فـوق صَفْح الوَجْنَتَيْن   أرسـل الدَّمْـعَ الهَتُـونـا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

يَقْطَعُ الأيــــامَ حُـزْنـًا وبُكـــــاءً وعَـوِيلا
فـارحمـــــوا صَبًّا مُعَنَّى قلبـــه يُذْكِى غَلِيـلا
مُلْهَبَ الأحْشــاءِ مُضْنَّى بالنَّـوَى أضحى عليلا
ذاب شَوْقًا وحنينا وسَقَامــــًا وأنينـــــا
وشُئُــونُ المُقْلَتَيْنِ تسكبُ الـدَّمــع المَعِينا(1)

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا فى الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربى يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وبَلينا وابتُلينا وإشْ يقول الناس فينا
قُمْ بنا يا نورَ عينى نجْعَل الشكَّ يقينـــا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هى نفس خرجة ابن بقى للموشحة الثامنة فى جيش التوشيح وهى موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقى فى أول أغصانها :

قم بنا نجلو الكئوسا تحت أظلال السحابِ
نتعاطـاها عروسـًا حَلْيها دُرُّ الحَبـــابِ
قهـوةً تُعْطى النفوسـا عزَّ أيــــام الشبابِ

وكأن ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقى عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت فى أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية فى التشوق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائى منشدا كما يقول عند المقام النبوى :

ثَغْرُ الزَّمــانِ الموافق حيَّاكَ منــه بِابْتِسَامْ

وكأن نزول ابن اللبانة الوشاح الأندلسى ببجاية لم يذهب هدرا ، فقد نشأ بها – فيما بعد – ابن خزر على غراره . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبانة فإن ابن الصباغ نشأ – فى رأينا – على غرار ابن بقى الذى أقام طويلا فى سَلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرى هل ابن الصباغ مغربى أو أندلسى ويؤكد أنه مغربى أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائى يدل أو يؤكد أنه مغربى ، وموشحاته إنما عُرفت فى مراكش بتقديمها للمرتضى الموحدى . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقى فى التغنى

---

(1) شئون العين : مجارى الدمع . المعين : السائل الغزير .

بمديح بني عشرة قضاتها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقى جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتنى رَمْلَه على شَطِّ البَحَرْ   يا ابنى أو أطومْ[1]
وترى عينىَّ مذ تقلعْ سَحَر   لبـلاد الــــرومْ

والخرجة ذكر أولها فى نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهى كاملة فى موشحة دينية مكفرة عند ابن عربى[2] – وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عربى[3] وتجرى على هذه الصورة :

جَنَّانُ يا جنَّانْ   اِجْنِ مِـنَ البُسْتانْ   اليَاسَمِينْ
وخَلِّ الرَّيْحانْ   بحرمــــة الرحْمـنْ   للعاشقين

وقال الدكتور سيد غازى إنها خرجة لابن بقى فى إحدى موشحاته[4] . واجتماع ابن الصباغ وابن عربى فى اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقى قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة فى مديح أبى بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المرابطى :

جَـرِّرِ الذَّيْـلِ أَيَّما جَـرِّ   وصِـلِ الشُّكْرَ منك بالشكْرِ

والشطر الثانى فى الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعدَّله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوى . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعبع مع شىء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانْ إن زُرْتَ حِبِّى   اِفْتِلِ اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخذ عُنق الخُشَيْفْ   وسَرَقْ فَمَّ الحُجيلا

وأصل المطلع عند البعبع :

يا ليتني إن رِيتْ حبيبى   افْتِلِ اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخذ عنق الغزَيِّل   وسَرَقْ فَمّ الحُجيلا

والرُّسَيْلا هى الرُّسَيْلة تصغير رِسْلة أى تؤدة وتمهل ، يريد أن يعرك حبيبه فى ترفق معاتبا له ، والخشف ولد الظبية والحجلة طائر فى حجم الحمام . والموشحات حب وهيام

(١) أطوم : سلحفاة .
(٢) انظر ديوان ابن عربى ص ١٢١ وكتاب فى أصول التوشيح للدكتور سيد غازى ص ١٠٨ .
(٣) راجع ديوان ابن عربى ص ٨٦ .
(٤) انظر فى أصول التوشيح ص ١١٠ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصبابة استحالت عند ابن الصباغ تراتيل بديعة ، إذ استقر حب الرسول فى قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن[1] زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسى ، ولد حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م وأكبَّ على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمى ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاسة ، وشرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشح غزلى مطلعه :

مَنْ علَّم الغزْلانْ   الفتْكَ بالَّليْثِ الجَرِى
وسلَّط العينَـانْ   على قلـوب البشَـرِ

يـا ضرَّةَ الشمسِ   اللَّهَ فى الصَّبٌّ الكئيب
يـا منيةَ النَّفْسِ   هَجْـرُكِ للنَّفسِ مـذيب
حدَّثنى حَـدْسى   أنـكِ لِلُّـبٌّ سليب[2]

عارض بهذا الموشح الغزلى موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعه : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشح جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب ويروق دون تكلف أو تصنع . ويقول متغزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاساتِ من خَمْر اللَّعَس   يا لهـا من راح   تحكى الجُلَّنارْ[3]
واسقنيها خمرةً تجلـو النفس   علَّنى أرتـــاح   من حرِّ الأوارْ[4]
بأبى ظَبْىٌ رمانى بسهامَ   ريشها الأهدابْ   تَبْرى الأفئـده[5]
مُزِّق القلبُ الكليم المستهام   إذ رنا وانسابْ   سَيْفٌ جـرَّدَه[6]
عنبرىُّ الخال مسكىُّ الخيام   يذهل الألبـابْ   درٌّ نضَّـــــده

---

(١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كنون منتخبا من ديوانه وانظر فيه وفى موشحاته الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت ٧٧٩/٣ وكنون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .
(٢) حدسى : ظنى وفراستى .
(٣) اللعس : سمرة جميلة فى باطن الشفة . الجلنار : زهر الرمان .
(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .
(٥) تبرى : تنحت .
(٦) الكليم : الجريح .

همتُ وجدا من سناه المقتبسْ　　من سَنا الإصباح　　أو بــدر أنـــارْ
لاح حين افتـــرَّ ثَغْرٌ كالقَبَسْ　　أزهرٌ وضـــاح　　أذكى زَنْد نارْ[1]

والكلمات سلسة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثانية . وله فى مطلع موشحة يصف فيها الربيع :

قد اكتسى العريان　　من مائس الأغْصانْ　　بـالسُّنْدسِ
وطـــرِّز البستان　　بالـوَرْدِ والرَّيحـانْ　　والنَّرْجِسِ
هبَّتْ بـــه الأزهار　　بنسمـة الأسحـــار　　من الوَسَـن
وهاجت الأطيـــار　　برائـق الأشعـــار　　أم الحسُــن
تسبِّح الجبَّـــارْ　　الواحــد القهـــار　　مـولى المِنَن

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعومتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا فى موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المنتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها فى الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو فى اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة ، وقد نشأ بعدها فى الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الحلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُزْله ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلعا فى زجل نظمته فى ابن غزلة قائلة :

مَشَى السَّهَـــرْ حـيرانْ　　حتى رأى إنسانْ عينى وَقَفْ

ويتحدث ابن خلدون[2] فى مقدمته عن الزجل فى الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه فى المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية (يريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، وسنفرد له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملعبة والغزل ، ويذكر من كبار زجاليهم ابن شجاع التازى

---

(1) أزهر : مضىء . وضاح : مشرق . أذكى : أوقد . الزند : الحجر أو العود الذى يقدح به النار .

(2) مقدمة ابن خلدون (طبع دار المعارف) ص ١٣٥٧ .

وسنترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهونى المكناسى ويقول إنه أبدع فى مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا فى رحلة السلطان أبى الحسن المرينى بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض فى وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم وإخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شَرَكا فى القيروان ودارت عليه الدوائر وعُمِّى أمره على شعبه ، وانبرى الكفيف الزرهونى يعيب عليه فى زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش فى القيروان ، ويعزِّى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول[1] :

عسكرُ فـاس المنـيرةِ الغـــرَّا	وِينْ سارتْ بُو عزايمُ السلطانْ
أحُجَّاجــًا تخلَّلوا الصحـــرا	ودُّوا سَرْح البلاد مع السُّكان[2]
عن جيشِ الغربِ جيتْ نِسْأَلْكم	المتلـوف فى افريقيـا السودا
لـو كانْ ما بين تونس الغَرْبـا	وبلاد الغـــرب سدٌّ الاسكَندرْ
لابد للطـير كانْ يَجِى بِنَبَا	أو يأتِى الرِّيحْ عنهـم بفــردْ خَبَرْ
ما اعْوَصْها من أمورْ وما شرَّا	لـو تُقرا كل يـوم على الويدان[3]
لجـرتْ بالـدَّم وانصـدع حَجْرَا	وهوت الاجْرافْ وجفَّت الغُدْران

وهو يبكى عسكر فاس الغراء وتغرير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف فى إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سدٌّ الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المرينى الذى انبهم أمره ، وما أصعبها وشرَّها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف الهضاب والجبال وجفت الغدران فياهول المصاب ويا لفداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى فى هذا العصر الوسيط الذى نعنى بدرسه بزجال كبير بعد الكفيف الزرهونى ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازى .

ابن[4] عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(1) المقدمة ص ١٣٦٠ وانظر النبوغ المغربى ٣٣٧/٣ .
(2) وَدُّوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودوابها .
(3) الويدان : يريد الآذان .
(4) انظر فى ابن عمير العاطل الحالى (راجع الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأزجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بابن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أزجال له وجزءا من زجل ليس مطلعا ونعتقد أنه كان أمامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أنكرتْ شيبى مَنْ بُليتْ بِيها	كلٍ من عاش يشيبْ
إنمـا هى ملاحـة البستانْ	بالنُّـوّار العجيبْ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الواو فى كلمة « النُّوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أزجاله التى أنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يا حبيبْ قلبى تعطَّفْ	بعض هذا الهجر يِكْفَا
دموعْ عينى ما تَرْقا	ولهيبْ قلبى مـا يِطْفَا

ولاحظ صفىّ الدين أن كلمة يِكْفَا محرَّفة عن « يكفى » بقلب الياء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفا » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطلعه :

أبكانى بشاطى النَّهْر نَوح الحمامْ	على الغُصْنِ فى البُسْتانْ قريب الصباحْ
وكفّ السَّحَرْ تمحو مِداد الظلام	وماء النَّدَى يَجْرِى بِثغرِ الأقـاحْ
باكرتُ الرِّياضْ والطَّلّ فِيهِ افتراقْ	سَرَّ الجـواهرْ فى نُحـورِ الجَوَارْ
ودَمْع النَّواعِرْ يَنْهَرِقْ انهراقْ	يحـاكى ثعـابينْ حلَّقَتْ بالثمـارْ
لَوُوا بالغُصونْ خَلْخال على كل ساقْ	ودار الجميع بالروض دَوْر السُّوارْ
وأيدى النَّدَى تِخْرِق جيوب الكِمامْ	وتِحْمِلْ نسيم المسك عنها رياحْ
وعـاج الضِّيـا يُطْلَى بمِسْكِ الغمـامْ	وجَـرَّ النسيم ذِيلُو عليهـا وفـاحْ

والزجل مكتظ بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأقحوان بالثغر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يتساقط والجواهر كأنها مسرورة بمكانها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرف الدمع مدرارا وكأنما يحاكى الماء فى قنواته أفاعى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأيدى النَّدى فى الصباح الباكر كأنما تخرق كام الزهر بل جيوبه ، وتحمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطلى بمسك الغمام ، وجرَّ النسيم ذيل ردائه عليه وفاح وسطعت رائحته سطوعًا شديدًا . وتمتلىء بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . وبحق

كما يقول ابن خلدون استحسن أهل فاس أزجال ابن عمير وشغفوا بها وفتنوا فتنة شديدة ومضوا ينظمون على نهجه وطريقته .

ابن[1] شجاع التازى

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجالين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أنشد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعى ، وفيه يقول :

المالْ زينةِ الدُّنيـــا وعِزّ النفـوسْ	يِبْهى وجوهــًا ليستْ هى باهْيًا
فها كلّ من هُوْ كثِير الفلـوسْ	وَلُّوهُ الكـلامْ والرُّتْبَة العالْيـا
يكبَّروا مَنْ كثُرْ مالو ولو كانْ صغيرْ	ويْصغَّرُوا عزيـز القُـومْ إذا يفْتِقِرْ
حتى يِلْتِقِى مَنْ هُو فى قُومُهْ كَبِيرْ	بمن لا أصْلِ عِنْدو ولا لُو خَطَرْ
أدِى صارت الأذناب أمام الرءوس	وصـار يستمدّ الســوادِ من الساقيا
ضَعْف الناس عمل ذا أو فساد الزمانْ	ما نِدْرِيو على مَنْ نِكْثِرُوا ذا العتاب
أدِى صار فلانِ اليــوم يِصَبَّحْ بوفلانْ	ولَوْ ريتْ وكيفْ حتى يِرُدّ الجــواب

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعز النفوس حتى ليضفى البهاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرىّ فى الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيرًا ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذناب الرءوس وتُرَى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقبا يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والزجل الثانى الذى ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستهله على هذه الصورة :

تعبْ مَنْ تبَّع قَلْبُو مِلاح ذا الزمانْ	اهمل يا فْلان لا يلْعَب الحسن بيكْ
ما منهم مليحْ عاهدْ إلا وخانْ	قليـل مَنْ عليه تحبسْ ويحبِسْ عليك
يتيهوا على العُشَّاقْ ويتمنعوا	يتعمَّدوا تَقْطيعْ قلوب الرجال
وانْ واصْلوا من حِينْهم يقْطعوا	وان عاهْدوا خانوا على كلِّ حال
ومهَّدت لُــو من وسْط قلبى مكان	وقلت لقلبى اكرمْ لمنْ حلَّ فيك
وهَوَّنْ عليكْ مـا يعتريكْ من هـوانْ	فلابـد من هــول الهــوى يعتريك

(1) انظر فى ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨ وما بعدها والنبوغ المغربى ص ٣٣٥ وما بعدها .

وهو يدعو فى أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يَخُنَّ من يعاهدنه ولا يحبسن أنفسهن على من يصفيهنَّ الودَّ ، ودائما يَتِهْنَ على عشاقهن ويتمنعن ويجدن متاعا فى تقطيع قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبثن أن يهجرن ، ولا عهد لهن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح يقول إن واحدة منهن صبته وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد هوان !

٣

شعراء المديح

المديح من أقدم موضوعات الشعر العربى ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه دائما على ألسنة الشعراء فى كل قطر وعصر يتغنون بالأمجاد التى يحققها الخلفاء والحكام ، ونراه فى المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول – كما عند أبى عبيد البكرى – إبراهيم بن أيوب من نكور فى الشمال الشرقى للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها فى إدريس الثانى :

أيا أملى الذى أبْغِى وسُولِى ... ودُنْيــاىَ التى أرجــو ودينى
أأحْرَمُ من يمينك رِىَّ نَفْسِى ... ورزقُ الخلــق مـن تلك اليمينِ
ويُحْجَبُ عن جَبِينك طَرْفُ لَحْظى ... ونــورُ الأرض من ذاك الجبــين
وقد جبتُ المهامــةَ من نكــورٍ ... إليك بكل ناجيــةٍ أمُــونِ[1]

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ فى مديحه ، إذ يجعل نور الأرض – فى المشارق والمغارب – يستمد من جبين ممدوحه الإدريسى . ونمضى بعد الأدارسة فى عصر أمراء الطوائف ولا نجد إلا شظايا متناثرة من بعض المدائح ، ونجد ابن القابلة السبتى يمتدح قائدا ولعله من قواد المرابطين فى أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أنشده ابن بسام فى الذخيرة من قوله فى بعض انتصاراته ووصفه لقتلاه[2] :

تركتهمُ نهبَ الفلاة ووَحْشِها ... شعورهمُ شُعْثٌ وأوْجُهُهم غُبْرُ
تظلُّ سِباعُ الطير عاكفةً بهم ... على جُثَثٍ قد سَلَّ أنفُسَها الذُّعْرُ
وقد عوَّضَتْهم من قبورٍ حَواصلا ... فيــا من رأى مَيْتا يطيرُ بــه قَبْرُ

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلَّها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه قبل السيوف ويقــول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لَمًّا ، وكأنما لم يعد التراب

---

(١) المهامه : القفار والفلوات . ناجية : ناقة سريعة . أمون : لا تعثر ولا تفتر .

(٢) الذخيرة ٣٨١/١/٤ .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحَرْبِ غذَّتهم لبانَ ثُدِيِّها ... وما استعذبوا منهن إلا العلاقما(١)
يحثون للهيجـــاء جُرْدًا سَلاهِبا ... ويَنْضون فى البيداء بُزْلا صَلادما(٢)
إذا طعنـوا بالسمهريَّـة خِلْتهم ... ضراغم تُغْرِى بالقلـوب أراقمـا(٣)
وإن كرَّ منهم ذو لثـــامٍ مصمِّمٌ ... غدا لفم الهيجـاء بالسيف لاثما(٤)

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعذبين منها العلاقم وأشدها مرارة كناية عن حسن بلائهم فى الحروب الضارية ، وإنهم ليحثون لها خيلا جردا مقدمة ويُضْنُون فى البوادى إبلا متينة صلبة ، وإنك لترى الرماح فى أيديهم يدسونها - كأنها أفاع - فى قلوب أعدائهم ، وإنك لترى الملثم منهم إذا صمم وكرَّ كأنما يريد أن يقبِّل الحرب بسيفه ، الذى يستأثر منه بكل مشاعره . وأنشد المقرى فى الجزء الرابع من أزهار الرياض للقاضى عياض السبتى مقطوعة بديعة يهنىء بها - كما نظن - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ولى عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهْنِ العُلا أنْ زُفَّتِ الشمسُ للبدرِ ... وحُلِّىَ جيد المُلْك بالأنجم الزُّهْرِ
وقرَّتْ عيونُ المجدِ أيَّةَ قرَّةٍ ... بيومٍ تعالَى أن يكونَ من الدَّهْرِ
لَدُنْ ساعةٌ أفضتْ إلى كل بغيةٍ ... كما اعتلق الغوَّاصُ بالدرَّة البِكْرِ
قرانٌ كلا السَّعْدَين فيه تلاقيا ... كما يلتقى فى المُقْلــة الشُّفْرُ بالشُّفْرِ
لِتَجْرِ المُنَى فى حَلْبَتَيْهِ مُغِذَّةً ... فحقٌّ لها فى مثل ذلك أن تجرى(٥)
بِسَعْدِ أميرِ المسلمين تَطَلَّعَتْ ... أساريرُه تَنْدَى بمــائيَّة البِشـر(٦)
تمنَّـــاهُ نَجْلُ الملك حظـا ممتَّعًا ... بعِــزٍّ إلى عِــزٍّ وقَــدْرٍ إلى قَــدْرِ

وهو يقول : لتهنأ العلا فقد زُفَّت الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزُيِّن جيد الملك بالأنجم المتلألئة ، وأصبح المجد قرير العين بيوم زفاف تسامى على الدهر ، حين أتيحت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرة اليتيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى فى العين الجفنان ، ولْتَجْرِ المنى فى حلبتيه وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريره يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هانئا بعزٍّ

---

(١) العلاقم : جمع علقم : شديد المرارة .

(٢) جردا : قوية . سلاهب : طويلة . ينضون : يهزلون . بزلا : إبلا ناضجة متينة . صلادم : صلبة .

(٣) السمهرية جمع سمهرى : الرمح . ضراغم : أسد . أراقم : جمع أرقم : أخبث الحيات والأفاعى .

(٤) ذو لثام : كان المرابطون يضعون لثاما على وجوههم ، ولذلك سموا الملثمين . لاثما : مقبِّلا .

(٥) مغذة من أغذ السير إذا أسرع فيه .

(٦) أسارير الوجه : محاسنه . مائية : رونق .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربى من نهضة منذ عصر المرابطين ، وسنترجم لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بابن حبوس شاعر عبد المؤمن والجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . وكان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكتبه ، ثم جرت له محنة معه فزجَّ به فى غياهب السجون وقتله ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أبياتا شعرية افتتحها بقوله[1] :

عطفا علينا أميـرَ المؤمنين فقد ... بان العـزاءُ لفرط البثِّ والحَزَنِ
قد صادفتْنا سهامٌ كلها غرضٌ ... ورحمـةٌ منكمُ أَوْقَى من الجُنَنِ[2]
مَنْ جـاء عندكمُ يَسْعَى على ثقةٍ ... بنصره لم يخفْ بَطْشًا من الزمَنِ
أنتم بذلتـم حيـاةَ الخلق كلِّهمِ ... من دون مَنٍّ عليهم لا ولا ثَمَنِ
ونحن من بعض مَنْ أحيتْ مكارمُكم ... كلتا الحيـاتين من نَفْسٍ ومن بـدنِ
وصبيةٍ كفراخ الوُرْق من صِغَرٍ ... لم يألفوا النَّوْحَ فى فَرْعٍ ولا فنَنِ[3]
قد أوجدتْهم أيـادٍ منك سابغـةٌ ... والكلُّ لـولاك لـم يوجد ولم يكُنِ

وهى أبيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبرا وإشفاقا ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يلن له ولا أخذته فيه رأفة ولا رحمة ، وظل غاضبًا عليه حتى أذاقه حتفه . وكان ابنه يوسف محبوبا من شعبه وكان عالما واسع المعرفة وقرَّب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أنشدها المقرى فى أزهار الرياض استهلها بقوله[4] :

اللّهُ حسبُك والسبعُ الحواميمُ ... تغزو بها سبعةٌ وَهْى الأقاليمُ
سبعُ المثانى التى لله قمتَ بها ... عليك من سِرِّها نَصْرٌ وتقديمُ
وأنت بالسُّوَرِ السبع الطوال على ... كل الـوَرى حاكمٌ بالله محكـوم

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأقاليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثانى وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدفق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

---

(١) النبوغ المغربى ١٦٦/٢ .
(٢) الجنن جمع جنة : الوقاية .
(٣) الورق : الحمام . فنن : غصن .
(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

وإقدامه فى الحرب وشدته على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن يجثوا على الرُّكب إعظاما ليوسف . وبحق يمجِّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرَك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حريا بابن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه الغصون اليانعة ، ومما أنشده قوله ليعقوب[1] :

أطاعتْك الذَّوابـــل والشِّفـــارُ ... ولبىَّ أمـرَك الفلكُ المـــدارُ[2]
بيشرى مثل ما ابتهجتْ رياضٌ ... وسَعْدٍ مثلمـــا وضح النهـــارُ
وفتحٍ مثلما انفتحتْ كِمامٌ ... وشُقَّت عن صدور مَهًا صَدارُ[3]
وآمـــالٍ كما مُدَّتْ ظـــلالٌ ... وأفعـــالٍ كما مدَّتْ بِحـــارُ
وأعـــلامٍ بنصـرك خافقـــاتٍ ... لهـا فى كل جـــوٍّ مستطـارُ
ليَهْنِىءْ أرضَ أندلـسٍ بـــدورٌ ... من السـرَّاء ليس لهـا سِرارُ[4]

وهو نصر عظيم فى الأرك طوَّق يعقوب بمجد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرية كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نبذ كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كتب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كتب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرِّد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحْمَل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مديحه ، من ذلك قول قاضى قضاته أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى الغصون اليانعة لابن سعيد[5] :

نُصِرْتُمْ لأن الحق آن ظهورُه ... وناصِرُه فى الله ما كان يُخْذَلُ
قطعتم فروعًا قد أضرَّتْ بأصلها ... ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمَلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى الغصون اليانعة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قَطْع المنصور الاشتغال بكتب الفروع أى كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله[6] :

أسيِّدَنا قد وردتـمْ بنـــا ... مـــواردَ كنا عليهـــا نَحـومْ
نبذتـم مقـالةَ هـذا وذا ... فزال المِراء وقلَّ الخصـــومْ

(١) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ص٩٦ .
(٢) الذوابل والشفار : الرماح والسيوف .
(٣) الصدار : ما تلبسه المرأة على صدرها .
(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يعقبها أى ظلام .
(٥) الغصون اليانعة ص ٣٠ .
(٦) الغصون اليانعة ص ٤٧ .

وأثبتمُ قــولَ مَنْ لفظُه هو الشَّرْعُ والحق منه يقومْ
فلازلتمُ لكمــال الهُــدَى وإحياء دارسِ درسِ العلــومْ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء فى أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هى كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسند ابن أبى شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى ، فجمعوها له فكان يمليها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرينيين وأول شاعر كبير نلتقى به فى عهدهم مالك بن المرحَّل ، وهو شاعر أهم سلاطينها فى أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ/١٢٨٧ م) وله يهنئه بافتتاحه مدينة مراكش[1] سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م :

فَتْحٌ تبسَّمتِ الأكــوانُ عنه فما رأيتَ أملحَ منــه مَبْسِمًا وفَمَــا
فَتْحٌ كما فتــح البستــانُ زهــرتَهُ ورجَّــع الطيرُ فى أفنــانه نَغَمَا
فَتْحٌ كما انشقَّ صُبْحٌ فى قميصِ دُجىً وطــرَّف البَرْقُ فى أرْدانــه علما
أضحتْ له جَنَّةُ الرِّضوان قد فُتحتْ أبوابُهــا وفــؤادُ الدِّينِ قَدْ نَعِما
الحمدُ لله هـذا مــا وُعِدْتَ بهِ يا خيرَ مَنْ وَلِيَ الدُّنيا ومَنْ حَكَما
لن يُخْلف اللّهُ وَعْدًا كان واعَدهُ فاشكرْ يضاعفْ لك الحظَّ الذى قُسِمَا
سبحــانَ مَنْ بجميع الفضــل أفــردَهُ ومَنْ حَبَــاه السَّجــايا الغُــرَّ والشِّيَمَا

وهو يمجد فتح يعقوب المرينى لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد ابتسمت لفتحه الأكوان ، كما يتفتح البستان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فُتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فؤاد الدِّين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمد الله أن تحقق ليعقوب كل مأموله من ربه ، مما لا يسعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلَّ فى علاه جدير بكل حمد إذ أفرده بكل فضل وحباه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتحه مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربى لجهاد نصارى الإسبان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفى كل مرة كان يسحقهم سحقا ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين فى غرناطة والعُدْوة الأندلسية ، وكان كل ما يغنمه يقدِّمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والملك العابد لربه . وللقاضى أبى عبد الله القَشْتالى يستمنح[2] أبا عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) :

(١) انظر النبوغ المغربى ٢١٢/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٢٠/٣

أيا إمامًا ندى كفَّيه قد وَكَفَا ... حَسْبى اعتصامى بحبلٍ منكمُ وكَفَى
وكيف أصرفُ وَجْه القَصْد عن ملكٍ ... ما صدَّ عنى سَنَا بِشْرٍ ولا صَرَفا
ما إن شكوتُ بما أضْنَى تطلُّبهُ ... إلا وجدت به لى من ضَنَاىَ شِفا
ولا وقفتُ عليه منتهى أملى ... إلا قضى وطرا منه وما وقفا[1]
فى كل يوم له تجديدُ عارفةٍ ... مهما انقضتْ هذه لهذه ائْتَنفا[2]
وليس ممن يرى أن لا يُتيح يَدًا ... حتى يقام له بشكرٍ ما سلفا

وهو يقول لأبى عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى أعتصم منك بعهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقانى ببشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتنى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ، وإنك لتقدم أفضالك غير منتظر على فضل شكرا .وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان ترجمة . ولمحمد بن أحمد الشَّبُّوكى يمدح أبا فارس المرينى قائلا[3] :

هو الإمامُ الذى من أمَّ ساحتَه ... جادتْ عليها بجدواها أناملهُ[4]
ومَنْ تخلَّف جهلاً عن إجابتِه ... سارتْ إليه على علمٍ صَوَاهلهُ[5]
قل للذى عنه أقصتْه جرائمُه ... وعقَّلته عن العَلْيا معاقلُه[6]
زُرْ حضرةَ الملك الميمون طالعُه ... تحظى بما أنت فى دُنْياك آملُهُ
فطبْعه الصَّفْح والمعروف شيمتُه ... والحلم والصَّوْن والتقوى شمائلُه

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه خيوله وجيوشه ، وما أحرى من أبعدته عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقله أن تبتسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصفح والغفران وشيمته زَرْعُ المعروف والحلم والصيانة والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ، ومن قائل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قائل كان مائة ألف ، أُسِر أكثرهم ، وقتل ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبدالملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى.

---

(١) وطرا : مأربا .
(٢) عارفة : مكرمة . ائتنف : استأنف .
(٣) النبوغ المغربى ٣/٢٢١ .
(٤) أم : قصد . جدواها : عطاياها .
(٥) صواهله : خيله .
(٦) عقلته : حبسته .

وللشعراء فى هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدُّغوغى ، وفيها يقول[1] :

جَنَا النَّصْرِ ما بين الظُّبا والكنائنِ ... على سابقات المذكيـات الصَّوَافنِ[2]
وماذا يفيد الجيش إن كان ربُّه ... كسبيَسْطِيانَ عند وادى المخــازنِ
يُسَرِّبُ نحـــو المَغْرِبَيْن جنــودَهُ ... كمثلِ الدَّبا عن ماخرات السفائن[3]
وخيَّم فى تلك الجهـــات وعَيْنُهُ ... لمرَّاكُشَ الحمـــراءِ لا لتطــاونِ
وشبَّتْ لظى الهَيْجاء ليسَ وقودُها ... سوى أنفُسِ الشجعان وسْط الميادنِ
وذلك يومٌ مثل بَدْرٍ وصِنْوِه ... حُنَيْنٍ بأيدى المـؤمنين الميـــامنِ
لقد ذاق فيـــه البُرْدُقِيزُ من الـرَّدَى ... جـــزاءَ مناحيسٍ خَـزايا ملاعنِ[4]

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية النارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سباستيان عند وادى المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن ماخرات المحيط ، وخيَّم فى تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراكش لا على تطوان أوغيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإنه ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا لمناحيس مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبى لكن لا فى الشمال، وإنما فى الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات فى الجنوب الشرقى للمغرب وإقليم تيجورارين شمالى إقليم توات، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل فى السودان وألقى فى حجره بذهب كثير أثرت به الدولة، وفى هذا الفتح يقول الشيطمى[5] أحد قواد المنصور :

سهمٌ من الغرب قد أَصْمَى الأساودَ إذ ... صَمُّوا وهم حيث بحرُ النيل موردُ[6]
وحين صَمُّـوا عن الإنـــذار أسمعهم ... صواعقًا بنِداها المـــوتُ معقــودُ
تـــراه ينفث مـــن أفـواهِهـــا بَرُدًا ... ينقضّ حيث فـؤاد القِرْنِ مرصودُ[7]
مدافـــعٌ أبطلتْ للســـود حِكْمَتَها ... فلـم يُفِد معهـــا نَفْثٌ وتعقيــد[8]
ومـــا استقاموا إلى أن جُرِّدَتْ لهـــمُ ... بيضٌ وأُشْرِعتِ السُّمْرُ الأمـــاليد[9]

(١) النبوغ المغربى ٣/٤٣ .
(٢) جنا : ثمرة . الظبا : السيوف . الكنائن جمع كنانة : وعاء السهام . المذكيات : الخيل النارحة . الصوافن جمع صافن : يريد المتأهبة للحرب .
(٣) الدبا : الجراد . مخرت السفينة : شقت الماء .
(٤) البردقيز : البرتغاليون .
(٥) الوافى بالأدب العربى لابن تاويت الطنجى ٣/٦٧٨.
(٦) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمعوا .
(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .
(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تعاويذ السحر .
(٩) بيض : سيوف . سمر أماليد : رماح لينة فاتكة .

والشيظمى يتصور كأن سهما انصبَّ من المغرب فقضى على السودانيين إذ أُصابهم - وهم حاشدون على نهر النيل - ما يشبه الصمم ، فلم يسمعوا إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أفواهها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تعويذات ، وسرعان ما قوَّمتهم السيوف والرماح واستلموا خانعين . وشعراء المنصور كثيرون وسنترجم لشاعريه الهوزالى وأحمد بن القاضى .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدى البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم - وهو المأمون - عن مدينة العرائش ، للإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهدية . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدى البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين والإسبان ، وانتعشت الزاوية الدلالية فى تادلة إلى أن دمَّرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدَّى - ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين - للإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله - فيما بعد - على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتى مصورا محبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف[1] :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ بهِ الرَّكْبُ ... وينقله فى صُحْفِهِ الشَّرْقُ والغَرْبُ
وحبُّكُمُ فَرضٌ على كلِّ مسلمٍ ... تُنالُ بهِ الزُّلْفَى من اللهِ والقُرْبُ
وأنت رفيعٌ من أصولٍ رفيعةٍ ... نجومُ الدياجى فى الأنام لها سِرْبُ[2]
سمىُّ رسولِ اللَّهِ ناصرُ دينهِ ... تجلَّى بكم عن أُفْقهِ الشكُّ والرَّيْبُ

وكما تغنى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بانتصارات المنصور الذهبى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م- ١١٣٩ هـ/١٧٢٧م) فقد استرد المهدية من الإسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفر . واتُّخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

---

(١) الوافى لابن تاويت ٧٢٩/٣ .
(٢) سرب : جماعة .

تدور من حوله مدائحه وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لمفتى فاس عبد الواحد البوعنانى وسنخصه بكلمة . واستشاره عبد السلام جسوس إسماعيل حتى يسترد سبتة من يد الإسبان كما استرد العرائش ، يقول[1] :

رفعتْ منـــازلُ سَبْتةٍ أقوالها   تشكو إليكم بالذى قد هالها
فلقد قضيتم للعرائش حاجـةً   مع طنجةٍ فاقضوا لذى آمالها
إن لم تكونوا آخذين بثارها   من ذا يفكُّ من الوَثاق حِبالها
فابعَثْ لها أهلَ الشجاعة عاجلا   حتى تراهم نازلين جِبالهـــا

وليوسف بن محمد الشوذرى أرجوزة صور فيها معركة العرائش مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله فى وصف الخطة الحربية[2] :

قد حلَّ نصفُ الجيشِ أرضَ الساحلِ   مقـــابل المَرْسَى لمنــع الداخـــلِ
ونصفُـه حـــلَّ على سُورِ البلادْ   طوَّقها بأسْرِها طـــوقَ القِلادْ
لمـــا رأى الكفَّـــارُ مـــا أذهلهم   وشدّة الأمـــــر العظيـــم هالهـم
وكان بالمَـرْسَى مراكبٌ لهـــم   موثوقـة دارتْ بهـــا حبالهم
ارْتقبـــوا الليل وقد جـــنَّ الظـــلام   واختلسوا فى زورقٍ مثـــل السهـــام

وهو يقول إنهم فرُّوا ليلةً خلسة فى زوارق حملتهم فى الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن[3] زنباع

من أهل طنجة كما يقول القلقشندى ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بحلقات العلماء حتى أتقن العلوم الدينية والعربية وعلومها البيانية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاقان فى القلائد ، ومن قوله فى التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع فى الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتعمقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

(١) الوافى ٨٤١/٣ .
(٢) الوافى ٨٤٥/٣ .
(٣) انظر فى ترجمة ابن زنباع وشعره القلائد (طبع تونس) ص ٢٥٩ وصبح الأعشى والوافى للأستاذ ابن تاويت ٣١/١ وما بعدها والنبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ١٠١/١ والتعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة (طبع الرباط) .

صديقه عياضا قاضيا فى سبتة . وحكى ابن القاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بأبيه أن أبا الحسن بن زنباع كان بينه وبين أبيه فى الشبيبة إخاء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساءه ، فعاتبه واعترف ابن زنباع بالفضل له . وفى ذلك ما يدل – من بعض الوجوه – على حسن خلقه . وربما نقله المرابطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المعارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدلى ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زنباع ممجدا بطلا من هؤلاء الأبطال لدولة المرابطين منوِّها بفتح تمَّ على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخِلَلِ ... ويفخر الخَطُّ بالقَنا الذُّبُلِ[1]
وتُكْرَمُ الخيل فى مَرَابضها ... بِرّ الفتاة العَروب بالرجل[2]
ويُقْطَفُ النَّبْعُ كالحواجب أو ... أحْنَى وتُمْهَى السهامُ كالمقل[3]
ويؤثر الشِّرَّةَ الكمىُّ إذا ... خُيِّر بين الدروع والحُلَل[4]
فَتْحٌ به أَثْأَرْتَ البلاد كما ... أشْرفت المُقْرباتُ بالنَّهَلِ[5]
هُدَّت له الروم هَدَّة ملأتْ ... قلوبَ أبطالهم من الوَجَلِ[6]
فما أطاقوا الولوجَ فى نفقٍ ... وما أطاقوا الصعود فى جبل[7]
كأنهم والرماحُ تحفزهم ... جَرْىُ فصالٍ سلكنَ فى الوَحَلِ[8]

وهو يقول لمثل هذا النصر تصان السيوف فى أغمدتها ، ويفخر الخط برماحه الفاتكة ، وتكرم الخيل فى مرابطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعروفها وبرها ، وتُقْطف أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قِسِيًّا كأقواس الحواجب ، وترقق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفاتنة إلى القلوب ، ولمثل هذا النصر يؤثر الشجاع حميَّة الحرب وهولها إذا خُيِّر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح مبين أدركتَ

(١) الخلل جمع خلة : غمد السيف . الخط : أرض كانت تنسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . الذبل : الحادة .

(٢) مرابضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصيلة .

(٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب. تمهى: ترقق منها السهام وتسدد.

(٤) الشرة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : الشجاع .

(٥) أثأرت البلاد : أدركت لها ثأرها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول .

(٦) الوجل : الفزع .

(٧) الولوج : الدخول .

(٨) فصال جمع فصيل : ولد الناقة أو البقرة .

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنها لتستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنها ستنهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سُحِق الروم سحقا ملأ قلوب أبطالهم بالوجل والفزع فما استطاعوا الدخول فى نفق ولا الصعود فى جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون فى وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات فى شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمعركة أخرى من معارك المرابطين ، وفيها يقول :

سَلِ الحرب عنهم والسيوفُ جداولٌ ... تدفَّــق والأرمــاح رُقْطٌ تُنَضْنِضُ[1]

وبالأرض – من وقع الجياد – تمدُّدٌ ... ولكنــه – فيما تــروم – تَقَبُّضُ

وبالأفــق للنَّقْع المثــــار سحائبٌ ... مَوَاخِضُ لكنْ بالصــواعق تَمْخَضُ[2]

وقد سَهِكَتْ تحت الحديد من الصَّدَا ... جسومٌ بما عُلَّتْ من المسك تُرْحَضُ[3]

وأشْرفتِ البِيضُ الرِّقاقُ على الطُّلَى ... لتكرع فيهــا والـرءوسُ تخفَّضُ[4]

فلستَ ترى إلا دمــــاءً مراقـــةً ... تخاض إلى أكبــاد قوم تَخَضْخَضُ[5]

وابن زنباع يقول سل الحرب عن شجاعة المرابطين وبأسهم ، والسيوف فى أيديهم كأنها جداول تتدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تتمدد ، وهى فى الواقع تُطْوَى طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحائب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربى وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدأ بما تُغْسل به من المسك مرارا ، وفى أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرءوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تُقْتَحَمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أن يضيف فى ترجمة ابن زنباع إلى هاتين البطولتين للمرابطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم فى الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغى أن يورد قصيدتى البطولتين اللتين ذكرهما كاملتين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زنباع بقصيدتيه وموقعتيهما الحربيتين ، وسنلتقى بابن زنباع فى عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتتضح شخصيته الشعرية .

(١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه بقع مثل النمر . تنضنض : تلوك .

(٢) النقع : غبار الحرب . مواخض : حوامل . تمخض : تحمل .

(٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : الشرب الثانى بعد النهل . ترحض : تغسل .

(٤) البيض الرقاق : السيوف . الطلى : الأعناق . كرع : شرب .

(٥) مراقة : سائلة . تخاض : تقتحم . تخضخض : تخوض فى أكبادهم

ابن[1] حبُّوس

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبُّوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م وبها منشؤه ومرباه فى الكتاتيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح متفننا فى الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة فى صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش فى عهد المرابطين وأصبح فى طليعة شعرائهم ، وندَّتْ منه تُرَّهات جعلته يبرح مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التى كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدها صاحب نظم الجمان لعلها أولى مدائحه له ، وفيها يقول :

بخليفة المهـــدىِّ سيِّدنا اغتدى ... نَهْجُ العلـــوم معبَّدًا ومـذلَّلا
وافيتُ حضرتَه المقـــدَّس تُربُها ... فإذا الذى أبصـرتُ لن يُتَخيَّلا
وسمعتُ كلَّ مذاهـــب الحـــق التى ... مـا إنْ تَرَى عـن مُقْتَضاهـا مَعْـدِلا
وبَصُرْتُ بالطوسىِّ يَفْهَقُ حولـــه ... وأبى المعـــالى مُجْمِلا ومفصِّلا
فالحـــقَ بحضرته السنيَّة واستمعْ ... للقول واحذر – وَيْكَ – أن تتقوَّلا
فِيها كمالُ الديـــن والدنيـــا مَعـــًا ... وسعـــادةُ الأرواح فى أن تكمـــلا

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهدا ومذللا بفضل عبد المؤمن خليفة المهدى ، ويصف حضرته بأن ترابها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التى لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغزالى الطوسى وبيانه الغزير الرائع وبأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحقْ به وبحضرته ودعوته التى تحقق لك كمال الدين والدنيا معًا .

وبذلك لم يكن مادحا لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضا داعية لمبادىء الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعره ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه فى حركاته وسكناته ، وإن سار كان فى ركابه ، على نحو ما نراه معه فى فتحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وله فى حصار عبد المؤمن لها جيمية يقول فى مطلعها مخاطبا حاكمها الحمادى يحيى بن العزيز :

(١) انظر فى ترجمة ابن حبوس وأشعاره الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر لصفوان ونظم الجمان لابن القطان تحقيق د . محمود مكى (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا) رقم ١٠٥٥ والمطرب لابن دحية ص١٩٩ والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت) ص٧١ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ٩١/١ – ١١٥ والنبوغ المغربى للأستاذ كنون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

شُدَّتْ إليكَ على الرِّياحِ سروجُ أين الفــرارُ بأهلكم ياجوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عصفتْ بدعوتك الرياح الهوجُ وسَطا بأمرك ذابلٌ ووشيجُ(١)
وتقدّمتْك إلى العــدوّ مهابةٌ يَشْقَى بها فى سَدِّه ماجـوج

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء فى سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وأنهما مفسدون فى الأرض وأن قومهم لجئو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلَّ شأنه : ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خَرْجا على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا﴾ وكأن إفسادا كبيرا حَلَّ ببجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر يحيى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بجاية ، ويعود إلى عاصمته مراكش ، ويستقبل فى شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراكش ، ويمتدحه ابن حبُّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سيشكر المصحــفُ إكبابكــم عليــه إذ أوجــده الفَقْدُ
مصحف ذى النُّورَيْن عثمانَ مـا كان لكــم عن صـونهِ بُدُّ
مـا اختــار شيئا مؤنسًا غـيره حـين أتى – واقترب – الوَعْدُ
أوسعتُم الدنيــا اطِّراحـًا وما كان لكـــم إلا بــهِ وَجْدُ
يحنو عليـه العطف منكـم ولا يُغِبُّـه الإشفــاقُ والـــوُدُّ
ألبستمـوه حِلْيَةً لــم يكــن يسمح للكفُّ بهـــا الـزَّنْدُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراكش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذه مؤنسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإنكم لتشغفون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مديح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدفتى المصحف وتحليتهما بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهدية وطرابلس واستغاث

(١) ذابل : سيف . وشيج : رمح .

أهلهما بعبد المؤمن فلبّاهم بجيش جرار قلّم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهنئه ابن حبوس بفتح المهدية مقارنا فى مطلعها بين المهدى العبيدى الذى بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذى خلصها من النورمان :

بطالع الأسَدِ اختطَّ البنــاءَ بها لكنك الأسَدُ الدَّامى الأظــافيرِ

ويقول ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهدية سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويبدو أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله فى إحدى مدائحه :

أميرَ المؤمنين لقد أضاء الـ ـزَّمانُ بنور عَدْلك واستنارا
لكم شَرْقا البلاد ومَغْرِباها وأمركمُ مع الفلك استدارا
ومَنْ قد فرَّ عنكم من عدوٍّ فنحوَكُمُ إذا يبغى الفرارا
ولــو خوَّفْتمُ أعلام رَضْوَى لما سكنتْ ولا وجدتْ قـرارا

والمبالغة واضحة فى الأبيات ، فالفلك يجرى طوع أمره ، ومن فرَّ عنكم لابد أن يفر إليكم إذ تملئون عليه جميع مسالكه ، وحتى لو خوَّف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة فى المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب محق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبِّهه بابن هانىء فى مديح المعز الفاطمى وما يضمِّنه من تهويلات وقعقعات . ونراه يرافق عبد المؤمن فى أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرفأ جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإنشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفى مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله فى قصيدته :

بلغ الزمانُ بهديكم ما أمَّلا وتعلَّمتْ أيامُــه أن تَعْدِلا
وبحسبه أن كان شيئا قابلاً وجد الهداية صورةً فتشكَّلا
ولأنتمُ الحقُّ الذى لا يُمْتَرى فيه وليس بجائزٍ أن يُجْهَلا
ولأنتمُ سِرُّ الإلــه وأمركم ملأ العوالــمَ مجملا ومفصَّلا
عُزِلَتْ ولاةُ الحِسِّ عن إدراكهِ فهــو المنزَّه حسبــه أن يعقــلا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر وممدوحه وسمعناه لظننا أنه ابن هانىء يمدح المعز الفاطمى لهدايته للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وإنه للحق الذى لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحسِّ أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة فى دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة فى الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م .

الجَراوى(١)

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، وبها منشؤه ومرباه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة أبى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نابها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة يحثُّ فيها الأعراب الهلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطتْ بغايات العُلا والمفاخرِ ... على قدم الدنيا هلالُ بن عامرِ

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهنأه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعـــادةٍ مقرونُ ... نالتْ به الدُّنيـــا الهَنا والدينُ

ويفتح عبد المؤمن المهدية مستردا لها من أيدى النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طوالا ، ويهنئه الجراوى بتائية يقول فيها :

اهنأْ إمامَ الهُدَى فالعدلُ منبسطٌ ... والدِّينمنتظمٌ والكفـر أشتـاتُ

وينتصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتائب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحص بلقون ، ويهنئه الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليتَ دين الواحـد القهَّارِ ... بالمَشْرفِيَّة والقَنـــا الخطَّـــارِ(٢)

لوراء موسى مـا فعلتَ وطارقٌ ... زَرَيَا بما لهما من الآثــــارِ(٣)

أتممتَ ما قد أمَّلوه ففاتهم ... من نَصْر دينِ الواحد القهارِ

بِعِرابِ خيـــلٍ فوقهـن أعاربٌ ... من كل مقتحمٍ على الأخطــارِ

وهو يبالغ مبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظيمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الهلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الحظىَّ لديه ، وكان لا يبرح مجلسه ،

---

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والغصون اليانعة والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت١/١١٦ ومابعدها والنبوغ المغربى ١/١٧٩ ، ٣/٢٢ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) القناالخطار : الرماح شديدة الطعن. المشرفية: السيوف.

(٣) زرى : رأى .

ونراه في ركبه حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازلة محمد بن سعد بن مردنيش ، ونازله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فبايع أبناؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجرَّاوى يمدحه فى هذه الأثناء بقصيدتين يقول فى إحداهما مشيرًا إلى المتمردين عليه :

تنســالُ المــارقين بكــلّ أرض ... ولا طــارتْ – ولا نقلَتْ – خُطاها

ويقول فى الثانية :

لو كانت الجوزاءُ من أعدائهِ ... لـم تَنْجُ من غاراتـه الجوزاءُ

وكانت آخر معارك جيش الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف معركة البيبوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر حليف الموحدين ووقف الجراوى بين يدى يوسف ينشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عن أمرِكـم يتصرَّف الثقلانِ ... وبنَصْرِكـم يتعاقب الملَــوانِ(١)

وبمـا يسوء عدوَّكم ويسرُّكم ... تتحرَّكُ الأفلاكُ فى الدَّوَران

جاهدتمُ فى الله حقَّ جهادهِ ... ونَهَضْتُمْ بحماية الإيمــانِ

وتركتمُ أرضَ العِدَى وقلوبُهم ... فى غاية الرَّجفانِ والخفقانِ

وغزاهمُ الديــنُ الحنيفىّ الذى ... كُتِب الظُّهورُ لـه على الأديانِ

والبيتان الأولان من نوع مغالاة ابن هانىء فى المعز الفاطمى ومديح ابن حبوس فى عبد المؤمن مما مرَّ بنا وأشرنا إليه . وهو يضفى على يعقوب – كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن – غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانيَّة فى بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قفصة جنوبى إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربى الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهنأه الشعراء بهذا النصر المبين ، وأنشده الجراوى قصيدة يقول فيها :

إيــابُ الإمــام حيــاةُ الأُمَمْ ... تَــوَالَى الســرورُ بــهِ وانْتَظَمْ

وجادَ به الأرضَ صَوْبُ الحَيَا ... وجَلَّى الظَّــلامَ بـهِ بَدْرُ تِمّ(٢)

فشكرًا لخيــلٍ وفُلْكٍ دَنَتْ ... بمُسْتأصــلِ الظُّلم ماحى الظُّلَمْ

إذا حــلَّ فى بلدةٍ أمْرَعتْ ... فطــاب جَنَاها وفـاح المَشَمّ(٣)

وقــام بأقطــارها عَدْلُهُ ... وصَوْبُ نَـداه مقــام الدِّيَمْ(٤)

سَلِ الدَّهْرَ عـن بطشـه بالعِدَا ... تُجِبْ من وراء الدروب العجم

(١) الثقلان : الإنس والجن . الملوان : الليل والنهار .
(٢) صوب الحيا : انسكاب الغيث . بدرتم : البدر فى اكتماله .
(٣) أمرعت : أخصبت. جناها: ثمرها. المشم : الشذا.
(٤) نداه : كرمه . الديم جمع ديمة : المطر يطول فى سكون .

وإياب يعقوب – فى رأى الجراوى – ليس حياة لشعبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يجود الأرضَ غيث منهمر ، ويضيىء الظلامَ بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا مستأصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلامَ بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب ويفوح شذاها حين يحل فيها ، وينتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه ويعمُّ الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجبك من وراء الدروب جموع إسبانيا متوجعة مما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإسبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمعركة كبرى استنفر فيها المغاربة وأعراب الهلالية وأهل الأندلس فاستصرخ البابا وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرَك بين قرطبة وطليطلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقًا ذريعا ، وفرَّ ألفونس على وجهه لا يلوى حتى طليطلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وبطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشعراء بها وببطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولاهما :

هو الفتحُ أعيَا وَصْفُه النَّظْمَ والنثرا ... وعمَّتْ جميعَ المسلمين به البُشْرَى
وأنجدَ فى الدنيا وغارَ حديثُه ... فراقت بِهِ حُسْنًا وطابتْ به نَشْرا[1]
تميَّز بالأحْجال والغُرَر التى ... أقلُّ سَناها يَبْهرُ الشمسَ والبدرا[2]
لقد أورد الأذفونش شيعته الرَّدَى ... وساقهمُ جهلا إلى البَطْشة الكبرى[3]
حكى فعل إبليسٍ بأصحابه الأُلى ... تبرَّأ منهم حين أوردهم بَدْرا
فدارتْ رَحَى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينًا فى مهبِّ الصَّبا يُذْرَى[4]
يطير بأشلاءٍ لهم كلُّ قَشْعَمٍ ... فما شئتَ من نَسْرٍ غدا بَطْنُهُ قَبْرَا[5]
بِيُمْنِ الإمام الصالح المصلح الرِّضا ... نضا سيفَه الإسلامُ فاستأصَل الكفرَا[6]

والجراوى يقول إنه فتحٌ أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت تباشيره الدنيا بهضابها وسهولها فازدانت به حسنا وطابت نشرا وعطرا ، وإنه لفتح محجَّل أغر يبهر ضوؤه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليطلة أنصاره مورد الردى والهلاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقته قريش يوم بدر ، إذ دارت رحى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبعت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النسور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك بيمن طالع

---

(١) أنجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشرا : رائحة عطرة .
(٢) الأحجال: بياض فى السيقان. الغرر: بياض فى الجباه.
(٣) الردى : الهلاك .
(٤) الهيجاء : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .
(٥) قشعم : نسر مسنّ .
(٦) نضا : سلَّ .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا المرضى الذى سلّ الإسلامُ سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه باقية .

ويتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنئه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هيَ بيعةٌ أحيا الإلهُ بها الورَى ‏ ‏ ‏ ‏ وحَمَا بها دينَ النبيِّ المصطفى

وهو دائمًا يردِّد فيه وفى آبائه أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشيعون فيها من العدل والكرم الفياض ، ودائما يردِّد أنهم حماة الدين الحنيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على ميورقة من يد ابن غانية فيهنئه بقصيدة مطلعها :

لك النصرُ حزبٌ والمقادير أعوانُ ‏ ‏ ‏ ‏ فحسبُ أعاديك انقيادٌ وإذعانُ

كما يهنئه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م .

ابن عبد[1] المنّان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكناس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م – ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م) فاتخذه كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلاطين : أبى بكر السعيد لمدة عام فعمه أبى سالم إبراهيم بن أبى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م فأبى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧ م وابنه أبى زيان سنة ٧٧٤ فأبى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلاطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م . ونوه به وبشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاويت من وصف تلميذه ابن جابر الغسانى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأحفل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان أبى عنان ، ونراه حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنئه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

(١) انظر فى ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نثير فرائد الجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص٣٤٨ وجذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس لابن القاضى ١٢٤/١ وأيضا درة الحجال ٥٣/١ والنبوغ المغربى ٢٣٨/١ و١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

مليكُ ملوكِ الأرضِ أوحدُها الذى   بهِ عَلتِ العلياءُ وافتخرِ الفَخْرُ
غمامُ النَّدَى الهطَّالِ والجوُّ أغبرٌ   وليثُ الفِدَا والبِيضُ قانيةٌ حُمْرُ
إذا ما تراءى البدرُ يومًا ووَجْهُه   تحيَّرت الأبصارُ أيُّهما البَدْرُ
لعمرى لقد زِنْتَ الخلافةَ فاغتدتْ   يقصِّر عن أوصافها النظمُ والنثر
وراقتْ بك الدنيا جمالاً وبهجةً   فإظلامُها صُبْحٌ وإصباحها بِشْرُ
وهنِّئتَ عيدَ النَّحْرِ والفتحَ إنَّه   لك العِيدُ منه والعِدا لهم النَّحْرُ
بقيتَ لدينِ اللهِ رِدْءًا وعصمةً   فما غيرُ عَلْياك الزمانُ له ذُخْرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذى سمت به العلياء وافتخر الفخر ، إنه غمام الكرم المنهمر فى الأيام المجدبة ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القانى . وحين يطلع على الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مديح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لها . وحسنت بك الدنيا وازدانت حتى غدا ظلامها صبحا وصبحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المبين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معينا وعصمة للدين الحنيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفى إحدى مدائحه يصف الساعة التى نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بفاس . وأهم منها قصيدته التى مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعْقَدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينازل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مخاتل فى أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركهاشخص فى وسطها ، وفى يمناه حديدة يطعن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المخاتل، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد فى الفلاة وإحضاره لمنازلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة فى وصفه للثور والأسد والمختال وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض أبياته فى المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

ومدرَّبُ الرَّوْقين أصفرُ فاقعٌ   راق النواظرَ نضرةً لما بَدَا[1]
ما زال يدعو للنزال أسامةً   ولقد أشار بظِلْفِهِ لما دعا[2]
ولقد أراه مكانَ مَصْرَعِهِ وقد   أوْمَى بساحِ القصرِ ينكتُ فى الثرى[3]
وعَدَا له والظنُّ يقضى أن يُرَى   وقد اعتلاه فكان عكسًا ما قضى
جالتْ عليه صَدْمةٌ من حارثٍ   تنسيك صدمةَ حارثٍ يوم الوغَى[4]

(١) الروقين : القرنين .
(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .
(٣) ينكت : ينقض الثرى بحافره .
(٤) حارث : من أسماء الأسد – الوغى : الحرب .

أعجبْ بهــا من صدمــةٍ قد عفَّــرتْ لِبَدَ الهِزبْرِ وأوهنَتْ منــه القــوى[1]

وهو يشيد بقرني الثور المدرَّبين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للنزال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سيُصْرَعُ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أبى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسيك صدمة البطل حارث يوم الحرب الضارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدتها لِبَد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيانه . ويعرض علينا نزال المخاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وضُبـارمٍ رَحْـبِ اللَّبــــان تُقِلُّه صُهبٌ متينٌ خَلْقُها عَبْلِ الشَّوَى[2]
يفترُّ عن نـابٍ كأطـــراف القَنَا بَيْضا ويَنْضُو مِخْلَبًا حـادَّ الشَّبـا[3]
ومُخـاتلٍ فى جوفِ دائـرةٍ طوت أضْلاعَهـــا منـــه على شَهْمٍ فَتَى
يحكـى بهــا رَأْلاً بِبيضةِ سَبْسَبٍ لـم تنفرج عنـــه فأنفذها كُوَى[4]
يمشى الهُوَيْنَى وسطها فتقلُّه عَدْوا ومـا إن تشتكى أَلَمَ الوَجَى[5]
حسِبَ الغَضَنْفرُ مُرْتقاهــا كعبةً فَدَنَا يطيل بها الطوافَ وقد سَعَى[6]
أمسى صريعًا والدمـــاءُ سلافـةٌ أتُراه سكرا مـال من تلك الطِّلا[7]

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفترّ فمه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مخلبا حادَّ الشباة كأطراف السيوف وأسَلها الفاتك . وينازله فتى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فأنفذ بها كوى وثقوبا - ويظل يمشى بها فى تؤدة - وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويَعْلَق بحديدة فتاها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمائه . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدَّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنَّان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

---

(١) الهزبر : أيضا من أسماء الأسد .
(٢) ضبارم : من أسماء الأسد - رحب اللبان : واسع الصدر . عبل الشوى : مفتول الأطراف .
(٣) ينضو : يسلّ . الشبا : الطرف .
(٤) الرأل : ولد النعام . السبسب : الفلاة .
(٥) تقله : تحمله . الوجى : العرج .
(٦) الغضنفر : من أسماء الأسد .
(٧) الطلا : الخمر.

الهوزالى[1]

هو محمد بن على الهوزالى شارح ديوان المتنبى الملقب بالنابغة ، ترجم المقرى فى كتابه « روضة الآس » لأبيه على وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبيته بيت صلاح ودين ، وأنشد نبذة من أشعاره ، وكأنه ورَّث ابنه محمدا الشعر ، وقد أكبَّ فى شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتها المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم الناثر نابغة زمانه ، أخذ عن أبى العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضى سكتانة » وذكره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضى شاعر الدولة مفتى الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجى فى مقامته التى عرف فيها بأدباء عصره : « أخو علقمة ولبيد ، وذو المقول المحيى المبيد ، جزالته فى وصف المهامه والقفار وذكر المَرْخ والعَقار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوَّم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبى) وحبيب (أبى تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة علية فى الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهلى الفحل ولبيد أحد شعراء المعلقات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفيافى والقفار ، ورمحه لذلك فى الشعر رمح متين لا يقصر فيه عن شاعرى العصر العباسى الكبيرين المتنبِّى وحبيب . وجمهور شعره فى مديح المنصور ، ويستهله بوصف بطولته فى واقعة وادى المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التى مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف – فيما يقال – فسحقهم جيشه المغربى بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور فى المعركة وهو يصول ويجول مجندلاً للبرتغاليين ومنظما لكتائب جيشه قائلاً :

لعمرُك لا أنساه يوما شهدتُه ... وقد سَفَرَتْ بين الكُماة المداعسُ[2]

يربِّس للإقدام كلَّ كتيبةٍ ... كما ربَّس المرجانَ فى السلك رابسُ[3]

وحسْبك فى وادى المخازن وقعةٌ ... بها الشِّرْك حتى آخر الدهر تاعسُ

بها عرفتْ أبناءُ عيصٍ بأنهم ... عبيدُ العَصَا ما ناسَ فى الأرض نائس[4]

فدانوا له حتى توقَّع بطشَه ... برمَّتهم صُلْبانُهم والكنائسُ

فلا زالت التثليثُ تُقْرَعُ باسمه ... فتخرس فى الأديار تلك النواقسُ[5]

---

(١) انظر فى ترجمة الهوزالى وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضى ٢٣٣/٢ وكتابه المنتقى ص٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفشتالى نشر كنون فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٦٣/١ و٢٢٣/٣ والوافى لابن تاويت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية فى عهد السعديين لحجى ٤٠٨/٢ .

(٢) الكماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرمح الغليظ الحاد

(٣) يربس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عيص : يريد البرتغاليين . عبيد العصا : مسترقون أزلاء . نائس : متحرك .

(٥) التثليث : يريد عقيدة التثليث عند النصارى .

وللهوزالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لم يألُ بِستيّانُ فى استصراخهِ ... صُهُبَ الأعاجم من بلادٍ شُسَّعِ[1]
فتجشموا البحر المحيط وما دَرَوْا ... بمحيطِ بحرٍ من عَوَالٍ شُرَّعِ[2]
وكتائب حَفَّتْهُ مَنْصُوريَّةٍ ... تنقاد بالأُسْد الغضاب الجوَّعِ
صبَّتْ على الكفار - صَبًّا - عارضا ... هَطِلا ولكنْ بالسُّموم النُّقَّعِ[3]
فتركن عُبَّادَ المسيح كأنهم ... أعجازُ نَخْلٍ بالسيول مقلَّعِ
لا زِلْتَ فى أُفُقِ الخلافةِ نيِّرًا ... تختال بين كواكبٍ لك خُضَّعِ

والهوزالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولبُّوه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شُرَّع مسدَّدة ، تحفُّه كتائب المنصور يقودها أُسْدٌ غضاب جوَّع تريد أن تقضمهم قضما ، صبَّت عليهم سحابا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناقعا قاتلا ، وإن ساحة الحرب لتمتلىء بقتلى عبَّاد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحفّ به الكواكب من قواده وكماته . وبعد هذه الموقعة باثنتى عشرة سنة عام ٦٩٨ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مرَّ بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهده ، ويهنىء الهوزالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتائبه :

غدتْ تحمل الموتَ الزؤامَ يحوطها ... ويكنُفها يُمْنٌ يشيِّعه نَصْرُ[4]
فحلَّتْ بأرض السود لم يَثْنِ عزمَها ... مهالكُ صَدٌّ عن مسالكها الذُّعْرُ
لقد ذكر الحُبْشانُ من وَقْعها بهم ... وقيعةَ يومِ الفيل لو ينفع الذكر
هنيئا أميرَ المؤمنين فقد قضى ... على كل من ناواك أسيافُك البُتْرُ[5]
ودُمْ لفتوحٍ يُسْتَحَثُّ لِنَيْلها ... إلى كل قُطْرٍ منك ذو لَجَبٍ مَجْرُ[6]

وهو يصور الكتائب تحمل إلى السودان الموت العاجل السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل قضت

---

(١) بستيان : سيباستيان : ملك البرتغاليين .
(٢) عوال : رماح . شرع : مسددة .
(٣) عارضا : سحابا . السموم النقع : المهلكة .
(٤) الموت الزؤام : العاجل السريع .
(٥) البتر : الحادة القاطعة .
(٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج .

عليهم قضاء مبرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهنىء المنصور بانتصار كُماته وفرسانه ، ويدعو له أن تدوم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الحوزالى حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غرّاء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بتهنئته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م .

أحمد[1] بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بابن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العَلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراكش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور » . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كتابه : « المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زرّوق ولم يكتف بذلك ، فقد ألف لخزانته كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م وكما كان

---

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأشعاره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر المثانى ٢١٣/١ وصفوة من انتشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالى بتحقيق كنون وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى دراسته له التى قدم بها تحقيقه للمنتقى وانظر الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

عالما بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبى بكثير من شعره منذ أن كان فى الأسر ، إذ أرسل إليه قصيدة حينئذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسره ، وفيها يقول :

بحق الذى أولاك ملكا فنَجِّنى ... من المُلْك يا قَصْد الأسير المكبَّلِ
وكنْ يا إمامَ العدل فى عونِ خائرٍ ... أسيرٍ كسيرٍ ذى جنـــاحٍ مذلَّلِ

ومنذ عاد ابن القاضى إلى حضرة المنصور الذهبى ، وهو يلزمه ويقدم له مدائحه فى كل نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تبرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، فرأوا أن ينسحبوا منها ويتركوها للمنصور . ويهنئه ابن القاضى بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصـــورُ أبشرْ بالعلا ... اللّهُ بلَّغ فى العِدا المأمولا
أنضاكـمُ سيفا لحتف عِداتِهِ ... وبكم غَدا سيفُ الرَّدَى مفلولا
وهزمتمُ الشـرك المبـــين بعزمكم ... من غير ما سيفٍ يُرَى مسلولا
وأذبتمُ كَيْدَ الخبيث مهابةً ... وفتحتـــمُ آرامــــه آصـــيلا
وغدتْ من الناقوس صِفْرا بَلْقَعًا ... يُتْلَى بهـــا قرآننــــا ترتيــــلا
أبشرْ لـــواءُ الفتح معقــودٌ لكم ... واشكـرْ إلهك بُكْـــرةً وأصيــلا

وهو يبشر المنصور بمعال لا تنتهى ، فالله حافظه ويبلغه فى عِداه كل ما يأمل من نصر وفتح ، وقد منحكم سيفا لحتف الأعداء ، وفلّ لكم سيف الردى والهلاك فهزمتم الشرك بعزمكم دون سيف سللتموه ، وذاب كيد الخبيث الصليبى مهابة ، ففتحتم عقر داره : أصيلا وأصبحتْ خلاء من ناقوس النصارى ترتَّل فيها آى القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، ويهنئه بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها ينشد :

بشراك بِالفَتْحِ المبين المتاحْ ... قَطَفْته بين القَنـــا والصِّفاحْ
ولْيَهْنك النَّصْر الذى حُزْتَهَ ... دون الملوك فى مغانى الكفاح
واسْعَدْ فقد دانتْ ملوك الورَى ... لما رأتْ فى الانقياد النجاح
والطاهرُ المنصــور من هاشمٍ ... واسطةُ العقد وبحرُ السماحْ
رُجّت بلادُ السود من جُنْدِهِ ... وافْتُتِحَتْ بالسيف أىَّ افتتاح
فتـــحٌ مبينٌ هـــو تاريخُـــه ... ينمو على الأرض مديدَ الجَناح
لا زالتِ الأقطـــارُ تَعْنو لكـم ... من سَعْدكمْ طـــولَ المَدَا تُسْتَباح

وهو يهنىء المنصور بالنصر الذى قطفه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإنه لحرى أن يسعد فقد دانت له الملوك وألقت له عن يد صاغرة ، وإنه للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيته النبوى ، وإنه لجوهرة العقد الفريدة وبحر السماح وغيثه المدرار ، وإنه لفتح سيظل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأقطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذى لا يحد . وقد أشار فى الأبيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائحه مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبح ثابتَ الآساسِ ... بابن النبىِّ الطــاهر الأنفـاسِ
يروى أحاديثَ العـلا عن مُرْسَلٍ ... طهـرتْ خـلائقه من الأدنــاسِ

وكانت الأسرة السعدية تنتسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يبدىء فى هذا النسب الشريف ويعيد منوها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى[1]

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والدكاكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأمَّها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتحلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى مواقفه العلمية وجهاده نصرة للدين الحنيف ، ويصوره زعيمًا دينيا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى القبائل المتبدِّية إذ تستجيب له مذعنة مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والتوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

---

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السقاط « طبع الرباط » وراجع فى الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجى عنها (طبع الرباط) .

يا أحلمَ الحلماء أحزمَهم إذا ما الرأىُ رُدَّ إلى مشورةِ حازمِ
صُلْ واغْلُظَنْ فى الله واسْطُ مجاهدا بحسام عزمك ذى الذؤاب الحاسمِ
واقطعْ حِبالَ خبالِ كلُّ معارضٍ ومعـاندٍ للحـــق غيرِ مـوائمِ
فإلام تبرح فى الضـلال قبائلٌ من عُرْب مغربنا سُدًى وأعَاجمِ
وإلى سيـادتك السنيَّة ينتهى نصحُ الوَرى ولأنت أعلم عالمِ
والديـــنُ أنت إمامـــه ورئيسُهُ والدهر عَبْدك وهْـو أطـوعُ خادم

والدغوغى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ فى الدعوة لله وتقهر خصومها بحسام عزمك الحاد ولْتقض على كل معارض لك ومعاند للحق لا يذعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التى لا تبرح مهالكَ الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التى لا يصلها دعاته ، وينوه بسيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار فى الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فسادًا ، ففزع إليه كبراؤها وسادتها يستنجدون به لإحباط ثورته ، ففكر فى جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعاته السملالى وحُقنت الدماء ، فأنشده الدغوغى قصيدة منوها بصنيعه ، وفيها يقول :

كم وِلْدةٍ لولاكمُ فى بلدةٍ يَتِمَتْ وغودرتِ المواطن عافِيَهْ
ولكم بكم عمرتْ مواطنُ طالما أقوتْ وتألفها الذئابُ العاويَهْ
هذا لسان الحق ينشد إنما شمسُ الهدى للمهتدين دِلائيه
بكريّةُ الأبـراج مشرقُ سعدها بمحمدىِّ الرشد غربًا باقيَهْ
ولعلمهِ ولحلمـــه ولحكمـــهِ حِكَمٌ تفـوق الحصر لا متناهيه

وهو يصف محمدبن أبى بكر الدلائى بأنه دائما يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتيتَّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقْفر فى عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلائية الموطن بكرية الأبراج ، مشرقها دائما فى المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمائل تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينوه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إذا تربتْ يمينىَ كان لى نَشْرٌ ثناه غِنىً فلست أعـولُ(١)
ما المالُ من أملِ إليك أمالنىِ حَسْبى رضاك فهل إليه وصـول
فرضـــاك كل غنيمةٍ فى ضمنِه حتى الثراءُ به رضـــاك كفيلُ

(١) أعول : أفتقر .

ولقد أفادنىَ الفصــاحةَ جودُكم وأنا امرؤٌ حَصِرُ اللسان كَليلُ
فعجزتُ عن نطقٍ بحسنِ كَمالِكُمْ وكذا سواى فما عساه يقــول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيخه محمد بن أبى بكر ، وإنه ليشعر فى عمق حين يعول ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلن أنه يمدحه لا لعطاياه ، وإنما طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وإنه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلن أن جود ابن أبى بكر هو الذى حل عقدة لسانه وكان عَيِيًّا كليلا فأصبح فصيحا ، ومع ذلك فإنه يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصويره . وكان ابن أبى بكر يختم صحيح البخارى مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشده الشعراء مدائح مختلفة ، وينشده الدغوغى فى أحد احتفالاته :

نال البخـارىُّ منه سَبْحا وغَوْصا مرامَهْ
فناب فى السَّبح عنه وقام غَوْصًا مقامَهْ
أكرمْ بسوقٍ بديعٍ للمكرمات أقامـــه
فيـــه الثنـــاءُ عليهِ وَقْفًا إذا الغيرُ سامَهْ
فجوهرُ الفضل فردٌ تأبى المعـالى اقتسامه

وهو يقول إن صحيح البخارى حظى منه بسبح فى أحاديثه وغَوْصٍ ما يماثلهما سبح وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقا عظيمة ، جعلت الثناء وَقْفًا عليه دون غيره ممن قد يبتغيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتأبى المعالى أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو كان الدغوغى شاعر محمد بن أبى بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعنانى[1]

هو عبد الواحد بن محمد البوعنانى مفتى فاس فى عهد المولى إسماعيل العلوى (١٠٨٤ هـ/١٦٧٢ م – ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفى عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادى المخازن ضد البرتغاليين فى أوائل العهد السعدى إذ آذنَ المحتلين الأوربيين للبلدان المغربية بحرب تسحق ضلوعهم سحقا . وأخذت تلك البلاد تسقط فى حجره وحجر المغاربة واحدة تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها – كما تقدَّم – المهدية سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وتلتها طنجة سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ/١٦٩٩ م واستدار العام فحاز أصيلا ، وكان حريًّا أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

(١) انظر فى البوعنانى وقصيدته كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والنبوغ المغربى ٢٣٢/٣ .

كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعنانى يشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتتحها بقوله :

ألا أبشرْ فهذا الفتْحُ نورٌ ... قد انتظمت بعزمكمُ الأمورْ
وطيرُ السَّعْد نادى حيث غنَّى ... قد انشرحتْ بفتحكمُ الصدورُ
وقد وافتكمُ الخيراتُ طرًّا ... وطـابَ العيش واتصل السرور
وجـاهَدْتُمْ وقاتلتـم فأنتـم ... لديـــن الله أقمــارٌ تُنِيرُ
وأطلعتم صوارمكم نجومًا ... لـدى هيجـاءَ صاحبُها كَفـور
وأنت البـدرُ يــوم السِّلْم حُسْنًا ... وفى يوم الوَغَى الأسدُ الهصورُ(١)

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نورا يغمر سَناه البلاد والعباد ، وكل شيء من حوله فرح ، فالطير تتغنى ، وقد انشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أُثقال كانت تعانى منها عناء شديدا ، وأى أثقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّتْ إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور بفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتم لدين الله الحنيف ، وكأنكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنما سيوفكم نجوم تحف بكم ، وإنك للبدر المنير فى السلم حسنا وفى الحرب الأسد الهصور ، ويمضى منشدا :

وفى ثَغْر العرائش قد تبدَّى ... لقدركُمُ على الشِّعْرى الظُّهورُ
قهَرْتهمُ بأبطـــالٍ عظــامٍ ... على الهيجـــاء كلُّهُمُ جَســورُ
وكم رأسٍ من الكفــار أمسى ... قطيعَ الـرأس مجرورا يَخُور(٢)
وكم أسرى وكم قتْلَى بأرضٍ ... وكـم جَرْحَى دماؤهمُ تفورُ(٣)
تمرٌّ بهـــا الطيــورُ فتنتقيها ... وبـات الذئب وهْو لها شَكور
وأضحى النـاسُ كلُّهمُ نشاوَى ... على طـربٍ ومـا شُرِبتْ خمورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم فى ثغر العرائش النصر المبين ، فقد قهرتم العدو بالمغاربة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسور على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخبط فى دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحْصَى سوى الجرحى ودمائهم المتدفقة ، ولكأنك أقمت للطير مأدبة تتخيرٌ منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهى تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

---

(١) الهصور : المفترس .
(٢) رأس : يريد رئيسا . يخور : يصيح .
(٣) تفور : تتدفق .

نشاوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر فرحا وسرورا . ويقول :

فبُشْراكم بهذا الفتح نورٌ ... وبشراكم بمـا منَّ الغفـورُ
بـه زادتْ مآثرُكم علـوًّا ... وقد عظمتْ به لكمُ الأجور
ألا يا أهل سبتةَ قد أتاكم ... بسيف الله سلطـانٌ وَقـورُ
إذا ما جاء سبتةَ فى عَشِيٍّ ... تُزَفُّ له إذا كان البكـورُ
ووَهْرانٌ تنـادى كل يـومٍ ... متى يأتى الإمام متى يزورُ
فيهزمكـم ويقتلكم ويَسْبِى ... وسيفُ الحق فى يده ينـور[1]

وهو يبشر المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور منٌّ عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم سموا ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبتة لما تفتح ، فشعر بها تهبُّ فى وجه الإسبان مهددة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفلُّ أبدا ، وكأنما حين يأتيها مساء تزفّ إليه بكورًا منكلا بالمحتلين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيىء فى يده ، ويختم قصيدته بقوله :

أيا مولاىَ قُمْ وانهضْ وشَمِّرْ ... لأندلسٍ فأنت لهـا الأميرُ
وجاهدْهم وحاربْهم وفرِّقْ ... جموعهـمُ فَرَبُّكـمُ النَّصير
ولا يمنعْ بفضل الله منها ... كما قد قيل بَرٌّ أو بحورُ
بقُرْطُبَةٍ تنـال المجـد طُرًّا ... ويأتى العـزّ والملكُ الكبـير

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعنانى حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحثه لا على أخذ سبتة ووهران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيًّا فيه على توالى العصور ، والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعصبيته القبلية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زنباع

(١) ينور : يضيىء وينير .

فى عصر المرابطين ، وهو يفتخر فى بعض غزله لصاحبته بأنه يمنىّ من حمير وأنهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأسهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحدين : ابن حبُّوس شكل نصائح يوصى بها الشعراء بل معاصريه جميعا أن يتمثّلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله[1] :

رِدِ الطَّرْقَ حتى توافى النَّميرا ... فربٌّ عسيرٍ أتـاح اليَسيرا[2]
وأرسلْ قَلُوصَك طورا شمالا ... وطورا جَنوبا وطورا دَبورا[3]
وطِرْ حيث أنت قوىُّ الجنا ... حِ لا عذرَ عندك أن لا تَطيرا
ولا تقعَنَّ وأنت السَّليـ ... ـمُ حيث تضاهى المَهِيضَ الكسيرا
وذو العجز يَرْضَعُ ثَدْيـا حَدُورًا ... وذو العزم يَرْضَعُ ثَدْيا دَرُورا[4]

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمّل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلابد له من العناء ولابد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تنفتح على مصاريعها ، ولابد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهيض الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرما ، وكأنما العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارًّا له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السُّلَمى المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة[5] :

نهـانىَ حِلْمى فلا أظلمُ ... وعزَّ مكانى فلا أُظْلَمُ
ولابدَّ من حاسدٍ قلبُه ... بنـور مآثرنا مُظْلِمُ
رحمتُ حسودى على أنه ... يقاسى العذابَ وما يُرْحَمُ
هجـانا افتراءً ولسنا كمـا ... يقـول ولكنْ كما يعلـمُ

والقطعة ردَّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسمو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعانه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكانة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجوه افتراء . وضمَّن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(١) النبوغ المغربى ٧١٧/٣ والوافى ١١١/١ .
(٢) الطرق : الماء العكر . النمير : الماء الصافى .
(٣) الدبور : ريح تهب من الغرب . القلوص : الناقة .
(٤) حدورا : شحيحا .
(٥) النبوغ المغربى ٧١٨/٣ .

ولكنه كما يعلم من منزلته الرفيعة . ويقول أبو العباس أُحمد بن على المَلْيانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان أبى يعقوب المرينى[1] :

العِزُّ ما ضُرِبتْ عليه قِبابى … والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابى
والزَّهْرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى … والمِسْكُ ما أهداه نِقْسُ كتابى[2]
والمجد يمنع أن يزاحَم موردى … والعــزم يأبى أن يُضـام جَنابى
وإذا حمدتُ صنيعةً جازيتها … بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مــودَّةً أجريتها … مجرى طعامى من دمى وشرابى
وإذا طلبت من الفَراقد والسُّهــا … ثــأرا فأُوشِكُ أن أنــال طِلابى

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كأنما ضرب الشاعر عليه قبابه فأصبح ملازما له لا يغادره ، ومثله الفضل الجاثم فى ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكتبه يراعته أو قلمه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكتبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يزاحمه فى مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنابه بأى ضيم وإذا قدم له شخص صنيعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوابه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت فى دمه مجرى طعامه وشرابه . وهى صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو على اليوسى الدلائى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة[3] :

إنا أنــاسٌ لست تُبْصرنا … نتحيَّن الطُّعَمَ التى تُزْرِى[4]
يَعْرَى الفتى ويجوعُ وهْو يُرَى … متجمِّــلا بالصَّبْــر والبِشْــر
والحُــرَّةُ الشمَّــاءُ ربَّتما … جاعتْ ولم تُرْضِع على أَجْر[5]
والحُــرُّ ليس حياتُه بسوى … عِزِّ الجَنــاب ورفعــة القَدْر
لا بالطعــام ولا الشراب ولا … اسْتلقائــــهِ بأرائكٍ وُثْرِ[6]

فهو من قوم لا يتحينون المطاعم التى تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع عُرْيه وجوعه يُرَى مُزْدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحرة ترى شمَّاء متسامية وتجوع ولاتأكل بثدييها فذلك موت زؤام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة .ولعمر[7] الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م :

---

(١) النبوغ المغربى ٤٢/٣ .
(٢) نقس : مداد .
(٣) النبوغ ١٦٧/٣ .
(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .
(٥) الشماء : المترفعة المتسامية .
(٦) أرائك وثر : مقاعد مترفة .
(٧) النبوغ المغربى ٤٩/٣ والحياة الأدبية فى المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يَغْلُو على النا س بآباءٍ سَراةِ
ليس من شأنى فَخارٌ بعظامٍ ناخراتِ
ما فخـارُ المرء إلا بعلومٍ زاخراتِ
وسجايـا ومزايـا وهباتٍ وافراتِ

وهو يقول إن الفخر الحقيقى لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية فى المقابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوافرة ، ويقول ابن زكرى الولتى حاثا على اقتحام الصعاب فى طلب المجد[1] :

المجدُ حيث مدارُ السبعة الشُّهُبِ هيهات يدركه مَنْ لم يكن بأبى
وهمَّة المـرء لا تعدو بصيرتَه بقدر نظرته يسمو إلى الطلبِ
كلٌّ له أربٌ لكنْ أخو قِصَرٍ فى الهمِّ ليس له فى الجِدِّ من أربِ
إن كان لابد للإنسـان من أمـلٍ فليأمل المجدَ فـوق السبعة الشُّهب

وهو يقول إن المجد ليس شيئا هينا ، بل هو شىء فى منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لابد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السيَّارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم وإباء لا حد لهما . ويذكر أن كل شخص يحصل فى دنياه على ما يطلبه بقدر همته ، ويقول إن مَنْ همته قصيرة لا ينال مأربا كبيرا ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتمناه ، فَلْتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا فى الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الشاذلى الدلائى وقصيدة بديعة له فى الفخر .

الشاذلى[2]

هو محمد بن أحمد بن الشاذلى المتوفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه فى عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكبَّ بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر فى أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة فى الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضى على هذه الشاكلة :

مـا إنْ يَعيبك فَقْدُ الحَلْى والحُلَلِ إن أنت بالهِمم الشمَّـاء كنت مَلى
وربَّ جاهلـةٍ هبَّتْ تعـاتبنى أن كنتُ- عن غَمرْ عيشٍ- مؤثرَ الوشَل[3]
قالـتْ رأيتك ذا قـولٍ محبَّـرُهُ أزهى من الـرَّوض غِبَّ الواكف الهَطِل[4]

---

(١) الوافى ٨٥٦/٣ .

(٢) انظر فى الشاذلى كتاب الشعر الدلائى (راجع الفهرس) والنبوغ المغربى ٤٧/٣ .

(٣) غمر العيش: رافهه وواسعه. الوشل: الماء الضحل القليل.

(٤) محبَّرة : منمقه . غب الواكف الهطل : عقب السحاب الممطر .

وفى الملـــوك لـــــه كُفءٌ فأُمَّهُمُ حتى يعيدوكَ ذا خَيْــلٍ وذا خَـــولِ[1]
ولستُ أصْغِى وإن لجَّتْ لتعدلَ بى عن منهج الصَّــوْن بالنَّعْتاب والعـذَلِ
وإن مـن كـــرمى بُخْلى بِشعـرىَ عـن تقـريظِ ذى كـــرمٍ أو ذمِّ ذى بَخَـــلٍ

وهو يقول إن الشخص لا يعيبه فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتنى لانصرافى عن رافه العيش واكتفائى بالوشل القليل منه ، بينما أملك بيانا بليغا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الهاطل ، وتقول فى الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه لا يصغى لمثل هذه العاتبة مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمروءته ، وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مديح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث أن يعلن لعاذلته قوله :

ولن تَرَيْنى مُذيلا – ما حييتُ – له فى غير ذكر الوَغَى والأَعْيُن النُّجُلِ[2]
يَأْبىَ إبائى وآبـــائى ويأنف لى مجدٌ أناف – ولم يقْنع– على زُحَلِ[3]
نفسُ الكريم تعاف الوِرْدَ يصحبه ذلٌّ على ظمأٍ فى الجـــوف مُشْتَعِلِ
لــو كنت سائلَ غيرِ الله لـــم أسَلِ غَيْرَ المَذاكى وغير البِيض والأَسَـلِ[4]

وهو يقول لصاحبته إنه لن يبتذل شعره إلا فى الحماسة والحرب الضارية وإلا فى الغزل بالحسان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آبائى وإبائى يأبيان أن أمتهن شعرى وأهينه فى مديح أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل فى ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان ظامئا ومهما كان الظمأ يشتعل فى جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضى فى قصيدته منشدا :

لا تَرْضَ بالعيش فى ظلِّ الهوان وخُضْ لنَيْل عزٍّ غِمـــار المـــوت والثُّكَلِ[5]
فليس يُدْرَك بالجُبْــــن البقـــاءُ ولا الإقدامُ يَقْضِى بما لم يُقْضَ فى الأزلِ

وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بعيش فى ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا فى سبيل العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجبن ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب فى الأزل وقُدِّر على الإنسان . ويستمر قائلا :

---

(1) أمهم : اقصدهم .خول : خدم وعبيد .
(2) مذيلا : مبتذلا ومهينا . النجل : الواسعة الجميلة .
(3) أناف : أشرف .
(4) المذاكى: الخيل. البيض والأسل: السيوف والرماح.
(5) الثكل : فقد الأهل والأحبة .

حَلَبْتُ شَطْرَىْ صروفِ الدهر من عدمٍ ... ومن يسارٍ ومن صابٍ ومن عَسَلِ
فما بطِرتُ لإثراءٍ ولا حسبى ... بدتْ به خلّةٌ تنتابُ من خَلَل[1]
وكنت إما بدا لى من حلىّ عَطَلٌ ... أُلفيتُ من حَلْى فضلى غيرَ ذى عَطلِ
وَشْىُ المهنّد يبدو فوق صفحتِه ... يغنيه عن شيّة الأغمادِ والحُلَلِ

وهو يقول إنه طالما جرَّب صروف الدهر وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه بطرٌ ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل فى حسبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حُلىّ الغنى شعر أن حُلىَّ فضله يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذى يزينه يبدو على صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة فى كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعانى .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربى ، الموغلة فى القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلى من آلهته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من اللعنات إلى الذم بالصفات المرذولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق إلى مناظرات واسعة فى أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه فى كتابنا : « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » . ومنذ العصر العباسى الأول أخذ الشعراء يتفننون فى وصف المهجو بالدناءة والقذارة ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين . وظل كثيرون من الشعراء – على مر العصور – يكثرون منه بحيث يمكن تلقيبهم بجماعة الهجّائين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ، إذ كان الشاعر المغربى يلم به فى لحظة من لحظات غضبه ثم ينصرف عنه إما رعيا للذمام والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلقانا منه فى أول الأمر أهاج لبعض من كانوا يتنبئون ويثيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام المصمودى فى هزيمة برغواطة مع متنبئها أبى عفير[2] :

قفى قبل التفرُّق فاخبرينا ... بقولٍ صادقٍ لا تَكْذبينا
بأمر برابرٍ خَسِروا وضَلُّوا ... وخابوا لا سُقوا مَاءً مَعينا[3]
يقولون النَّبىُّ أبو عُفَيْرٍ ... فأخزَى اللهُ أمَّ الكاذبينا
ألم تسمع ولم تَرَ يوم «بَهْتٍ» ... على آثار خيلهمُ رَنينا[4]

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشيء .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٥١ .
(٣) ماء معينا: من مياه الجنة أولعل الشاعر يريد كل مياه عذبة.
(٤) بهت : مكان المعركة .

رنينَ الباكيــات بهم ثُكالى وعاويـةٍ ومسقْطةٍ جنينا(١)

وهو يعيرهم بيوم « بهت » الذى هزموا فيه مع نبيهم أبى عفير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخابوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متنبِّئًا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الحنيف ، فأخزاهم الله ، وحرمهم مياه الجنة المعين الصافى العذب . ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفرسانهم إذ قتلوا شر قتل وإنما بنسائهم يعولن ويبكين ويندبن من فَقَدْنهم من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنتهن فزعا ورعبا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى – وقيل إنها لغيره – بنى غفْجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول(٢) :

يا بنَ السبيل إذا مررتَ بتادِلا لا تنزلنَّ على بنى غَفْجُومِ
أرضٌ أغارَ بها العدوُّ فلن ترى إلا مجـاوبةَ الصَّدَى للبُومِ
قــومٌ طوَوْا ذكرَ السماحة بينهم لكنهم نشروا لــواء اللُّــومِ
لاحظٌ فى أموالهــم ونَوالهــم للسائل العافى ولا المحــرومِ(٣)
لا يملكون إذا استُبيح حريمهم إلا الصُّراخَ بدعــوة المظلومِ
يـا ليتنى من غيرهم ولــو اننى من أهــل فـاسٍ من بنى المَلْجُومِ

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم ، وإنها لأرض كريهة خرَّبها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح البوم وأصداءه ، ولقد طووا راية السماحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللؤم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استبيح حريمهم ما ثاروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح ، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعلَ النساء والمظلومين . ويقول ليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء ، وهى سخرية لاذعة . وكاد الهجّاءون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراكش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولهم فى الهجاء طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبُّوس شاعر الموحدين لفنه الشعرى قائلا(٤) :

يـا غرابَ الشعــر لاطِرْ تَ ومُنِّيت الـوقـوعـــا
فـإذا اسـتيقظ شَهْـــمٌ قَـــرِمٌ زدتَ هجـوعـــا
هَبْكَ لا تَقْنِـصُ عـــزًا لِمْ تقنصْتَ الخضـوعـــا

(١) ثكالى جمع ثاكل : فاقدة الزوج أو الولد .
(٢) النبوغ المغربى ٢٥٣/٣ .
(٣) السائل العافى : طالب المعروف .
(٤) الوافى ١١٠/١ .

رمت أن ترقـــى سـريعا فتـردَّيتَ صريعـــا[1]
ربمــا اصطـــاد بُغـــاثٌ شيئًا واصطدتَ جوعا[2]
ولقـد غـــال حَبيبـــا منك مـا غـال صريعـا

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يتشاءم به العرب ، وكأنه مصدر شؤم كبير ، ولذلك يتمنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطيل الهجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتنص عزا فلماذا يقتنص الخضوع ، مهما أمَّل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صريعا . وقد يصيد شويعر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يغتاله المديح كما اغتال أبا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهم . وكان ابن حبوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والهجائين والعيَّابين الذين يكثرون بين الناس منشدا[3] :

أعِـــدَّ لنابحيك عصًـــا وأقْضِم ما ضِغِيك حَصًا[4]
وغمِّضْ عينك النَّجْــلا ءَ حتى تُنْعَتَ الحَوِصا[5]
وهُـــزَّ لمعشرٍ سَيْفـــا وهــزَّ لآخـرين عَصـــا
لقد رَخُصَ الإخاءُ وأهْـ ـوَنُ الأعْلاق مـا رَخُصـا
وقد ذهب الوفـــاءُ فلا يقـــول مغـــالطٌ نقصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصًا لكثرة النابحين حوله الذين ينكرون فضله ، ويقول أطعمْ من يمضغون لحمك هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وأنك لاتكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقى بالسيف وصنف يلقى بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى ابتذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . ولمالك بن المرحل المرينى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدها قبيحة بالغة القبح ، ويطيل فى وصف ما قيل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بَكْماء عرجاء ، ويقول إنه ولَّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى الهزل والمجانة .

(١) ترديت : سقطة .
(٢) البغاث : طير صغير .
(٣) النبوغ المغربى ٣/٢٥٢ .
(٤) أقضم : أطعم . ماضغيك : الذين يمضغونك ذامين .
(٥) الحَوِص : الأحوص وهو ضيِّق مؤخر العين .

٥

الشعراء والشعر التعليمى

الشعر التعليمى من الموضوعات الشعرية التى ابتكرها الشعراء فى العصر العباسى الأول بتأثير اتساع الثقافة ورقى الفكر العربى ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم فى التاريخ وبعض العلوم ، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذى ترجم عن الفارسية قصص كليلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصروه نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذى ينظم من وزن الرجز ، وتتحد القافية به فى شطرى كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمى يشيع فى البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنُظم به كثير من المتون العلمية ، وأُلفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماؤها فى نظم هذه المتون وفى وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى فى ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمى محمد بن أحمد بن غازى من العصر المرينى ، وله فيه منظومات تعليمية فى التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية فى علم الحساب . وكثر هذا الشعر فى العصر السعدى ، ونجد المقرى فى كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة فى مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى — فى مختلف العصور — شعر كثير فى الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة فى الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية العجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمنا فى العرض الأدبى لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامة فى الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز الملزوزى وابن الونان .

عبد[1] العزيز الملزوزى

مكناسى الأصل وأكبَّ منذ نعومة أظفاره على التثقف بالعلوم اللغوية والشعر العربى حتى تفتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المرينى فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكتفى بمديحه العام له ، بل ينظم فيه وفى أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمته الكبرى : « نظم السلوك فى الأنبياء والخلفاء والملوك » وهى منظومة تاريخية يعرض فيها التاريخ من أعتق الأزمنه ، حتى زمن يعقوب المرينى ، وفى فاتحتها يقول :

الحمـــد لله مغيث الدينِ بالملك المنصور من مَرينِ

ولا يلبث أن يقول :

---

(١) انظر فى ترجمة الملزوزى وشعره التاريخى الإحاطة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافى ٣٦٥/٢ والنبوغ المغربى ٢٣٦/١، ٢٩/٣ .

سميتها من حسنها نظمَ السلوكْ　　في الأنبيا والخلفاءِ والملوكْ
وأذكـرُ الأمـر على الترتيبِ　　مختصرا بأحسن التقريبِ
من عهـد آدمٍ إلى زمانـنـــا　　أختمها بالغُـــرِّ من أملاكنـا

وهو يمضى فى سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكها يعقوب المنصور أخذ يفصِّل الحديث فى تاريخه وأحداثه ومجالسه ، وكأنما هو الغاية المبتغاة من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد أُلْبِس الوقار والسَّكينه　　وحَلَّ فى مكانةٍ مَكينه
حتى إذا ما حانَ وقتُ الظهرِ　　قام إلى بيت النَّدَى والفَخرْ
يبقى إلى وقت صلاة العصر　　يأتى بقصدِ نهيِـــهِ والأمـر
فينصف المظلوم ممن ظلمه　　ولـم يزل إلى صلاة العَتَمه(١)
وأمَّن الغرب من الفسادِ　　ونشر العدلَ على العبـادِ
وخضعتْ مرينُ تحت قهرِهِ　　وأذعنوا لنهيِـــه وأمـــرِهِ
ورفَع الظلـم عن الرَّعِيَّـــه　　وقمَع الطغـــاة فى البَرِيَّه

وهو يصور يعقوب المنصور المرينى يحفّ به الوقار والجلال والسكينه ، ويحلّ فى مرتبة رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتى بعد صلاة العصر لإبرام أوامره ونواهيه وإنصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن فى البلاد وأخلاها من الفساد ، ونشر العدل فى الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعنت له ، ورفع عن الرعية كل ظلم عانت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلما فادحا .

وينظم الملزوزى قصيدة تاريخية ثانية فى المنصور يعقوب وجهاده للإسبان فى ديارهم نصرة لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة مرينية كما مر بنا فى الفصل الأول ونكل بالإسبان ، وعاد إلى هذا الجهاد مرارا سنة ٦٧٧ وسنة ٦٨١ واستولى على بعض حصونهم وسنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلدانهم ، يقدمه إلى بنى الأحمر فى غرناطة متنازلا عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى الإسبان بقصد تكوين دولة عربية جديدة فى الأندلس ، وإنما يجاهدهم انتصارا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينازل الإسبان بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزى يبدأ قصيدته بحمد الله جلَّ فى علاه وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم الرسول ﷺ وما خصَّه به من الإسراء والمعراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

---

(١) العتمة : الظلام .

وبنوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اقتفوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه انسحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسبان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه – كما يقول – إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المنصور المرينى ، فإذا هو ينازل الإسبان بقواته المرينية وقواده من أبنائه وأبناء رعيته نزالا ضاريا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملزوزى تتغنى بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسبان ، وتفصل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو وأبناؤه وقواده وما أنزلوه بهم من هزائم ساحقة فى نحو مائة بيت ، يستهلها الملزوزى بقوله فى يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

ولم يُعْلَمْ جهادٌ للأعادى ... بهذى الأرض يُحْتَسَبُ احتسابا
إلى أن فتَّح الرحمنُ فيه ... ليعقوبَ بن عبد الحقِّ بابا
لمولانا أميرِ العدل ملكٌ ... به انسلبتْ يَدُ الكفر انسلابا
ولم نر قبله فى العصر مَلْكا ... أرانا فى العِدا العجَبَ العُجابا
دعا لله دعوةَ مطمئنٍّ ... لمولاه دعاءً مستجابا
فلبَّى الله دعوته وسَنَّى ... له الحُسْنى وجنَّبه الصِّعابا[1]
فجاز البحر مجتهدا مرارا ... يقودُ إلى العِدا الخيل العِرابا[2]

وكأنى بالملزوزى حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسبان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم فى عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أنزلوا بهم فى الأرَك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له فى الجهاد بابا بل أبوابا ، ويشيد بعدله ومحقه لجيوش الإسبان محقا ، وكأنما دعا الله أن ينصره واستجاب دعاءه ، فيسَّر له الحسنى من الفتوح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصيلة فألبسهم هو وبنوه وقواده ذلا مابعده ذل . ويسترسل فى ذكر الوقائع وقوادها وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسبان حرقا وانتهابا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هنيئا يا مرينُ لقد علوتم ... على الأملاك بأسًا وانتجابا[3]
وفاخرتم بمولانا البرايا ... فأعطوكم قِيادا وانغلابا
أبعد الفُنْش وابنِ الفونسِ يبغى ... رضاكم لا يخاف به العتابا[4]

(١) سنى : يسَّر
(٢) العراب : الكريمة الأصيلة .
(٣) انتجابا : نجابة واصطفاء .
(٤) يريد ألفونس العاشر وابنه شانجو .

فحزبُ مرينَ حزبُ الله يحمى حمى الإسلام لا يخشى عقابا
إذا سَلّوا السيوف ترى الأعادى وقد حَلّوا الرُّبَى مَدَّتْ رقابا

وهو يهنىء مرين بهذا المجد الحربى الذى سمت به على الأملاك شجاعة وانتجابا ، وقد فاخرتموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلوبين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر وابنه يمدان يديهما للصلح . وإن حزبكم لحزب الله الذى يحمى ديار الإسلام ، وبمجرد أن ينازل أعداء الدين يلتمسون الربى هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفى شعر الملزوزى — كما رأينا — غير قليل من النصاعة والسلاسة ، وقد لبىَّ نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن[1] الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميرى الفاسى من نابهى شعراء العصر العلوى ، تألق اسمه فى عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ — ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبه يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يا سيِّدى سِبْطَ النبى أبـو الشمقمق أبى

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة فى ٢٧٥ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة فى مجاهل الصحراء واصفا رَكْبَ النوق الذى كان فيه ، وظل فى أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها فى السير بما لا تطيق جامعا لها فى وصفها كثيرا من أوابد اللغة . ويصف صاحبة له فى ٢٥ بيتا ويورد فى وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشنّ على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل فى فخره بآبائه وقبيلته اليمنية فى نحو خمسة وثلاثين بيتا ، ويفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم فى نحو تسعين بيتا ، وهى لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمى ، ويمدح الشعر وشاعرية أبى الشمقمق ، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية فى هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة فى الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الونان وشعره الوافى ٨٦٢/٣ وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكنون ، والحياة الأدبية فى المغرب عند الدكتور الأخضر ص٢٩٨ وانظرها فى النبوغ المغربى ١٧٨/٣ .

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسى يكمل بهم المعانى فى أبياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلاوى وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها أبياتا سهلة لندل بها على خصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها لُبنى :

تَسْبى بثغــرٍ أشنبٍ ومَرْشِفٍ ... قـد ارتـوى مِن قَرْقَفٍ معتَّقِ[1]
وزاد مسكُ الخال وردَ خدِّها ... حُسْنا وقد عمَّ بطيبٍ عَبِقِ
وقبَّلتْ أقدامَهــا ذوائـبٌ ... سودٌ كقلب العـاشقِ المحترقِ
كم أودعتْ فى مقلتى من سَهَرٍ ... وأضرمتْ فى مهجتى من حُرَق
ولا يـزال فـى ريـاض حُسْنها ... يَسْرح فكـرى ويجـول رمقى

فهى تخلب من يراها بفمها الجميل وريقها الذى كأنه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبَّلت ضفائرها أقدامها وهى شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت فى مهجته حرقا متقدة ، وإن فكره ليسرح دائما فى رياض حسنها ويجول معه ما بقى من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله فى الأرجوزة مفاخرا :

سَلِ ابنَ خلدونٍ علينـا فلنـا ... بِيَمنٍ مآثــرٌ لــم تُمْحَقِ
بهم فخرتُ ثم زدتُ مَفْخَـرا ... بأدَبى الغَضِّ وحُسْن منطقـى
وزانَ علمى أدبـى فلـن ترى ... مَنْ شِعْــرُه كشعــرىَ المنمَّقِ
فـإن مدحـتُ فمديحى يُشْتَفَى ... بـهِ كمثل العَسَـل المـروَّقِ
وإن هجـوتُ فهجائى كالشَّجَا ... يقفُ فى الحلق ومثل الشَّرَقِ[2]

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه ومآثرهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشعرى المنمق ، فإن مدحت فمد يحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعترض فى الحلق ويشرق أو يغص بها المهجوُّون . وتوفى ابن الونان سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكتظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدُّ القارىء ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

---

(١) ثغر : فم . أشنب : رقيق . مرشف : الفم وما به من ريق . قرقف : خمر .

(٢) الشجا : ما يعترض فى الحلق . الشرق : الغُصَّة .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربى ، وقد نظمه شعراؤهم فى جميع عصورهم وأقاليمهم مصوِّرين فيه عاطفة الحب الإنسانى وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه فى وصاله ووداعه ، وتارة شقى محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتغنى شاعر عربى بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربى مجلداته فى هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الهنيئة من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهن وانصرافهن عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقى به منهم فى عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتى إذ يقول[1] :

ووجه غزالٍ راق حُسْنًا أديمهُ ... يَرَى الصبُّ فيه وجهه حين يُبْصِرُ
تعرَّض لى عند اللقاء به رشًا ... تكاد الحميَّا من محيَّاه تَقْطر
ولم يتعرَّض كى أراه وإنما ... أراد يُرينى أن وجهىَ أصفر

وهو يقول : بلغ وجه صاحبته من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهى غزال أو رشا يكاد محياها يقطر خمرا يتتشى به مبصر وجهها كما يتتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تتعرض له ليرى ما فى وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له فى قلبه من شدة الخفقان وفى وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وانبهارا . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر[2] :

لِهَوَاكِ فى قلبى كريقكِ فى فمى ... غَيْرى يقول الحبُّ مرُّ المَطْعَمِ
فأدِرْ علىَّ بِمُقْلَتَيْك كئوسَه ... حتى يدبَّ خُمارُه فى أعظمى[3]

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣٨١/١/٤ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٦٤ .

(٣) الخمار : الانتشاء بالخمر .

إن التلدُّد في هـواكِ تلذُّذ   لو كان أقتلَ من زُعاف الأرقـم[1]
يا أيهـــا القمـــر الذى إنسانُه   يَرْمى أناسًـا للعيـــون بأسهم
لم أُبدِ حُبَّك غير أن جَوانحى   فاضَتْ به فيضَ الإناء المفعمِ
لا ذنبَ لى عَلِمَ الذى أسررتُه   نظرا ولم أرمُزْ ولم أتكلم
فتلافَنى قبـــل التَّـلافِ فـإننى   من حِمْيَرٍ وسيأخذونك فى دمى

وهو يخاطب صاحبته فيقول لها : غيرى يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك فى قلبى حلو كريقك فى فمى ، ويتمنى عليها أن تدير كئوسه بعينيها الفاتنتين ، حتى ينتشى بخماره الممتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب فى حبها له فى نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان قاتلا مثل سم الأفعوان . وإنها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفئدة الرجال ، ويقول لها إننى لم أُفش حبك غير أن جوانحى اكتظت به حتى فاضت به فَيْضَ الإناء المملوء إلى حوافيه ، ولا ذنب لى كما تعلمين فإننى أسررت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أُنبِىءْ به أحدا . ويتوسل إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حمير ، وإن لم تستجب له وتركته يهلك فسيدركون فيها ثأر الأسد الضرغام . ويقول القاضى عياض[2] :

يا راحلين وبالفـؤاد تحمَّلوا   أُيُرَى لكم قبـــل الممات قفولُ
أما الفؤادُ فعندكم أنباؤهُ   ولـواعجٌ تتنابـــه وغليـــلُ[3]
أتُرى لكـم علمٌ بمنتزح الكرَى   عن جفن صَبٍّ ليلُـــه موصولُ
أودى بعزمــةِ صبره وإبائه   طَرْفٌ أحمُّ ومبسمٌ مصقـولُ[4]
ما ضرَّكم ، وأضنَّكم بتحيَّةٍ   يحيى بهـا عند الـوداع قتيلُ
إن البخيـــلَ بلحظةٍ أو لفظـة   أو عطفـــةٍ أو وقفـــةٍ لبخيل

والقاضى عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبته ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به مماته ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألهم علم بالنوم الذى نزح عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصبره وإبائه عين ذات سواد جميل وفم يَرْتسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرَّهم لو نوَّلوه ما طلب وما أبخلهم بتحية ترد الحياة إلى قتيل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظة وداع أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكتون لها حبا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكاثر الغزل فى عصر الموحدين ويبرز فيه أو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدى وأبو حفص

(1) التلدد هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعبان .
(2) انظر التعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة .
(3) لواعج : آلام .
(4) أحم : أسود .

عمر بن عمر السلمى ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله[١] :

يا جيرتى ومَن استجرتُ بهم — مِن جَـوْر عزِّهمُ عـلى ذُلّى
عوَّضْتمـونى بالـوِداد قِلًى — وأبدلتمُ الإنصـافَ بالمَطْل[٢]
ما هكذا فعلُ الكرام بمن — منهم تعوَّد أجمل الفِعْل
علَّقت حبـلَ محبَّتى بكـمُ — بَحياتِكـم لا تقطعـوا حَبْلى
ما كان أنْدَى ظلَّ عيشتنا — إذ كان منتظما بكم شَمْلى
عودوا إلى عادات وَصْلكمُ — لا تحْرِمونى لذَّة الوصلِ
وإذا أبيتم غير جَـوْركـمُ — فالجَـوْرُ منكم غايـةُ العَدْلِ
إن شئتمُ قتلى فهـا أنـا ذا — لا تحذروا من طالب ذَحْلى[٣]

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبته وشعورها بالعزة على ذلّه وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإنصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عوَّدته أجمل الفعل ويذكر أنه علَّق محبته بها أو بهم – كما يقول – فلا تقطعوا حبلى ، وما كان أجمل عيشتنا حين كنا ننتظم معكم فى جماعة واحدة . ويضرع إليها – أو إليهم – أن لا يحرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإخصاب والود بالجدب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرَّ بنا أن الأستاذ هلال ناجى نشر له فى المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين فى عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عُنى فى أولاهما بوزنه على فَعْلن متفاعلن فعولن فعلن ، وفى ثانيتهما بوزنه الثانى فعلن فعلن مستفعلن مستفعلن ، وأنشد له الأستاذ عبد الله كنون فى عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءًا غزلية يقول فيها[٤] :

يا عاذلتـى إليك عنى — لا تقربُ ساحتى العـواذلْ
مهلا فدمى لـه حلالٌ — مـا أقبلُ فيـه قـولَ قائلْ
قد نمَّ به شَذَا الغَـوالى — إذ هبَّ ونمَّت الغلائل[٥]
والسِّحْرُ رسول مُقْلَتيْهِ — ما أقرب عهدَه ببابل
والـروضُ يُعير وَجْنَتيه — وَرْدًا كهواى غيرَ حائل
يَسْبيك برقَّة الحواشى — عشقـا ولطافـةِ الشمائل

(١) الوافى ١/٣٣٢ والنبوغ المغربى ٦٨/٣ .
(٢) قلى : بغضا .
(٣) ذحل : ثأر .
(٤) النبوغ المغربى ٦٩/٣
(٥) الغوالى جمع غالية : الطيب . الغلائل : الثياب .

وهو يقول لعاذلته ابتعدى عنى، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمى لصاحبتى حلال ولا أقبل فيه قول قائل. وإن روائح الغوالى أو الطيب لترافقها وتنم عنها ثيابها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كأنه مجلوب توا من بابل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأنى بالروض يعير وجنتيها وردا بديعا لا يذبل أبدا كحبها ، وإنها لتسبيك بلطفها ورقتها ولطف شمائلها ، مما يجعلك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمى الوزير المرينى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة[١] :

كانوا نعيمَ فؤادى والحيـــاةَ لـه	فالآن كلٌّ وجـــودٍ بعدهم عَدَمُ
بانوا فعـــاد نهـــارى كلُّه ظُلَمًا	وكان قُرْبُهـــمُ تُمْحَى بـــه الظُّلَمُ
والعـــينُ منِّىَ لا تَرْقـا مدامعُهـا	كأنهـــا سحبٌ تَهْمِى وتنسجـــمُ
تبكى عهـــودَ وصالٍ منهمُ سلفتْ	كأنمـــا هـــنَّ فى إنسانهـا حُلُمُ
لئن ضحكتُ سرورًا بالوصال لقد	بكيت حزنا عليهم والدمـــوعُ دَمُ
هم علَّمونى البُكا ما كنت أعرفـه	يا ليتهـــم علَّمـــونى كيف أبتسمُ

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرةً كان يأنس بوصلهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كأنه عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحى بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، وإنه ليبكيهم ولا تجف دموعه كأنها سحب تهمى مدرارا ، وعينه تبكى عهدا يبدو فى إنسانها وكأنما كان حلما ، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يبكيهم بدموع قانية كأنها دماء مسفوحة ، ويقول إنهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يبتسم إذا نزلت به المحن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدى ونلتقى فى كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية[٢] :

إن الرشـاقة واللطـافة والصَّبـــا	حةَ والحلاوة والمـــلاحةَ والحـوَرْ
صيغتْ لمن أهـــوى وألْبس سُندسًا	منها وديباجـــًا عليـــهِ قد ظهـــر
وإذا نظـــرتَ لوجهه ولعينـــه	قلت الجمال من الخدود قد انفجر
عينى وأذْنـــى فى النعيـــم بنظرةٍ	وبلفظـــةٍ منـــه وقلبـــى فى سَقَرْ
هـــل عطفـــةٌ أو زورة أو وقفـــةٌ	أو لفظـــة تقضى بإدراك الوطـــر

وهو يجمع لصاحبته فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحور العين الفاتنة ، وكأنما صيغ لها من كل ذلك سندسا وديباجا لبسته ، وإنك لتخال كأنما الجمال اجتمع بكل فِتنَه فى وجهها ، وإنه ليخال كأنما عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغى لها ، كأنما هما فى نعيم الفردوس ، بينما قلبه فى جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(١) النبوغ ٧٢/٣ والوافى ٣٣٢/١ .

(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

أوزورة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة فى وداعه الرائع[1] لزوجته :

ولم أنْسَها يقظانةَ الهمُّ فى الحَشا مبلبلةَ الأشجــان وَسْنانةَ الطَّـرْفِ
تقول وقد حَلَّ الرحيــلُ أهكذا تحمِّلنى ثِقْـــل الفــراق على ضعفى
أتترك أفراخـــًا كزُغْب القَطَـا ومــا رحمتَ بنيــك إذ سلوتَ عن الإلْف[2]
فقلتُ لها كُفِّى المــلامَ فأعرضتْ كخِشْفِ النَّقا تَسْتَعْرِضُ الدمعَ بالكفّ[3]
فودَّعتُهــا والقلبُ منطبــقٌ على أســاه ودمعى لا يمــلّ من الوَكْفِ[4]
عليكِ ســلامٌ لا زيـــارةَ بيننـــا مــع البعــد إلا أن أزور مــع الطَّيْف

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجانها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالقة بطرفها ، وتقول له وقد أزف الرحيل : أتتركنى أتحمَّل أثقال الفراق على ضعفى . أتترك أبناء صغارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظلتْ تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلَّم عليها ، وهو يقول فى نفسه لن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكاثر الغزل فى العصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة[5] :

مَنْ لى بها تَختال فى حَلْيها كروضةٍ تختــالُ فى زَهْرهــا
فبِشْرُها أرحبُ من بِشْرها ونَشْرُها أطيب من نشْرها[6]
وخدُّهــا أبهجُ من وَرْدهـــا ونُورُها ألطف من نَــوْرها[7]
وَقدُّهـــا أرْفَــعُ من غُصْنها ووجهها أبيضُ من فَجْرها
العيش والجنَّـــة فى وَصْلها والمــوت والنيران فى هجرهـا

وهو محب لصاحبته أشد الحب ، وتتراءى له فى حليها تختال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فبِشرها وتهلّل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدها يفوق وردها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفا وحسنا ، وقدها نخيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(١) النبوغ المغربى ٨٧/٣ .
(٢) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .
(٣) خشف النقا : ظبية الرمل .
(٤) الوكف : تقاطر الدمع .
(٥) النبوغ المغربى ٩٢/٣ .
(٦) نشرها : شذاها وعطرها .
(٧) النور بفتح النون : الزهر .

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الربيع الموحدى وعمر السلمى .

أبو الربيع[1] الموحدى

هو أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عنى أبوه بتربيته، فنشأ أديبا شاعرا ، ولا يُعْرَفُ تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب فى أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأدَّاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش فى رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخَمريات كما جعله يعيش لعواطفه الشخصية وخاصة فى الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتيل الحب مَصْرَعهُ ... وحَسْبه منه ما تحويه أضلعهُ
قالوا تعزَّ وقد بانوا فقلت لهم ... كيف العزاءُ وأدنى البينِ أوجعه
لا عذَّب الله قلبا بالفراق ولا ... سقاه من صابهِ ما بِتُّ أُجَرَّعُه
لا تعذلونى فما أُصغى لعذلكمُ ... صمَّتْ عن العذل أذْنى ليس تسمعه

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وماتحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعبثا يستطيع ذلك ويقول الناس له تعزَّ عن صاحبتك حين رحلتْ ، ويجيبهم كيف أتعزى ومواجع البين آخذة بتلابيبى، ويدعو الله أن لايعذب بالبين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المرّ والعذاب، ويقول لعذاله لاتعذلونى فلست أصغى إلى عذلكم إذ أصاب أذنى صمم فلاتسمعه. ويقول:

كيف التصبُّرُ والأشواقُ تزدادُ ... والدارُ تَنأى وما للوصل ميعادُ
وكلما قربتْ منى ديارُكمُ ... ينأى المزار كأنَّ القرب إبعاد
والقلب فى حُرَقٍ والجفنُ فى أرقٍ ... وللبلابل إصدارٌ وإيراد[2]
إنى وإن فاتنى عيدٌ بربْعكمُ ... حسبى بلقياكِ أعراسٌ وأعياد

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبته ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبتعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأن القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرق والبلابل أو الشجون تقلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

---

(١) انظر فى ترجمة ابى الربيع الموحدى وأشعاره الوافى ص ١٨٤ - ٢٢٧ ودراسة للدكتور عباس الجرارى ، وديوانه منشور .

(٢) البلابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواح ورجوع .

الشوقُ يزداد إذ تدنو بك الدارُ فهل على الشوق أعوانٌ وأنصارُ
ما باختيارى نأتْ بى الدارُ يا أملى وليس غير دُنُوِّى منك أختار
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وفى النفس من تذكاركم نارُ
ولا نظرتُ إلى شىءٍ فأعجبنى مذ فارقتْ وجهكِ المحبوبَ أبصارُ
الله يعلم أن القلب عندكمُ وإن تناءت به عن إلفه الدارُ
ما ضر طَيْفُكمُ لو زارنى بدلا منكم وطيف حبيب النفس زوَّارُ
الذنبُ للنوم لا للطَّيْف يا سَكنى وكيف يطرقنى والنوم فرَّارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكأنما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه، إذ يختار دائما دنوها وقربها، ويقول إنه لم يسر ميلا ولامرحلة إلاوتشتعل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشىء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكأنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لايزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين، ويعتذر عنه، فالذنب للنوم لاللطيف، لأنه لاينام إذ يبيت دائمًا مسهَّدا لايفكر فى شىء سواها . ويقول:

يا مزمع البَيْن فى تَرْحالك الأجَلُ وأنت لاهٍ بحبُّ البَيْن مُشْتغلُ
إنى لأعْظم أن تمضى وتتركنى والدمع يَهْمى ونارُ الوجد تشتعل
فلا تروعُ فؤادا أنت ساكنُه بالبين منك فإنى والهٌ خَبِلُ
لم يدر قومكِ ما ذا فى ترحُّلهم من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
سَرَوْا — بزعمهمُ — ليلا وما علموا بأنهم فى فؤادى حيثما نزلوا

وهو يخاطب صاحبته المصممة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحبيبة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتتركه لعذابه ، والدمع يهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروِّعى فؤادى بالبين فإننى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركبٍ أدْلجوا بِسُحَيْرةٍ قفوا ساعةً حتى أزورَ رِكابَها
وأملأ عينى من محاسنِ وجهها وأشكو إليها أن أطالتْ عِتابها
فإنْ هى جادتْ بالوصال وأنعمتْ وإلا فحسبى أن رأيتُ قِبابها
وقفتُ بها أشكو وأسكبُ عَبْرَةً على غير بَيْنٍ ما عرفتُ انسكابَها
فأومتْ برَخْصٍ من بنانٍ مخضَّبٍ وحطَّت على البدر المنير نِقابها
وقالتْ أيبكى البينَ من قد أراده ويشكو النَّوَى من قد أثار غُرابها

وهو يضرع إلى ركب صاحبته الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركابها ويملأ عينه من محاسن وجهها ، ويشكو إليها طول عتابها ، فإن هى نعمت بالوصال فبها وإلا فحسبه أن رأى قبابها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير بين ، وكأنما عطفت عليه فأومت ببنان غضٍّ مخضب وقد وضعت نقابها على وجهها المنير كالبدر فى اكتماله ، وعاتبته قائلة أتبكى من البين وأنت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وأنت الذى أثرت غرابه . وواضح أنه يتميز بموسيقى عذبة وقلما يَفْنَى فى شعره أو فى حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر[1] السلمى

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمى ، ولد بأغمات سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصَحِبه معه وهو قاض بفاس فأكبَّ بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدَّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاء فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسانه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيئتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذه عليه بعض المتزمتين ولم يُصْغِ لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينته عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعيذُكِ يا سُلَيْمى من سُلَيْمٍ ... قتلتِ فتاهمُ وهْو الزعيمُ
قتيلُ الحبِّ لا يُودَى وعانيـ ... ـه لا يُفْدَى ولا فيه الخصومُ[2]
ومالى طالبٌ بِتِرات قتلى ... إذا قتَل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوكِ عن ضلوعٍ ... بها يا ريمُ حبُّك لا يَريم[3]
ودادُك صحَّ فى قلبٍ سقيمٍ ... كطَرْفك صحَّ ناظرُه السقيمُ
إذَا أعرضْتِ تسودُّ الأمانى ... وإن أقبلتِ تبيضُّ الهموم
ومـا حُبِّى لهـا إلا عذابٌ ... عليـهِ مِن نضارتهـا نعيـم

وقد اختار لصاحبته اسم سليمى ليجانس بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لها إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدَّى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وحبها مستقر بين ضلوعه لا يبرحها .

---

(١) نظر فى ترجمة السلمى وأشعاره أزهار الرياض ٢/٣٦١ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى ٨/١/٢٢٢ والغصون اليانعة لابن سعيد والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ١/١٦٨ وما بعدها والنبوغ المغربى ٣/٦٢ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

وإنما سماها فى البيت الرابع ريمًا ليجانس بين اسمها والفعل فى آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعنى فى البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأمانى وابيضاض الهموم ، ويقول إن عذابه فى حبها عليه أثارة من نضارتها . وفى رأيى أن السلمى لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانا من التكلف . ويقول :

أغارَ على الصبِّ مَنْ أنَّبَهْ هو الحبُّ مَنْ يُطفِهِ ألهبَهْ
نأى القلبُ عنى وشوقى معى فِللّه أمــرىَ مــا أعجبَه
يحــنُّ فــؤادى إلى قــاتلى كذاك الهــوى عند من جرَّبَه
يجــود لمُسْخطه بالرضا ويطلبُ راحــةَ مــن أتعبَــهْ
إذا شفَّ قلبى غـرامُ الهــوى دعــا بالنعيــم لمن عذَّبَــهْ

وهو يقول إن شخصا نزل بالمحب أنَّبه ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يُشْعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبته ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فؤاده يحنُّ دائما إلى رؤية صاحبته قاتلته شأن المحبِّين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أضْنَى قلبه وشفَّه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهى رقة واضحة فى الغزل . ومن قوله فى جمال الأعرابيات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبى وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَها القَفْرِ لا دُمْيةُ المرمــرِ وفى العُرْب لا فى بنى الأصْفَرِ[1]
بنفسى يَعافيرُ تلك الخيــامِ ومَسْرَحُها فى النَّقــا الأعْفَـرِ[2]
ملاعبُ يَصْبُو إليها الحكيــم ويُسْلَب فيهــا فــؤادُ الجَـرِى
وفيها الظبــاء بنـاتُ الأسـودِ غَيــارَى متى بَغَمَتْ تَـزْأرُ[3]
فخِيسُ الهِزَبْرِ كِنـاسُ الغـزال بــهِ الشِّبْلُ نـاشٍ مع الجُؤْذرِ[4]
يُخالِسُهــا نظــرا تحتَــهُ غـرامٌ بــه الحىُّ لـم يشْعُرِ
وباللحظ يُقْدَحُ زَنْـدُ الهــوى فطَـرْفٌ غَـرٍ وفــؤادٌ بَـرِى

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها فى الرمل المغبر . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجرىء الشجاع ، فيها الظباء كريمات الرجال الأسود اللائى إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنما بيت هذا

---

(١) بنو الأصفر : الروم وأمثالهم من الإسبان .
(٢) اليعافير جمع يعفور : الظبى وولد البقرة الوحشية . النقا : الرمل . الأعفر : المشوب بالعفر والتراب .
(٣) بغمت : صاحت .
(٤) خيس الهزبر : أجمة الأسد . الكناس : بيت الغزال . الجوذر : ولد البقرة الوحشية .

الغزال أجمة أسود ، به الشبل ناشىء مع بنت عمه التى تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكتنٍّ لايشعر به الحى ، وباللحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يغرى به وفؤاد لايزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متغزلا :

هذا فـؤادى أقْصَدَتْـه الأسهمُ   من ذا يرى تلك الجفـونَ ويَسْلَمُ[1]
يا غُرَّةً حكمَ الجمالُ لها على   شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم
يُضْحى الخلىّ إذا رآها عاشقا   والعقـل توقظـه اللحـاظُ النُّـوَّمُ
وكأن قامتهـا ونَغْمَـةَ لفظِهـا   غصـنٌ عليـه بُلْبُـلٌ يَتَرنَّـمُ

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عينى صاحبته ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلىّ الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قامتها الممشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل – ويقول :

همُ نظروا لواحظَها فهاموا   وتشربُ عَقْلَ شاربها المُدامُ
يخاف الناسُ مُقْلَتها سواها   أيَذْعَرُ قلبَ حاملـهِ الحُسام
سما طَرْفى إليها وهو بـاكٍ   وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمام
وأذكر قَدَّها فأنوحُ وَجْدا   على الأغصان تَنْدبُ الحمام
وأعقب بَيْنُها فى الصَّدْر غمًّا   إذا غَربتْ ذُكاءُ أتى الظـلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكروا وهاموا كشارب للخمر لم تُبْق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينيها يخافون من النظر إليها وطبيعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدها الممشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها أنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقبيل وفاته سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

٢

شعراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيوانها وصحرائها وزروعها حتى إذا تحضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

---

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطير . وكما وصفوا السهول والوديان وصفوا الجبال والكثبان والأشجار والغابات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر المرابطين ، من مثل قول القاضى ابن زنباع فى وصف الربيع[1] :

أبدتْ لنا الأيامُ زهرةَ طِيبِها ... وتَسَرْبلتْ بنضيرِهــــا وقَشِيبِها
واهتزَّ عِطْفُ الأرض بعد خُشوعها ... وبدتْ بها النعماءُ بعد شُحوبها
وتطلَّعت فى عنفــوان شبابهـــا ... من بعد ما بلغتْ عِتِيًّ مَشيبِها
وقفتْ عليها السُّحْبُ وقفة راحمٍ ... فبكتْ لهــا بعيــونها وقلوبها
فعجبتُ للأزهار كيف تضاحكتْ ... ببكائهـــا وتباشــرتْ بقُطوبهـــا
وتسربلتْ حُللا تجــرُّ ذُيولهـــا ... من لَدْمها فيهـــا وشقَّ جيوبهـــا[2]

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، ولبست أروع حللها وأجدَّها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جَدْبها ، وتراءت النعماء فتية بعد شحوبها ، وتطلعت لمفاتنها فى عنفوان شبابها بعد أن كانت شابت وبلغت من شيخوخة الجدب عِتِيًّا ، فقد وقفت عليها السحب راحمة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارًّا ، ويقول إنه عجب للأزهار تضحك وتبتهج لبكائها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سابغة بما حدث لها من ضرب الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضى عياض مغلولا من سبتة إلى مراكش ومر بواد يقال له « داى » سمع قمرية تسجع ، فقال[3] :

أقُمْرِيَّةَ الأدْواح بالله طرِّبِى ... أخـــا شجنٍ بالنَّوْحِ أو بغناءِ[4]
فقد أرَّقَتْنِى من هَديلكِ رَنَّةٌ ... تهيِّج من بَرْحى ومن بُرَحائى[5]
لعلك مثلى يـا حمـامُ فإننى ... غـريبٌ بداىٍ قد بُليتُ بــداءِ
فكم من فلاةٍ بين داىٍ وسَبْتةٍ ... وخَرْقٍ بعيد الخـافقين قَوَاءِ[6]
يذكرنى سَحُّ المياه بأرضها ... دموعاً أريقَتْ يـوم بنتُ ورائى
ويعجبنى فى سهلها وحُزونها ... خمائلُ أشجــارٍ تـرفُّ رُوَاءِ[7]
لعـل الذى كان التفرُّقُ حكمه ... سيجمع منـا الشملَ بعـد تَنـاءِ

وهو يقول لقمرية الأشجار طَرِّبى أخاهمٌّ وشجن بالنوح أو بالغناء فقد أسهرتنى من غنائك رنَّةٌ هيجت من شدائدى ، لعلك مثلى غريبة تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاة بين

(١) قلائد العقيان ص ٢٥٩ .
(٢) لدم : ضرب .
(٣) المنتقى لأحمد بن القاضى ٥٤٧/١ .
(٤) الأدراح جمع دوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) برحى وبرحائى : شدائدى .
(٦) خرق : مفازة . قواء : مقفر .
(٧) ترف : ناضرة . رواء : منظرها جميل .

داى وسبتة وكم من مفازة متباعدة الجانبين مقفرة ، وإن سحَّ المياه بأرضها ليذكرنى دموع زوجتى وأولادى ورائى يوم رحلت ، وإنى لتعجبنى خمائل داى الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذى حكم بالتفرق بينى وبين أهلى يجمع الشمل بعد فراق وبُعدٍ بعيد . ويقول أبو الربيع الموحدى فى وصف الربيع[1] :

حَيِّ الربيعَ بمـا وشَّتْ أزاهرُهُ ... ونظَّمتْ من أكاليلٍ على الشَّجَرِ
ودبَّجتْ فوق مَتْن الروض من حُلَلٍ ... ونمَّقتْه بألـــوانٍ مــن الزَّهَـــرِ
من نرجسٍ ساحر الألحاظ ذى غُنجٍ ... ومن أقـــاحٍ نقيِّ الثَّغرْ ذى أشَرِ[2]
بما تضوَّع روضُ الزهر غِبَّ حَيًا ... تأكَّد الشكرُ للنُّعْمَى على البشرِ
لا يحسب الناسُ أن الروضَ فاح لهم ... طوعا ولكنَّــه يُثنى على المطـــر

وهو يطلب من كل قارئ له أن يحيى الربيع بما وشت ونقشت أزاهره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نمَّقتها بألوان من الزهر : من نرجس مدلٍّ ساحر الألحاظ ومن أقاحٍ ذى حزوز نقى الثغر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمه مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكرًا للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتى المشهور بالغرناطى المتوفى سنة ٧٦٠ فى ناعورة[3] (ساقية) :

وذاتِ سيرٍ إذا حُثَّتْ ركائبُها ... حنَّت فراقتْك فى مَرْأًى ومُسْتَمعِ
كأنهــا فلكٌ دارتْ كواكبُــه ... على الريـــاض بنَـــوْءٍ غير مُنْقشِعِ
تماثل السُّحْبَ صَوْبا بل تخالفها ... إذا استهــلَّ حَيَا المتَّـــانة الهَمِعِ[4]
هذى من المـاء تعلو كلَّ منخفضٍ ... وتلك تنــزل منــــه كلَّ مرتفــع

يقول إنها إذا أسرعت دواليبها سمعتَ صوتا فيه حنان فراقتك فى منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبه أو دواليبه على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا انهمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال والتلال . ويقول فى وصف سفينة تمخر به البحر :

وغريبةِ الإنشــاء سِرْنا فوقهــا ... والبحرُ يسكـنُ تــارة ويموجُ
عُجْنا نؤمُّ بهـا معاهـدَ طالما ... كرمتْ فعاجَ الأنسُ حيث تعوج
وامتدَّ من شمس الأصيل أمامنا ... نــورٌ لـــــه مَرْأًى هنـاك بهيج

---

(١) الوافى ١/٢٠٥ .
(٢) أشر : حزوز . والشعراء يشبهون الثغور بالأقاح .
(٣) انظر فى هذه الأبيات وتاليتها الوافى ٢/٤٣٥ .
(٤) المتانة الهمع : السحابة الماطلة .

فكأن مـاء البحـــر ذائبُ فضَّةٍ ... قد سال فيه من النُّضـــار خليجُ

وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يموج ، وعرجنا نؤمُّ أماكنِ طيبة وعرَّج معها الأنس ، وامتد أمامنا من شمسِ الأصيل نور بهيج ، وكأن ماء البحر فضة ذائبة امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النضار أوالذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة فى وصف السَّحَر وانبثاق أضواء الفجر[1] :

تراءى سُحَيْرٌ والنسيمُ عليلُ ... وللنَّجْم طَرْفٌ بالصبـــاح كليلُ
وللفجر نهرٌ خاضَـه الليلُ فاعتلتْ ... شَوَى أدهمِ الظلماء منه حُجولُ[2]
فمزَّق ساجى الليل منه شرارةٌ ... وخَرَّق سِتْرَ الغيـم منـه نُصـــول
تبسَّم ثغرُ الروض عنه ابتسامةً ... وفاضتْ عيونٌ للغمـــام هَمول[3]
ومالتْ غصونُ البان نَشْوىَ كأنها ... يُدار عليهـــا من صَبـــاه شَمولُ[4]
وغنَّت على تلك الغصون حمائمٌ ... لهـن حفيفٌ دونهـــا وهَديـــل[5]
إذا سجعتْ فى لحنهـــا ثم قَرْقَرتْ ... يَطيح خفيفٌ دونهـــا وثقيـــل[6]

وهو يقول إن السحر تراءى ومعه نسيمٌ رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنما الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء بياض فى قوائمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرَّق ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام بسيول من المطر ، وانتشت غصون البان وكأنما يدار عليها كئوس من ريح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يغنى على الغصون ، ويُسْمَعُ حفيفه وهو يسقط على الأغصان وترانيمه ، ويقول إن الحمائم إذا ترنمت وردَّدت صوتها فاق لجماله الخفيف والثقيل مما يلحِّنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشَّفْشَاوْى المتوفى أيام المنصور السعدى سنة ١٠٠١ للهجرة فى روض[7] :

أما ترى الطيرَ بالأدْواح ساجعةً ... أدْمَتْ أناملَهـــا أوتـــارُ عِيـدانِ
تحكى مزاميرَ مَنْ لانَ الحديدُ له ... تشدو بالاجْـزال فى رَصْدٍ وزيدان[8]
تنفى عنِ الصبِّ ما بالقلب من كُرَبٍ ... بل تترك الصبَّ فى تِيهِ الهوى عانى
والبـــانُ يَرْقُص من تَرْجيعها طربًا ... والزهـــر يفترّ عن أثغـــار مَرْجان
والمـــاء مُنْسكبٌ والظـلُّ منسحبٌ ... وللنسيم هبـــوبٌ يُنْعش الفـــانى

وهو يقول إن الطير يترنم فى الأشجار وقد أدمت أناملَها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

---

(١) الوافى ٤٤٦/٢ .
(٢) شوى : أطراف ويريد القوائم . حجول : بياض .
(٣) همول : دافقة .
(٤) شمول : خمر .
(٥) هديل : صوت الحمام .
(٦) قرقرت : رددت . يطيح : يسقط .
(٧) النبوغ المغربى ١٣٧/٣ .
(٨) الرصد والزيدان : من ألحان الغناء .

أوتار العيدان تحكى بغنائها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزيدان ، وتنحَّى عن المحب ما يقلبه من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لحبه يردد صبابته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهر يضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة[1] :

إن بين الغمام والزَّهَرِ الغَـ ... ـضِّ لَرِحْما قديمةً وإخاءَ
بان إلفٌ عن ألفه فتوارى ... فى الثَّرى ذا وذاك حلَّ السماءَ
فإذا ما الغمامُ زارتْ جَنابًا ... آذنتْ فيه بالحبيب اللقـاءَ
ذكرتْ عهده القديمَ فحنَّتْ ... عند لقياه فاستهلَّتْ بُكاءَ
فترى الزَّهْرَ بارزا من خبايا ... هُ يحيِّى الوفـودَ والأصدقاءَ
راقصـًا والصَّبا تهنيِّه والوُرْ ... قُ غوانى القيـان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر توارى فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيبكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحيى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص وريح الصبا تهنّيه ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا[2] :

مُـدَّ للسُّلْوان أشْراكَ النَّظَرْ ... فى ابتهاج الروض من وَجْد المطرْ
وتلقَّ الأنسَ عن آسِ الرُّبـى ... وارْوِ طىَّ النَّوْر عن نَشْر السَّحَر
وارْتَشِفْ ثَغْـرَ أقـاحٍ باسمـا ... واصْطبح بالطلِّ من كأس الزَّهَرْ
والْثِمْ وجـهَ المنـى مستبشـرا ... حيث رامَ الغصنُ تقبيلَ النَّهَرْ
وجلا الـورد خدودًا أُشْرِبتْ ... خمرةَ العِقْيانِ من فرْط الخفَر
وحَبا الخِيرِىُّ أنفـاسَ الصَّبا ... نفحاتٍ أنشرتْ مَيْتَ الفِكَرْ
وانبرى النِّسريـنُ يُهْـدى ذهبـا ... فى صحاف مُتْرَعَاتٍ من درر
نظَمتْ فى جِيـده أنـداؤهُ ... عقــدَ دُرٍّ كلمـا مـاسَ انْتَثَرْ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدَّ فيه حِبالات النظر لعلك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقَّ الأنس فيه عن آس الربى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأقاح الباسم .

(١) النبوغ المغربى ١٤١/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ١٣٩/٣ .

وليكن صبوحك بالطل تنعم برؤيته فى كئوس الزهر ، ولتلثم وتقبِّلْ وجه الأمانى مستبشرا ، حيث كل شىء من حولك ينعم بالقُبَل كما تقبِّل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيرىّ أنفاس الصبا بنفحات تُحيى ميت الفِكَرْ ، وأخذ زهر النسرين يهدى ذهبا فى صحاف مليئة بالدرر ، ونظمت الأنداء فى جيد الروض عقد لآلىء كلما تحرك انتثر . وحرىٌ بنا أن نتحدث عن وصاف كبير فى العهد السعدى .

عبد(1) العزيز الفشتالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى ، آباؤه من قبيلة فشتالة فى الشمال الغربى لفاس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م ، وتتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ الشعر والنثر حتى نضجت ملكته الأدبية ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ، وأعجب به المنصور الذهبى ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش يقدِّم له مدائحه ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرى فى كتابه : روضة الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى ، نشأة الدولة المنصورية (دولة المنصور الذهبى) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافى من قُنَنِها ومستعبد أحرارها ، المقدم فى الفضائل والمحاسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه فى كتابه درَّة الحجال : « فقيه أديب ، ناثر ناظم ، علىّ الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى الشِّيَم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين واليراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعرا كاتبا أو أديبا كان عالما مؤرخا لدولة المنصور وترجم لمعاصريه فى كتابه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى نرجع إليها فى العصر . وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمراثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ، وبجانب ذلك له أشعار فى وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقببه وما ازدان به من التماثيل والنقوش ، مما يدلّ – بوضوح – على مدى الحضارة المترفة التى اتصف بها عصر المنصور الذهبى . وفى الإشادة بقصر البديع يقول عنه فى كتابه : « المناهل » : إنه من الآثار التى لم يخلق مثلها فى البلاد .. وإنه المثل المضروب فى الأرض عظمة وضخامة ، وجلالة وفخامة ، وتفننا وتأنقا ، وفى وصف مبانيه يقول :

(1) انظر فى ترجمة الفشتالى وأشعاره روضة الآس ص ١١٢ ودرة الحجال ١٣٠/٢ والمنتقى (انظر الفهرس) ونشر المثانى ٢٤١/١ وخلاصة الأثر للمحبى ٤٢٥/٢ والنبوغ المغربى ٤١٢/١ ، ١٢٨/٣ وما بعدها والوافى ٦٨١/٣ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق السيدة نجاة المرينى .

سَلبتْ تَماثلُها الحِجا لما اغتدتْ تزهــو بحسن طرازهــا تذهيبا[1]
ولقد تشامخَ فى العلوّ سِماكُها فجرى على الفَلَكِ المنــير جَنيبا[2]
وسَما إلى الشُّهْب الزواهرِ فاغتدى الـ إكليلُ منهــا تاجَها المَعْصُــوبا[3]
أَضْنَى الغزالةَ حُسْنُه حسدًا لــذا أبْدَى عليها للأصيــل شحــوبا[4]
وانقضَّت الزُّهْـــرُ المنــيرةُ إذ رأتْ زَهْرَ الريــاض بــه ينــورُ عجيبا[5]

وهو يقول إن تماثلها (تماثيلها والصور المنقوشة فى القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طرُزها المذهبة ، وقد تمادى فى الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل فى ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المعصوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوبها واضحا فى وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضَّت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضيىء ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بَهْو فى القصر بمرمر أسود فى مرمر أبيض :

لِلَّهِ بَهْوٌ عزَّ منـــه نظيرُ لمـا زَهَا كالــروض وهْو نضيرُ
رُصِفَتْ نقوشُ بناه رَصْفَ قلائدٍ قد نضَّدتها فى النُّحور الحورُ[6]
فكأنهــا والتِّبْرُ سال خِلالَهـا وَشْىٌ وفضَّةُ تُرْبِهــا كافــور[7]
شَأْوُ القصور قصورُها عن وصفِه سيَّـــان فيـــه خَوَرْنَقٌ وسَديرُ
فإذا أجلْتَ اللحظ فى جَنَباته يرتدُّ وهْـــو بحسنه محسورُ[8]
صُفَّتْ بصَفْتها تمـاثِلُ فضَّةٍ ملكَ النفوسَ بحسنها تصويرُ[9]
مــا بين آسادٍ يَهيجُ زئيرُهــــا وأســاودٍ تُسْلِى لهــنَّ صَفيرُ

وهو يقول ما أروعه بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفِّفت نقوش بنائه تصفيف قلائد سوَّتها على النحور فاتنة أو فاتنات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمو على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة فى الجاهلية ، وحين تجيل البصر فى جوانبه يرتد حسيرا كليلا لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بضفة هذه النقوش صور فضية تخلب الألباب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزأر وجماعات

---

(١) تماثلها : تماثيلها المنقوشة فى القصر . الحجا : العقل .
(٢) جنيبا : محاذيا له .
(٣) الشهب : النجوم . المعصوب : المعقود .
(٤) الغزالة : الشمس .
(٥) ينور : يضيىء .
(٦) نضدتها : نسقتها .
(٧) التبر : الذهب .
(٨) محسور : كليل ضعيف .
(٩) تماثل : تماثيل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع فى وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرَّ البدرُ دونىَ وانحطَّا ... وأصبح قُرْص الشمس فى أُذنى قُرْطا
وصُغْتُ من الإكليل تاجـًا لمَفْرِقى ... ونِيطت بىَ الجوزاء فى عنقى سِمْطا[1]
ولاحت بأطـواقى الثريَّا كأنها ... نثيرُ جُمـانٍ قد تتبَّعتـه لَقْطـا
وعدَّيتُ عن زُهْر النجـوم لأننى ... جعلتُ على كيـوانَ رَحْلِىَ منحطًّا[2]
وأجريتُ من فيض السماحـة والنَّدى ... خَليجا على نهـر المجـرَّة قد غطَّى

والقبة تقول إننى سموت وتعاليت فى السماء ، فسقط البدر دونى وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لمفرق رأسى ، وتعلقت نجوم الجوزاء فى جيدى عقدا ثمينا ، ولاحت فى الأعالى الثريا ونجومها وكأنها فتات فضة تعقَّبتُه لقطا ، وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه رَحْلى ، وأجريت من السماحة والندى خليجا غطى على نهر المجرة فى السماء وفاقه . ويستمر فى وصف النهر الذى تشرف عليه القبة :

تَنَضْنَضَ مـا بين الغُـروسِ كأنـه ... وقد رقرقـتْ حصبـاؤه حيَّـةٌ رَقْطا[3]
حواليـه من دَوْحِ الريـاض خَرائدٌ ... وغِيدٌ تجـرُّ من خمائلهـا مِرْطـا[4]
إذا أرسلتْ لُدْنَ الفروع وفتَّحت ... جَنَى الزهـر لاح فى ذَوائبها وَخْطا[5]
يرنِّحهـا مـرُّ النسيـم إذا سَرَى ... كما مـال نشـوانٌ تشرَّب إسْفِنْطا[6]
يشقُّ رياضًا جادَها الجـودُ والنَّدَى ... سـواءٌ لديهـا الغيـثُ أسكبَ أم أبْطا
وسـالتْ بِسَلْسال اللُّجَيْن حِياضُـه ... بحارا غدا عرضُ البسيط لهـا شَطًّا[7]
تطلَّعُ منهـا وَسْط وُسْطـاه دميـةٌ ... هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غَمْطا[8]
حكتْ وحبـابُ المـاء فى جَنَباتهـا ... سَنا البدر حلَّ من نجـوم السما وَسْطا

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الغروس كأنه وقد تبدت حصباؤه حَيَّة رقطاء ، وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحسناوات اللائى يتأنقن فى ثيابهن ، ويخيل إليك إذا تفتح الزهر فى أعالى فروعها اللدنة كأنه وخط شيب يجتمع فيه السواد والبياض ، ويميلها النسيم مترنحة إذا مر بها كما مال مخمور شرب خمرة الإسفنط المعتَّقه ، وإنه ليشق رياضا يهطل

(١) نيطت : علقت . سمطا : عقدا .
(٢) كيوان : كوكب زحل .
(٣) تنضنض: سال. رقرقت: لمعت. رقطاء: بلونها نقط.
(٤) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .
(٥) ذوائبها : نواصيها . وخطا : شيبا .
(٦) الإسفنط : خمر معتقة .
(٧) اللجين : الفضة. البسيط: المنبسط من الأرض .
(٨) الغمط : الانتقاص .

عليها جود المنصور الذهبي وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقي في انسكابه أو أبطأ ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا (انتقاصًا) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتناثر حولها من حباب الماء كالبدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشدا :

إذا غازلتْها الشمسُ ألقى شعاعُها ... على جسمها الفضىِّ نهــرا بها لُطَّا[1]
توسَّمتُ فيها من صفــاء أديمها ... نقوشــا كـأن المسـك يَنقُطها نَقْطا
إذا اتسقتْ بيضُ القِباب قلادةً ... فإنى لهـا فى الحسن دُرَّتُها الوُسْطَى
تكنَّفنى بيــض الــدُّمَى فكأنهــا ... عَذارَى نَضَتْ عنها القلائدَ والرَّيْطا[2]
قدودٌ ولكن زادهــا الحسنَ عُرْيُها ... وأجمـلَ فى تَنْعيمها النحتَ والخَرْطا
نَمَتْ صُعُدًا تيجانُهــا فتكسَّرتْ ... قواريـرُ أفـلاكِ السمـاء بهـا ضَغْطا
فيــالكِ شَــأْوًا بالسعـــادة آهــلاً ... بأكنافه رَحْلُ العـلا والهـدى حُطَّا[3]

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلتَ كأن نهرا من الضياء والنور التصق بها مقابلا للنهر الذى يجرى بجوارها ، وخُيِّل إلىَّ من صفاء بياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء فى أعالى القصور العظيمة قلادة كانت دُرَّتها الوسطى وقبتها الفريدة التى لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بى عارية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسنا ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعالت تيجانها صاعدة فى السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قُبَّة شامخة آهلةً بالسعادة وقد هبط فى أكنافها وجوانبها رَحْل العلا والهدى ، ويمضى منشدا :

وكعبةَ مجدٍ شادها العزُّ فانبرتْ ... تطـوف بمغناها أمـانى الوَرى شَوْطا
ومسرحِ غزلان الصَّريم كِناسُها ... حنايا قِبـابٍ لا الكثيبَ ولا السُّقْطا[4]
فَلُكْنَ به ما طــاب لا الأثلَ والخَمْطا ... ووُسِّدْن فيه الوَشْىَ لا السِّدْرَ والأَرْطى
ثَـراه من المسك الفتيت مدبَّـرٌ ... إذا ما زجتْه السحبُ عاد بها خِلْطا
وإن باكرتْه نسمةٌ سحرًا سَرَى ... إلى كل أنفٍ عَرْفُ عَنْبره قِسْطا
أقــرَّتْ لــه الزهـــراءُ والخُلْد واثنتْ ... أواويـنُ كسرى الفـــرسِ تغبطه غَبْطا

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعها العز فى عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

---

(١) لُطَّ بها : التصق .

(٢) الريط : ملاءة .

(٣) الشأو : الهمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .

(٤) الصريم : القطيع . كناسها : بيتها . السقط : منقطع الرمل .

شوطا وأشواطا رجاء أن تتحقق على يد المنصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للغزلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وإنها لتلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادى من شجر الأثل والخمط ، وإنها لتتوسَّد الوشى المنمق لا شجر البوادى من السدر والأرطى ، وأما الثرى فإنه من فتات المسك وإن المطر ليختلط به حين يسقط فيصبح خِلْطا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتعا ، ويقول إن قصر الخلد ببغداد وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أواوين كسرى لتغبطه . ولعل فى كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثـاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده – منذ الجاهلية – يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأبين لذكر فضائل الميت تصويرا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أبى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول[1] :

أتانى نعىٌّ ضـــاقَ صدرى بحمله ... وصدرى – كما قد تعلمان – رحيبُ
فمــرَّ بقلبٍ لـــم تُدَمَّل قُروحــــهُ ... كما مــرَّ بالجمــر الدَّفين هبوبُ
فحتى متى تَبْرِى الرزايا سهامَها ... وتقصــدنى عمدا بهــــا فتُصيبُ
وحتى متى ألقى رزايـــا مُمضَّةً ... يكـــاد لإحداهــا الحديدُ يذوب
ولكنْ قضاءُ الله حَتْمٌ فليس لى ... ســواه على حمــل الخطوب حسيبُ
يقولـــون لى صَبْرًا ونـــارُ تلهفى ... لهـــا بين أحنــاء الضلوع وَجيبُ

وهو يقول لصاحبيه إن نعىّ أخيه أتاه فضاق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزانه وكأنه ريح عاصفة ، وأصاب قروحه التى لم تبرأ ، فعادت تألمه ، ويقول إلى متى تقصدنى الرزايا بسهامها فتصيبنى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذابته غير أنه قضاء الله المحتم وينبغى للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيبه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أخى تضطرم وتلذع فى أحناء ضلوعى . ويعزى ميمون الخطابى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجدّ عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله[2] :

---

(١) الوافى ١٩١/١ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٧٣/٣ .

أَرَجَّةُ الصَّعْقِ يوم النَّفخ فى الصُّورِ أم دكَّةُ الطُّور يوم الصَّعْق فى الطُّورِ
أم هدَّةُ الأرض إظهارًا لما زجرتْ بــه الخليقةَ من إيقــاعِ محذورِ
أم الكواكبُ فى آفاقها انتثرتْ وباتت الشمسُ فى طيٍّ وتكْويرِ
ما للنهار تعرَّى من ثياب سَنًا وشابهَ الليلَ فى أثواب دَيْجور
أصِخْ لتسمــع مــن أنبائهـــا نبـأً يَطْــوِى من الأُنس فيها كلَّ منشورِ
وافَى مع العيد لاعادتْ مَضاضتُه فشاب سَلْسالَه الأصفــى بتكديــر[1]
نــوَّارةٌ عندما راقتْ بِدَوْحتها أهوتْ إلى التُّرْب من بين النواوير
جـارَ الذبــولُ عليهــا عند ما ملأتْ معاطسَ الدَّهْـــر من طِيبٍ وتَعْطير

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجَّة الصعق يوم ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات والأرض ويهبّون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنما الأرض هُدَّت وتناثرت الكواكب وكُوِّرت الشمس ، كما جاء فى الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهى مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرَّى من ثياب ضيائه وغطاه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبأ طوى كل أنس وكل سرور ، نبأ وافى فى أواخر رمضان مع العيد ، فكدَّر كل صاف فيه ، وما النبأ ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى الترب من بين أخواتها من الزهرات والنواوير ، وجارَ الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فانٍ ، فينبغى أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شىء يفنى بتدبير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين ممحوٍّ ومبتور ، فلا تخدعك الليالى ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له فى خاتمة قصيدته : سلِّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد المتوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه[2] :

شبابٌ تَوَى شابتْ عليه المفارقُ وغُصْنٌ ذَوَى تاقتْ إليه الحدائقُ[3]
على حين راق الناظرين بُسوقُه رمتْــه سهامٌ للعيــون رواشق[4]
محمدُ إنَّ الصبر فيــك مُصــارمٌ محمد إن الوجــد فيك مصادق[5]

---

(١) مضاضته : ألمه .
(٢) الوافى ٣٩١/٢ .
(٣) توى : هلك .
(٤) بسوقه : ارتفاع شأنه
(٥) مصارم : مقاطع .

وتالله ما لى بعد عيشك لذةٌ ولا راقنى مَرْأًى لعينىَ رائقُ
فإن ألتفتْ فالشخص للعين ماثلٌ وإن أستمع فالصوتُ للأذْن طارق
وإن تَقْرع الأبوابَ راحةُ قارعٍ يَطِرْ عندها قلبٌ لذكرك خافقُ
فيا واحدا! قد كان للعين نورَها وكلُّ ضياءٍ بَعْد بُعْدك غاسق[1]

وهو يبكى ابنه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرءوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تتوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبابه وذكاؤه ، وكأنما رمته سهام للعيون سريعة النَّيل ممن ترميه ويقول له إننى لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقنى ، ولم أعد أجد فى عيش بعدك لذة ولا عاد يروقنى شىء يعجب العين . وإنك لتملأ كل ما حولى ، فإن ألتفت أشعر كأن شخصك ماثل أمامى ، وإن أستمع أشعر كأننى أستمع صوتك ، وإن يقرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذى يقرعها فيخفق قلبى ويطير ، كأنه يريد أن يلقاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شىء بعده مظلما لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتى المتوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤبن العالم الجليل مواطنه ابن هانىء وقد استشهد فى حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م[2] :

قد كان ما قال البريد فاصبرْ فحزنك لا يفيد
أوْدَى ابنُ هانىءِ الرِّضا فاعتادنى للثُّكل عِيد
بَحْرُ العلوم وصدرُها وعميدُها إذ لا عميد
قد كان زَيْنًا للوجو دِ ففيه قد جُمِعَ الوجود
العلـــم والتحقيق والـ ـتوثيق والحسب التَّليد
أوْدَى شهيدا باذلاً مجهودَه نعم الشهيد
فلئن بَليتَ فإنَّ ذِكْـ ـرَك فى الدُّنا غَضٌّ جديد
وتعهَّدتْك من المهيـ ـمن رحمةٌ أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهاد ابن هانىء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هانىء الذى كان تمثالا للرضا والقناعة ، فنزل بى من فقده ما يعتادنى من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يُسْبَرُ غَوْره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنما جمع فيه الوجود ما شئت منْ علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفى شهيدا باذلا

(١) غاسق : مظلم .
(٢) النبوغ المغربى ٢٧٧/٣ والوافى ٤٥٨/٢ .

روحه فى جهاد أعداء الدين ، فنعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكراه ستظل تتجدد خالدة . ويدعو له ربه أن يتعهده برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفى النبوغ المغربى للشيخ القصار فى رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها[1] :

زُرْ والديك وقفْ على قبريهما ... فكأنّنى بك قد نُقلتَ إليهما
كانا إذا ما أبصرا بك علّةً ... جَزِعا لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعا أنينَكَ أسْبلا ... دَمْعيهما أسفًا على خدّيهما
وتمنّيا لو صادفا لك راحةً ... بجميع مـا يحويه مُلْكُ يديهما
بُشْراك إن قدّمتَ فعلا صالحا ... وقضيتَ بعض الحق من حَقّيهما
وقرأتَ من آى الكتاب بقدر ما ... تسْطيعُــه وبعثتَ ذاك إليهمـــا

وهى مرثية للأبوين فريدة فى العربية ووصية لكل ابن توفى أبواه أن يزور قبريهما فإنه موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كانا عطوفين عليك عطفا لا حدَّ له ، فكانا إذا رأوك مريضا تشكو جَزِعا لشكواك جزعا ما مثله جزع ، وإذا سمعا أنينك من علة ذرفا دموعهما على خدّيهما مدرارا ، وتمنيا لو أتيحت لك راحتك بجميع ما يملكون فى دنياهم . وبُشْراك بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلا صالحا وقضيت بعض ما لوالديك من حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ، ليتقبّلهما الله قبولا حسنا . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٩ م فى العصر العلوى يرثى سيدة فاضلة من أهله[2] :

سَقَى الرحمنُ قبْرًا ضَمَّ شخْصًا ... تَسَرْبل بالمكـــارم وارْتَداهـا
ونضَّر مَضْجَعًا لفتاةِ صِدْقٍ ... حَوَى غُرَر الفضائل إذ حواها
لقد كانتْ تحضُّ على المعالى ... وَتَندب للمكارم مَنْ أباها
وألبسها المُنونُ حُلَى كسوفٍ ... فهلاَّ فَضْلُها الـوافى حَمَاها
فكم أحيتْ مواهبُها كئيبًا ... أحلَّته النوائبُ فى حِماهـا
وكم ربَّتْ بأنْعُمِها يتيمًا ... فَلَتْه أُمُّـــه حتى سَلاهـا
لئن ماتت فمـا ماتتْ حُلاهـا ... وإن أَوْدَتْ فمـا أودى عُلاهـا

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التى لبست حلل المكارم أن ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضّر مضجعها ويملأه رونقا ، إذ هى فتاة صدق وفضائل عظيمة ، ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالى والأعمال السامية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربى ٣/٢٨٠ .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٩٩ .

الساطعة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحيت مواهبها وعطاياها تَعِسًا وأنقذته مما يغمره من كآبة وهم ، وكم حَنَتْ على يتيم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزينها من أفضال وسمو لا نظير له . وفى زيارة مقبرة يقول الطيب بن مسعود المريني المتوفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٣ م(١) :

أتيتُ القبورَ أُداوِى بهـا   قساوةَ قلبى التى أجِـدُ
وقمتُ أسائلُ عن أهلهـا   وهيهاتَ لا خَبَرٌ يوجد
رأيتُ مَصارعَهـم عِـبْرةً   تُذيب حُشاشةَ مَنْ يَشْهَدُ
أقامـوا قليـلا وقـد رحَلوا   وغابـوا وبالعَوْدِ مـا وَعَدُوا
دعاهم على الرَّغْم داعى الرَّدَى   فلبَّـوْه حين انقضى الأمَدُ
وقد هدم المـوتُ لذَّاتهم   وغُيِّر عَيْشُهـمُ الأرْغَـدُ
وحَلُّوا بُطـونَ الثَّرى تحتهـم   تـرابٌ وفوقهـمُ جَلْمَـدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسائل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خبر عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لتذوب روحه أسىً ، فقد أقاموا فى دنياهم ورحلوا عنها وغابوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعى الهلاك فلبُّوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُدِّل عيشهم الرغد الهنىء وحلوا بطون الثرى ، تحتهم تراب وفوقهم صخور ، فحرىٌّ بالإنسان أن يعتبر ويتعظ . ولعلى مصباح الزَّرْويلى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأبين الفقيه جسُّوس الشهيد(٢) .

حلَّ بالدين يا لقومى بلاءُ   أحجمتْ دون وصفه الشعراءُ
قُتل اليوم أعلمُ الأرض ظلما   فَبه للإسلام حقَّ العـزاءُ
قتلوه من أجل أنْ كان أستا   ذًا أعزَّته السُّنَّـة السَّمْحاء
قتلوه من أجل أن كان للشَّرْ   عِ حُسامًا تهابُه الأمـراء
قتلوه أن كان للحـق قَـوَّا   لاً وما إنْ تضلُّه الأهواء
يا لها من مصيبةٍ سار فى الأر   ضِ وفوق السَّما بها الأنباء
عَمَّت المسلمين رُزْءًا فأضحتْ   كلُّ عينٍ منهـم عَراها البكـاء

والزرويلى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حلَّ بالدين الحنيف ، فقد قتل ظلما أفْقهُ الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزَّى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنباء وطارت

(١) النبوغ المغربى ٢٩٨/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٨٤/٣ .

كل مطار فى الأرض وفى السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . ونتوقف قليلا لنتحدث عن شاعرى الرثاء : ابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى .

ابن[1] شعيب الجزنّائى

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنّائى ، منشؤه ومرباه فى مدينة تازا ، ووفد على مدينة فاس فعُرف فضله ، والتحق بدواوين أبى سعيد المرينى ثم ابنه أبى الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه فى فتحه لتونس ، وبها توفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعاليمى الفاضل الطبيب الأديب النباتى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية فى قرض الشعر وإمام فى التعاليم (علوم الأوائل) وواحد فى المعرفة بالأشجار والنبات » . وفى الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وإنه تسرَّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجوارى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحبِّ لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يُرَى إلا فى تأوه دائم ، وله أشعار بديعة فى رثائها ، ومن قوله فيها :

أعلمتَ ما صنع الفرا ... قُ غداةَ جَدَّ بها الرِّفاق
ووقفتُ منهم حيث للـ ... ـنظرات والدمعِ اتساق
سبقتْ مطاياهم فما ... أبطا بنفسك فى السباق
أولى بجسْمك أنْ يـرِ ... قَّ ودمعِ عينك أن يُراق
أما الفـؤادُ فعندهم ... دَعْه ودَعْوَى الاشتياق
واهـًا لسالفـة الشبا ... بِ مضتْ بأيَّامى الرِّقاق
أبقتْ حرارةَ لوعـةٍ ... بين التـرائب والتّـراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بى غداة أسرع بى الرفاق ، لقد وقفت منهم أفكر فى صاحبتى وأطيل النظر وعيناى تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركتنى إلى غير أياب فأولى بجسمى أن يَضْنَى صبابة بها وأولى لعينى أن تسيل دموعها سيلا لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتى على أيام الشباب السالفة التى ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لى إلا حرارة لوعة فى صدرى بين الترائب والتراقى لا تبرحنى ، ويبكى صبحا فى مرثية أخرى قائلا :

(١) انظر فى ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ١/٢٧٢ ونيل الابتهاج للتنبكتى ص ٦٨ والمسند فى ترجمة أبى الحسن المرينى لابن مرزوق ص ٣٧٥ والوافى ٢/٤٢٤ والنبوغ المغربى ١/٢٣٧ ، ٣/٧٤ ، ٣/٢٧٧ .

يا صاحبَ القبْرِ الذى أعلامُه درستْ ولكنْ حبُّه لم يَدْرُسِ
ما اليأسُ منكِ على التصبر حاملى أيْأستِنِى فكأنَّنى لم أيْأسِ
لما ذهبتِ بكلِ حُسْنٍ أصبحتْ نَفْسِي تعانى شَجْوَ كلِّ الأنفسِ
يا صبحُ أيامى ليالٍ كلُّها لا تَنجلى عن صُبْحكِ المتنفِّسِ

وهو يخاطب صاحبته قائلا إن ما حول قبرك من معالم درست وامَّحت ولم يدرس حبك ولم ينمح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقائك لا يحملنى على التصبر ، وقد أيأستنى من لقائك وكأننى لم أيأس ، ولما ذهبتِ بكل حسن وجمال أصبحت كأننى أحمل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبوباتهم الحسناوات ، ويقول لها إن أيامى كلها بعدك أصبحت كأنها ليل متصل لا يتنفَّس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبْرَ صبحٍ حلَّ فيـ ـك لُمُهْجتى أَسْنَى الأمانى
وغدوتَ بعد عِيانها أشهى البقاع إلى العِيانِ
أخْشَى المنيةَ إنها تُقْصى مكانَكِ عن مكانى
كم بين مقبورٍ بفا سَ وقابرٍ بالقيروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حلَّ فيه أجمل الأمانى – كانت – لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عيانها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، وإنى لأخشى الموت أن يباعد بين مكانك ومكانى ، ويقول إنها توفيت بفاس وكان فى القيروان مع أبى الحسن المرينى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبته قوله :

يا غائبا فى الضمير ما بَرِحا دانى محلِّ الهوى إذا نَزحا
لم تضمر الصبْرَ عنك جارحةٌ ولا فؤادى لسلوةٍ جَنَحا
مُسْتَعْبِرُ المُزْن فيكِ أدمعُه يظلُّ يَبْكيك كلما سَفَحا
ولا أرى البرق عاد مبتسما بعدكِ بل زَنْدُ شوقه قدحا
وما تغنىَّ الحمام من طربٍ بل يُعلن النَّوْحَ كلَّما صدَحا

وهو يقول لصاحبته إذا غبت ونزحت لا تزالين دانية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضمر الصبر عنك جارحة أو أن يجنح فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى المزن أن تسيل حتى تفيض أدمعه ويظل يبكيك غيثها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتغنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل مأتم صاحبته صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفاسه الأخيرة .

أبو علي[1] اليوسي : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل في طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماسة . وفي نحو العشرين من عمره استقر في الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٨ م، وهي السنة التي استولى فيها السلطان الرشيد العلوي على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما في الخزائن من الكتب، وأمر شيوخها: اليوسي وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدمها ولم يبق منها باقية . وأخذ اليوسي يحاول استعادة مكانته العلمية في فاس، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظي برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارئه سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له –كما يقول الأستاذ ابن تاويت– بمكانة ممتازة في قرض الشعر الجزل وفي أسلوبه الأخاذ بسحر بيانه الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

أُكلِّفُ جَفْنَ العين أن ينثر الدرَّا ... فيأبَى ويعتاضُ العقيقَ بها جَمْرا[2]
وأسأله أن يكتم الوجدَ ساعةً ... فيُفْشي وإن اللَّوم آونةً أغْرى
وكانتْ عيونُ الحادثات غوافلا ... زمانًا وخَطْبُ الدهر كان بنا غِرًّا[3]
عَدَتْ غُدْوَةً أيدي الحوادثِ فاختلَتْ ... خَلاها فعادتْ بعد نَضْرتها غُبْرا[4]
وأبْدَلْنَ مأنوسَ الديار وأهلها ... بوحشٍ وحوَّلن الأهيلَ بها قَفْرا[5]
فلا جَفْنَ إلا وهْو مُغْضٍ على القَذَى ... ولا عَيْن إلا من نَجيعِ الشَّجا حَمْرا[6]

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلىء الدموع على الزاوية الدلائية فأبتا إلا أن تنثرا دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألهما أن يكتما الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكأن اللوم يغرى على الإفشاء أكثر فأكثر . وكأن الأحداث كانت غافلة عنها ، وكأن خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذ أيدي الحادثات تأتي

(١) انظر في ترجمة اليوسي وشعره : عبقرية اليوسي للدكتور عباس الجراري والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي ص٩٧ وكتاب الشعر الدلائي لعبد الجواد السقاط (انظر الفهرس) والنبوغ المغربي ٢٨٥/٣ والوافي ٧٤٠/٣.
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .
(٣) غرًّا : غافلا
(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .
(٥) الأهيل : المأهول بالسكان .
(٦) النجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

عليها وعلى ما حولها من الكلأ والنبات فإذا هى أرض جرداء بل لقد أصبحت قفرا ، وأبدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفنٍ إلا وهو ملىء بالقذى ولا عين إلا وهى من الحزن حمراء كالدم . ويبكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياضٌ إذا أبصرتهَا ونَشَقْتهَا ... فلا تذكُرَنْ نَجْدًا ولا تذكرنْ شَحْرا[1]

فمن لى بواديها إذا فاحَ رَنْدهُ ... ومَنْ لى بمرعاها إذا أطلعَ المَشْرَا[2]

ومَنْ لى بروضاتٍ يفوق ضياؤها ... على الشمس حسنا كلما ابتهجتْ زَهْرا

وهل نفحةٌ تكفينىَ المسكَ فائحا ... وهل شربةٌ تكفينىَ الشهدَ مُسْتَمْرا[3]

وهل وقفةٌ بين الطُّلول التى قضتْ ... صروفُ الليالى فى معالمها نَذْرَا

هنالك إخوانُ الفؤادِ وفتيَةٌ ... همُ للحَشا خمرٌ فما يَطّلب الخمرا

ونَأّى عِجالا عنهمُ مثلما نأى ... أبو صِبْيةٍ عنهم إذا يمَّم القبرا

بها هامت الأرواح من قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا وإذ نبلغ الحَشْرا

وهى رياض إذا أبصرتها ونعمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبيبة ولا ديار الشحر بجوار حضرموت ، ومَنْ لى بواديها إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فائحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أنعم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطلولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعدنا عنهم سريعا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يبدؤها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكم من عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكم من مليك أصابه بالأرزاء وقهره وأذله . وقديما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذلَّ بنى ساسان بعد عزٍّ لا يماثله عز ، وجرَّ ذيله على الغساسنة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتمد بن عباد المنفى إلى أغمات بمراكش ، فهل يشكّ أحد فى صَوْلات الدهر؟ . إنه دائما يصول حتى على المحبين إذ يحيل الوصل بينهما هجرًا . ويقول :

فلا تَرْكِنَنْ للدَّهر إن نعيمَه ... ظلالُ سحابٍ يَمْسح السَّهْلَ والوَعْرَا

ملولٌ فما باقٍ على عهد خلَّةٍ ... ولا مستديمٌ فيك يُسْرا ولا عُسْرَا

ولا تأمَنَنْ أبناءه إن تحبَّبوا ... إليك فمن يشبهْ أباه فقد بَرًّا

متى ما ارتجَوْا رغباءَ منك تقرَّبوا ... إليك وأبدوا خالصَ الودِّ والبِرَّا[4]

(١) الشحر : إقليم على المحيط بجانب عمان .
(٢) المشر : النبات الأخضر .
(٣) مُسْتمرا : مريئا سائغا .
(٤) رغباء : أمنية .

وأخفوا ذميمًا كان فيك وأظهروا جميلا وقالـوا ذو محـاسنَ لا تُمْرَى[1]
وإن لم يرجُوا منك خيرا رأيتهم جفـاءً وإعراضـا يولُونك الظَّهرا
إذا ما رأوا ذا الوفر لاذوا بذيلهِ وإن لـم ينالـوا مـن سحائبـه قَطْرا
وإن يَبصُـروا بالمملق اهتزأوا بـهِ ومدُّوا إليـه طَرْفهم نَظـرا شَزْرا[2]

وهو ينصح من يقرؤه أن لا يعوِّل على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظل سحاب لا يلبث أن يزول ويمحى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شيمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يُؤتَمَنون حتى لو تحبَّبوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنىّ ذو الوفر فإنهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما المملق الفقير فإنهم يهزءون به ويعرضون عنه مغاضبين . ويستمر ناصحا قائلا :

وإن الفتى بالنفس لا اللُّبْس مجـدُه فمـا شان دُرًّا كَوْنُ أصدافـه كُدْرا
وإن الغِنىَ مـا أورثَ المرءَ فى الْوَرى محامدَ فى الدنيا وعَلْياء فى الأخرى
وإن تُعْوزِ النُّعْمى فجُـدْ ببشاشـةٍ فخيرُ القِرَى أن تبذل الرَّحْبَ والبِشْرا
ومَنْ للهوى أَلْقَى القيـادَ فقـد هَوَى ولو أنه فى المجد قد وَطِئَ النَّسْرَا[3]
ومَنْ يصطنعْ عُرْفًا إلى غير أهلـهِ فليس بلاقٍ من جـزاءٍ ولا شكـرا
ومَنْ لا يُجَنِّبْ قولـه دَنَسَ الخنَا فـلا يمتعضْ يومـا إذا سمع الهُجْرا[4]
ومَنْ يَدَّخِرْ تقوى الإلـه وذكـرَه على كل حـالٍ يحمد السَّعْىَ والذُّخرَا
ومَنْ يَغْنَ بالمولى فلـن يَعْـدم الغنى إذا لـم يَجِدْ يومـا لُجَيْنا ولا نَضْرا[5]

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشينه كدورَةُ أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقى للمرءهو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلياء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يبذل لضيوفه من القِرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتعض

(١) لا تمرى : لا تجحد .
(٢) النظر الشزر : النظر بمؤخر العين كناية عن الازدراء والغضب .
(٣) النسر : كوكب . وطىء النسر : كناية عن بلوغ الغاية .
(٤) الهجر : الكلام البذىء اللئيم .
(٥) اللجين : الفضة . النضر : يريد الذهب .

ولا يضق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقى هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقنا بعض أبيات من هذه القصيدة ، وهى تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الحنيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرهم ، حتى لا يكونوا عالة وعبئا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان – ولا يزال – مما أضرم جذوته وَعْظُ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامى ، فهم ينذرون ويخوِّفون من عذاب الجحيم ، ويبشرون الأتقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعبَّاد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنساك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يقتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين فى العبادة لربهم على رءوس الجبال كالجبل[1] الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجىء للعبادة ، تبنيها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلْحِقة بها مبانى للشيوخ والطلاب وتكفيهم مئونتهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونساكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . ويهمنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السلالجى عبد الله بن عثمان المتوفى – كما فى روض القرطاس – سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وأنشد له صاحب الوافى هذه الأبيات[2] :

---

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

(٢) الوافى ١/ ٣١٥ .

إذا العلمُ لا تَغْشَى غرائبُه قلبى ولا شاقنى منه إلى المنهل العذبِ
ولا أنا ممن جاوز الدَّرْبَ ناهضا إليه ، ولا أرضى مقامىَ من رَبىِّ
ولا كان حظىَّ منــه إلا حكايةً على الناس أتلوها فحسبى إذن حسبى
ولا تَرْضَ بالحظِّ الخسيسِ سفاهة فمثلُك مَنْ قد حلَّ فى المنزل الرَّحْب
تجافوا عن الدار التى أصبحوا بها على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب
وإن كـــان لا ينجيك إلا ركوبُهـــا فماذا التجـــافى عن مجـــاورة الـــرَّبِّ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إننى بعيد عن درب النساك وإنه لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم – أو بعبارة أدق – النسك الذى يحياه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الأبيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كانت إرهاصا لما سيشيع فيه من الحركة الصوفية . وممن كان ينزع إلى الزهد فى عصر المرابطين القاضى عياض ، وله يقول مبتهلا إلى ربه[1] :

إليك بَـــؤْتُ بذنبى فاغفرْ خطـاياىَ ربِّى
وامْنُنْ علىَّ بلطـفٍ تَجْبُرْ بِهِ صَدْعَ قلبى
فقد ركبتُ ذنـوبًا سوَّدْتُ منهنَّ كُتْبى
وجئتُ أطلبُ تَوبًا إذْ ضَاق بالذنب رَحْبى
فاقْبَلْ بفضلك تَوْبِى واغفـرْ برُحْماك ذنبى
وعـافِنِى واعـــفُ عنِّى فأنتَ يـــاربُّ حسبى

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنبا آملا فى أن يغفر له خطاياه ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المعهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوبا كثيرة ، سوَّدت كتبه التى سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعا إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحماه ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قابل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقر أعتد القاضى عمر الفاسى المار ذكره فى الغزليين[2] :

أيُّهـــا المغـــتر بالزمـــنِ فى هواه خالعَ الرَّسَنِ
حبُّك الدنيــا وزينتَها فتنةٌ عمَّتْك بالفِتَنِ
ظَلْتَ والحـــالة شاهدةٌ عاكفا منهـــا على وَثَنِ

(١) التعريف بالقاضى عياض ص ٩٧ .
(٢) الوافى ١ / ١٧٩ .

فاهْجُرَنْها إن زينتهـا زينةٌ شانتْ ولـم تَزِنِ
خدعتنا إنهـا قبحتْ باطنا فى ظاهرٍ حسَنِ
ولتقدِّم مـا تُسَرُّ بـهِ قبل طول البَثِّ والحزَنِ
فكأنْ أخراك مابَرِحَتْ وكأنْ دنياك لم تكن

وهو يخاطب الذى غره الزمن وغرته الأيام ، فأكبَّ - غير مُرْعوٍ ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالعَ الرسن ، والكلمة كناية عن إكبابه عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزينتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تغرّه زينتها ، فهى زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعنا ظاهرها البرّاق ، وهى فى غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسَرُّ به فى المستقبل لا ما يحزنك ويملؤك هما فى آخرتك ، فتلاف شأنك قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الربيع الموحدى المترجم له بين الغَزِلين يخاطب نفسه[1] :

يا نفسُ حسْبكِ ما فرَّطتِ فازْدَجِرى عن الذنوب فإن القَبْرَ مَثْواكِ
خافى الإلهَ لما قدَّمتِ من زَلَلٍ واعْصى هواكِ فإن الله يرعاكِ
إنّ الهوى قلما تُجْدِى هوادتُه وهو الذى عن سبيل الرشد أقصاكِ
لشدَّ ما تعلمين الفـرق بينهما مـا كان أحْـراكِ بالأجْـدى وأولاكِ
إلى مَ تلهين عن قولى مغالطةً وتوقنـين بأنـى غيرُ أفَّـاكِ[2]
أصْغى إلىّ فما فى الأرض من أحدٍ ألقى إليـه صريحَ النُّصح إلَّاكِ
تـوبى إلى الله إن الله يقبلهـا واسْعَىْ بجهـدك فـى تحسـين عُقْبـاكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرَّطت من الذنوب ، وينبغى أن تقلعى عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذى أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحراك أن تتمسكى بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصحى وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصغى إلىَّ وإلى نصحى ، فإنك أقرب شىء إلىّ وليس فى الأرض من أُسدى إليه النصح سواك ، فتوبى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعملى بجهدك على أن تحسنى عُقْباك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسى المراكشى الفاسى الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(١) الوافى ١/ ٢٤٩ .
(٢) أفاك : كذّاب .

بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفترا فيما نظم في التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله[1] :

ذهب الظلامُ وأنت جِذْعٌ راقدُ ... وأتى الصباحُ وأنتَ صَخْرٌ جامدُ
وخَلتْ على الإظلام منك مناسكٌ ... وخلتْ على الإصباح منك مساجد
وأُولوا التهجُّدِ ليلهم ما منهمُ ... لله إلا راكــعٌ أو ساجد
وهجعتَ — يا مغرورُ — ليلَك كلَّه ... وعليك من عين الإله شواهدُ
فانظرْ لنفسك قبلَ حين مماتها ... إن الممــاتَ على البريَّــــة وافِـدُ
وتذكَّر السَّفَرَ البعيدَ وطولـه ... من غير زادٍ والمجــالُ فَدافِــدُ[2]
واذكُر نُشورك بعد موتك فجــأةً ... وصحائفُ الأعمال منك تشاهَـدُ[3]

وهو يُهيب بالغافل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ، ويقول له إنك تنام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصباح ، وكأنك صخر جامد لا حس ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك صباحا ، وأصحاب التهجد يُحْيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك أيها المغرور المذموم ، وإنه لحريٌّ بك أن تنظر لنفسك وتتعهدها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل من عليها فانٍ ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر : واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفته وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد اتسع فى تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه — كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل » مما جعل تراجم الكتاب تتسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ، وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه سيخصه بمراكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفته حتى نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل أبى الحسن بن حرزهم وأبى يعزى بلنور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات التى ذكرها لابن تاخميست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

---

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٣٦/١/٨ .
(٢) فدافد جمع فدفد : الفلاة .
(٣) نشورك : بعثك .

ولما ركبت البحرَ نحوك قاصدا ... ولم أر غير الله مالاً ولا أهلا
دعوتك بالإخلاص والموجُ طامحٌ ... يصدقِ ودادٍ لم يكن قبل معتلاً
أيا منقذ الغَرْقى ويا مُلْهِمَ التُقَى ... ويا صَمَدًا يبقى إذا أذهب الكُلاّ
لوجهك ذلَّ البَرّ والبحرُ خاضعٌ ... وحقٌ لهذا الخلق أن يألف الذلاّ

وهو يبتهل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالاً سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه قائلا : يا منقذ الغرقى ليس سواك ينجي يا ملهم المتقين تقواهم ، ويا مقصودًا يبقى بعد أن يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس أن يتذللوا لك تذللا ما بعده تذلل فأنت المنجى والمنقذ ومغيث المستغيثين .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بعبد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف المحاذية للبحر المتوسط شمالى المغرب الأقصى ، وكأن كتابه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة أهل التصوف الذى عُنى - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرَّف فيه بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بأبيات يصف فيها زهده أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وزهد أمثاله[1] :

زهدوا يريدون النجاةَ وأصبحوا ... وطعامُهم فى الأرض نبتٌ يابسُ
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما ... لهمُ سوى التوفيق شيءٌ حابِسُ
فجَنانُهــم من كلِّ سَهْوٍ سالــمٌ ... ولسانهــم عن كل عيبٍ نابِسُ

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه على وجه الأرض من النَّبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شيء يحبسهم سوى عبادة ربهم ، وأذهانهم بريئة من كل سهو ولسانهم لا ينبس بعيب . وبجانب هذه المقطوعة من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية سنعود إليها فى حديثنا عن التصوف ويلقانا أبو العباس الشريف السبتى المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه[2] :

وثقتُ بالله ربِّــــى ... وحَسْبِيَ الله حَسْبى
والله كـــافٍ وواقٍ ... دافــعٌ كـلَّ خَطْبِ
ولستُ أخشى إذا ما ... وثقت بالله ربــى
بلغتُ فيهـــا مُرَادى ... مهنّـــأً مــعَ صَحْبى

---

(١) الوافى ٢/٥٠٦ .
(٢) الوافى ٢/٤٨٤ .

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافينى وحامينى وواقينى ودافع عنى كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حدَّ لها ، ثقة بلغتُ فيها كل مرادى وكل ما أؤمله فى حياتى ، مما يحق لى أن أهنأ بها مع صحبى الذين يثقون فى ربهم . ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن يجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله فى معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور فى تونس(١) :

اشتدِّى أزمـــةُ تنْفَرِجى ... قد أُبدل ضيقُك بالفرج
مهما اشتدتْ بكَ نازلةٌ ... فاصبرْ فعَسَى التفريج يجى
مولاك ارغبْ فإجابتـهُ ... للمضطريـن على درج
وألِحّ عليـــه بمسألـةٍ ... فهو الجواد فسَلْ وهِجِ
أخلصْ فيما تدعوه وقُلْ ... يسِّرْ عُسْرِى وأزلْ حرَجى
لا حيلةَ لى لا قـــوَّةَ لى ... إلا بك يـا محيى المُهَـج

وهو مؤمل فى رأيه ولا ييأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بى اشتدى ومهما اشتددت فلابد من الفرج وانحسارك عنى ، ويتجه إلى قارئه ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فعسى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلطف بك فإجابته للمضطرين قريبة المنال ، ولتدعه ولتلح عليه فى الدعاء ، إذ هو الكريم الذى لا حد لكرمه ، فسَلْه وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص فى دعائك والزلفى إليه ، وقل رب يسِّر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمتى ، إنه لا حيلة لى ولا قدرة إلا بك يا محيى المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه(٢) :

تسترُ العَيْبَ تغفرُ الذنبَ تعطى ... تمنع العبدَ ، كلُّ حكمك عَدْلُ
تَجْبر الكسرَ تبدل العُسْرَ يُسْرًا ... تكشف الضرَّ كلُّ ذلك بَذْلُ
لم تزل محسنًا غنيًّا كريما ... أنت هُوْ الخالق المعزُّ المذلُّ
فقـــراءٌ وأغنيـــاءٌ على البـا ... ب وقـوفٌ لهم خضـوعٌ وذلُّ

وهو يذكر لله صفاته الربانية ، فهو يستر العيب ويغفر الذنب ويعطى من غير حساب ويمنع لا رادّ له ، وكل أفعاله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذى لا يمكن جبره ، ويبدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(١) الوافى ٢/٦٠٥ .
(٢) الوافى ٣/٨٣٥ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المعز المذل ، وقد عم امتنانك وعمت عطاياك كل الخلق ، وها همَ فقراء وأغنياء يقفون ببابك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الهلالى فى العصر العلوى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م هذا الدعاء[1] :

لك الحمدُ كلُّ الحمد يا راحمَ الضُّعْفِ ... ويا دائمَ الإحسان والرفق واللُّطْفِ
لك الحمد ثم الشكرُ دون نهايةٍ ... على نعمٍ جلَّتْ عن العَدِّ والوصفِ
إليك مَدَدْنا الكفَّ كيما تُمِدَّنا ... بما نرتجي يا مالكَ البَسْط والكفِّ
فعافِ وادفعْ واحْمِ يارَبُّ واكْفِنا ... بحفظك ما نخشى فغيرُك لا يكفى
وأَبْقِ علينا السِّتْرَ فى كلِّ حالةٍ ... بفضلك فى الدنيا والاخرَى بلا كَشْفِ
وأعظِمْ وأعززْ - يا عزيزُ - جَنابنا ... وحُطْنا من الخذلان والضَّيْمْ والخَسْفِ
وزِدْنـا من الخَـيْرات فـوق مَرامنـا ... بفضلك - ياموْلَى - تعالَى عن الكَيْفِ

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء ويا دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللطف ، لك الحمد والشكر الذى لا نهاية له على نعم أسبغتها علىَّ ، وهى تجلُّ عن أن تعدّ أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامنحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدمْ علينا الستر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعزز حمانا وحطنا برعايتك من الخذلان والضيم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بالمخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف - فى حقيقته - مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعدُّ كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالمتصوف مَنْ بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعوه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلقانا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيأ لظهور أمثال أبى مدين . غير أن هؤلاء فى رأيى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

---

(١) النبوغ المغربى ٣٠٨/٣ .

التى اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجرى الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبى الحسن الشاذلى . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السنى القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على ألسنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسَّع فى كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ فى المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل – كما أسلفنا – فى ازدهار الزهد ونزعة التصوف السنى فى المغرب ، ولذلك كثر فى كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمى المكناسى وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذاحظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص فى وصاياه وتذكيره ، فنفع الله به خلقا كثيرا فى بلاد شتى .. وله كتاب حفيل فى الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين فى مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبته لربه التى تعد أس التصوف وجوهره[1] :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبِ ... عليلُ القلب من حبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلم قام يبكى ... ويشكو ما يُكِنُّ من الوَجيبِ
يقطِّع ليلــه فكرا وذكرًا ... وينطق فيه بالعجب العجيبِ
به من حبِّ سيِّده غرامٌ ... يجــلُّ عن التطبُّب والطبيب
ومن يك هكذا عبـدا محبـًّا ... يطيب ترابـه من غير طِيب[2]

وهو يقول إن وصفه وعلمه فى حبه لربه غريب ، ويشكو فى حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما يبكى ويشكو من شدة حبه ولهيبه ، وإنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطبيب ولا طبيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه فى حياته وفى قبره من غير طيب . ووعظ بإشبيلية فى الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره فى الناس وانفعال القلوب لتذكيره بمقام تكلُّ العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته فى إشبيلية ، وقد ندبَ الناس إلى افتكاك أسارى لدى النصارى ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فعهدى بها قد تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وُعد به من الحاضرين ، وتجمَّع من أثمان تلك الثياب مال جسيم .

---

(١) الذيل والتكملة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .
(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط فى البيت « يك » مجزوما وجوابه « يطيب » مرفوعا ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لتفادى هذا الخطأ .

ويعقوب المنصور الموحدى المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حاضرته مراكش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . ونلتقى فى أواخر عصر الموحدين بصوفى كبير هو ابن المحلى وسنخصه بترجمة مفردة . ومر بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المرينى وكتابه - المارّ ذكره - عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لستة وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكأنه يعدهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بأبيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاويت فى كتابه الوافى[1] ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصيان الفاسى :

الأُنسُ باللهِ العظيمِ وذكرُهُ ... مما يزيد أُولى التُّقى إيمانا
من كان نورُ الحق أيَّده غَدَا ... ولهانَ من شغفٍ به هَيْمانا
سرُّ الحقيقة لا يفوز بنيلِهِ ... غير امرىءٍ مستنزلٍ كتمانا
لا يحرز الفضلَ المبينَ سوى الذى ... ملَكَ العلومَ مطهَّرًا جثمانا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلوة به وتسبيحه وذكره مما يزيد المتقين إيمانا بربهم ، ويصف الصوفى الذى يؤيده نور الحق جلَّ جلاله فإنه يصبح به شغوفا ولهان هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه مَنْ يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر النقى الورع . وينعت المتصوفة ويعرِّف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستنى البطيوى :

علمُ اليقين أنالهم ما أمَّلوا ... فدَرَوْا به عينَ اليقين وحَقَّهُ
سُلبوا فغابوا عن وجود نفوسهم ... فوجودهم محوٌ يلازم مَحْقَه
لم يعرفوا هَجْرا ولا وَصْلاً ولا ... معنىً يبيِّن قربه أو سُحْقه
وكأنما أسرارهم بقلوبهم ... درٌّ مصونٌ لا يفارق حُقَّه

ويقول إن الصوفيه هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، ويذكر أنهم سُلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغابوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكأنما

(١) انظر فى أشعار عبد الحق بكتابه صلحاء الريف ٢/٥٠٥-٥١٢ .
كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى

وجودهم انمحى انمحاء تاما ، فلم يعودوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا فى جلاله ، وهم بذلك محبون حبًا من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء فى الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها فى حِقاق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى فى ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه المزمة منشدا :

أهلَ الحقيقة إن نظرتَ وجدتهم متسربلين بكلِّ فَضْلٍ باهرِ
قهروا نفوسهمُ ففازوا بالمنى من جود ربٍّ ذى جلالٍ قاهرِ
وتجوهروا بلطائفٍ فتكلَّلتْ تيجانُهم بزبرجدٍ وجواهرِ

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرفتهم حق المعرفة وجدتهم مزدانين بحلل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوى ففازوا بأمانيهم من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكأنما بثٍ فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألقة ، بل كأنما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزبرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسنُ التوكّل فى القفار أتاله حالاً بها قد سرَّه ما نالهُ
جعل الالهَ له سبيلا فى الفَلا سَببا فحقّق فى الخلاص منالَهُ

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه فى القفر بما سدَّ رمقه وسرَّه فى حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات ونلتقى بابن جابر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله[1] :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى فلم أرَ فيه غيرَ الله وَحْدَهْ
فَثِقْ بالله وارجُ الله واعمـلْ للقيا الله تأمَـنْ كلَّ شِـدَّه

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحلّ فى كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما واثقا فى الله لا يرجو ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على الله حق التوكل :

على قَدْر نِيَّةِ أهلِ التوكُّـلِ يعطيهم اللهُ منه المعونه
فإن صَحَّح العبدُ إيقانَهُ كفاه المهيمنُ همَّ المئـونه

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح يقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المقطوعة وتاليتها كتاب المنتقى لابن القاضى ١/٤٠٥ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شىء . ويقول عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة[1] .

الْجَأْ إلى اللهِ فى أمرٍ تحاولُهُ ... وابْرأْ إلى اللهِ من حَوْلٍ ومن حِيَلِ
وكِلْ إلى اللهِ كلَّ الأمرِ واغْنَ بهِ ... عَمَّن سواه فإنَّ اللهَ خيرُ وَلِى

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويبرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكتف به عمن سواه ، فإنه خير المعينين على تحقيق الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى محمد بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول[2] :

للهِ فى الخَلْقِ ما اختارتْ مشيئتهُ ... ما الخير إلا الذى يختاره اللهُ
إذا قَضَى اللهُ فاستسلمْ لقدرتهِ ... ما لامرئٍ حيلةٌ فيما قضى اللهُ
تجرى الأمورُ بأسبابٍ لها عِلَلٌ ... تجرى الأمور على ما قدَّر اللهُ
إذا ابتُليتَ فثِقْ باللهِ وارضَ بهِ ... إن الذى يَكْشف البلوى هو اللهُ
إن الأمور إذا ضاقتْ لها فرجٌ ... كم من أمورٍ شدادٍ فرَّجَ اللهُ
اللهُ لى عُدَّةٌ فى كلِّ نائبةٍ ... أقول فى كل حالٍ حَسْبِىَ اللهُ

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغى الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدَّره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجرى بأسباب ولها علل قد تغيب معرفتها عن الإنسان فيما قُدِّر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يثق فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غُمَّة البلوى عنه ، ولا ييأس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لابد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسبه . ونقف قليلا لنتحدث عن صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن[3] المحلى

هو محمد بن حسن بن عمر الفهرى ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوّالاً يغنى فى المحافل والأسواق – والمتلبِّس بذلك يعرف فى المغرب بالمحلى – وقد ولد له محمد سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ونشأ نشأة ادبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أديبا بليغا ناظما وناثرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع فى الأدب ودرَّسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

---

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .

(٢) انظر د . محمد الأخضر ص ٣٧١ .

(٣) راجع فى ترجمة ابن المحلى وشعره الصوفى كتاب صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب الذيل والتكملة ٢٨٩/١/٨ والوافى ٣٤٩/١ .

الشريعة ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يعظ الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلو فى سبتة ، وولى القضاء بها سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يليه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمقته النزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[هل يبرح] العشقُ قلبـا أنت مطلَبُـه ... أو يُذهب الشوقُ روحا أنت مذهبهُ
وكيف يرجو وصـالاً من تبعُّدهُ ... أو كيف يخشى بِعادًا من تقرُّبه
يا مَنْ أناجيهِ والأشـواقُ توهمنى ... نَيْلَ الوصال كأنَّ الشوق يوجبه
كم طيِّبةٍ لك بالألطـاف توجدهـا ... عند اللقـا وفنـائى فيك أطيبـه
ومِنَّـةُ الجـود تُدْنيـه فتُؤْنِسه ... وخَشْية الـردِّ تُقْصيه فتَحْجُبه
مناى أنت وحسبى أن تكون مُنَى ... يـا واهبـا رغَباتى قبلَ أرغبه
كُنْ كيف شئت فما لى عنك منصَرفٌ ... فالعبـد ليس سوى مولاه مَطْلبـه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يبرح فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنيته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويتجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعُّده ، بل كيف يخشى البعد من تقرُّبه . ويقول إنه يناجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصل كأن مجرد الشوق يوجبه ، ويعترف بأنه ينثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيب ما تفضل به ربه عليه فناؤه فيه ، فهو يفنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقرُّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفى الوقت نَفْسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مُناه وحسبه أن يكون أمنيته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول فى قصيدة أخرى :

فـؤادىَ منقـادٌ إليكـم مذلَّلٌ ... ومالى – إذا لجَّ العذول – جِماحُ
وهـل من سبيـلٍ أن أطيرَ إليكُمُ ... وقد حُصَّ بى ريشٌ وقُصَّ جَناح(١)
وأوحشتمُ فالكلُّ فى الأذْن نائـحٌ ... لدىَّ وآفـاق الوجـود فِسـاح
خَرِسْتُ عن الشكوى إليكم مهابةً ... وألْسنُ حـالى بالغـرام فِصاح
ويـا عجبـًا أنـى أسيرٌ وأننـى ... أناشدكـم أن لا يُتـاح سَـرَاح
إذا هزَّ أربـابَ السماع تواجـدٌ ... فحظىَ منـه زَفْـرةٌ وصيـاح
وها أنا عند البـاب مُنُّوا أو اطـردوا ... فما لىَ عنـه – كيف كان – بَراحُ

---

(١) حُصَّ : حُلق ونُتف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه مذلّل لحبه ، وليس له - إذا لجَّ العذول اللائم - جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليتمنى أن يطير طيرانا إلى الذات العلية غير أن ريشه حُصَّ وجناحه قُصَّ ، يكنى بذلك عن أنه مقصر فى نسكه ، ويقول إنه طال نأىُ الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له فى وجده وما يجد فى غرامه بربه . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبوبه مهابة وحياء ، وهو يذوب حبا وغراما ، ويعجب أنه أسير ، ويناشد ربه أن لا يسرِّحه ولا يرد إليه حريته ، بل يظل فى أسره . ويذكر أنه حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفى تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هائما بحب ربه ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء منَّ الله عليه بالقبول أو حرمه وطرده ، ولن يبرحها أبدا . ومن قوله فى إحدى قصائده :

غرامى دَعانى والعَذُولُ نهانى ... فوَجْدٌ وعَذْلٌ كيف يجتمعانِ
أما عَلما أنى على الشَّحْط والنَّوَى ... مقيمٌ وأنى والهوى أخوانِ
يقولان لى : مَنْ ذا دعاك لما نرى ؟ ... فقلت دعانى حُبُّه فدَعانى
أعلِّل نفسى بالسلوِّ تعلُّلاً ... وتلك أمانٍ ما بهنَّ أمانى
إذا خَفق البَرْقُ اليمانى بأُفْقكم ... أقابل ذاك الخَفْقَ بالخفقانِ
رَعَى الله جيران العُذَيْبِ وأهله ... وإن أُتْرعونى من هَوًى وهوانِ
لئن حُجِبوا عن ناظرى فكأنهم ... لقلبى يراهم فيه رأىَ عِيانِ

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستغراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والهوى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحباه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجابهم دعانى حبه ودعانى أو اتركانى ، ويذكر أنه يعلل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أنَّى له . ويتحدث كشاعر عذرى فيقول إنى إذا خفق البرق اليمانى بأفقكم خفق قلبى معه ، ويدعو لجيران العُذَيب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الهوى والهوان ما ملأوه ،ويقول إنهم إن غابوا عن ناظرى فإن قلبى يراهم متجسدين فيه رأى عِيان . ويستمر منشدا :

أُورِّى بسَلْعٍ والعُذَيْبِ وحاجرٍ ... وتلك مغانٍ ما لهن معانى
وأذكر سكان العُذَيْب تَسَتُّرًا ... وما ذكرُ سكانِ العذيب بشانى
ولكنْ بقلبى من هو الحبُّ كله ... ومَنْ ذكره فى خاطرى ولسانى
حبيبٌ إذا لاحظتُ لم أر غيره ... على أنه إذ لا أراه يرانى
ومِنْ فضله وجدى به وتولُّهى ... ومن جوده ما أشتكى وأعانى
وطرْتُ على حُبِّى له وكأنما ... يَرانى لمعنى الحب حين برانى

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهى فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحبوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بربه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرانى ، ومن فضله علىَّ هيامى به وتولهى ، ومن كرمه ما أشتكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه براه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للنزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء المدائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبُعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتغنون بمحبته ومناقبه ومعجزاته، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته. وإذا كان قد تغنى بمديحه أفراد فى حياته، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمائله فى كل بلد وكل عصر. والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثرَ من التغنى بمديحه ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمدبن عيسىبن المناصف القرطبى الأصل المتوفىَّ بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجده شغوفا بالسيرة النبوية الكريمة وبفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابُه «الشفاء» فى السيرة النبوية العطرة مشهور. وله فى زيارة الرسول ﷺ[١]:

قِفْ بالرُّكاب فهذا الرَّبْعُ والدارُ ... لاحتْ علينا من الأحبــاب أنوارُ
بُشْراك بشراك قد لاحتْ قِبابُهمُ ... فانزلْ فقد نلتَ ما تَهْوَى وتختارُ
هذا النبىُّ الحجازىّ الذى شهدتْ ... لــه بتقديمــه رُسْلٌ وأخبــارُ
هذا الشفيـعُ الذى تُرْجى شفاعتُــه ... للمذنبين إذا ما اسـودَّت النـــارُ
بادرْ وسلِّم على أنوار روضتِه ... قبـل الممــات ولا تشغلْك أعذارُ
يا خِيرةَ الرسْل يا أعلى الورى شرفًا ... قــد أثقَلَتْنِيَ آثــــامٌ وأوزارُ
فكـن شفيعى لمــا قدمتُ من زلَلٍ ... ومن خطــايا فإن الـــربَّ غفَّــارُ

وهو يستوقف الرَّكب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

---

(١) الوافى ٥٦/١ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشراك فقد لاحت قباب الضريح النبوى ومسجده ، وينبغى أن أنزل من فوق بعيرى ، فقد نلت ما أهوى وأوثر ، فهذا النبى الحجازى الذى تهفو إليه القلوب والذى بشرت به الرسل وأخبار الكتب السماوية ، وهو الشفيع للمذنبين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التى قال فيها النبى ﷺ : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، وينبغى أن يزورها ويكتحل بأنوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الورى شرفا أثقلتنيَ آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعى لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإنه للغفار العظيم . ومن توسلات القاضى عياض الطريقة قوله متوسلا بالرسول الكريم[1] :

إليك مددتُ الكفَّ أستمطرُ الفَضْلا ... وأستكشف البَلْوَى وأستعطف الطَّوْلا

دعوتك مضطرًّا فعجِّلْ إجابتى ... بتفريج كَرْبٍ طالما واصل الهَوْلا

وأنت مَلاذى يا مرادى وسيِّدى ... فسامِحْ مسيئا قد جَنَى الجِدَّ والهزلا

نداءٌ من الأعماق يا فالقَ النَّوَى ... ويا سامع النَّجْوَى ويا مَنْ هو الأَعْلَى

يتيمٌ من الطاعات عفوَك يرتجى ... قِهِ الفقرَ والإفلاسَ والفقدَ والذُّلاَّ

بجاهِ رسولِ اللّهِ فارحَمْ تضرُّعى ... ونَفِّسْ همومى كلَّها الفَرْعَ والأَصْلا

لجأتُ إلى باب الكريم لفاقتى ... فليس لنا مُغْنٍ سواه ولا مَوْلَى

وصَلِّ على قُطْب الوجود محمَّدٍ ... صلاةً تعمُّ الرُّسْلَ والصَّحْبَ والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستنزل الفضل طالبا كشف ما نزل بى من البلوى مستعطفا التفضلَ الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريج كرب طالما شقيت به وبلغ بى هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئى ومقصدى ، فسامحنى : سامح مسيئا طالما تجنَّى فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إنه نداء من أعمق الأعماق فى نفسى يا فالق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربى الأعلى إننى يتيم من الطاعات ، والذنوب تثقل ظهرى ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفَرِّجْ همومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيها الكريم لفاقتى وإنك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . ربِّى صَلِّ على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة تعم الرسل وصحبه وآله .

---

(١) الوافى ١/٥٧ .

ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بميمون بن على الصنهاجى الفاسى المشهور باسم ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بابن خبازة ، لملازمته إياه وله مدحة نبوية طويلة . وسنترجم له عما قليل . وندخل فى عصر المرينيين ويلقانا فى أوائله مالك بن المرحل ومدائحه النبوية وسنخصه بترجمة ، ونلتقى بأبى العباس العَزَفى المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سَبْتة الذى أنشأ فى بلدته – وبالتالى فى المغرب الأقصى – الاحتفال بالمولد النبوى وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبورى صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذى ألهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى فى الحروب الصليبية بالمشرق واحتفال المسيحيين به فى الأندلس . واستنّ أبو العباس العَزَفىّ أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها فى احتفال أبى العباس العزفى . وتعنى الدولة المرينية – طوال القرن الثامن – بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم فى أزهى أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوى فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب فى مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلّون يُلْقون فى هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفى نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المرينى يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » .ويقول الوزان تتمة لذلك إنه كان ينادى فى أيامه أوائل القرن العاشر الهجرى على الشاعر الذى ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام[1] . ولا ريب فى أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاويت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدرى فى أواخر القرن السابع الهجرى وميلادية لمحمد بن يحيى العزفى أنشدها فى احتفالٍ لأبى سالم المرينى ، ويذكر لعبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ فى تحليلها . وفن المقصورات قديم بدأه ابن دريد بمقصورة فى مديح أمير سامانى ملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجنى مقصورة فى مديح أبى زكريا الحفصى .. غير أن المكودى أول مغربى نظم مقصورة من الرجز فى مديح المصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف فى مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألمَّ بذكريات شبابه فى موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التى أدال الله منها للإسلام مثل دولتى الأكاسرة والقياصرة وعرَّج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله فى مديح الرسول ﷺ :

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس ذُخْرى غير مدح أحمدٍ سيّدِ أهل الأرض طُرًّا والسَّما
وأصبح الديـن القويـم قيِّمًا سما على الأديان طرًّا وعلا
وكـم لــه من آيــةٍ بَيِّنَةٍ ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويغلب على المقصورة السرد مما يفقدها فى كثير من جوانبها الجمال الشعرى . وكما مُدح الرسول فى العصر المرينى بالمدائح الشعرية مُدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سعيد المكناسى المذكورة فى الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوى وخاصة حاكمها المنصور الذهبى ، وتكثر فيها المدائح النبوية المسماة بالميلاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مديح الحاكم ، ويقول المقرى فى كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل فى الموالد النبوية التى احتفل لها هذا الخليفة المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها فى فاس ،حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها فى ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة فى السماء كالمنارة ، ويحشر الناس إلى ذلك ، ويُدْعَى المنشدون للأشعار وتنثر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكُسوة وجوائز قد تبلغ الآلاف[1] . ويضيف عبد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا إضافات كثيرة فى هذا الاحتفال الذى كان أشبه بعيد ضخم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال الرسمى به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للنخيل والمآذن فى الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمر أرجوانية وخضر سندسية ، ويغصّ السرادق المنصوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدَّم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل الذكر بالرقيق من كلام الشيخ الصوفى الأندلسى أبى الحسن الششترى ، ثم يُنْشَدُ الشعر . والمتبع فى الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع ينيبه الشاعر عنه فى إنشاد قصيدته ، ويعود الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفشتالى الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلات الشعراءوعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفشتالى بعض ما كان ينشد فى هذا العيد لعهد هذا الخليفة[2] . وبكتاب روضة الآس للمقرى نحو عشرين ميلادية لشعراء مختلفين أُنشدت فى هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفشتالى شاعره وكاتبه ،

(١) روضة الآس ص ١٣ .
(٢) انظر مناهل الصفا تحقيق الأستاذ كنون ص ٢٢١ وما بعدها .

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويتمنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه القريحة بنظرة يغمرها النور النبوى ويحيّى ربوع مكة والمدينة القدسية التى تلت بها الملائكة أفانين ذكر وقرآن ، ثم يقول[1] :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ العالمين بأسرها ... وسيدُ أهل الأرض م الإنس والجانِ
ومَنْ بَشَّرَتْ ببعثه قبل كونه ... نواميسُ كهّانٍ وأحبارُ رُهْبانِ
وإن كتابَ الله أعظمُ آيةٍ ... بها افتضَح المَيَّانُ وابتأسَ الشانى[2]
نبىُّ الهدى مَنْ أطلعَ الحقَّ أنجمًا ... محا نورُها أسدافَ إفكٍ وبهتانِ[3]
لعزّتهِ ذلَّ الأكاسرة الأُلى ... همُ سَلبوا تيجانَهم آلُ ساسانِ
وأحرزَ للدِّين الحنيفىِّ بالظُّبا ... تراثَ الملوك الصِّيدِ من عهد يونانِ[4]

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرتْ بأنه مبعوثٌ شرائع الكهان وأحبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره لينقذه مما يعانيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل فى يده وصدره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها افتضح الكذابون المفترون والحاقدون الشانئون . نبى الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولعزته ذل الأكاسرة السَّاسانيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملَّك الدين الحنيف بالظبا والسيوف تراث سادة الملوك القياصرة من عهد يونان والزمن القديم . وللتاستاوتى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أربعمائة بيت ، يجعل مقدماتها لمديح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المديح النبوى بثلاثمائة بيت من ذلك قوله[5] :

أيخاطِبُ العبدُ الذى لعبتْ به ... شهواتُه صَدْرَ الصدورِ الأوحدِ
نكن تحقّق بالأدلّة عندنا ... لا شخصَ أحلمَ فى الوَرَى من أحمدِ
أنت المؤمَّل فى الشدائد كلها ... أنت الجواد الغيثُ للمُسْتَرفدِ
أنت الذى من أمَّ بيتَك راغبًا ... ولو اقتضى أمرا عظيما يَسْعَد
أنت الذى سعدتْ بك الأشياء قا ... طبةً ومن يقصد سعيدا يَسْعَدِ

وهو يعجب — لكثرة ذنوبه — من جراءته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم مَنْ على وجه الأرض ، ولذلك قصده وهو يعلم أنه حليم كريم آملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنك

(١) شعر عبد العزيز الفشتالى تحقيق نجاة المرينى ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٢) الميَّان : الكاذب . الشانىء : المبغض .
(٣) إفك : كذب .
(٤) الصيد : ذوى السلطان .
(٥) الوافى ٣/٧٧٢ .

المؤمل المرجو فى الشدائد والكوارث كلها ، وإنك الغيث المدرار الذى يجزل العطاء لمسترفده وطالب البر منه . ويقول له إن من قصد بيتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السعادة البشرية فليس غريبا أن من يقصدك يسعد فى الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ فى العصر العلوى . ومن أجمل التوسلات توسل أنشده الأستاذ ابن تاويت للشاعر محمد البوعصامى ، وفيه يقول[1] :

سُحِّى بدمعٍ كالعقيق مَحاجرى ... شوقا لطيبةَ والعَقيق وحاجرِ[2]
تلك المعاهدُ حين أظهرَ دينه ... ربُّ البريَّة بالرسول الطاهرِ
سرُّ الوجود محمدٌ خيرُ الورى ... والمنتقَى من كلِّ أصلٍ طاهرِ
مَنْ قد تجلَّت طَيْبَةُ الزَّهْرا بهِ ... وزهتْ ففاقت كلَّ روضٍ زاهرِ
وسمتْ على الفردوس حقًّا واكتَستْ ... حُلَلَ السَّنا من شأنه المتواترِ
وتواضعتْ لمعالم الهادى بها الـ ... آفاقُ كالفلك المحيطِ الدائرِ

وهو يقول لعينيه اذرفا دمعا أحمر كالعقيق شوقا لطيبة ومنازلها مثل العقيق وحاجر التى كانت قائمة حين بعثه الله برسالته الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الورَى المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلَّت به طيبة : المدينة وسبقت جميع المدن ، وزهت حتى فاقت كل روض ناضر ، وحقٌّ لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلل الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنترجم لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون[3] بن خبازة

هو ميمون بن على الصنهاجى الفاسى الساكن بأخرة فى مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة لملازمته إياه . من شعراء عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشى فى كتابه « الذيل والتكملة » : كان أديبا شاعرا مفلقا من أكبر أعاجيب الدهر فى سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التى لا يجارَى فيها والتفنن فى أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة فى علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزى فى بعض فصوله فأجاد » . وعبر إلى الأندلس وظل فى رعاية والى إشبيلية أبى العلاء بن المنصور زمنا ، وله فيه مدائح كثيرة وله فى غيره مدائح مختلفة

---

(١) الوافى ٨٢٣/٣ .
(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع فى المدينة . والحاجر : منزل فى طريق مكة .
(٣) انظر فى ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢ وتحفة القادم ١٥٤ ودرة الحجال رقم ٣٧٢ والنبوغ المغربى ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ والوافى ٣٢٢/١ .

وكان يأتى فى مدائحه بما لم يسمع قبله ولا يُطْمع فى لحاقه ، سرعةَ ارتجال وحسنَ افتنان وبراعة إنشاء ، وتولى حسبة السوق فى مراكش لعهد الخليفة المأمون الموحدى ووقف معه فى ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله يهجو ابن تومرت :

وجد النبوّة حُلّةً مطويّةً | لا يستطيع الخلقُ نَسْجَ مثالها
فأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاءٍ يبتغى | بمحاله نَسْجًا على مِنوالها

وأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفى ابن خبازة فى أوائل سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م ، وله مدحة نبويةرائعة دوَّت شهرتها فى عصره وبعد عصره ، يقول فى مطلعها :

حقيقٌ علينا أن نُجيبَ المعاليا | لنُفْنِيَ فى مَدْحِ الحبيبِ المعانيا
ونجمعَ أشتاتَ الأعاريضِ حِسْبَةً | ونحشُدَ فى ذات الإلـه القوافيـا(١)
ونقتـادَ للأشعـار كلَّ كتيبةٍ | لنَصْر الهدى والدين تُرْدِى الأعاديا(٢)
لِنُطْلع من أمـداح أحمـدَ أنجمًا | تلـوح فتجلو من سَنـاهُ الدَّياجيا
سهوتُ بمدح الخلـق دهرا فهذه | سجودى لجَبْرى كلَّ ما قُلْتُ ساهيا
رسولٌ بَراه الله من صَفْوِ نورِهِ | وألْبَسَهُ بُرْدًا من النـور ضافيـا(٣)
وما زال ذاك النـورُ من عهد آدمٍ | ينيرُ بـه اللهُ العصـورَ الخواليـا

وهو يقول إنه ينبغى أن أستجيب للمعالى فأفنى فى مديح الرسول الكريم سيد الوجود المعانىَ وأجمع أشتات الأشعار احتسابا لله وأحشد القوافى إخلاصا له ، وأقتاد كتائب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديه ، ولنبدى من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجى المظلمة . ويعتذر عن تمضية عمره فى مديح الحكام والأمراء ساهيا عن مديح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صَفْو نوره وألبسه من النور حلة سابغة ، وظل هذا النور المحمدى الباهر ينير العصور الخوالى . وتُطِلُّ من الأبيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التى تغنّى بها الحلاج والمتصوفة بعده ، وهى حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم فى خلقه المعنوى أو الروحى من خلق الأنبياء . ويقول ميمون فى قصيدته : بفضله تاب الله على آدم وأنقذ نوحا وخلصه من الموج العاتى وحمى إبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله افتُدى إسماعيل الذبيح . وحين وضَع أمُّه له حفَّت به الأملاك وأعول إبليس اللعين وتنبَّت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يمضى فى الحديث عن سيرته منذ كان فى المهد ، وحملتْه السيدة حليمة لترضعه ويذكر

(١) حسبة : احتسابًا لله .
(٢) تردى : تهلك .
(٣) ضافيا : غامرا .

ما رُوِىَ من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادى ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولقائه لبَحِيرا الراهب ونسطور راهب بُصْرَى الذى بشره ببعثه ، وما كان من تحنُّثه فى حِراء واختيار الله له كى يبلِّغ رسالته ، ويذكر إسراءه ومعراجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حراء حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وآياتُـــه جلَّتْ عن العَدِّ كثرةً	فما تبلغ الأقوالُ منها تناهيا
وأعظمُها الوَحْىُ الذى خَصَّه بِهِ	فبلَّغ عنه آمـــرا فيهِ ناهيا
تحدَّى به أهلَ البيان بأسرهم	فكلُّهمُ ألفـــاه بالعجز وانيـــا
وجاء به وَحْيًا صريحًا يَزِيدُهُ	مرورُ الليـــالى جِدَّةً وتعاليـــا
تضمَّنَ أحكامَ الوجـــودِ بأسرها	وحُكْمَ القضاءِ مثبتا فيه نافيا
وأخبر عما كان أوهو كائنٌ	يُرَى ماضيًا أو ما يُرَى بعدُ آتيا
وما كتبتْ يُمناه قطُّ صحيفةً	ولارِىءَ يوما للصحائف تاليا[1]
عليه سلامُ الله لازال رائحـــًا	عليه مدى الأيـــام حقًّا وغاديا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعَدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لا حق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يماثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلة . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطّ صحيفة بيمينه ، ولا شوهد يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته ومحبيه .

مالك[2] بن المرحَّل

سَبْتِىّ النشأة والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

---

(١) رِىءَ : رُئِىَ .

(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأشعاره الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٢/٣ والجذوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفح الطيب (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مختلفة والوافى ٣٣٨/١ وما بعدها .

بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفصيح ثعلب ، وله نظم فى الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل فى بلدته سبتة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبنى مرين مرات فى غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له فى حياته إذ توفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إنه كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة فى قرضه ، لا يفتر عنه حينا من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إنه لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهِجِّيرا (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المُكْدين (السائلين) وطراز أوراد المؤذنين » . وذكر له ابن عبد الملك فى الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين فى مثال النَّعْل النبوى . وله فى مديح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ أنماطا ثلاثة : النمط المعروف فى القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشرينى لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات فى النمطين الأخيرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجوّ نفعها فى الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول فى العشرينية الهمزية الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى ... فيا طِيبَ إهدائى وحُسْنَ هِدائى[1]
أضفتُ إلى ميلاده غزواتِهِ ... وما عَنَّ لى من آيــةٍ وأيــائى[2]
أردتُ رضا ربِّى بها فهْو أرتجى ... وربِّى كريمٌ لا يُضيع رجائى
إمامُ هُدًى صَلَّى النبيُّون خَلْفه ... وصلَّى عليهِ أهلُ كلِّ سماء
أضاءتْ به الدنيا فمن وَجْهِهِ سَرَى ... إلى الشمس والأقمار كلُّ ضياء
أتانا بقــرآنٍ كريـــمٍ مفصَّلٍ ... جَلا صَدَأَ الأذهان أىَّ جِلاء
أترجون فى يــومِ القيامــة غيرَه ... إذا قيــل هــل للنـــاس من شُفَعاءِ
إليــه يشير ابنُ البَتُـــولِ إذا رأى ... ضجيجَ الــوَرَى فى حيرةٍ وعناء[3]

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فياطِيبه ويا طيب هداى وطريقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وألهمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربِّى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(١) هدائى : هداى وطريقتى .
(٢) أيائى : جمع آية أى معجزة .
(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

والملائكة فى كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيرا إلى الآية الكريمة : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما﴾ ويقول إن الدنيا أضاءت بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهى أن كل نور فى الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق فى خلقه المعنوى أو الروحى لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التى جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التى تجلو – بحق – صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله فى بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول فى عشرية همزية :

أمـا لى إلـى قَـبْر النبـىِّ مبلِّـغٌ ثنـاءً فقـد أفنى الزمـان ذَمـائى[1]
أمـانىُّ كانتْ لى زيـارةُ قبرِه وأرْضـىَ روضٌ يانـعٌ وسمـائى
إمـامُ جميـع المسلمـين محمدٌ وأكـرمُ مبعـوثٍ مـن الكرمـاءِ
أمـانُ الوَرَى مما يخافون حبُّه فيـا حبُّ شَعْشِعْ أدمعى بدمـائى
أمـاهَ الأسى عينى وسعَّـر أضْلُعى فخذ بيدى يـا راحـمَ الرُّحمـاءِ[2]

وهو يقول : أمالى من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبابى أن تكتحل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهاديهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسولٍ بعثه الله للخلق رحمة بهم، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقا إليه وشغفا به ، فقد ملأ الحزن عينىَّ بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعى ، فخذ بيدى وأعِنّى يا أرحم الرحماء . ومالك – مثل ابن خبازة – فى الذروة من شعراء عصره .

(١) الذماء : قوة القلب وبقية الروح .
(٢) أماه الأسى عينى : ملأها دموعا كالسيل . سعَّر أضلعى : أوقدها نارا .

الفصل السادس
النثر وكتّابه

١

الخطب والمواعظ

طبيعى أن تكثر الخطب والمواعظ في المغرب الأقصى كثرتها فى بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرَّر فى كل مسجد أسبوعيا فى صلاة الجمعة وبالمثل فى صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هى السبب فى أنه لم يتجرد أُحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أُثرت بعض خطب قالها بعض الحكام أو بعض كبار الوعّاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثانى فى دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ/٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلا[١] :

« اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سُمْعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تُعْبَد فيها ، ويُتْلَى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنّة نبيِّك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفِّق سُكّانها وقُطّانها للخير وأعنهم عليه ، واكْفهم مئونة أعدائهم ، وأَدِرَّ عليهم الرِّزْق ، وأَغْمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إنك على كل شىء قدير » .

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثانى إنما هى قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباهاة ولا ابتغاءً لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيَّته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الربضى فى الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغربية ولم يلبث أن شُيِّد فى مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع فى إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُنى الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت فى جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدهم بعونه ويكفيهم مئونة أعدائهم ، ويوفِّر الرزق لهم ويقيهم الفتنة والشقاق .

---

(١) النبوغ المغربى ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتى فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرَّ بنا فى نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التى كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم ، ولذلك يسمون الملثَّمين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قويمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى – كما مرَّ بنا – الشيخ عبد الله بن ياسين ليقفهم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمَهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى النائية . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت – منذ الأيام الأولى لدولة الأدارسة – خارجة على الإسلام ، وتنبأ فيها متنبئون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طُعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه(١) :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى ميِّت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا أُلْفَةً وأعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يُؤْتى ملكه مَنْ يشاء ويَسْتخلف فى أرضه مَنْ أحبَّ من عباده . ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تقدِّمونه منكم يقوم بأمركم : يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فَيْئَكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المبرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يبتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العربية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتى ملكه من يشاء فلا داعى للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختاروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

(١) النبوغ المغربى ٣٤/٢ .

قسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودى مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التى تعرَّف على مبادئها أثناء مقامه بالعراق ثلاثة مبادىء هى أنه إمام ومهدى ومعصوم ، واقترض من مبادىء المعتزلة التى تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعنى نفىَ التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفيا باتًّا معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التى يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جلَّ شأنه . ومن خطبة لابن تومرت قوله[1] :

« إن الله – سبحانه وله الحمد – مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصَّكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، وقيَّض لكم مَنْ ألفاكم ضُلّالا لا تهتدون ، وعُمْيًا لا تبصرون ، لا تعرفون معروفا ولا تُنْكرون منكرا ، قد فشتْ فيكم البِدع ، واستهوتكم الأباطيل وزيَّن لكم الشيطان أضاليل ، وتُرَّهاتٍ ، أنزِّه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله بعد الضلالة ، وبصَّركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزَّكم بعد الذلَّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبته أيديكم وأضمرته قلوبهم ، وما ربُّك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدأين تعتنقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصَّهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، ويقصد – كما قلنا آنفا – أنه منزَّه عن التشْبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصَّهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالى الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائما من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، أما أتباعه الموحدون فهم – فى رأيه دائما – يأمرون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم – لعدم أخذهم بهذين المبدأين – مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينبغى حربهم ومحو سلطانهم ، وَيعِدُ أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ المغربى ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقلي فى الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كتبه ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشعراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى أبى حفص عمر السلمى خطبة ينتصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول[1] :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدَّثوا ، أتَوْا من الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة . الأنبياء ونورهم – لا الأغبياء وغرورهم – عنهم يُتَلَقَّى ، وبهم يُدْرَك السوْل : (عالم الغيب فلا يُظْهر على غَيْبه أحدًا إلا مَن ارتضى من رسولٍ) الدين عند الله الإسلام ، والعلم كتابُ الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضَرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بعدهما » .

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وفتاويهم جميعا ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلانا ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له[2] : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة » .

ونلتقى بالمنصورالمرينى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م –٦٨٥ هـ/ ١٢٨٧ م وكان بطلا مغوارا وكأنما نذر نفسه لحرب نصارى الإسبان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال يعد العدة من الخيل والسلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلبا لمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيما ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونذالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة يحث فيها جيشه على الجهاد[3] :

« يا معشرَ المسلمين وعصابةَ المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فُتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلابها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

---

(١) النبوغ المغربى ٣٧/٢ .

(٢) أزهار الرياض للمقرى ٣٥٩/٢ .

(٣) النبوغ المغربى ٣٨/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشمّروا عن ساعد الجدّ ، معاشر المسلمين ، فى جهاد المشركين . فمن مات منكم مات شريدا ، ومَنْ عاش عاش غانما مأجورا حميدا ﴿اصبِروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

وهى كلمة فَصلتْ من قلب مجاهد صادق أبلى فى سبيل دينه ونصرته بلاء عظيما ، ويبشر جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيدا فاز برضوان ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنما كبيرًا ، وأثابه الله ثوابا عظيما . ويذكرهم بآية كريمة تدعو إلى الصبر فى الحرب والمرابطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أثر من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبى عبد الله محمد الرُّهونى الفقيه المالكى الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة فى خطب الجمعة ، ومن خطبة له فى التذكير والترغيب[1] :

« أيها الناس : حَصْحص[2] لكم الحق فتبصَّروا ، وتبين لكم الرشد من الغَىِّ فالزموا الطاعة وتذكروا ، وحُمِلْتم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخَّروا ، وحُذِّرْتم من العدول عنه فخافوا الله واحذروا ، وأُسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقَّها واشكروا ، واعلموا أن الله لا يغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ، وإياكم والتقصير فى العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تُعْذَروا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فأبصروا ، وتُليت عليهم آيات الله فتدبَّروا ، ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشَرِبوا من كئوس حبِّها حتى سَكِروا ، وقطعوا أعمارهم فى اتباع شهواتها فخابوا وخسِروا ، وانْهَجُوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفُّوا أنفسهم عن السوء وانزجروا ، وسمعوا ما أعدّ الله لأوليائه فى الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهونى يحسن رَصْفَ السجع فى خطبه ، ويحاول أن يستتم جرسها بما التزم فى نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام التقابل فى نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلغته فيختار لها ألفاظا رصينة جزلة تحسُن وقعها فى آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخابها يوفر فيها ألوانا من الطباق المستحسن مثل : « بيِّن لكم الرشد من الغى » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا » وقوله : « وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب فى أن الرهونى كان خطيبا فذا

(١) النبوغ المغربى ٢/٤١ .

(٢) حصحص الحق : ظهر .

وكان يؤثر بخطابته ووعظه فى سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربى من خطباء كثيرين كانت لهم نفس هذه الروعة فى الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر فى المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المعتمد بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه فى مراكش عاصمته ، وكان آية فى البيان والبلاغة ، فأرسى فى الديوان المراكشى تقاليد الكتابة الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ، وظلت له رياسته فى عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن بسام برسالتين[١] له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاهما موجهة إلى صاحب قلعة بنى حمادٍ فى الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمدين محمد بن على حين وَلِىَ القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استَهْدِ الله يَهْدِك ، واستعنْ بالله يُعِنْك فى صدَرِك ووِرْدك[٢] وتولَّ القضاء الذى ولاّكه الله بجِدٍّ وحَزْم ، وجَلَدٍ وعزم ، وأَمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنَّة نبيِّه ، ولا تُبالِ بَرغْم راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وآسِ[٣] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع قوىٌّ فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . ولا يكنْ عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصحْ لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يُسلِّموا لك فى كل حق تُمْضيه ، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تَقْضيه . ونحن أولا وكلهم آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين عليك فى حق . والعمال والرعية كافة سواء فى الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر فى رسالته إلى القاضى ابن حمدين برسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى حين يدعوه إلى المساواة بين الناس فى وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع قوى فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن الطريف فى الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

(١) الذخيرة ، القسم الثانى ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .
(٣) آسِ : سَوِّ .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق فى أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فمنذ صار ابن حمدين قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جانب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وعُنى الدكتور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهَّه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها[1] :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوَّضْنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دِقِّه وجُلِّه ، وقُلِّه[2] وكُثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نُمْضِى ما وقَّعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاَّه كائنا ما كان إلا أن يتولاَّه ، ولا نَرْضَى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعمَّا فى جَناننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحِم »[3] .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير – مثل على بن يوسف – يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تنتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغى أن ينصح الولاة – مع ذلك – بالعدل مع الرعية ونصفة المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسمعوا شكوى كل مظلوم أو متظلم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[4] ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبى القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحقٌّ له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .
(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .
(٣) يُسْدى ويلحم : ينسج .
(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى[1] ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثِّهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عَزَم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا – أعزَّكم الله بتقواه ، وكَنَفكم بظل ذُراه ، ووفرَّ حظوظكم من حُسْناه – من حضرة مراكش – حرسها الله – يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يَدَىْ حركتنا يمَّنَ اللّهُ فاتحتها وعقباها . وقد قرعنا الظنابيب[2] ، وأشرعنا الأنابيب[3] ، وضمَّرنَا اليعاسيب[4] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نيَّة ، وصِدْقَ حَميَّة ، فى نَصْر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يُضام ، أو يناله من عدوه اهتضام[5] . ونحن – وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد ، ما يُرْبِى على الحصر والتعداد ، فإنا نعتقد اعتقاد يقين بقول ربٌ العالمين ، فى كتابه المبين : ﴿قُلْ ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الثناء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل[6] من الأدواء » .

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » ليذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثة عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبين[7] : إما أن تفتتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعَى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدىّ ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختم

(١) المعجب ص ٢٣٧ .
(٢) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع إلى الحرب .
(٣) أشرعنا الأنابيب : سدَّدنا الرماح .
(٤) ضمَّرنا اليعاسيب : ذللنا الخيل للحرب .
(٥) اهتضام : ظلم .
(٦) أعضل : أعجز . الأدواء : الأمراض .
(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/٦ .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه » . ويمثّل القلقشندى لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبى جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثانى فى المكاتبة لعهد الموحدين – كما يقول القلقشندى – أن تفتتح المكاتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم فى الأسلوب قبله بعد البعدية . ويمثل لهذا الأسلوب الثانى برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ – ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبى الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » كتّاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده – كما يقول – أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة[1] . وكتاب الإنشاء فى عهد ابنه يوسف – كما يقول المراكشى – هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمى كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات فكتب مكانه[2] . وواضح أن ابن محشرة والقالمى من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما فى الجزء الخاص بالجزائر . وكتّاب ابنه يعقوب – كما يقول المراكشى – أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل بُرْشانة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتبا له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف[3] (المستنصر) إلى أن توفى سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمين حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفنصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيف ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبى جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وستفرد له ترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبى عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشى بين كتابه ، وثلاث أخرى لأبى الحسن بن عياش أولاها عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبى الحكم بن المرخى عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشى أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(١) المعجب للمراكشى ص ٢٦٧ وما بعدها .
(٢) المعجب للمراكشى ص ٣١٦ وما بعدها .
(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار فى ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالمغرب استكتبه فى سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة[١] إذ كان صاحب القلم الأعلى – كما يقول ابن الخطيب فى الإحاطة – على عهد المنصور وابنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرَّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام معرب . ويقول المراكشى فى المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته[٢] : وفى رأينا أنهم اتبعوا طريقته فى الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطين كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له فى مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهى تتبع الأسلوب الثانى الذى ذكره القلقشندى مبتدئة بالبعدية على هذا النحو[٣] :

« أما بعد حمد الله الذى عَمَّ بنواله ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيِّنات الحكمية ، فى كافَّة أقواله وأعماله ، فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا فى بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية – من حضرة مراكش – حرسها الله – وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدحها الأعلى[٤] ، وتوجب على [أهل] [٥] الاتصال حظوة الامتثال[٦] لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا[٧]] حتما مقضيا ، ووعدا [حتما [٧]]مأتيًّا بين خير الآخرة وخير الدنيا . وبثبوت هذه القاعدة تستوثق[٨] أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة » .

وفى جميع الرسائل فى هذه المجموعة الموَحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدى المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرَّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله) يشير بذلك إلى المبدأين المتممين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته – فى رأيه – إنما هى دعوة الموحدين بمبادئها التى ذكرناها . والرسالة

---

(١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
(٢) المعجب ص ٣٣٩ .
(٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
(٤) القدح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأصله أهم قداح الميسر .
(٥) زيادة للسياق .
(٦) فى الأصل : الاحتصال .
(٧) زيادة بدلالة السياق .
(٨) فى الأصل : تستوسق .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم فى غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستئصال شأفتهم وجذورهم . ولأبى الحسن عبد الملك بن عياش رسالة[1] عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٤ م إلى الدخول فى طاعة الموحدين ، وهى فى فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذى ذكره القلقشندى ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته – إلى أمير شرق الأندلس أبى عبد الله محمد بن سعد – أمدَّه الله بتوفيقه ، وأعزَّه بطاعته وتقواه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلِّى على سيدنا محمد نبيِّه ورسوله ، والحمد لله الذى أقام لأمره الذى هو سفينة النجاة ، وعصمة المحيا والممات ، دعاةً يأخذون بالحجز عن النار ، ويقيمون لمن ضَلَّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون فى إبلاغ حجته ، وإيضاح محجَّته[2] ، ببوالغ الإنذار والإعذار ، ويصرِّفون بما أودعوا من سرِّه المكنون ، لبثِّه فى الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المخبوء[3] بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سِرُّ هذا النبأ السيار وارث ذلك المقام الذى هبَّتْ تباشيره بأسماع ذوى الإصاخة[4] لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضى قُدُمًا فى التصميم وإنفاذ العزيم[5] على أمر طلقٍ وأبعد مضمار ، المعان فيما دعا إليه ، ونبَّه عليه ، بالعصمة التى لا تضرُّه معها إباءة أُباة[6] ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممشِّى أمره العزيز على ما له[7] من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلوءة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجَّه إليه داعية الاستبصار » .

وهو يحمد الله فى فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقيمون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل موحدية ص١٤١ ومابعدها .
(٢) فى الأصل : نجحته .
(٣) فى الأصل : المخبوء .
(٤) فى الأصل : الإضاحة .
(٥) فى الأصل : العريم .
(٦) فى الأصل : أَبَاء .
(٧) فى الأصل مآله .

منار حتى لا يضلُّوا الطريق السوى المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها فى السهول والحزون وكل مكان حتى يسعد الناس فى الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لابن تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدى المعلوم . والرسائل الموحدية جميعا تذكره فى فاتحتها وتضفى عليه هذه الصفات التى أضفاها على نفسه مقترضا لها من بيئة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها فى الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هداه وما وضع للدعوة من المبادىء والمراسم المحفوظة . ونراه يقول فى وصف ابن تومرت فى الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بَشَّر بعلامات المهدى وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان ابن تومرت لفّق له نسبا — كما يقول المؤرخون — يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم فى آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلدد (تلبث) الحيرة وتموُّج الفتنة وارتفاع العلم وفشوِّ الظلم . فظهر لما خصَّه الله به من الهداية ، وعلَّمه من الحكمة ، وأحلَّه مقام العصمة ونوَّله[1] من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدَّق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة أبيه عبد المؤمن الناشر لدعوة ابن تومرت والحامل العباد على طريقته المنصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدية تبدىء وتعيد فى فواتحها بالإشادة بابن تومرت وأنه الإمام المهدى المعصوم إلى أن تولَّى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لابن تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع فى الدولة رسالةً بذلك من إنشائه ، يقول فيها[2] :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافَّة ومَنْ معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم[3] الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوِسام[4] ، وإنا كتبناه إليكم — كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقَّادا — وللحقّ لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدّ ، وباب لا يُسَدّ ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانةَ به ، والتوكُّل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم فى المهد) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ،

(١) فى الأصل : نواه .
(٢) النبوغ المغربى ٢/١١١ .
(٣) أوزعهم : ألهمهم .
(٤) الوسام : الحسان .

فما الظن بمن لا يدرى بأى يد يأخذ كتابه ، أفٌّ لهم قد ضلوا وأضلُّوا ، وسقطوا فى ذلك وزلّوا ، اللهم اشهد أننا تبرَّأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار » .

غير أن عهد المأمون سرعان ما انقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدى المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندى بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم[1] » وفات القلقشندى أن يذكر أيضا الإكثار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن رَكْب الحجاج المغاربة ومصحفٍ خطَّه بيده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة[2] :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين ، مالك العُدْوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين ، وسلطان العُدْوَتَين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين وسلطان العُدْوَتين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح – لفتح معاقل الكفر ، وكسر جحافل الصُّفْر – أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيَّد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرَنج والكُرْج والتتار » .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعو له ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والاقتدار ، محمىَّ الحَوْزة حاميا للديار ، حميد المآثر المأثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زاك عميم ، تُشْرق إشراق النهار صفحاته ، وتعبَق عن شذا الروض المعطار نفحاته ، يَخُصُّ إخاءكم العلىَّ ، ورحمة الله وبركاته » . وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كنون طائفة كبيرة

---

(١) صبح الأعشى ٦/٤٤٦ .

(٢) النبوغ المغربى ٢/١١٥ .

منها وينشرها باسم رسائل سعدية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفشتالى صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء فى عهد المنصور الذهبى وهى موجَّهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربى الذى تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ/ ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاده واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول[١] :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه — عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثيل[٢] الأحفل — الأمر — سكيَّة ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهِّل المرام ، وميسِّر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذَّابِّين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم (جناب المنصور الذهبى) بالعزِّ السامى المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة الهبوب بالبُكَرِ والآصال ، ولله المنَّة » .

ويذكر الفشتالى بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح فى بتغازى (بين تمبوكتو ودرعة فى جنوبى المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبى وفى حكم إمامته وأنه يختص ببيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التى تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف فى سبيل الغزو والجهاد وفى أرزاق العساكر الأجناد ، التى جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتددناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محببا له فى الرضا عن دفع بتغازى لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى رواتبهم من هذا الخراج هم « جنود الله التى لولاها — وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفُها القاصمة ، وضربت فى وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام فى عُقْر داره — لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوبٌ[٣] هاطل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم فى كفالتها آمنين ، وفى حِياطتها وادعين ومطمئنين » . ويطلب إلى سكيّة الإسعاف والإسعاد وأن لا يسعى فيما يبطل هذه الفريضة من الخراج التى تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله فى مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

---

(١) راجع الرسالة فى كتاب رسائل سعدية لكنون ص١٣٢ .

(٢) الأثيل : الأصيل .

(٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة فى لغة رصينة امتاز بها الفشتالى - فى شعره كما مرَّ بنا - وفى رسائله ونثره .

وتظل فى العصر العلوى الرسالة الديوانية محبَّرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التأنق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدبى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشىء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العمراوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوى عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول(١) :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا ، وحَمْلَهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدة فى بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم ، وخبث طوِيَّتهم ، واتكالهم على حَوْلهم وقوتهم ، وما رأوا منا لينًا وسدادًا ، إلا ازدادوا شدة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخَّرنا الفئة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وإلفا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طَمَسَ الإعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعى أن تكثر الرسائل الشخصية فى المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجرى لاكتظاظه بالكتَّاب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به فى القرن السادس رسالة للقاضى أبى موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفاس فى طلب العلم ، وهى تمضى على هذه الصورة(٢) :

« إلى ولدى .. هداه الله وصانه ، وجمَّله بالعلم والتَّقْوى وزانه . كتبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تتيسَّر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا وجدتكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء - جازيتكم بما يُرْضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنِّيكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرُسْ تَرْؤُس ، واحفظ تُحْفظ ، واقرأ تَرْقَ . ومهما ركَنتَ إلى الدَّعة كنت فى

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .

(٢) النبوغ المغربى ١٦٥/٢ .

أهل الضَّعَة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْده فاجتلبْه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّه فاجْتَنِبْهُ ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المــــرءُ إلا حيث يجعل نفسَه ففى صالح الأعمال نفسَك فاجعلِ »

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمَّل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكافئه مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يتمناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوى للكلام ، ويذكر له أن ما يتمناه الشاب فى المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق فى الدرس حتى يأتى يوم تروَّس فيه أقرانك واحفظ المتون والعلوم تَحفَّظِ ، وأكِبَّ على القراءة يرقَ فكرك وترق بين الناس ،أماإذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانحطاط والخسَّة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شىء وحمده فاجتلبه واكتسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شىء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغى لك دائما أن تتخذ لنفسك فى الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلوَّمك أحد على الإفراط والمبالغة فى شىء ولا على التفريط والتقصير فى شىء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه فى المنزلة التى يختارها لنفسه ، وينبغى أن تضع نفسك دائما فى خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف فى العهد المرينى قصيدة مع رسالة فى شبابه إلى ابن هانىء السبتى الذى مر بنا أنه توفى شهيدا فى جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ/١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هانىء برسالة طويلة جاء فيها[١] :

« هذا – بُنَىَّ – واصل الله لى ولك علوَّ المقدار ، وأجرى – وَفْقَ أو – فوق إرادتك وإرادتى لك جاريات الأقدار ، ما سنح به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، فى مراجعة قصيدتك الغرَّاء ، الجالبة السرَّاء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفِّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيع[٢] والأسلوب ، المتحلية بالحلى السنيَّة ، العريقة المنتسب فى العُلا الحسنية .. وإنك واحد حلبةِ البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القِدَم ، وأقرَّ لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقِّ فصاحة ألفاظٍ أجدتها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزِنتها حين وزنتها ، وبراعة معانٍ سلكتها حين ملكتها ، وأصَّلْتها[٣] حين فصَّلتها ، ونظامٍ جعلته بجسد البيان قلبا ولِمعصمه قُلْبا[٤] ، وهَصَرْتَ حدائقه غُلْبا[٥] ، وارتكبت رويَّه صَعْبًا .. بُنىَّ ! كيف رأيت للبيان هذا الطَّوْع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدريس ، ومحلّ

(١) النبوغ المغربى ١٥١/٢ .
(٢) المهيع : الطريق البين .
(٣) أصلت : أبرز .
(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .
(٥) هصر : جذب وأمال . غلبا : كثيرة الأشجار .

دعواه بين رحلة وتعريس[1] ، كم بين ثُغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفَرِيس[2] ، كما أنى أعلم قطعا وأقطع علما ، وأحكم قضاء وأقضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارَضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدتُه لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقدلك اليَدَ الطُّولى ، وأقرَّ فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغايات والأطماع ، ونَسِيَ كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربَّه من الأُلْهِية » .

ويبدو أن أبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسموا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانىء السبتى ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد ببلاغته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدما مما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانىء بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من بيانك ، ويبالغ فى ذلك قائلا إن بيانه كثغاء أو صياح بقر الفلاة بينما بيانك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرَّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكاتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر تارة ، وبالرسائل تارة أخرى ، وممن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنَّان المكناسى محاولا أن يحرِّك قريحته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيانه ، وفيها يقول منوِّها برسالته إليه[3] :

« جلوتَ علىَّ من بنات فكرك عقائلَ نواهد ، وأقمتَ بها على معارفك الجمَّة دلائلَ وشواهد ، واقتنصتَ بشوارد بديهتك من المعالى أوابد شوارد ، وفجَّرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من إجراء ظالعى فى ميدان ضليعها[4] ، مقابلةَ الشمس النيرَّة بالسِّراج عند طلوعها ، فأخلدتُ[5] إخلاد مهيض الجناح ، وفررت فرارَ الأعزل عن شاكى[6] السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دَلْوَ قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلَّف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك – يا سيدى –

(١) تعريس : إقامة .
(٢) الفريس : ما يفترس من الحيوانات .
(٣) النبوغ المغربى ١٥٥/٢ .
(٤) الظالع : الأعرج . الضليع : القوى المتين .
(٥) أخلد : سكن وفكر .
(٦) شاكى السلاح : كامل السلاح .

لا يُحَلّ وثيقُ مُبْرمه ، ولا يَحلُّ نَسْخُ محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر » .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب فى رسالته ، ومعروف أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجعاته ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه فى جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالعا أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه فى نورها يبين ، وسكن محسًّا كأنه مهيض الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمسها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء بيديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضاءه عن ضعفه فى البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وفَصًّا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب فى عصره يُعَدّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية(١) :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصمنا من خطل القول وزَلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال . هذه أوراق ضمَّنتها جملة من بنات فكرى ، وقطعًا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربتُ عن كَتْبها كلَّ الإضراب ، ولزمت فى دَفْنها وإخفائها دِينَ الأعراب ، ولكنى آثرت على المَحْوِ الإثبات ، وتمثَّلت بقولهم : « إن أحسن ما أُوتيتْه العرب الأبيات . وإذا هى عُرِضتْ على ذلك المجد ، وسألها كيف نجتْ من الوَأْدِ ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فِنائكم إلى معرَّسٍ ومَقِيلٍ(٢) ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنمْ قليل الهدية منى إن جهد المقلِّ غير قليل ، فحسبها شرفًا أن تبوَّأتْ فى جنابك كنفا ودارًا ، وكفاها فخرا ومجدا أن عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجِوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا متنع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محوا ، غير أنه عاد فآثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرِضت

---

(١) النبوغ المغربى ١٧٦/٢ .

(٢) معرس : مبيت . مقيل : مكان فى القيلولة بنصف النهار .

عليه ، وسألها كيف نجت من الوأد عرف أنها آوت من حرمه إلى ظل ظليل ، وحلّت من فِناءِ داره وساحتها إلى خير معرَّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يغضى عن عيوبها ، وحسبها شرفا أنها نزلت من جنابه دارا ، وكفاها مجد وفخرا أن انعقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبى الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتتحها بقوله[١] :

« أطال الله بقاء أخى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مُداراتهم ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشْرَعَة[٢] لصرم[٣] الأجل المُنْسأ[٤] ، معَدة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلْصال والحَمأ ، فمن ميِّت يُغْسَل وآخر يُقْبَر ، ومن أجل يُطْوَى وكفَنٍ يُنْشر .. وكلما خربتْ ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة ، وكلما قامتْ فى شِعْب[٥] مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأملاك ، ويقول عن المتوفَّى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأَرْجُل أعوانه تَدِبّ إلى الأسفاط دبيب الصَّقر إلى الحجل[٦] ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووُزن بالأرطال ، وكيل بالأقداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرف يشرف فتسقط سُبْحته ، وتقسَّم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى العهدين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخابا يروق ويروع .

٤

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أقاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

---

(١) النبوغ المغربى ٢/١٧٧ .
(٢) مشرعة : مصوَّبة .
(٣) صرم : قطع .
(٤) المنسأ : المؤجل .
(٥) شعب : طريق .
(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُدْية أو الشحاذة الأدبية فى الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحِيلهم في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار ، واتخذ بديع الزمان لمقـاماته أديبا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندرى وراوية يروى أقاصيصه وحيله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته فى العالم العربى . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدْلى بدلوها فى هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما يلقانا من ذلك فى المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرينى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونحيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصبية . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها فى حسنها . وقد لقيهن - كما يقول فى مفتتح مقامته بوادى الجوهر فى إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياءُ وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت[1] :

« الحمد لله الذى جعل البياض طرازَ كلِّ جمال ، وشرَّف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزَّة لا تبيد ، وصيَّر السُّمْر لهم عبيد ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبتك يا ذات السُّمْرة ، أعندكِ يا سَمْراء ما عندى ، وليس قدُّكِ كقدِّى ، ولا خَدُّك كخدِّى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى[2] كقطع الزَّاج[3] ، ورَشْح عَرَقى كمسكٍ أذْفرَ ، يرشح من تحت البرد والمِغفر ، وثغرى أقحوان[4] ، وديباج وجهى أُرْجوان[5] ، وإن أسبلت[6] شعرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قُلْ للذى أزْرَى بأهل البياض ... ما أنت إلا باطلُ الإعتراضْ
فـوردُ خَدِّى أبـدا زاهِـرٌ ... فى كل فصلٍ فـوق خَدِّى ريـاضْ
يا حاسدى مُتْ كمـدا إنمـا ... تُجْنَى المُنَى من الخدود الغِضاضْ»[7]

وتقدَّمت السمراء ، وحطت اللِّثام ، عن وجهٍ شهىِّ الالتثام[8] ، وأبلغت فى السلام ، وأفصحت فى الكلام ، وقالت :

(١) النبوغ المغربى ١٩٥/٢ والوافى ٤٤٩/٢ .
(٢) ذوائبى : ضفائرى .
(٣) الزاج : عقار أسود يصنع منه المداد .
(٤) يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، وكأن تلك الزهرة تشبهه .
(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .
(٦) أسبلت : أسدلت .
(٧) الغضاض : الناضرة .
(٨) لالتثام : يريد القُبل .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرّق بين الصور والألسنة والألوان ، وزيّن الأبيض بشعَرٍ كالغسق[1] ، وباسوداد الحاجبين وسواد الحَدَق . وأجلُّ ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالا : مِسْكة الخال ، وعقرب الدلال .ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شىء بجبن الروم .. ما زال طعامك قليل المِلْح ، وجَفْنك كثير الرَّشح ، ولبنُك أذى ، وعسلى أنا غِذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أنشدت :

الحمـد لله ليس التِّبر كالوَرِقِ ... قد أحسن الله فى خَلْقى وفى خُلُقى[2]
فالجسم منى نُضارٌ صيغ منظره ... بمسكةٍ فغَـــدا طِيبـــًا لمنتشِقَ
يا من يعيرُنا باللون إن لكم ... جهــلا يقـــود إلى الطُّغيانِ والحُمقِ
كم أسمرٍ قلبـــه كافــورةٌ ولـــه ... من السَّعـــادة نجمٌ لاح فى الأفـــق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرقعت بنقابها ، وسلّمت على الصفَّين ، وقبَّلتْ أساريرَ الكفَّين » .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القَدِّ والخدِّ والجبين والضفائر المغرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بورد خدها وأنه يحيل خدودها رياضا ناضرة . ويُظَنْ كأنها ضيقت طرق الكلام على صاحبتها السمراء . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كنسق الليل وإعجابهم بسواد الحاجبين وحدق العينين ، وبدليل إشادة الشعراء بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدلى إلى الخدود كأنه العقرب ، وتقول صاحبتها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أماالعسل الأسمر المشبه لى فكثير الغذا ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أنشدتها شعرا يرفع التبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبتها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ - كالمسك - سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السُّمْر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جاريتان طويلة كاملة وقصيرة ، ومما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريعة يأجوج ومأجوج ، إن الحلىَّ على القصار كالدر فى نحور القرود ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النشير (حبل الغسيل) .

(١) الغسق : ظلمة الليل .
(٢) الورق : الفضة .

ويلي ذلك مشهد السمينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السمينة لصاحبتها إنك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية ومما تقوله الجارية العربية : نحن ربَّات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . ومما تقوله الحضرية : إن رُعْيان الجمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحَضَرْ   علينـــا ومنـــا وفينـــا ظَهرْ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : « الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب » ومما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعرى الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفى ألفاظك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لهن : « سأقول بينكن مقالة إنصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهنّ كلمة أرضتْها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمى لم يحاول أن يحاكى بديع الزمان ولا الحريرى فى مقاماتهما فإن مقامته تُعَدّ طرفة أدبية بديعة .

ونلتقى فى العصر السعدى بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجيب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجيب ، ونذكر لذلك مثلا إذ يقول[١] :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم[٢] والتعريس ، فعلّ سؤدده غير مَقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رَنْده وعَراره[٣] ، فلا تسل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضَّاح ، والمجد الصُّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمى السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٦٩٩/٣ .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتحال . التعريس : الإقامة .

(٣) الرند والعرار : من أزهار البوادى .

مساوىء لغرض الإفحام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المِكْلاتى التى كتبها فى أواخر العصر السعدى تحية لمحمد بن أبى بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة[1] الزهرية فى مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَّام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ فى السحر بين الضياء والغبش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهَّمه من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ فى الافتخار بحسنه ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذى طالما وصف الشعراء بقَدِّه قدود محبوباتهن الحسان ، والنرجس يقول لغصن البان مفاخرا وواصفا نفسه :

« أما راقك الياقوت الأصفر ، وسَط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا النرجس ، ولو يوما فى السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرَّة دخان السراج ، وأخِفُّ على العشَّاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنـــا بعيَنْ مراقبٍ — يـاربُّ فَلْتكُ من عيـون النرجسِ

ويعترض زهر البنفسج ثائرا مفاخرا ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من ردّ ، وينشد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ — خجلاً توردُّها عليــه شاهـدُ
للنَّرجِس الفضــل المبينُ وإنْ أبى — آبٍ وحــاد عن الحقيقـة جاحدُ

وما يلبث أن يدخل الورد فى المعركة للرد على ابن الرومى ومن فضلوا عليه النرجس ، يقول المكلاتى :

وتدخَّل البنفسج « فأقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته وبنوده ، محمرَّ الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من التُرهات :

ولقد رأيت الوردَ يلطم خَدَّه — ويقول وهْوَ على البَنَفْسَج يَحْنَقُ
لا تقربـوه وإن تضوَّع نَشْرُه — من بينكم فهو العدوُّ الأزرق[2]

وكيف يفخر النَّرْجِسُ من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلاطين :

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما — وضَحَتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ
فانظـــر إلى المصفرِّ لونا منهما — وافهم فمــا يصفرُّ إلا الحـاسد

(١) انظر فى هذه المقامة النبوغ المغربى ٢٠٨/٢ .

(٢) تضوَّع نشره : فاحت رائحته .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضَّل النرجسَ فَهْو الذى يرضى بحكم الورد إذْ يَرْأَسُ
أما ترى الــورد غدا قاعدًا وقــام فى خدمتــه النَّرْجِسُ

أنا مشرَّف الربيع . ومُظهر ما له من البديع ، أُنْعِشُ الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافح ذكية[1] ، وروائح شذية[2] ، أبديتُ ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فمنىٌ الأبيض والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قانٍ[3] ونصفه ناصع ، وبالهند منى شجر يُخْرِج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك ملوكها ، ووسطَ عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلةٍ وفضلى على كل الرياحين ظاهرُ
زمانى على الأزمــان بى متشرِّفٌ وفخرى لمــن يبغى التفاخر قاهِرُ

وفخر الورد بديع ، وقد أنشد فيه المكلاتى مآثر من الأشعار التى تثنى على الورد وتفضله على النرجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف المكلاتى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حمامة مطوَّقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ، تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فَنَنِها ، وقالتْ : كلٌّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إلىَّ لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقيانا ستائر ، أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنا على ما زعمتم بنا من الجَوَى[4] وتباريحه ، آخذون فى ذكر الله وتسبيحه ، شُغْلنا بذلك فى الأسحار ، والعشىّ والإبكار ... ونشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يَحْدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد (وينشد) :

وكأن صوت الرعد خلف سحابةٍ حادٍ إذا وَنَت الركائبُ صاحا
أخفى مسالكَها الظلامُ فأوقدتْ من برْقهــا كى تهتـدى مصبـــاحا
جادتْ على التَّلعات فاكتست الرُّبى حُللا أقــام لهــا الربيــعُ وشاحا[5]

فنثرتْ بالأرض جواهرَ تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبَّات والنحور ،

---

(١) ذكية : ساطعة .
(٢) شذية : عطرة نسبة إلى الشذى .
(٣) قانٍ : شديد الاحمرار .
(٤) الجوى : الوجد .
(٥) التلعات جمع تلعة : ما ارتفع من الأرض .
الوشاح : شريط عريض مرصع بالجوهر .

واختفت بعدما تجلَّتْ ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلَّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحْيا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فـ(اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج) فقلائدها مدبَّجة ، ورءوس أشجارها متوَّجة ، ولولاى لم يكن لكن مَرْعى ، ولا مسرحَ فى الأرض ولا مسعًى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالتْ : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح[1] ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاى ما جرت الأنهار ، ولا تفتَّقت الأزهار » . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنابه بهذه الفكاهة .

وإنما أكثرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوحٍ على روعة ما جلبه فيها المكلاتى من أشعار وإبداعه فى نثرها المسجوع سجعا يكتظ بالعذوبة مع مابثه فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشىِّ والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقتْ ما فيها وتخلَّت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كل زوجٍ بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطانها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسنفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يبكى فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخرَّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متنزهاتها ورياضها وأنهارها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشعر بحزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول[2] :

« منازلها خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغربان والبوم ، والحمائم تنوح فى أطلالها وتحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كسير » .

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول[3] :

(١) يوح : اسم للشمس .
(٢) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .
(٣) انظر المقامة فى النبوغ المغربى ٢/٢٤٣ .

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النَّوْر (الزهر) حُشِدت ألوانها وحُشرت :

والأرض تُجْلَى عروسًا فى ملابسها   وشَتْ حُلاها يَدُ الأنواء بالزَّهَرِ(١)

والنسيم قد عَطّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجرَّ ذيل دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلِطْمُ فيه أردافَ الرُّبى   مرحًا وتلثمُ أوجُهَ الأزهارِ
ومنابرُ الأغصان قد قامتْ بها   خطباءُ مفصحةٌ من الأطيار

.. والناظر الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنِّس الممثِّل .

إن هذا الربيع شىء عجيبٌ   تضحك الأرض من بكاء السماءِ
ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرٌّ   حيث دُرْنا وفضّةٌ فى الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملأ الفضاء ويُغِصُّ الفِجاج ، ويقيم فيكون هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسُورَ حفظٍ لا يُعْرَف له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعدَّدت ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصفوفه » .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلاتى والحضرمى - كما دلت الرسائل والخطب السابقة - على نهضة النثر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوى - من قديم - لمسيرة القوافل سنويا من المغرب الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضا فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافاتهم ، وكانوا يشعرون أن من واجبهم التحدث عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحيانا فى بعض المجالس من حوار علمى أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعُنى بعضهم بوصف رحلته ووصف البلدان التى نزلها وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

---

(١) الأنواء : الأمطار .

رحلة[1] ابن رُشيد

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء الثانى من كتابه « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البلفيقى أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أديبًا خطيبًا بليغًا ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوِّد النثر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيوخ ومجالسهم وأَخْذِه عنهم ، وسماها : « ملء العَيْبة (الحقيبة) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها – كما يقول الأستاذ ابن تاويت – مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعا خالصا كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدَع ، وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمَّاد[2] راويتها وحمَّال أوقارها »[3] .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمنه : بهاء الدين بن النحاس الحلبى الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درسا له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جُوًّا (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سَبْتة » فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتابه اليتيم إلىَّ ، يريد شرحه

(١) انظرها فى الوافى ٢/٣٨٥ وما بعدها . وتوسع المقرى فى الحديث عنه وعن رحلته وشمائله وشيوخه غربا وشرقا وتآليفه ويقول إنه كان ظاهريا ثم يعلق على ذلك بأن المعروف أنه كان مالكيا ويذكر عنايته بالحديث النبوى . انظر أزهار الرياض ٢/٣٤٧ .

(٢) حماد هو حماد راوية الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

لكتاب الإيضاح للفارسى .. ثم قال لى : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمَل (للزجاجى) والإيضاح والكتاب (لسيبويه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى جواره) وتلكأت فى هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أعبر إليه ، وعبرت ، فأقعدنى إلى جانبه ، فجلست مُغْضِيا (منكمشا) حياء منه ، فقال : اجلس متسعا ، فجلست وتمادى فى الإقراء ، فاختلست الكلام – أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم – مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وسألته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ، والتفت الشيخ إذ رآنى وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعك ، فقلت : يا مولانا لم يعرف المملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فعزم علىَّ فى العَوْد إلى مجلسى ، فعُدْت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأننت » .

ولوصف ابن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل عَلم النحاة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل العلمى فى العلم الذى يلقيه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبر الحلقة ويجلس بجواره رغم صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب الأقصى شبانا أو شيوخا ، وكانوا يتتلمذون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، وممن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكى والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العبد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبتة وأقرأ بها العربية طوال حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى ابن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أيعيش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تتلمذ عليه مثل ابن رشيد ، ولكن لأنه قرأ له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم بعض مؤلفاتهم فينعتونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاويت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ بالحجاز ، يقول :

« غريبة عنَّت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأقنت : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونَّكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وذلك أنه

صحبني في الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابغ ، رأيت عجبا من تخلل الوحوش والغزال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلست .. فقال لى ذلك الشيخ تأمل تر عجبا ! هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُدْنا محلّين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لى من معنى الآية ما لم يكن عندى بالمشاهدة .

وينثر ابن رشيد فى رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقا من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية فى البلدان العربية وشيوخها لزمنه .

(ب) رحلة[1] العَبْدرى

هو أبو عبد الله بن محمد العبدرى ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهى منطقة وعرة تمتلىء – كما يقول الحسن الوزان – بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ فى حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديبا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائما فى رحلته ، وقد بدأها – كما يظن – فى العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالى الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومرَّ منها بالمدن فى الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقطر المصرى بادئا منه بالإسكندرية وأعجبته فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدَّى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعاد من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا فى وصفه للبلدان يبالغ فى الثناء تارة ، وتارة ثانية يبالغ فى الذم والقدح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة فى الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصِّرة ، أشرفت من كثب على وادى (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جمة الأزهار والطُّرف . فَرعت (امتدت) فى سفح جبل حمى حِماها أن يرام ، وشُرعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورْشٌ به – لأفاق – المصروع ، وكأن حصباءه

(١) انظر فى رحلة العبدرى كتاب الوافى ٢/٣٩٣ وقد نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسى وهى مطبوعة فى الرباط .

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليانة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملىء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحاكة والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كانت القاهرة لم تعجب العبدرى فإن الإسكندرية أعجبته وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلَّ عنها ظُفْر الزمان ونابه ، وفُلَّ منها جيش الحِدْثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وُكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرتْ كيده حتى اضمحلَّ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير مئآد[1] ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنَّق[2] ، حتى أبدلتهم من الصافى المروَّق الكدر المرنَّق[3] ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلِّق[4] ، ودجا عليهم ليل هم ادلهمَّ بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسْفر عن مُحَيًّا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج[5] أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نوَّر ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر[6] ، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبَّر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفَّى فيها الإتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطَّره الأعلام ، وصرَّت[7] به على المهرق الأقلام » .

وكان العبدرى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالا ، ويمثل الأستاذ ابن تاويت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أُقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

(١) غير مئآد : مستقيم .
(٢) المخنق : موضع الحبل فى العنق للخنق .
(٣) المرنق : المزداد الكدر .
(٤) كريم جاهلى مدحه الأعشى بأن الكرم يبيت معه .
(٥) ساج : ساكن .
(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس الإسكندرية .
(٧) صرَّت : صوتت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم – دون ريث وتأن – البلد التى تأوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الثناء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغـادةُ الحسنـاءُ فـاق جمالُهـا فقـالتْ يمينـا لا خُطبتُ على زَوْجِ
إذا الغانيات ارْتَدْنَ وصفَ بعولـةٍ فما بى ولا فخرٌ – إلى الزَّوْجِ – من حَوْجِ
وفىٌّ لمكـدودى الحجيجِ اسـتراحةٌ فهم يَردونى الدَّهر فوجًا على فَوْجِ
وإنـى – إلى البيت العتيـق – كسُلَّمٍ بـه يرتقى مَنْ فى الحضـيضِ إلى الأَوْجِ

رحلة[1] العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٦٢٨/١٠٣٧ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به فحفَّظه القرآن الكريم وثقَّفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعرًا وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنوّرة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأنا دخلناها – كما تقدم – فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولا فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وبئران – كما تقدم – وكان قيِّم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولَّى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولاَّه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، وانتفع بالباقى ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها » .

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلا حرا طليقا فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأنما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوافى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ . وطبعت الرحلة قديما بفاس ، وعنى بطبعها وتحقيقها الدكتور محمد حجى وألحق بها فهارس مهمة .

فى القرن الحادى عشر يردّ على ما كتبه العبدرى عن طرابلس فى القرن السابع وذمه لها وقدحه فيها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٥٠ م ويصفها قائلا :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايبها قليلة ، أنيقة البناء ، فسيحة الفِناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طروقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحقّ ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو - دمَّرهم الله - وله مراكب قلَّ نظيرها معدَّة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أُسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين » .

رحلة(١) ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت (قرية ببوادى درعة جنوبى مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتثقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكانت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شعاب الحجاز :

« نزلنا غربى الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ) هبَّت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليَحْموم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كلٌّ ، ولا يُغْنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرَّت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

---

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص المقتبس منها كتاب   وما بعدها .
الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص١٧٢

تقوم ولو قُطِّعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرَّت الغرر وتغيرت ، واسودَّ أبيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا باس به (سليما) فإذا به يُخْشَى عليه الفوت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، فتاهت فى الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم فى طلب النجاة . يومٌ يذكِّر بالموقف والعرض ، (فى يوم القيامة) وضاقت الدنيا على سعتها فى الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالعطش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له فى حجته الأخيرة إنما حدث له فى حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تتضمن أهم المشاهد التى رآها أو صادفها فى رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعه فى مشهد هذا اليوم الحار وهى طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة[1] الوزير الغسانى

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الغسانى وزير السلطان إسماعيل العلوى المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان فى سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض فى افتداء الأسرى المسلمين ولمحاولة استرجاع الكتب العربية الباقية عندهم فى المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه فى المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا فى الفترة التى زارها فيها ، وهى مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله فى استقبال الملك الإسبانى له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل الميوردوم .. فسلَّم ورحَّب ودخل بنا الدار .. فجعلنا نمرّ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حدِّه ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة ببابها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفى هذه القبة وجدنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل فى عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هى عوائد ملوك العجم ، إذ هى عندهم بمثابة

(١) انظر فى هذه الرحلة الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهى مطبوعة بطنجة .

التاج ، وعن يمينه طبلة من ذهب مرصّعه أعدّها – وصنعها – أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى » .

رحلة[1] **محمد بن عثمان المكناسي**

ولد محمد بن عثمان بمكناس فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى وتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م وكان أديبا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوى كاتبا فى دواوينه ، ثم اختاره حاكما لتطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير فى فكاك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أديبا شاعرا وكاتبا ومن قوله فى وصف مَدْريد :

« هذه المدينة كبيرة غاية فى الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على ربوة ببابها وادى (نهر) مانسنارس زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادى الذى من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه فى غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلالها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادى المذكور على أكداشهم (دوابهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلائق أضعاف من تلقّانا بخارجها ، فسرنا فى سكك متسعة وديار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دارٍ شراجيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزاج عليها شبابيك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعتها من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥
كبار الكتّاب

(أ) القاضى عياض[2]

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصُبى السَّبتى علاّمة عصره ، استقرّ أجداده قديما فى مدينة بَسْطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بنى عبيد الفاطميين المغرب فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أول من نزلها من أجداد

---

(١) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضى عياض تحقيق الدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) وكتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والنبوغ المغربى ١١/٢ وفى مواضع متعددة والوافى ٥٢/١ .

القاضى عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهى المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه – كما يقول ابنه – معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وإكبابه على الدرس إلى أن برع فى زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان – كما يقول – من أئمة زمنه فى الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخريجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدَّونة سحنون ومختصر ابن أبى زيد القيروانى ، وكان نحويا ريَّانا من الأدب شاعرا مجيدا من أكتب أهل زمانه خطيبا مفوَّها ، مقداما على الأمراء فى استقضاء حوائج الرعية عندهم ، محبَّبا فى قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مُرْسية فى أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصدفى فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام(١) الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء فى بلدته سبتة سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م . وفى بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فردَّ جيشه أهل سبتة ومعهم القاضى عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتى فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضى عياض فى مدينة سَلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة – برأى القاضى عياض كما قيل – وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضى عياضا ، فأُخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن فى مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنثوره عفا عنه على أبرِّ وجه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزلته عنده تزداد كل يوم سموا ورفعة إلى أن توفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فصلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك فى خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة فى الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكى الصقلى محمد المازرى دفين المنستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له فى النقد والبلاغة سماه « بغية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فصلا فى ترجمته

(١) راجع فى هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص١١٩ وما بعدها والجزء الثانى من أزهار الرياض فى مواضع متعددة .

بالجزء الأول من كتابه الوافى بالأدب فى المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفى أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعات ، وروى له ابنه فى التعريف به خطبتين ، يقول فى إحداهما حاضا على التقوى :

« أيها السامع قد أيقظك صَرْف[1] القدر من سِنة[2] الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته ، فتأمَّلْ حدوده وتدبر محكم آياته ﴿واتْلُ ما أُوحِىَ إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا[3]﴾ أين الذين عَتَوْا على الله وتعظموا ، واستطالوا[4] على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقْدَرَ عليهم حتى اصطُلِمُوا[5] ، ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ غرَّهم الأمل وكواذب الظنون ، وذَهِلوا عن طوارق الغِيَر[6] ورَيْب المَنون ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون – حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعفُ ناصرًا وأقل عددا﴾ فهذِّبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله وأَخْلصوا واشكروا نعمته ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تُحْصُوها﴾ واحذروا نقمته ولا تَعْصوا واعتبروا بوعيده ﴿قُلْ كلٌّ متربِّصٌ فتربَّصوا ، فستعلمون من أصحابُ الصِّراط السَّوِىِّ ومن اهتدى﴾ وانْهضوا لطاعته هذه الهمم العاجزة ، وارْكُضوا فى ميدان التقوى تحوزوا قصب خَصْله[7] الفائزة ، وادَّخِروا ما يخلِّصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ويوم نُسَيِّر الجبالَ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ ذلك يوم تذهل فيه الألباب وتَرْجُفُ القلوب رَجْفا ، وتبدَّل الأرض وتُنْسَفُ الجبال نِسْفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرفا وحُشِر المجرمون يومئذ زُرْقًا ﴿وعُرِضوا على ربِّك صَفًّا لقد جئتمونا﴾ فُرادى ﴿كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ إن أحسن الهَدْى هَدْىُ محمدٍ نبيِّنا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهدْيه ، وتأدَّب بآدابه ومن الذين قالوا : ﴿سَمِعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نُشرك بربِّنا أحدا﴾ اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة وأوزعْنا[8] شكر ما أوليتَ من نعمة ﴿ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً وهَيِّئْ لنا من أمرنا رشدا﴾ » .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأمانى

---

(١) صرف : أحداث .

(٢) سنة : غفلة .

(٣) ملتحدا : ملجأ .

(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .

(٥) اصطلموا : استُؤصلوا .

(٦) الغير : الأحداث .

(٧) خَصله : فضله .

(٨) أوزعنا : ألهمنا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى . وتتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معانى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . ويأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياع كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع فى خطبه وأيضا فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبته وسجَّله منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أأَعْتِبُ أم أُعتِب ، وأعترف بالذنب أم أُذْنب ، لا جرم لو علمت لنفسى جُرْمًا لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حراما ، ولسلبتها لذيذ المنام غراما[1] ، حتى يَفِيء إليها من وجدَ عليها[2] ، ويرضى عنها المتظلِّم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدَّعيانه من الوفاء ؟ أحين جدَّت بنا الحال وشُدَّتْ للنَّوَى الرِّحال ، ودعا بنا داعى الزِّماع ، ومَجَلت[3] عين ويَدٌ للوداع ، اتخذتمانى ظِهْريًّا ، وصرت عندكما نَسْيًا منسيًّا ، لا أعلم لكما علما ، ولا ألقاكما إلا حُلْمًا ، كأن شَمْلنا لم يزل مُتَصَدِّعا ، وكأنا لطول افتراقٍ لم نَبِتْ ليلةً معا ، ماذا يُريب الغريب فى إغباب[4] الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤانسة الأوطان ، أَبى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يا بَيْتُ بالعلياء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه ذلك الجلال ،أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتما ! من الذى يُعْطَى الكمال ؟ أم ثَمَّ ذَنب يوجب الصدود ، ويُودِى بودِّ الوَدود ، أسمعاه ، لأرجع إلى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأَعْذِر ولا أعذل[5] وأنصف من نفسى وأعدل والسلام » .

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات والكنايات ، مما يدل - بوضوح - على أن القاضى عياضا كان يحبِّر أعماله الأدبية من رسائل وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حسًّا مرهفًا ، لا بما يورد فيها من سجع قصير يطير عن الأفواه بخفة ، بل بما يصور من حسه الدقيق ، بمثل تعقيبه على ما يظن صاحباه به من غلظ الخلال بقوله وقيتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون ريب كان القاضى عياض أديبا كبيرا . ومن طريف ما نقرأ له فى مقدمة كتاب الشفاء تحميده لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحمى[6] ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراما : عذابا وفى الأصل : عزما .
(٢) وجد عليها : غضب منها .
(٣) الزماع : المضىّ فى الأمر . مجلت : كلّت كناية عن الشيخوخة وفى الأصل : خجلت .
(٤) الإغباب : البعد فى الزيارة .
(٥) أعذل :ألوم .
(٦) الأحمى : الأمنع .

ولا وراءه مَرْمَى ، الظاهر لا تخيُّلا ولا وهما ، الباطن تقدُّسًا لا عُدْما وَسِعَ كل شيءٍ رحمةً وعلما وأسبغ على أوليائه نعما عُمًّا[1] ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنْفَسَهم عربا وعُجْما ، وأزكاهم محتدًا ومَنْمى ، وأرجحهم عقلا وحلما ، وأوفرهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم بهم رأفة وَرُحْمَى ، زكّاه روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصَمْا ، وآتاه حكمة وحُكْما ، وفتح به أعْيُنا عُمْيا وقلوبًا غُلْفا[2] وآذانا صُمًّا ، فآمن به وعزّره ونصره من جعل الله له فى مغنم السعادة قسما ، وكذّب به وصدف[3] عن آياته مَنْ كتب الله عليه الشقاء حَتْما ، ﴿ومَنْ كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى﴾ صلّى الله عليه صلاة تَنْمو وتُنْمى ، وعلى آله وسلّم تسليما » .

والتحميد والتمجيد فى لغة عذبة سلسة ، سواء فى الألفاظ أو فى الأسْجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر[4] أحمد بن عطية

أول كتّاب المغرب الأقصى النابهين فى ديوان على بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م وكأنه كتب فى هذا الديوان قبل العشرين من عمره ، وفيه تعرّف على تقاليد الكتابة الديوانية التى أرساها فى الديوان المغربى كتّاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة وابن أبى الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطين فَرَّ وغيَّر هيئته ، وكان محسنا لرمى السهام ، فانتظم فى الجيش الموحدىّ الذى خرج إلى مدينة سوس فى الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقُتل الثائر وانهزم أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إينتى كاتبا يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فدُلّ على أبى جعفر ، وكتب له رسالة طويلة أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكتبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصافة رأيه ، كما يقول المراكشى . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفى كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان أخوها يحيى فارسا وأبلى بلاء شديدًا فى مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

---

(١) نعما عما :نعما كثيرة .

(٢) غلفا : جمع أغلف : كأن على القلب غلافا .

(٣) صدف : أعرض .

(٤) انظر فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن عطية كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٦٦ - ٢٦٩ والإحاطة لابن الخطيب ١/١٣٢ - ١٣٩ والنبوغ المغربى ١٦٦/٢ والوافى ٢٥١/١ - وانظر فى رسائله مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية (طبع الرباط) .

فجعله عبد المؤمن قائدا على من دخل فى عقيدة الموحدين من لمتونة قومه ، ولم يزل مكرَّما عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحنقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك فى مجلسه فخشى أبو جعفر أحمد بن عطية على صهره يحيى من فتك عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفَّظ ، وإذا دعزناه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل (وكان صاحبها خارجا على الموحدين) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسرَّ إليه ما بلغه عن صهره أبى جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أبى جعفر وأخيه أبى عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م ، واعتُقل يحيى وظل فى سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن فى أبى جعفر وصاحبيه رأفة ولا شفقة ولا رحمة .

وأبو جعفر أحمد بن عطية يُعَدّ فى الذروة من كتَّاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله فى تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبتة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها فى تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أبى جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبتة كى يبلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره وأمدَّه بمعونته – إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسبتة وجميع مَنْ فيها من الموحدين خاصة وعامَّة – وفَّقهم الله وسدَّدهم – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مُولى الرَّغائب ، ومُسَنِّى[1] الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعيَّن من حمده الواجب ، ونصلِّى على محمد نبيِّه العاقب[2] ، وعلى آله وصحبه أولى المفاخر السنيَّة والمناقب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، المحرز شرفَ المبادىء والعواقب ، المجلِّى بنوره الثاقب حُجُبَ الظلام الواقب[3] .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مرَّاكش على أتمِّ أحوال الظفر واليمن ، وعُدْنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببَرْد الهدنة وسلامها ، وإلصاق أنوف الكفرة المرتدين برَغامها وقُطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة – وفقكم الله – بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزيىٍّ بحلته البهية

(١) مسنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

(٣) الواقب : الشامل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهدىّ – رضى الله عنه – العجب العُجاب ،وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرَّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين ، فمحقهم وطيسُها الشديد الغلاَّب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب » . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبتة : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبدالمؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الحنيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهدى ابن تومرت الذى أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة المكتوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانيَّة صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يصوِّر عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) – وفّقكم الله – هو أمر المهدى – رضى الله عنه – حقٌ فتأمَّل ، ومع معالمه الجلاء فلاظنٌ ولا تخيل . والمهدى – رضى الله عنه – قد بشَّر به النبى – صلى الله عليه وسلم – فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودُلَّ على اسمه وزمانه وفعله ومكانه بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى – رضى الله عنه – كما نعت النبى عليه السلام – ووصف ، وقال – صلى الله عليه وسلم –فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهورَ الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبيَّن الصبح لذى عينين ، وجَدع الحق أنفَ الكذب والمَين ، وتجلت[1] الهداية ضد الضلال والرَّين[2] » .

وعبد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهدى من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حُكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الحنيف ، ويقول إنهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروَّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جوانب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تينملل حين زار قبر المهدى فيها لشهر ربيع الأول سنة ٥٤٦ وهى أشبه

(١) فى الأصل : جلت .

(٢) الرين : الدنس .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغى أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجَّ به عبد المؤمن فى السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بأبيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة[1] :

« تالله لو أحاطت بى كلُّ خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرتَ بمن فى الوجود ، وأنفتُ لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوحِ ، فى الفُلْك إلى نوح ، وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حَبْلا ، وبَرَيْتُ لقُدار ثمود نَبْلا ، وحططت عن يونس شجرة اليَقْطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البَتُول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار النَّدوة ، وظاهرت الأحزاب بالقُصْوَى من العُدْوة ، وأبغضت كل قرشى ، وأحببت لأجل وَحْشِىّ كل حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشَحَذْت شَفْرة غلام المغيرة بن شُعْبة ، واعتلقتُ من حصار الدار وقَتْل أَشْمَطِها بشُعْبَة ، وقلت تقاتلوا رغبة فى الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثَّريد الأعْفَر ، وغادرت الوجه من الهامة خَضيبا ، وناولتُ مَنْ قَرَع سَنَّ الحسين قضيبا ، ثم كنت بحُفْرةِ المعصوم لائذا ، وبقبر المهدى – رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقالتى أن تُسْمَع ، وأن تُغْفَر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أميرَ المؤمنين فمَنْ لنا   بردِّ قلــوبٍ هدَّها الخفقانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته » .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أنى سخرت بكل من فى الوجود من خلق الله ، واستنكفت لإبليس من سجوده لآدم وأنكرت أن الله أوحى إلى نوح فى فلكه ما أوحى ، وأبرمت حبلا للمحتطبين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدارِ ثمود عاقر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التى أنبتها الله لتظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين ليبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أنى السامرى الذى قبض على شىء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسراعيل لعبادة العجل فى غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظاهرت الأحزاب وعاونتهم فى حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشى وأحببت لأجل وَحْشى

(١) انظر فى هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ المغربى للأستاذ كنون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية فى الإحاطة.

الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد كلَّ حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة أبى بكر وخلافته ، ولو أنى شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شُعْبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشُعْبة فى حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على الدرهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعلى بن أبى طالب خضيبا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيبا ليقرع السن - كما قيل - فى ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بحفرة ابن تومرت وقبره لقد آن أن تسمع لقولى وتغفر لى خطيئاتى وتعفو عنى . ولم يلن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجدية لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتبا بارعا وأن رسائله تعد فى الذروة من النثر المغربى فى مختلف عصوره .

(جـ) ابن[1] بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللَّواتى الطنجى المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م لأسرة كانت تشتغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت فى بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه - وكان فقيها - بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه لدراسة الفقه المالكى واستوعب ما عند شيوخه فى نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده فى الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقا إلى الجزائر ونزل مدنها الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وعرف فيه فقهه فأقاموه قاضيا بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبَّادها وتعرَّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إنى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فأجابه : نعمْ . فقال له : « لابد لك - إن شاء الله - من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنما تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيرا يطوف ببلدان العالم الإسلامى حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمما وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد فى الوجه البحرى مثل دمنهور وفوَّة بالقرب من رشيد ودمياط والمحلة الكبرى . وفى فوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه حلما عجيبا : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به فى سَمْت القبلة يتيامن ثم

(١) انظر فى ابن بطوطة ورحلته النبوغ المغربى ٢٢٢/١ ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكر خصباك (طبع بغداد) وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين مؤنس (طبع دار المعارف بالقاهرة) .

يشرّق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يبعد فى طيرانه إلى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركه بها . ويقص حلمه على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تحج وتزور النبى ﷺ وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له فى الهند والسند والصين إرهاصا ليصبح رحّالة بل ليصبح أعظم رحالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدّة معطّلا لخروج قبائل البجّة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول فى بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنوّرة فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل فى النجف وواسط والبصرة وشيراز فى إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلدانها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وظفار وعمان ودخل الخليج العربى وبعض بلدانه . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة لسلطان مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول فى بلاده وفى بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب فى أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك ويعدُّه من أعاظم ملوك الدنيا ، وأرسله فى ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها فى القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ويرحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجوَّل فى بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند فى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ويكرمه سلطان السند أو البنجاب محمد شاه ويوليه قضاء دهلى ويقيم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان فى وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوط إحدى ثغور الهند فى الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذيبة المهل (الملديف) جنوبى الهند ، وتولّى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول فى بلدانها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويبحر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر بسردانية وبتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠ ويرحب به سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول فى بلدان إمارة بنى

الأحمر بغرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جُزَىّ أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جُزَىّ يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جزى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . وابن جزى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعدُّه لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسّاكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعُمْلتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لابن جزى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنساك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقتطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطُّ رَحْل الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٍّ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجدّ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور ولهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان محاسنه إذ أُعِدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجباه (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والمتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلدانها ويصف مشاهدها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكامها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًّا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمَّى « الأخيَّة » ويصفه قائلاً :

ذكرُ الأخيَّة الفتيان : واحد الأخيَّة أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظَّلمة . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرِّدين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنَّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوِّ (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدَّمهم بما اجتمع لهم ، ويسمُّون الفتيان ، ويسمى مقدمهم – كما ذكرنا – الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلَّمه فيما بعد) وكان عليه أثواب خلَقة ، وعلى رأسه قلنسوة لِبْد (صوف) فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأخيَّة ، وهو من الخرَّازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدَّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صلَّيتُ المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبُسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أنبوبٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشَّحْم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم وفيها مقراضٌ لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكَّل بها ، ويسمَّى عندهم الجراغجى . وقد اصطفَّ فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف (جمع خفّ) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقرّ بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقرّ بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل » .

وبهذا الأسلوب المرسل فى حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة فى رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته فى هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخيَّة ، وأحيانا كانوا لا ينتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلات ، ودائما – كعادته فى كل بلدة نزلها – يذكر حكايات النسَّاك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . وينتقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذهابه لزيارته فى عاصمته « السرا » شمالى بحر خوارزم وكان معسكرا بجيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد « وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتُكسَى باللبد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيقان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب وهو فى حال سيره » .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعده من أعاظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذى كان يتخذه فى كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب » . ويفيض فى الحديث عن كل زوجة وجواريها ، ومماليكها وما أهدينه . ويعرف السلطان رغبته فى زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل فى إقليمي ويسوا ويورا (روسيا) فى شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالى ويسميها أرض الظُّلمة . ويعدل عن ذلك لعظم المئونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرُّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت فيها قدم الآدمى ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد » . ويصف العجلات التى تجرها الكلاب ومسيرتها . فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائقه . وتزور إحدى زوجات محمد أوزبك أباها ملك القسطنطينية فيرسله فى رفقتها يتجول فى بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى حاضرة السلطان ، وينوه بفقيه يسمى نعمان الدين الخوارزمى كان السلطان يزوره كل يوم جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفَّع عليه حتى إذا حضره المساكين والفقراء تواضع لهم وكلمهم بألطف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول فى التركستان ويمر ببلدان خراسان وأفغانستان إلى الهند ، وعيناه الواسعتان ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وحبوب وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم بالنار وتحريق النساء مع أزواجهنَّ حين يموتون وتقريبهم إلى إلهم بالغرق فى نهر الكنج المقدس ، ولا يكتفى برواية ذلك بل يعرض فى تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويحتفى به الأمراء والقضاة والفقهاء فى بلاد الهند حتى يصل إلى دهلى (دلهى) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحون ، وفى صحنه الشمالى صومعة (مئذنة) لا نظير لها فى بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفاحاتها (رءوس أعمدتها) من الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهلى ونسَّاكها وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلى والذهب ، ويقول إن سريره أو عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نصف ذلك ، ويطيل وصفه . ويخلع عليه الخلع السنيَّة وينعم عليه بوظيفة القضاء فى عاصمته ، ويظل يتولاها ثمانى سنوات كما مرَّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر فى الهند ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذيبة المهل (الملديف) ويفصل القول عن سكانها وملابسهم وعاداتهم فى الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندى والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون فى أغصانها . وأما شجرة الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة ، والمجلوب منها إلى بلادنا هو العيدان ، والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل فهو الذى يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج ، وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته » .

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكناهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازًا يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جدا وأنهم لا يتبايعون بالدينار والدرهم إنما بيعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوِّه ببراعتهم فى التصوير ويطيل الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدَّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعا أو أقساما مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد[1] بن على الفَشْتالى

من قبيلة فَشْتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتركها مبكرا للتزود من حلقات العلماء فى فاس ، وتفتحت موهبته الأدبية سريعا ، فكان شاعرا كاتبا وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رياسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديِّه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو يثنى عليه كثيرا فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : درة الحجال : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسراوة[2] ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، مؤثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المنتقى مرارا بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدح[3] ، المعلى ، الكاتب الأعظم ، والخِضَمّ المفخَّم ، الناظم الناثر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة العثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

---

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة الحجال ١٩٠/٢ والمنتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنبوغ المغربى ٢٧٥/١ لكنون وكتابه رسائل سعدية والوافى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدح المعلى : أكثر أقداح القمار نصيبا ويكنى به المكانة الرفيعة .

صاحب كتاب الريحانة وانعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجى – وقد أعجب به – يترجم له فى كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاى أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلائها الأكياس[1] ، تقدم فيها متقلدا قلادة إنشائها ، فائقا برسائله على سائر أدبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماع ، ورياض منثور تغرِّد حمائم قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحتفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائرى . ويقول الأستاذ كنون فى تقديمه لتلك الرسائل إن لمحمد بن على الفشتالى منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتوح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلا[2] :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصرِّف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى سنَّ تجهيز البعوث لتدويخ الأقطار ، بتوالى تكاثف القبائل والقِطار[3] ، والرِّضا عن آله وصحبه الذين اقتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتنموا نَشْر نسيمه البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيده عزًّا وظهورا ، ويجعله فى عين الوجود نورا ، فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العليَّة ، ومجمع المفاخر القرية والقصيَّة : حمراء مُرَّاكُش ، حرسها الله . هذا وإنَّا ننهى إليكم – عرَّفكم الله عوارفَ آلائه الجِسام ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحةَ القَسَام – بأنه لما انصبَّ عزمنا الميمَّن فى سالف التاريخ ، وتاقت هِمَمُنا العلية لتدويخ بلاد السودان بأتمِّ وجوه التدويخ ، وجَّهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة[4] ، جملةً يتكفَّل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونُبذة نُشرت عليها من ألويتنا الظافرة كلَّ فَتْخاء[5] قاهرة ، أطارها اليُمْنُ كلَّ مطار ، ولجَّج بها الإقبال لُججَ القِفار ، تخوض آلا[6] تراكَم أمواجه ، وتفتح بابًا طالما طُلْسِم رتاجه[7] ، فاقتحم العساكر أحياء وحِللا[8] وارتدى من المهابة وبُعد الصيت برودًا وحُلَلا ، حتى أدخل رِبْقة[9] طاعة هذه الإيالة[10] من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوَبريَّة من أعاريب الكُراع[11] ، التى لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهى التعداد بهم على حكم ما أدَّوه من الزكاة الشرعية لستة وأربعين ألف خَيْمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعضٌ من كلّ ، وجزء من جُلّ . وانتهى الغَوْصُ والإبعاد ، بما وجَّهناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحصيف .

(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .

(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق منتظم .

(٤) المنيفة : المتسامية .

(٥) فتخاء : عقاب .

(٦) آلا : سرابا .

(٧) الرتاج : الباب العظيم .

(٨) الحلل جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .

(٩) ربقة : حبل .

(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .

(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَقْرَبةٍ من ثمانين مرحلةً فى المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأنحاء التى جَنَا[1] طاعتها لهذه الإيالة – إن شاء الله – دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف[2] على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأخلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرُّهم ليَصُول ، وانتفض بُومُهم يشير للعِقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مسَّهم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأفنى جُلّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفرّ من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سبعمائة رام ، وقُرْب عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهبّ عليهم من رياح النصر كل صَبا ، واتخذوا الشهامة والجِلاد سبيلا ومذهبا ، فخفقت الألوية العلويّة بالنَّصر والظَّفَر ، وانْبَتّ[3] – بحمد الله – سِلكُ انتظامهم وانتثر ، وأتى الحَيْنُ والأسرُ على جموعهم فى الحِين ﴿ فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ » .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة بتمامها لندل على أسلوب محمد بن على الفشتالى المسجع ، وأنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بابًا طالما طُلسم رتاجه ، فاقتحم العسكر أحياء وحِللا ، وارتدى من المهابة وبُعْد الصِّيت برودا وحُلَلاً » . ويقول عن أهل السودان الغربى فى محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرُّهم وانتفض بومُهم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالنزول » . ولعل فى هذه الاستعارات وما يماثلها فى الرسالة ما يدل على أن الفشتالى كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا فى وفاة السلطان مراد خان ، وهى تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التى تُجال بأنظارها المسدَّدة قِداح التدابير الجلائل ، والمنزلة التى لها وفور الاختصاص من أُثْرة[4] الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التى ضَعْضَعَتْ عروش عظماء المشركين وطأطأت رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذى عليه فى دولة بنى عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجلّ ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعتبَر ، المشتهر ، الحظىّ ، السَّرِىّ[5] ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخصّ ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأنْقى ، الأظهر ، الأطهر ، المثيل ، الحفيل[6] ، سنان باشا أبقى الله حوزته[7] محروسة ، وربوعه بالمسرات مأنوسة ... هذا

---

(1) جنا : ثمر .
(2) ينيف : يزيد .
(3) انبتّ : انقطع .
(4) أثرة : خلصاء .
(5) السرى : الشريف .
(6) المثيل : الفاضل . الحفيل : المحتفى به .
(7) حوزته : دياره .

وقد طنَّ بهذه الأقطار ، نبأٌ فظيع التذكار ، فتّت الأكباد ، وأذكى[1] – على التنائى – لواعج الفؤاد . خَطْبٌ جلل ، ورُزءٌ فَلَّ ظُبا[2] الصِّفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البَسْطة فى السلطان ، والملك الموطَّد بتمهيد الأركان : الخاقان[3] الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين الكبار .. وليس بمستنكر كونه – رحمه الله – لأهل التوحيد يدا ، ولهمم المسلمين مددا .. وإنا لله وإنا إليه راجعون من مواراة الحفر منه بدرا طالعا ، وإغمادِها سيفا كان فى حماية الدين قاطعا ... واللجأُ فيه إلى الصبر الجميل ، والضَّراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لابقاء لمخلوق مع تهيِّىء رواحل الليالى والأيام » .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترن بأخيه ، فى سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه منها يهنىء سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ، فقد آسى[4] الدهر به » . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة لرسالته إنه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشُبَه الجموع نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم والاشتغال والتنازع والنواسخ . ونلتقى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقهة فى الدين ولحملة الرواية فى حفظ سُنَّة سيد المرسلين » . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول المنصور :

« وهؤلاء خدَّام جنابنا العلىّ واردون على تلكم الديار برسم جلب ما لعلكم تستفرغون فيه الوُسْع من الكتب لخزائننا العلمية الحافلة .. وأما التشوق لموضوعكم (لشرحكم) على مختصر خليل فشىء لا يكيَّف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرَّف ، وبودِّنا أن يكون من خزائننا الحافلة بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة » .

---

(1) أذكى : أوقد .
(2) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .
(3) الخاقان : لقب سلاطين الترك .
(4) آسى : عزّى وواسى .

والمنصور فى هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافى شيخ المالكية فى مصر أنه مرسل له ببعثة علمية لينتقى لها كتبا نفيسة ، مما ينبغى أن لا تخلو منها مكتبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى ، وكانت له شهرة مدوية فى البلاد المغربية . ولعل فى كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أنمحمد بن على الفشتالى كان كاتبًا بارعًا ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٣ م .

(هـ) محمد[١] بن الطيب العلمى

من الكتاب الشعراء فى أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفى الطريق صعدت روحه إلى بارئها فى القاهرة سنة ١١٣٤ هـ/١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربى بعده لا فى فاس مسقط رأسه وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتاتيب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكبَّ على حلقات العلماء فى جامع القرويين ، وتفتحت موهبته الأدبيه مبكرا ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مديح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسمطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » وقد عرض فيه اثنى عشر أديبا من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف فى الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقَرَع[٢] الرجال ، فى ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازَع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربى الشرقى ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذى طابت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراقِ ، وبلغت الروح التراقى وظُنَّ أنه الحَيْن وقيل : مَنْ راقٍ ، فكرت فيمن يفك من يد الأشواق أَسْرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُح ... وبالبـدر لم يطلع وباللَّيْل لـم يَسْرِ

(١) انظر فى ترجمة ابن الطيب العلمى ورسائله ومقامته النبوغ المغربى ٣٢٤/١ و ٢٢١/٢ والوافى ٧٨٩/٣ والدكتور الأخضر ١٧٧ .

(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

فما عثرت بعد معاناة البَيْن ، ومعاتبة الدهر المفرِّق بين المحبِّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استُخْرجت من بحور مَددك بمداد أقلامك ، كنت ادَّخَرْتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقَّدْتها بعد السرورِ بكَوْنِها وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

فما زالت تذكِّرنى أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين وتُخرسه إن صاح أوصال :

ذكرت بها بعد التفرُّق ما مضى زمان النَّقا والشىءُ بالشىءِ يُذْكَرُ

إلى أن استولت على يد الضَّياع ، وأعقبت لى ذلك الأمن بالارتياع ، فأصبحت من فراقك ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جُحْر مرتين :

وكنت كذى رجلين رجلٍ مريضةٍ ورجـلٍ رماها الدهـرُ يوما فشلَّتِ

غير أن الآمال كانت تشوِّفنى[1] ، والليالى لكتابك تشوِّقنى ، فكنت أصدِّق فيك الأوهام ، وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدَّقتُ وهمى فى الحديث ولم أقل خبرٌ رواه الوهـمُ وَهْو ضعيفُ »

وهو فى مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنى وزيادة) كما يقتبس من سورة القيامة : ﴿إذا بلغت التراقى وقيل : من راق﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوى : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ويتمثل بأبيات تتضح فيها رهافة ذوقه وبصره بالشعر العربى ودقة اختياره ، ولغة الرسالة وأساليبها تكتظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات والاستعارات . وكل ذلك يرفع من نثره وبلاغته فيه . ومن آثاره النثرية مقامة بديعة سماها « مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء وأنا أوجزها فى السطور التالية :

استهلَّها بأنه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذاكرون ما مرَّ فى أيام الشباب ، وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أنَّ شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألوه عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخبركم بخبر عجيب ، فقد صلَّيت يوما صلاة الاستخارة ، فوجدتنى مائلا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانوتا بسوق التجار ، لبيع القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيَّنت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان . فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد فى طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فتبعتها حتى دخلت دارا أنيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخيط الثياب فى دكان . ويذكر الشاب أنه احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح فى عقدها ، فأنبأه أن أباها خطيب البلد ، وهو كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردَّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوِّفنى : تجعلنى أتطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فدلَّه على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقيته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأيأسته منها ، فقال لها إنى لا أريد منها سوى قُبْلَتَيْنِ ، وأعطاها من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنعتها بلقاء الشاب المتيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجَّام ليستتم حسن مظهره ، فوجد الحجام شاربه طويلا فقصَّ أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجام درهما أعطاه لارتباكه دينارا ، فطار صوابه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنانيره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجَّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا مغيث والعجوز راجفة والبنت واجفة[1] ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجام يصيح : يا سيداه ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيسٌ فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بئرا فرمى نفسه فيها ليختبىء عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه مموِّها عليه : دخلت لكى أسرق ، فَحُمل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شان ، وأمر بسجنه ، وبقى فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعُرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرًا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها - كما ذكر الأستاذ ابن تاويت - من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والعذوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

---

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةٌ إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بابها ، على سعادة أربابها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خيَّاط يخيط فى دكان ، وعنده من الصناع والأعوان ، ذوو أذقان ومُرْدان[1] ، صِنْوانٌ[2] وغير صنوان ، فقلت فى نفسى : مِنْ هذا الخياط أستفهم ، عمَّا علىَّ أُبهم . فرجعت إلى دكانى ، ثانيا عنانى ، وأحضرت عِدَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآنسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجَّلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلىَّ من ضيق الحال والسَّغب[3] ، وأنشدنى لنفسه من شعره المستعذب :

أنا الخيَّاطُ لى رزقٌ ولكن   أرى حالى من الإفلاس عِبْرَه
ذراعى فيه من فَقْرى مِقَصٌّ   ورزقى خـارجٌ من عَيْن إبْرَه

فاستحسنت نظمه ، وحملت همَّه وسألته عن صُنَّاع دكانه ، وديار جيرانه ، فمازال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويعرِّفنى تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وقصدى أن تتضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتَّوْقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بين جنبيه ، والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج » .

والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الابتسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضروبا من التلاؤم الصوتى بين العبارات ويحسِّن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتنساب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العَذْب القَراح .

---

(١) مردان : جمع أمرد : شاب .
(٢) صنوان : شقيقان أو متماثلان .
(٣) السغب : الجوع .

القسم الثالث

موريتانيا

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

تقع موريتانيا فى الشمال الغربى من إفريقيا جنوبى المغرب الأقصى والجزائر ، وفى أقصى شمالها الشرقى الصحراء الغربية ، ويحاذيها فى الغرب المحيط الأطلسى ، ويشغل الشرق منها دولة مالى ، وتحاذيها فى الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التى نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالى .

وهى تشغل الجزء الغربى من الصحراء الكبرى التى تمتد حزامًا بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتناثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، ونلتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد نُمْضى مائة كيلومتر دون أن نعثر على بئر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها فى حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآتية منه ، وسطحها رمال سائلة وكثبان متنقلة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت – على مر العصور – كثير من القرى والبلدان ، والجو – وخاصة فى الصيف – شديد الحرارة ، ويعتدل فى المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريح السيروكو الحارّة والمحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتنعدم فى بعض الأنحاء . وقد تصبح الصحراء جافة جدا وقاحلة جدا كالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما فى رمال كالحة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجارى إلى تمبكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلأ ، ويزرع تحت النخيل فى الخريف الشعير والدُّخْن والذرة وأحيانا القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السِّدْر والطَّلْح .

وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التى أُسِّسَتْ سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

---

(١) انظر فى جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة فى أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان العربى وكتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيِّدت بواحة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا – من حينئذ – تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السماسدة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكانت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها – كما يقول الحسن الوزان – رقعة صالحة للزراعةبها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا ودَخنًا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشتغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى – إلى ذلك – كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على واديين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سَبخة إجِّل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحمَل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلَّت محل مدينة تغازَى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحتت ووُضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويباع الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهبا وفى مالى بثلاثين مثقالا ، ويُقطع قطعا يُتَبايع بها كما يتبايع بالذهب والفضة ، وقرية تغازَى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجْلَبُ لهم من تمبكتو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوما من تغازَى ، وماء آبارها مالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقى مدينة ولأته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتنبت بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتعانى المنطقة – كما يقول – من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العابرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

٢

التاريخ[١]

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم فى الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senhagal ثم أصبحت Senegal. ويقول ابن أبى زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة وبنو وارث ومنداسة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على أنعامها وألبانها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رءوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سموا الملثمين . وأخذت أضواء الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهرى وولايته على الديار المغربية (٥٠ – ٥٥ هـ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانيين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير (٨٦–٩٦هـ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية (١٢٧–١٣٧هـ) عُنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

---

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : « صورة الأرض » وراجع كتاب الحسن الوزان : « وصف إفريقيا » فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولاته وكتاب مناهل الصفا للفشتالى ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنقيطى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالى الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان .

غربى الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلماسة فى جنوبى المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربى آبارًا للقوافل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء فى مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريعا إلى بلاد السودان الغربى عن طريق القبائل الصنهاجية فى موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب إن بنى أمية أرسلوا جيشا لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه فى بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع فى شرقى السنغال الحديثة وجنوبى مالى الحديثة أيضا ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديما إلى ديار السودان الغربى الدين الحنيف وبقى هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء فى صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا فى أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية - وخاصة لمتونة - تتجمع فى مدينة أُوْدَغَسَتْ جنوبى منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة - ويسميها بعض جغرافيى العرب مملكة - ويذكر ابن أبى زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها - كما يقول - تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها كلها عامرة ، وكان يركب فى مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخم من الإبل ، وكان فى زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس (١٣٨ - ١٧٠ هـ) وطال عمره إلى أن توفى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له - كما يقول ابن أبى زرع - أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكا بالمعنى الحقيقى لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ - أو سادة - قبائل ، وأكبر الظن أن فى هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن وَنسبو بن نزار اللمتونى الأودغستى فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥ هـ) وكان يركب - مثل تيلوتان فى مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين فى مثلها ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان - مثل تيلوتان - يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افترقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تموّن بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازَى ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبى عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف باسم تاوشتا اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والحج ، وظل أميرا على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد فى إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاوشتا اللمتونى صهره يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان بأبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م وعرَّفه بما فى صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الحنيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليبصِّرهم بأمور دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاق بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالى ، وقبلها فقيه تقى ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالى إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفّظهم القرآن الكريم ويفقههم على تعاليم الدين الحنيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفوا حوله ، وبعد فترة ازورُّوا عنه ، وتوفِّى حاميه يحيى الكدالى فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لمتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والنسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلها معهما سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشراف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُغْلبوا من قلة ، وقد تعيَّن علينا - أيها المرابطون - القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافَّة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملثمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، وقَتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م يدعوان إلى الإسلام فى سودانيى التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وغير غانة . وفى سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحاؤهما كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدتين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لمتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م وقدَّم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متين الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آدرار وحصنى آزكى وأَوْدَغَست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلدانها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدى الشيعى الإسماعيلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقُتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أولى حسنات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذا يتغلغلان فيه شمالا واستوليا على أغمات وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م كما استوليا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسنة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبئون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة – وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا وآزمور وآنفة (الدار البيضاء) فى ساحل إقليم تامسنة ، وأخذا ينازلانها منازلات ضارية ، وفى بعض المنازلات والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، وبُنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأفتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثانية لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لمتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراكش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدى بنى يعلى الخزريين ، وتوغّل شرقيها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسبان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسبان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المتربصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا المدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وسياجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالتكرور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حماس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غانة ونشر الإسلام فى أنحائها ، ويقال إن أميرها السوننكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنغى فى حوض النيجر الأوسط ، وحقا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدى التجار والقبائل الصنهاجية قبل أبى بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فإنه أحالها بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أبد الآبدين . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذا آزكى وأَوْدَغَست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك يحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما يحسب لها ما أدته من خدمات جُلَّى فى الأندلس وحمايتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإسبان . وطبيعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جُلَّى وسَّع بها داره الإفريقية وعالمه الضخم .

وأبو بكر – دون ريب – هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكانتها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطين وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولاته ، وانتسب حكامها – كما يقول الإدريسى – إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبيها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وفرّ من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان (٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م – ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه فى موطنه وارتفاعه فى بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم إذ يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل بمدينة ولاتة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالى ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالى منذ عهد مارى جاطة (٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م — ٦٥٢ هـ/١٢٥٥ م) الذى وسَّع حدود دولته — كما أسلفنا — إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولاته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأَوْدَغَست ، فطبيعى أن تدين جميعا له ولمالى بعده وحكامها التالين . ويذكر ابن بطوطة عن ولاته أنها شديدة الحر وبها يسيرُ نخيلاتٍ يزرعون فى ظلالها البطيخ ، ولحم الضان بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموه وفى مقدمتهم قاضيها وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولاته فى عهد دولة مالى ، وكانت قد أخذت فى الضعف بينما أخذت صنغى فى حوض النيجر الأوسط شرقى السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالى ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا فى القرن التاسع الهجرى ، وبلغت غاية قوتها فى عهد أسرة إسكيا واستولى « سُنّ على » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت يفرّون منها إلى ولاته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالى ومدَّت سلطانها ونفوذها إلى ولاته وإقليمها فى موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد فى تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن أبى بكر (٨٩٩ هـ/١٤٩٣ م — ٩٣٥ هـ/١٥٢٨ م) الذى اتخذ مدينة تومبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولاته فى عهده وقال إنها تابعة لملك تومبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها فى جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول فى هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكتف بولاء ولاته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبى سلطان الدولة السعدية فى المغرب الأقصى (٩٨٦-١٠١٢هـ) فصمم على منازلتها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧هـ/١٥٧٩م فى عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة فى بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بغنائم كثيرة وسمع بالحملة صاحب برنو شرقى صنغى وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل فى أواخر سنة ١٠٠٠ هـ/١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبى مع هدية كبيرة

من فتيان العبيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنغى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعدَّ لذلك جيشا جرارا بقيادة جوُذر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضنية فى فيافى الصحراء وقفارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فوندبى شمالى جاو ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جوُذر إلى تومبكتو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال بعيدة جدا بُعْد المغرْب الأقصى عن تمبكتو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الحلى والذهب وعاد الجيش محملا بغير قليل منهما ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » وينثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سمى المنصور الذهبى .

وأهم ماعاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صنغى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجالا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولبَّاه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شنقيط ، وإليها ينسب إدْوعيش سكان تكانت وأبناء أحمد من دامان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرابيش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولاته وكأن قبائل حسان تغلغلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبًا كبيرًا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تتعرب من حينئذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعودوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بتربية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتابه الوسيط وتراجم أدباء شنقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكانت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دامان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أوكاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم تعمها وحدة بين قبائلها وسكان مدنها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سياسية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد – منذ المنصور الذهبى – تستشعر شيئا من الولاء لدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية الإسلامية فى البلاد .

الفصل الثانى

المجتمع والثقافة

١

المجتمع[1]

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع فى موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال فى الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك فى المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان ونزوله بتغازَى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتوحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أنعامهم متنقلين فيها وراء الكلأ ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمونها سنوات الخصب ، وتسمن فيها أنعامهم وإبلهم ، حتى ليرفعون عن ضروعهم ما يشدونها به من نسيج الحبال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفُصْلان ترضع أمهاتها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع لحلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكبر الفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لسنتين ونحوهما ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

---

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى .

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضا فى منطقة الحوض غربيها .

(ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأودابة فى مدن موريتانيا ، وكانت قديما تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول آبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليقتاتوا من تموره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدُّخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تشيست إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيرا ودخنا يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا ينبت فيها سوى النخيل ، ويزاول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والنعام ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدُّخن والذرة . ويقول أحمد بن الأمين عن شنقيط إن بها نخلا كثيرا ، وببعض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللوبيا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعا يسمى فُنْدى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقا يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كثير النخل وفى شماليها مزارع للفُنْدى والدخن ، ويقول عن تكانت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويعدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شىء يصدَّر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالا من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عادتهم أكل الخبز أو هم غالبا لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاما ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلا عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

(جـ) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازَى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا – فيما بعد – يستخرجونه من آجِّل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة العائد منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكانت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهبا . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمنه إن الحمل منه أى حمل البعير وهو – كما قال – لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازَى ، ووجده فى مالى

يباع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قريبة من تغازَى فما بالنا بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزروع والعبيد كانوا يبيعونه – أو يبادلونه – بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » وبنائق والفولُ المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز المندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويجنيه أهل القبلة من الأنحاء التى يكثر فيها القتاد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكانوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه لملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشترى بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون الفئوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يدبغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يَخِطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أوانى الخشب ، وكل تلك صناعات يدوية أولية .

(د) حياة بدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كانوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائرهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكانوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكانوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حَكم رضخ المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يتفق رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عِندهم – ولا يزال – على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكتفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذه البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى ولىّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتُحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد فى كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٢

الثقافة(١)

(أ) نشاط دينى تعليمى كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلدًا إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلُّم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن يفتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتّابا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشىء القرآن ورتلّه أو جوَّده تحوَّل إلى حلقة أحد العلماء فى المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية. كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وآدابها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك فى المدن يحدث فى أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم فى المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامى وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نحاة ولغويين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث فى موريتانيا مع انتشار الإسلام فى بلدانها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الحنيف ، واتسع ذلك فى القرن الخامس الهجرى حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين فى قبائل لمتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولمطة ، وسمِّى أتباعه هناك المرابطين أى المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللمتونى ثم مع أخيه أبى بكر يدعو أهل السودان الغربى – كما مرَّ بنا – إلى الإسلام ،

(١) انظر فى ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط سواء فى التراجم أو فى حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر الثقافة العربية الإسلامية فى كتاب الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد اباه وكذلك كتابه دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا .

وتوفى – كما أسلفنا – فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحولت كثرة من جيشه ، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدوِّى – دوىَّ النَّحْل – بآى القرآن الكريم ، وكانوا – بعد ترتيله أو تجويده – يلتحقون ببعض العلماء ، ولكن ليس فى أيدينا شىء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تُلْتَقَطُ – منذ القرن السادس الهجرى – أخبار العلماء وأسماؤهم التقاطا ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ، ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوَّه بإكرام أهلها وقاضيها له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيغزوسن على ملك صنغى تمبكتو ويشعل فيها النيران ويقتل خلقا كثيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيهها ومحدثها الإمام الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م ، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهائها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م ويقول إنه كان غاية فى الزهد والورع . وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولابد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ، غير أنه ليس بين أيدينا شىء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون .

(ب) التعليم والطلاب والشيوخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعربها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إيَّاه فى كتاباته أخبارًا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبى إذا بلغ خمس سنوات من عمره فى حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا فى تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطى أن كثرة معلمى الصبية فى هذه الدورة كُنَّ من النساء ، مما يدل على أن النساء فى موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللائى يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبى القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ فى الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف فى نوع العلوم التى يبدأ الصبى بتعلمها فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتى آدرار وتكانت ومن حذا حذوهما يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك فى متن مختصر لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى ومنظومة لابن عاشر فى الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبى زيد رئيس المالكية فى القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشىء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسى الجزائرى فى علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمون – فى أحيان كثيرة – علماء بعيدين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتانى إذن ، يقول الشنقيطى إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوبا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب إبل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناوبون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتابه أو لوحه ، ويقرأ فى الكتاب أو يحفظ ما فى اللوح ، وبالمثل يتناوبون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء – مثل الطلاب – لا ينفق عليهم أحد ما يستعينون به فى حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن فى موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاظر منتشرة فى مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفى الحوض جنوبا وفى الصحارى الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متقشفا فى ملبسه بالمراعى وبالمثل فى المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوهم إلى بيته أو يلتقى بهم فى مسجد ، وقد يلقى الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقْرئهم ويعلمهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطالب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس لعشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا فى الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا فى مختصر خليل فى الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس فى علم التوحيد أو فى علم المنطق أو فى العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق فى الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر ليبنى بها بئرا ، ويذهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة فى بعض الأمهات والأصول من الكتب .

(جـ) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا فى كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شبابها يتلقى العلم عن أساتذته فى البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعى أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان منتشرا فى مكتبات البلدان والقبائل فى القراءات كتاب التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى وقصيدة « حرز الأمانى فى القراءات » للشاطبى الضرير القاسم بن فيرُّه وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطبى ما دوَّنه الدانى فى القراءات بقصيدته ، وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرَى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون فى التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب فى التفسير وسماه الوجيز فى التفسير تواضعا وهو فى مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخَّص فيه التفاسير المأثورة كلها وتحرَّى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو فى عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السنى .

وكانوا يتداولون فى الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجى الأندلسى ، وخاصة كتابه المنتقى فى شرح الموطأ وتخريجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتانيين عنوا عناية خاصة بكتابه وبشعره وأدبه .

وكانوا يعكفون فى الفقه المالكى على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعنوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تعتز به المالكية وبكتاباته فى الفقه المالكى وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عنوا فى الفقه المالكى بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعنوا بألفية ابن مالك وشروحها وبكتابه لامية الأفعال ، وعنوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وبكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعنوا فى علم الكلام والتوحيد بالعقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجّنة للمقّرى ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلم الشنتمرى للشعراء الستة : امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى والأمالى لأبى على القالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا – وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية – فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

(د) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لنعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصّلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضًا تاريخيًّا موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالبا موسوعيين ، ولذلك كثيرا ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوى ، وتحار أى مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلا إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لندل على أن النشاط كان متسعا فى مختلف العلوم .

(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبى بكر من ولاته المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى وكان ملازما لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبى بكر التنواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرها لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيديلبى كان قارئا بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التنواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التنواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوى .

ويذكر كثيرا عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعا ، وكثيرا ما يُذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديمانى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسملة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمانى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرىء صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعا وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجيز برواياتها جميعا من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسنذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفاء ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقراءة نافع برواية قالون ، توفى سنة ١١٨٤ هـ/١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شنقيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م وكان يقرىء صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا منبثين فى كل بلد وكل حىّ من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتنبكتى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفى سنة ١٠٨٦ هـ/١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن أبى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفى سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن أبى بكر الغلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفتوى فى النوازل مطلعا على كتب الفقه المالكى المعتمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفى سنة ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون انبثوا فى أنحاء موريتانيا توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى (المترجم له فى المغرب الأقصى) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفى سنة ١١٢٣ هـ/١٧١١ م . ومنهم محمد بن أبى بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رياسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض (المواريث) حجَّ فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغبد فقيه تشيت ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجمانى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغيد ، توفى سنة ١١٥١ هـ/١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغيد ، وكان إماما عالما ، وكان المفزع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفى سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغبد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرىء طلابه رسالة ابن أبى زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يؤمها الطلاب فى تشيت ، وكان يدرس للرجال نهارًا وللنساء ليلا ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حَمَى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الزقاق فى مجلد ضخم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ م ومنهم سنبير قاضى أروان وكان بحرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرىء الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقته المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديمانى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة العليل على مختصر الشيخ خليل ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكه ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا بيانيا مفتيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزانة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م .

ويتكاثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد بيب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان لبن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الديباج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظرائهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وكان ابنه التجانى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السِّير والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات أبى المعالى إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أبيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدِىَّ الأبْيَيْرِىّ الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هتك أستار المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .

(و) أعلام النحاة والمتكلمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقانا حسنا ، وممن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فرارا من سُنّ علي حين استولى على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . وتزدهر الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى ونلتقى فى صدره بمحمد بابا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م . وممن نلتقى به بعده من النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويا فقيها منطقيا ونظم كتاب قطر النّدَى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطقيا ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رَتْق الحجر العَلِق فى أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م . ومن نحاة القرن الثانى عشر منير بن حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرىء الألفية لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويا لغويا محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفى سنة ١١٧٨ هـ/١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسى كان هو وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرىء تلاميذه ألفية ابن مالك مبستفيضا فى الشرح والتحقيق ، توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر مم الولاتى ، كان نحويا لغويا أديبا أخذ الناس عنه العربية وكان يقرىء طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولاميته فى التصريف قراءة بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٧ م . ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئًا فائقًا فى العربية وعلوم البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى القراءات السبع والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة بانت سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على نظم التلخيص للقزوينى وشروح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م . ومنهم محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويا لغويا عروضيا متكلما ، وكان يقرىء طلابه فى النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخزرجية ، توفى سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتبا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م . وتعاقبت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تتلمذ له بُلاً البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلاً عبد الودود بن عبد ألًّ ، وهو – كما يقول الشنقيطى –نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسراره ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيبويه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهائهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، وممن ألف فى علم الكلام مبكرا محمد بن أحمد الحسانى المعقلى ، وله فيه شرح الصغرى للسنوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعريَّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلا وتعليما ، وكان يقول : لو علمتُ عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلمها ، وكان يقرىء فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرىء عقيدة السنوسى المعروفة بأم البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنّة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرىء طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنّة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهبا الأشعرى اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقه والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاتى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرة الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ/١٧٧٨ م .

ومرَّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصانيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعْرَف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تتدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلا ثانيا لهؤلاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرىء تآليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونَظَم كتاب التلخيص فى البيان والمعانى للقزوينى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعانى ، وله تأليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى اليعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درسته لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرُّب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على ألسنة بنى وارث الصنهاجيين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع (٥٠ هـ/٦٧١ م – ٥٥ هـ/٦٧٥ م) وأخذ الإسلام ينتشر بين الصنهاجيين فى صحراء موريتانيا لعهد موسى بن نصير (٨٦ هـ/٧٠٥ م – ٩٦ هـ/٧١٥ م) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون الهجرية الثانى والثالث والرابع . وكان يعتمد حينئذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مرابطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلية والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حينئذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبْنَى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأيى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفَّت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدتها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل – كما مر بنا – فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل بلده سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م ونوَّه بأخ له مدرس ، ويغزوسُنّ على تمبكتو ويشعل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقيت مما أتاح لها أن تكون مركزا لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهبى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشا ضخما للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فتوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدراروتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرابيش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعربها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصيح كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتصاريف لاختلاطهم قرونا متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحتفظ بالمثنى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضا ما كانت تنظمه فى مواطنها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماسة والهجاء والرثاء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعربا حسانيا ، فالألفاظ هى الألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحتفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لاتزال تحتفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لاتزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أمم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصحاها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصحاها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستتم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر الهجرى – وربما قبله – عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فإنه نادر بحيث لا يوجد فى المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكأن الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فإنها – هى والبلدان الموريتانية – كانت تسارع إلى التعلم ، يدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرًا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تزاحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوّا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيَّل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

٢

شعراء المديح

أكثر من يوجَّه إليهم المديح فى موريتانيا السادة والشيوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثنيا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيوخهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفيعين ، كما يمدح الشيوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م للمجيدرى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرًا ، واتصل بالسلطان المغربى محمدين عبد الله (١١٧١ هـ/١٧٥٧ م – ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيرًا إلى منزلته منه : وكان يباحثه فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه الموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسططاليسى والنهى عن دراسته[1] :

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٣٣ .

بَلاه أميرُ المؤمنين محمدٌ وعاشره بالبحث حيناً من الدهرِ
وقد كان للإسلام بالنُّصح راعيا وناهيك من ذى فِطْنَةٍ عالمٍ حَبْرِ
ولكن ببادى الرأى أو بإشاعةٍ تراماه عن قوسٍ طوائفُ ذا العَصْرِ
وما كان فى كلٍّ العقائد لو دَرَوا يخالف أسلاف الأئمة فى فِتْرِ[1]
قفوا فانظروا فى نُكْرِهِ أعقائدٌ مَن الدين أم من منطقٍ سيقَ للسَّبْرِ[2]
أبانَ السُّيوطى نهجهم فيه جملةً وللقُرْطُبِىِّ مَن قبلهِ الأَخْذُ بالحَذْرِ

واليعقوبى ينوه بتكريم السلطان محمد بن عبدالله العلوى له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة – عن قوس واحدة – بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمته السالفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ، وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويعر أحد شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح حُرَم بن عبد الجليل العلوى واسمه محمد[3] :

أمحمَّدٌ أم ليثُ غابٍ مقبلُ وجبينُه أم عارضٌ متهلِّلُ[4]
قاضى قضاةٍ قد نمته مشايخٌ يَسْمُو بهِ حسبٌ ومجدٌ عُدْمُلُ[5]
سَهْلُ الجنابِ يلينُ ما لاَيَنْتَهُ وإذا يُسام الخسفَ ليثٌ مُشْبِلُ[6]
يا مَنْ سما فوقَ الكواكب مجدُهُ النَّجْم وانِ والسِّماكُ الأعْزَلُ
إن الكمالَ إذا يفوزُ بهِ امرؤٌ فى هذه الدُّنيا فأنت الأكملُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجعله ليث غاب شجاعة وضراوة ، كما يجعل جبينه سحابا متهللا كناية عن كرمه المدرار ، ويشيد بآبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل الجناب سخىٌّ ، ولَيِّن مع مَنْ يلاينه ، أما إذا سامه شخص خَسْفًا أو ظلما فإنه يصبح ليثا هصورا . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والسماك الجنوبى لا يلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فأنت الأكمل الذى لا يبارى ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح محمد بن كمال[7] :

---

(١) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .
(٢) السبر : الاختبار .
(٣) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٣٩ .
(٤) عارض : سحاب ممطر .
(٥) عدمل : قديم .
(٦) سامه خسفا : أذله أو ظلمه . ليث مشبلٌ له أشبال وأولاد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى العُفَـاةَ بواضـحٍ متبلِّجٍ متبسِّـمٍ يَسْتبشـر استهـلالا[1]
واللهُ إذ قسم المكارم فى الوَرَى أوفى له من حظِّه المِكْيالا
لو واجه البدرَ المنير بوجههِ لغدا بـه البـدرُ المنـيرُ هلالا
أو قابلَ الشمسَ المضيئة بالضُّحَى صَحْوًا لألبسَ وَجْهها أجْـلالا[2]
ولـو أنَّه وازنتـه بلداتِـه وزنـوا البعوض ووازنَ الأجبالا[3]
فتبـارك الله الذى أعطـاه ما يستوجب الإكـرامَ والإفضـالا

ومحمد مولود يمجِّد فى محمد بن كال كرمه الفياض الذى يجعله يلقى السائلين بوجه مشرق سمح مبتسم مستبشر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم فى الناس وفىَّ له حظَّه منها . ويعمد إلى المبالغة فى مديحه ، فلو أنه واجه البدر المنير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحية لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بأترابه لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فتبارك الله الذى تفضل عليه بكل هذه العطايا والمنح الجزيلة . ويقول على بن ألاَّ من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح بنى شعبان[4] :

اليومَ أصبح قد تفرَّدَ بالعُـلا والمجـدِ سادتُنا بنـو شعْبانِ
النازلون من الثغور مَخوفَها والقائلـون هَلُمَّ للضيفـانِ
وإذا الأمور تعاظمتْ وتشابهتْ فصَلوا الخطاب بحكمةٍ وبيانِ
كم فيهمُ من ناشىءٍ ذى بهجةٍ يُبْدِى دقيقَ الفهم بين معانى
حفظَ المسائل والعقائد فَرْعَها والأصلَ بعد فصاحـةِ الألحـان
وحَوَى حديث المصطفى بنصوصهِ وشروحـه ومعـانىَ القـرآن
قـومٌ إذا ما أَسْنتوا جـادوا كما جادتْ سواكبُ صَيِّب التَّهْتـانِ[5]

وهو يقول إن بنى شعبان تفردوا بالعلا والمجد والنزال الضارى فى الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة فى لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادلهمت وأشكلت نطقوا بفصل الخطاب فى حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئتهم ، فكم من ناشىء دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معانى القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إنهم إذا ما أجدبوا سنة استحالوا فى الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

---

(1) العفاة : السائلون — متبلج : مشرق .
(2) أجلال : جمع جل : غطاء .
(3) الأجبال : جمع جبل .
(4) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٥ .
(5) أسنتوا : أجدبو . الصيب : السحاب الممطر . التهتان : السائل بغزارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام (١٨٢٤ - ١٨٥٩ م) قائلا[1] :

خليفةُ مصبـــاح الهـــدى وحفيدُهُ ... ومحيى لعـــافى رَبْعـــه المتقـــادم[2]
غـــيورٌ على بيضـــاء سنّـــه الـــتى ... أُبيحتْ لها - لـولاه - كلُّ محـــارمِ
أنام عيونَ النـــاس تحت عدالةٍ ... وَقَتْ رِجْلَ سارى الليل لَدْغَ الأراقم[3]
فأصبح ثَغْرُ الأرض سُوقًا وأصبحت ... مآسدُها مَرْعَى المخـاضِ السواهـم
حمـــاها - حمـــاه الله - أن تستبيحها ... من اعدائهـــا دُهْم الدواهـــى الدواهـــم

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ربع الهدى القديم ، وإنه غيور على السنة التى لولاه لأبيحت لها كل المحارم . وقد شملت عدالته كل الرعية وعمَّها أمن واسع وقَى الناس لدغ الأفاعى الشرِّيرة ، حتى لأصبح ثغر الأرض الحربى سوقًا آمنة ، وأصبحت المآسد المخيفة بأسدها مرعى آمنا للنوق الحوامل ، وحمى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى الغاشمة . ونلتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وقد أكثر من مديح الشيخ سيديًّا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه[4] :

شيخٌ سَناهُ وصيتُه ونداهُ مــ ... ـلْءُ الأيدِ والأبصار والآذانِ
شَيْخٌ تَجرَّدَ للجميل فَدَأْبُهُ ... نَفْعُ الأنـام وطاعــةُ الرَّحْمَن
ولنعمَ مرتادُ الأرامل أنتمُ ... والشُّعْثِ والأيتـــام والضِّيفانِ
ولأنت أكرمُ ما حوتْ أقطارُها ... بل ما عليــه تعاقبَ الملوانِ
آلى الزمـــانُ أَلِيَّـــةً مبـرورةً ... أن لا يكون من الورَى لك ثانى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيديًّا إن نداه أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعادته نفع الناس بكرمه الفيَّاض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغبَرُّون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسما مبرورًا صادقًا أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . ونتوقف قليلا للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(١) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص ٥٣ .
(٢) عافى : دارس .
(٣) الأراقم : الأفاعى .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

ابن[1] رازكه

هو عبد الله بن محمد بن القاضى العلوى عبد الله المعروف باسم ابن رازكَة ، وهى أمه ، كان جده قاضى البراكنة الحسانيين ، ولد لأبيه فى أرض القبلة جنوبى موريتانيا ، وبها منشؤه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل فى تلقِّيها إلى شيوخها الأوائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلة موطنه إلى مكناسة فى المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوى النابه إسماعيل (١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م – ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازكه ووسع له فى مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطاياه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربى ، ولا ريب فى أنه كان لها أعمق الأثر فى ثقافة قبيلة ابن رازكه وثقافة موريتانيا عامة ، وأنشد الشنقيطى قصيدتين لابن رازكه فى مديح الأمير محمد بن إسماعيل وفى أولاها يقول :

فَتًى يستقلُّ البحـرَ جـودُ بَنانـهِ ... على حـالة استكثارِ حاتـمٍ الرَّشْحا
وآياتُ علـمٍ أخمدَ الجهـلَ نورُهـا ... وغايـاتُ جِـدٌّ ليس تَطْلابُها مَزْحـا
ورأىٌ يُريه اليـومَ ما فى حَشَا غَدٍ ... ويكشفُ عنـه مِن دُجَى ليلِهِ جُنْحَا[2]
وحَزْمٌ يهـزُّ الراسيـاتِ ثباتُـهُ ... وعَزْمٌ يحـاكى الزَّنـدَ ماضيُه قَدْحا[3]
ولـم تُذْعِن الأعـداءُ مَحْضَ مودَّةٍ ... إليـه ولكنْ إنمـا كرهـوا القَرْحا[4]
مواصِلةٌ حبـلَ الجهـادِ جيـادُهُ ... ووقفٌ على غَزْوِ العدا عَدْوُها ضَبْحا[5]
فلا زلتَ للإسـلام عيـدًا منغِّصـًا ... تنغُّصُ حُسْنـاهُ السَّعـانين والفِصْحا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بنانه قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل فى المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يبصِّره بما يأتى به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكى سيفُه الماضى الزندَ بشراره المميت ، مما جعل الأعداء تذعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياده لتواصل الجهاد والعَدْو فى غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

---

(١) انظر فى ترجمة ابن رازكه الوسيط للشنقيطى ص ١ – ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٧ ، ٢٢٩ .

(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .

(٣) الماضى : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجريه بعضهما ببعض لاستخراج النار منه .

(٤) القرح : الجرح والهزيمة .

(٥) ضبحا : عدوا شديدا .

النصارى مثل عيد الشعانين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هو الـوارثُ الفضلَ النَّبِيئِيَّ خالصًا ... من العلم والعليا ومن طيبِ مَحْتِدِ[1]
ثمالُ اليتـــامى والأيـــامَى مُوَكَّلٌ ... بتفريج غمَّـــاء الشَّجِى المتنكِّـدِ[2]
أغرُّ المُحَيَّا طاهـرُ البشـرِ طاهـرُ الـ ... سَّجا يا كريمُ اليـومِ والأمْس والغَد
حميدُ المساعى سار فى الرُّتَبِ العُـلا ... من المجـد سَيْرَ السـابق المتفرِّد
حَوَى شَرَفَ العلـم الرفيـع عِمادُهُ ... إلى شَرَف البيت الكريـم المصمَّدِ[3]

ويقول لمحمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عَروبٌ عـروسُ الـزىِّ أندلسيَّـــةٌ ... من الأدب الغَضِّ الذى روضُه نَدِى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعلياء وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غَمِّ الحزين المملوء نكدا وهمًّا ، أغر المحيا أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد تحلَّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانيهم . ويذكر ابن رازكه فىأواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشعر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى أبلى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . ونكتفى بما أسلفنا من مديح بديع لابن رازكَه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ/١٧٣٢ م .

محمد[4] اليدالى الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه – كما أسلفنا – « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب وليهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء موريتانيا ، وكان صديقًا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

---

(١) محتد : أصل .
(٢) ثمال: غوث . الأيامى هنا : النساء غير المتزوجات .
(٣) المصمد : المقصود لقضاء الحوائج .
(٤) انظر فى ترجمة اليدالى وشعره كتاب الوسيط ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ، ٢٣١ .

قاضى القُضاةِ سراجٌ لسُدْفة الجهل جالى(١)
وسيفُ حَقٍّ على أهـ ـل الزيـــغ والإعتزال
بـــه العلـــومُ تحلَّت أبْهَى حُلًى وحِلال(٢)
قد فـــاز منها بما لم يَخطِرْ لإنسٍ بِبـــال
مقامـــه فى الأعاريـ ـبِ والعقـــائد عالى
وفى البلاغـــة نظمًا وكلٌّ سحـــرٍ حـــلالِ
وفى العلـــوم جميعا وفى علـــوم الأوالى

واليدالى يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل وبدَّدها وأنه سيف حق فى قضائه وأحكامه على أهل الزيغ والضلال وفى آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدانت به العلوم ولبست أحلى حُلِيِّها وأبهى حُللها وثيابها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه فى أعراب موريتانيا وفى العقائد عال رفيع، وبالمثل فى الشعر الساحر الخلاب وفى العلوم جميعا وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة. وأجابه ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحلّه للغوامض المشكلة فى الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعرى ماض فى ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء فى موريتانيا والمغرب جميعه تعتنق العقيدة الأشعرية. وكان اليدالى ينشد:

ليس من أخطأ الصوابَ بمُخْطِ إنْ يَؤُبْ لا ولا عليه ملامَهْ
إنمـــا المخطىء المسيءُ الذى إنْ وَضُحَ الحـــقُّ لجَّ يَحْمِى كلامـــه

وهو يقول إن المخطىء هو من يتمادى فى خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالى فى مديح أحمد بن هيبة البركنى الحسانى قوله من قصيدة طويلة :

ورثتَ العـــلا والعـــزَّ والمجـــدَ أحمدٌ وبذلَ النَّدَى عن هيبَ مفخرةِ العَصْرِ(٣)
وإنك أسمـــاهم علـــوًّا ورفعـــةً بمنطقة الجَـــوْزا ومنطقـــةِ البَدْرِ
وأيامكـــم خُضْرٌ جَنَيْنَـــا ثمارهـــا بأيدى المُنَى ما بين أوراقها الخُضْرِ
وقاك إلهُ العَرْشِ يا أحمدُ الرَّدَى وجُنِّبْتَ أنـــواعَ المكـــاره والضُّرِّ
وأولاك ربُّ النـــاس فى نَفْسِك المُنَى وآلِك والأولادِ والمـــالِ والعُمْـــرِ

وهو يقول لأحمد بن هيبة إن العلا والعز والمجد والجود ورثتها جميعا عن أبيك مفخرة العصر ، وإنك أسمى العشيرة البركنيّة رفعة وعلوًّا فى منطقة برج الجوزاء الصاعد فى السماء ومنطقة البدر المنير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدى المنى من بين أعوادها وأوراقها

(١) سدفة : ظلمة .
(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .
(٣) الندى : الكرم والجود .

الخضر ، ويدعو له أن يقيه إله الكون الهلاك وينحّى عنه أنواع المكاره والضر ، ويعطيه ما يتمناه فى نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفى سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م وسنعود إليه فى حديثنا عن الفخر والرثاء .

حُرَم[١] بن عبد الجليل العلوى

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه فى أرض القبلة ، وبها نشأته ، وشغف بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتى شنقيط وآطار . وهو من تلاميذ المختار ابن بون فى العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه انتفع خلق كثير فى النحو والفقه ، وكان شاعرا يؤثر فى شعره الانسياب مع الطبع والسهولة فى اللفظ ، على نحو ما نرى فى قوله يمدح بُلاًّ الشقراوى الحسنى مشيدًا بعلمه وشعره :

إن بُلاًّ مشـايخٌ حـين تَعْـرو ... شارداتٌ تفـوت أزْكى العقـولِ
من فنـونٍ شتّى تُعَنّى المُعـانى ... من عَويصِ المنقـول والمعقـولِ
يُسْعِفُ السائلـين عنـه بما فيـ ... ـه لذى غُلَّـةٍ شفاءُ الغليـلِ
إن يَسِرْ لانتساب مجدٍ رَعيـلٌ ... كان بُلاًّ دليـلَ ذاك الـرَّعيلِ[٢]
شعـرُه مطـربٌ حميَّـاهُ تَسْرِى ... فى عظام الجليس مثلَ الشَّمُولِ[٣]
ينفثُ الـدرَّ واليـواقيت إلا ... أن للـدُّرِّ قسـوةً فى التَّليلِ[٤]

وحرم يقول إن بُلاًّ ليس شيخا واحدا بل هو عصبة من المشايخ وفضله يبدو حين تلم شاردات من العلوم لا تستطيع أزكى العقول أن تفقه عويص المنقول والمعقول فيها ، فسرعان ما يشفى ظمأ السائلين بحلّه لعويصها وتذليله ، وما من سابقين يسيرون فى ليل مدلهم إلى مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاحينه فى عظام السامع سريان الخمر فى الجسد ، وإنه ليلفظ الدرر واليواقيت الممتعة لقارئه دون أى عناء . ويقول فى مدح شعر الشويعر الحسنى :

معنـاهُ راقٍ راقَ حُسْنًا لفظُه ... للهِ فكـرٌ جـال فيـه ومِقْوَلُ[٥]
يُسدِى ويُلْحِـم فى البلاغـة حائكًا ... حُلَلاً يَتِيهُ بهـا القـريض ويَرْفُـلُ[٦]

(١) انظر فى ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص٢٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٢) الرعيل : السابقون فى الجماعة .
(٣) حمياه : شدته وسورته . الشمول : الخمر .
(٤) التليل : العنق .
(٥) مقول : لسان .
(٦) يسدى من السدا وهو الخيوط طولا ، ويلحم : من اللحمة وهى الخيوط عرضا . ويسدى ويلحم أى ينسج . يرفل : يجر ثوبه متبخترا .

أغْناه عن تعب التعلُّــم طَبْعُهُ إن العَوِيصَ لــه يهــونُ ويَسْهُلُ
إن البلاغة فى البليــغ غريزةٌ لا بالعـــلاج ينالهـــا المتطفِّـــلُ
هل مثــلُ أخلاق الكريـــم تخلُّقٌ لا ، لا ، ولا كَحَلُ الجفُون تكحُّلُ(١)

وهو يقول إن معانى شعر الشويعر راقية وألفاظه رائقة ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحوك فى شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجبا ويجرُّها متبخترا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف فى شعره ، وعويصه يسهل عليه دون أى عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليقة فيه وفطرة لا يوجدها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعى والتكحل ، وكأنه يعبر عن منهجه فى الشعر . توفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه فى شعر الفخر والحماسة .

٣

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر فن شعرى قديم تغنى به الشاعر الجاهلى مصورا فيه مثاليته الخلقية من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تغنى بمكارم قبيلته ومحامدها وبأسها فى الحرب . وظل الشاعر العربى – بعد العصر الجاهلى – يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر فى الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسى فى الحروب الكثيرة التى اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده فى موريتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالى مفاخرا بقومه بنى ديمان الحسانيين(٢) :

ونحن ديمانَ أقطابُ الرَّحَى وبَنُو ديمـــانَ خيرُ بنى حَسَّانَ أديانـا(٣)
نحن اكتسينا المعالى والعُلا حُلَلاً حمـــرا ودُرًّا وياقوتـــًا ومَرْجـانـا
ونحن كنا على وَجْه العُلا غُرَرا وفـوق هـام النَّدى والعِزِّ تيجـانا(٤)
وكانَ منزلُنا فوق السِّماك كما كُنَّا على وجَنـات الدهـر خِيلانا(٥)
حُزْنا المكارمَ والمجـد المؤثَّلَ والـ ـعلياءَ من سالف الدَّهْـرِ إلى الآنا(٦)

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا ينطوى عليه . الكحل : سواد الجفون خلقة .
(٢) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤١ .
(٣) أقطاب الرحى : السيادة .
(٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .
(٥) السماك : برج أو نجم – خيلان جمع خال : الحسنة على الوجنة .
(٦) المؤثل : الأصيل .

قلائدُ المجد فى أعناقنا نُظِمَتْ عِقْدًا وكنا لعَيْنِ الدهـر إنْسانا[1]
لا يَبْلُغَنَّ مَدانـا مَـنْ يفاخرُنـا فضلا وعلمـا وإيمـانًا وإحسانا

يقول إننا قبيلة ديمان أقطاب السيادة وخير قبائل بنى حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكتسينا حلل المعالى والعلا وحليهما من در وياقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه العُلا غررا بيضاء مشرقة وفوق رءوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك فى أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلياء إلى اليوم . وقد نظمت فى أعناقنا قلائد المجد ، وكنا – ومازلنا – إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعلما وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر فى قصيدة همزية . ونلتقى بعده بالمختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذى سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شنقيط وقد انتصروا فى حرب على أهل وادان[2]

سَمَا للمعالى مَنْ تقدَّم منهمُ ويَسْمُو على آثـاره مَنْ تأخرا
مآثِرُهم حَلْىُ الزمـان لو انَّه على صورة الإنسان كان مصوَّرا
وكم من فَتىً منهم يروقُك علمهُ ويهـزم من أنجـادِ وادانَ عَسْكرا
ويجعل فى إحدى يديه مهنَّدًا طَرِيًا وفى الأخرى كتابا مطرَّرا[3]
يحبُّ الـرَّدَى يـوم الوَغَى وكأنَّه إذا مـاتَ فيـه لا يزال معمَّرَا

وهو يقول إن جميع الرجال فى قومه شبانا وشيبا يسمون للمعالى وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلَّى بها ، ولو كان إنسانا لاتضحت مصورة على صدره ، وإن فتيانهم لعلماء يروقك فى السلم علم كل فتى منهم ، بينما هو فى الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل فى إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفى اليد الأخرى كتابًا بهيًّا . وإنه ليضحى بنفسه فى سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت فى الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدا فى ذاكرة قومه . ويقول الأحول البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م فى الحروب التى وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم فى بعض المواقع[4] :

همُ جَلبوا الحربَ العَوانَ فلم نزل نُبيدُ ونُقْصِى منهـمُ كلَّ جانبِ[5]
لدى مشهدٍ دارتْ رَحاهُ فجرَّعَتْ صَناديدهم حَتْفًا مريرَ المشـاربِ[6]
وولَّوا سراعـًا مدبريـن كأنهم بُغاثٌ تهاوَى من صقورٍ دواربِ[7]
وقَهْرًا طردناهم وخُضْنا حِمـاهمُ وهِجْنا همـومَ المعْـولاتِ النوادبِ

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .
(٢) الوسيط ص ٢٩ .
(٣) طريرا : ماضيا . مطررا : عليه بهاء ورونق .
(٤) الوسيط ص ٣١٠ .
(٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .
(٦) دارت رحى الحرب : نشبت وحميت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط فى الشجاعة .
(٧) بغاث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعا .

ألا إننا نَحْمِي الحِمىَ ونحوطُـه ‏ ‏ ونزدادُ صبرا تحت كلِّ النـــوائبِ
ومَنْ شاءَ فلينظرْ عواقبَ معشَرٍ ‏ ‏ جَنَى حَرْبنا يَزْجُرْهُ شُؤْمُ العـواقبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التي لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا نزال نقتل فيهم ونقصى بعض كتائبهم فى مواقع حامية الوطيس جرَّعت شجعانهم موتا مريرا ، فولَّوا مدبرين كأنهم بغاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدربة ، وقد هزمناهم قهرا وتغلغلنا فى حماهم وهجنا نساءهم وأعولن يندبنهم . وإننا لنحمى حمانا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، ومَنْ شاء فلينظر عواقب من نحاربهم ومدى ما جنته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من شؤم العواقب . ويقول محمد بن الطلبة اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م مفاخرا ببنى عامر[١] :

وبنو عامرٍ همُ القوم كلُّ الـ ‏ ‏ ـقوم والـرَّأسُ والذُّرى والـرَّوابي
وبهـاليـلُ كالمصابيح زُهْــرٌ ‏ ‏ من كهــولٍ جَحاجحٍ وشبابِ[٢]
دينهُم حفظُ دينهـــم وعُلاهم ‏ ‏ وعلــومِ الكتـــاب والآدابِ
لا همُ يَفْرحـــون للخـــير إن مَـ ‏ ‏ ـسَّ ولا يَجْزعون عند المصــابِ
صحب اللّهُ جمعهـــم وحباهـم ‏ ‏ بالرِّضـــا عنهمُ وحُسْنِ المــآبِ
وسَقَى اللّهُ حيث أمّـــوا وساروا ‏ ‏ من حَيَا المزن مُدْجِنات الذِّهابِ[٣] .

وبنو عامر – فى رأى محمد بن الطلبة – هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكثبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصابيح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلومِ القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعو لله لهم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند مآبهم وعودتهم ويسقى منازلهم ومسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن بيب المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م مفتخرا[٤] .

ألوى بصبرك لاعجُ الأشــواقِ ‏ ‏ إن الأحبَّـــة آذنـــوا بفراقِ[٥]
يا مَنْ يسابقنى ويطلب عَثْرَتى ‏ ‏ إنى – لَعَمْرُكَ – سابقُ السُّبَّاقِ[٦]
وإذا المســـائل أحجمتْ وتمنَّعتْ ‏ ‏ وأبتْ مشاكلُها على الحُــذَّاقِ[٧]

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤٦ .
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومثلها جحاجح .
(٣) حيا المزن: مطر السحاب. الذهاب جمع ذِهْبة: السحابة.
(٤) الوسيط ص ٣٦ .
(٥) ألوى : ذهب . لاعج : واقد . آذنوا : أعلموا
(٦) عثرتى : خطئى .
(٧) أحجمت : نكصت وتمنعت .

أعملتُ سَيْفَ الفكر نحو عَوِيصها فحَنَتْ علىَّ خواضعَ الأعنـاقِ(1)
فتبـوح لى بسرائـرٍ مكتومـةٍ حتى عن الأسطـار والأوراق

وهو يقول إن واقد الأشواق فى صدره ذهب بصبره ، فإن الأحبة على وشك الفراق . ويأخذ فى الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسابقه وينافسه ويطلب عثرته وخطأه إنه سابق السباق ، وإن المسائل إذا استصعبت وتمنّعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف فكره فى عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكتومة عن ظاهر المكتوب فى السطور والأوراق . ونتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

المختار(2) بن بون

ولد ونشأ فى منطقة تجكانت الموريتانية ، وتتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ، وكان يتعثر فى أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة فى العربية وجاءه الطلاب من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهى من أهم قبائل الزوايا فى مدارسة العلوم ، فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجارَى فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات فى بعض العلوم كان يقودها تلميذه محمد المجيدرى ومولود بن أحمد وعادوا إلى استسماحه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿تاللّهِ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ فأجابهم بما أجاب به يوسف إخوته ، إذ قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ . وعاد إلى موطنه وانثال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم يجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر فى أرض تجكانت ، فشرعوا يبنون الأخصاص لسكناهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا إلا بتعليمهم . وله فى النحو منظومة تسمى الاحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك فى الألفية وكتابه التسهيل وطبعت فى مصر ، وله فى النحو أيضا مقدمة ألّفها - كما مرَّ بنا - للمبتدئين ، وتكونت له فى النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بُلاَّ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يعتب فيها على قبيلة إد يقب اليعقوبية وتلميذه محمد المجيدرى ويفاخر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكرونى آلَ يعقوبَ واذْكروا ليالىَ أجلو ما على النـاسِ أظلما
وحين أُحلِّى منكـمُ كلَّ عاطـلٍ بِدُرِّى وأسقى باردى كلَّ أَهْيَما(3)

(1) حنت : مالت وعطفت .
(2) انظر فى ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٣٤٢ .
(3) الأهيم : العطشان عطشا شديدا .

وهو يقول لهم لا تنكرونى بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا حَلِّى لطلابكم المشكلات التى استصعبت وانبهمت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظمئهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرا بقبيلته وقومه :

ونحن ركبٌ من الأشواف منتظمٌ … أجلُّ ذا الخلق قدرا دون أدْنَانَا
نتلو كتابَ إلهِ العَرْش كلَّ مَسًا … وكلَّ يومٍ ومَنْ نَلْقَى توقَّانا
ومن تكنْ همَّةُ الأقدار نُصْرَتَه … لم تقدرِ النـاسُ أن تُوهى لـه شانا
وهمَّةٌ دونها هـامُ السماء ومَنْ … هِمَّتُهُ دونهـا هـامُ السَّما دَانـا[1]
وهَيْبَةٌ مُلِئَتْ منهـا القلوبُ فلو … نظرتُ شَزْرًا إلى أقْصَى الوَرَى حَانا[2]
ولا يُنَهْنِهُنى عن حاجـةٍ جـزعٌ … ولا ألـينُ وإنْ ذو لُوثـةٍ لانـا[3]

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلونه مساء وكل يوم ، وبنوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفا له شأنا وهم مهابون هيبة ملئت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مغضبا هلك خوفا وفزعا ، ولا يعتريه إزاء حاجة يريدها جزع ، وإنه صلب لا يلين ، إنما يلين الضعيف الواهن . توفى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وقبل بل قبل ذلك بسنوات .

محمد[4] بن سيدىَّ الأَبْيَيْرىّ

كان أبوه سيدىَّ جوادا جودا عظيما إذ كان غيثا مدرارا ، وكان عالما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذَّ أقرانه ، وشغف بالتصوف فشد رحاله إلى الشيخ المختار الكنتى الصوفى ولازمه ستة أشهر ، توفى عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع فى التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطى عن محمد بن سيدىَّ إنه نشأ فى نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوى الأديب ، ويتوسع فى ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، ومما أنشده قصيدة له يسخر فيها ممن يردِّدون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المغيرين على السواحل الإفريقية

---

(١) دانَ : عزَّ .
(٢) شزرا هنا : مغضبا . حان : هلك .
(٣) ينهنهنى : يكفُّنى – لوثة : ضعف وحمق .

(٤) انظر فى ترجمة محمد بن سيدىَّ الوسيط للشنقيطى ص٢٤٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٥٧، ١٨٩ .

المغربية ، وكأنه كان يُعِدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلا :

وفتيانٍ يـرون الضَّيْمَ صابا ... وطعمَ الموت خُرْطوما عُقارا[1]
أحبُّوا الملَّــة البَيْضا فكانوا ... عليهـا من مُراودهــا غَيــارَا
بأيديهــم مذرَّبـــةٌ طــوالٌ ... تُرِى الأقــران أعمارًا قِصارا[2]
جموعٌ تهزم الأعداء قهرًا ... فتتركهم جَدِيسًا أو وَبَــارا[3]
بنصر الله واثقـــةٌ يقينــــا ... فلا تخشى من الخلـق الحِذارا
لهــا إعــــلاءُ كِلْمتهِ مـرامٌ ... فلا غُنْمًا تـروم ولا افتخــارا

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرابه ، أما الموت فى ميدان الحروب فيرونه لذيذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الحنيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بواسل بأيديهم سيوف ماضية ، تُرِى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعوَّدوا النصر على أعدائهم حتى ليبيدوهم عن آخرهم فيصبحوا فى عداد الأمم البائدة مثل جديس ووبار ، ودائما يثقون فى نصر الله لا يخشون أحدا ، وقَصْدهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض فى قصيدة طويلة مذاكرته لزملاء أدباء يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبى الأشعرى وإمام الحرمين الجوينى ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم فى النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنابغة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقشين الأكبر والأصغر والأعشيين : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا وأبا العلاء ، وأبا نواس والمتنبى . وهى وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتانى من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمائله :

ومَنْ يَكُ راغبًا فى القرب منى ... يجـدنى دون مــاء المُقْلتين
ومن يؤثرْ قِلاىَ فليس شىءٌ ... يواصلُ بينــــه أبـدا وبينى
ألاحظُ من خَليطى كلَّ زينٍ ... كما أُغضِى لـه عن كـلِّ شَيْنِ
ولا أُصغى إلى العَوْراء حتى ... يُـرَى أنِّى أصـمُّ المِسْمعين[4]
وما جهلُ الجهـول بمستفزِّى ... ومالى بالدنيَّـــة من يَدَيْــن

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم والعقار : الخمر .
(٢) مذربة : من ذرب السيف والرمح : صار ماضيا .
(٣) جديس ووبار : قبيلتان من العرب البائدة .
(٤) العوراء : الكلمة السيئة . المسمعين مثنى مسمع : الأذن .

وهو يفخر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينيه ، ومن يؤثر بغضه يقطع كل صلة تصله به ، ولا أرى من صديقى إلا ما يزينه وأتغاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصغى إلى كلمة سيئة تقال عن أحد ، وأرى – حين تقال – كأنى أصم لا أسمع شيئا ، ولا تستفزنى حماقة الأحمق ولا أقترف عملا سيئا ولا خسيسا ذميما . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفى سنة ١٢٨٦ هـ/١٨٧٠ م .

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصبونه على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكد يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنافسات . وبمقدار شرف القبيلة وأمجادها ومآثر سادتها وفرسانها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من سهامه ، واتصل هذا الهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيرا فى موريتانيا بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحا يغض من شأن القبيلة المعادية وسادتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكثر منه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا خوفا من إثارة الحفيظة فى المجتمع الموريتانى المعاصر ولم يصرح بذلك الشنقيطى فى كتابه الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه – فيما يبدو – كان يرى رأى الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجَّاء كبير من شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور بلقب بوفمين[1] المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أيحسب أن لا يـزأر الأسَدُ الوَرْدُ ... ذئابٌ عَوَتْ لمـا تغافلتِ الأُسْدُ[2]

ومنها :

وعقلُ الذى منهـم يَشُدُّ عمامــةً ... كعقل الذى منهم يُشَدُّ له المَهْدُ[3]

ولا يضيف إليه أبياتا أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوما عند قبيلة إنتاب فى موضع يقال له إنجول فلم يكرموه ولا اكترثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهارير لا أُقمتُ فيه لدى ... إنتابَ يومًا ولا بِقربِ إنجولِ[4]
يومُ الإقامة فيهم خلته ظمأً ... يومُ القيامة إذ يحكيه فى الطول
حتى تذكرتُ أنَّ النـاس قاطبةً ... إذَنْ تُسـالُ وأنـى غيرُ مسئولِ

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .
(٢) الورد : الأشقر .
(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .
(٤) دهر الدهاهير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إتاب ومنازلها فى إنجول ، وقد أقام لديهم يوما خاله لطوله – وقد ظمىء فيه ظمئا شديدا – يوم القيامة ، وظنّ أن الناس ذهبت تُسأل وبقى وحده . وقال فى إدَوْداى إحدى عشائر بنى ديمان – وقد نزل عندها – يهجوها :

يا رُبَّ ليلٍ بهيمٍ ألَّيْلٍ داجِ قد بِتُّ فى ضَيْعةٍ لدى إدَوْداجِ[1]
حتى إذا ما دنا الإصبـاحُ نبَّهنى وَغْدٌ على لقمـةٍ فـى قَعْرِ مَجّاجِ

وقلب الياء من قبيلة إدَوداج جيما محاكاة لبعض لغات العرب فى هذا القلب ، وهو يقول إنه بات فى ليل بهيم مظلم أشد الظلام بضيعة عند إدوداى ، حتى إذا اقترب الصباح نبهه وغد لئيم على لقمة غير سائغة فى قعر إناء يَمُجُّ ما فيه ويلفظه لسوئه .

ويسوق الشنقيطى للمأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة البعقوبيين وصاروا جميعا يدًا واحدة عليه كما مرَّ فى ترجمته ، وله يقول موهِّنا علمه بمنطق أرسطو وبأحاديث الرسول[2] ﷺ :

أكثرتَ حَزَّك لـو دريتَ مَفْصِلَهُ فادْرِ المفاصلَ قبـل الحزِّ واستَفِقِ[3]
ما الدينُ إلا الذى تَسْعَى لتوهنَهُ آىُ النبىِّ وآثـارُ الهـدى العَبِقِ[4]
لا كلُّ خَبْطٍ عن اليونان مبتدَعٍ قد سُنَّ بين أصول الدين مُخْتلَقِ
تَحْمِى قواعدَ رَسْطـا ليسَ تحسبها دينـًا لك الـويلُ نَبَّهنـاك فاستفقِ
إن كنتَ تورد نَسْخًا أو معارضةً لذِى الأحاديثِ فاذكرْ ما ترى وسُقِ
وإن تكن قاصرا عن كونها ثبتَتْ فيما حوى شَرْحَه الحُفَّاظُ فى الـورقِ
فاعرفْ مقامك فى دَرْكِ العلـوم ولا تعرضْ لمن خاض فيها شاسع الشُّقَقِ[5]

وهو يصفه بأنه أكثر الحزّ ولايصيب المفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحزّ ، ويقول له ما الدين إلاالذى تسعى فى توهينه من معجزات الرسول وآثار هداه العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذى تزجُّون به فى أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسطاليس المنطقية وتتخذونها دينا لكم وشعارا . ثم يقول إن كانت الأحاديث التى تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذكر ذلك وسُقْ أسانيدها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها فى كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك فى معرفة العلوم ولا تتعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده فى هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجابُه بمنطق أرسطو لايشينه ، فقد كانت دراسته عامة فى جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطى فى ترجمته بأنه « تاج

(١) بهيم : مظلم . أليل : شديد الظلمة . داج : معتم .
(٢) الشنقيطى ص ٢١٧ .
(٣) المفصل : ملتقى كل عظمين فى الجسد .
(٤) العبق : العطر .
(٥) الشقق : جمع شقة : الناحية يريد أنه متوسع فى العلوم .

العلماء.. ولايوجد عالم بعده إلاوله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسنداته» .

٤

شعراء الرثاء

للرثاء عند العرب –منذ الجاهلية– ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التأبين ورسم فضائل الميت لبيان خسارة القبيلة أوالمجتمع فيه ، وصورة العزاء وبيان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تختلط هذه الصور فى المرثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقانا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرثى أعمر آكجيل التروزى[1] :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربُهْ   وحَوْضُ زُعافٍ كلُّ من عاش شاربُهْ[2]
وما الناس إلا واردوه فسابقٌ   إليــه ومسبـوقٌ تَخُبُّ نَجائبُــه[3]
يحبُّ الفتى إدراكَ ما هو راغبٌ   ويدركه – لابدَّ – ما هو راهِبُهْ
وكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءَه   على فَجْأةٍ عادٍ من الموت سالبُه
وما صــان حَبْرًا علمُــه وكتابُــه   ولا مَلكـا أعلامُــه وكتائبــه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف مصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كلٌّ من عاش على ظهر الدنيا لابد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سابق إليه ومسبوق تعدو به ركائبه . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس لثوب الحياة يفجؤه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلعه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك راياته وكتائبه . ويرثى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤبنا[4] :

فتانا ومفتينا المصيبُ وشَيْخنا   ونِبْراسُنا فيمـا يهـمّ ويُسْدِفُ[5]
بصيرٌ بحلِّ المشكلات كأنما   يُكاشَفُ عن أسرارها ثم يكشفُ
تملَّك أطراف القضــاءِ وفِقْهَهُ   وما هــو إلا مالكٌ أو مطرَّفُ[6]

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .
(٢) عضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .
(٣) تخبّ : تعدو . نجائبه : ركائبه .
(٤) الوسيط ص ١٨ .
(٥) نبراس : مصباح . يسدف : يظلم .
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى صنعاء المشهور .

وهو يصفه بأنه المفتى المصيب والمصباح الذى يضىء ظلمات المشكلات العلمية ، وكأنما يُكْشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك فتاوى القضاء وفقهه فى أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضى صنعاء . ويقول محمد اليدالى الذى مرت ترجمته مؤبنا المختار بن الفاضل[1] :

لهفى على لَوْذَعِيٍّ ذى نَدًى وتُقًى ... وهيبةٍ تملأُ الأفكـــارَ والحـــدَقا[2]
وذى معـــارفَ ربَّانيَّةٍ وهُـــدًى ... وهمـــةٍ علتِ العَيُّـــوقَ والأفقا[3]
علْـــمُ الحقيقـــةِ والشريعـــة اجتمعا ... لـــه فأضْحَى يُرَبِّى مَنْ بـــه التحقا
وبحـــرُ جودٍ وعلمٍ زاخرٍ وإذا ... ما مُعْتفوه أتـــوه فـــاض واندفقا[4]
شِعـــارُه البِـــرُّ والتقـــوى ودَيْدَنُهُ ... رضا الإله ، خديمُ الضيف إن طرقا[5]

واليدالى يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيبته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تعلو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يربى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للعلم والجود . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل فى رثاء مولود بن أجفغ اليعقوبى[6] :

أتنعون مولودًا وما انقضَّ كوكبٌ ... ولا فـارق النـــورُ الغزالةَ والبَدْرَا[7]
ولا زُلْزلتْ زِلزالَها الأرضُ يَوْمَه ... وما أبدتِ الأشـراطُ آياتها الكبرى[8]
وما شغل الناسَ البُكا عن أمورهم ... كأنَّ صروف الدَّهر ما أحدثتْ أمرا[9]
لقد غَيَّبَتْ مَنْ غابَ عند مغيبِهِ ... فواضلُ شتَّى لا نُطيق لها حَصْرا
وطُوبَى لقبـــرٍ أودعـــوه عظامَـــه ... فيـا ليت أنِّى كان صدرى لـــه قـــبرا

وحرم يندب صديقه مولودًا ويتفجَّع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقضّ كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زُلزلت الأرض ولا أبدت الساعة أشراطها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكا على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صروف الدهر ونوائبه ما أحدثت شيئا ، مع أنها غيبتْ من لا يستطيع أحد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٤ .
(٢) لوذعى : عالم ذكى . ندى : كرم .
(٣) العيوق : نجم .
(٤) معتفوه : سائلوه وطالبو جوده .
(٥) ديدنه : دأبه وعادته .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٦ .
(٧) الغزالة : الشمس .
(٨) الأشراط : علامات الساعة .
(٩) صروف الدهر : خطوبه ونوائبه .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م – وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة – راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا[١] :

سهرتْ جفونُك والمصاب مسهَّدُ	يرثى لليلتك السليمُ الأرمَدُ[٢]
ورَثتْ لك الخنساءُ ، بعدُ متممٌ	ورثى لبيدٌ يوم فارقَ أربَدا
لمصيبةٍ صَدمتْ فؤادى صَدْمةً	كادتْ بناتُ الجَوْف منها تَصْعَدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها	نظمٌ جَرى من سِلْكه متبدِّدُ
وتصدَّعتْ كِبدى لها وكأنما	بجوانحى منها حريقٌ موقَدُ
وإذا بكيتُ شَجًى عليه فإنه	تبكى وتندبُه جموعٌ حُفَّدُ[٣]
وبكى عليهِ ليلُه ونهاره	والصَّوْمُ يبكى والتهجُّد يَرْعُدُ
وبكتْ بقاعٌ كان يعبدُ ربَّه	فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لُدغ مرات، وكأن تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لبيد لأخيه أربد، كل ذلك كان رثاءًا حارًّا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حبَّاته ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول – كما فى البيت الأخير – إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثية بديعة . ولمحمدو بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا[٤] :

ما لراجى الخلودِ نَيْلُ الخلودِ	إنَّ وِردَ المنونِ خَتْمُ الورودِ
أتطيبُ الحياة والشيخُ أمسى	غَيَّبَته مغيَّباتُ اللُّحودِ
إنَّ مالى من اصطبارٍ تولَّى	إذ تَوَلَّى إنسانُ عينِ الوجودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوه كلُّ مُريدٍ	من حِماه يفرُّ كلُّ مَرِيدِ[٥]
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصٍ	كان مفتاحَ بابه المسدودِ
عَلِم الأصلَ والفروعَ إلى أنْ	ليس فى العلم يُبْتَغى من مزيد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .
(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .
(٣) حفد : حاشدة .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .
(٥) مريد : شيطان .

وهو يقول إن الخلود لا يناله أحد ، إذ كلٌّ وارد على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وغيّبْته اللحود ، وقد تولّى عنى صبرى إذ فارقنى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يؤمه مريدون كثيرون ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المريد ، وإذا سُدَّ باب علم عويص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاريعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنبج التندغى . ويقول الشيخ سيديّا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة[١] :

جـادتْ سحائبُ رأفــة الـرحمـن ... بِهوامـلِ التكريـم والرِّضوان[٢]
وبوصفِ محضِ الـوُدِّ والزُّلْفَى عـلى ... جَدَثَين حلَّ حشاهما الشيخانِ[٣]
لاحـا وأَحْــلاكُ الجهـالةِ فَحْمَةٌ ... وملابسُ البِدَع الجِداد مثانِ[٤]
والدِّيــن منهــدمُ القواعدِ مُرْكَسٌ ... بأخامِص الطغيــان والعِصيانِ[٥]
فغدا منــارُ الديــن بعــد تهــدمٍ ... ثبتَ الأســاسِ مشيَّد الأركــان

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهمى عليهما سحائب رأفة الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنهما ظهرا ودياجى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المحدثة لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركسٌ بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منارُ الدين راسخَ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيديّا الكبير[٦] المذكور آنفا :

أرى المِلَّةَ البيضاء جَلَّ مُصابُها ... ففاضتْ مآقيها وطــالَ انتحابُها[٧]
وقاستْ بفقد الشيخ وَجْدَ مصابهِ ... بواحدهــا لـمــا تولَّى شبابُهـــا
وأظلم وَجْهُ الأرضِ حتى كأنما ... تردَّت مـدادا غُوطهـا وحِدابُها[٨]
وزُلْزِل أقطــارُ البلاد فأصبحتْ ... شواهقُهـــا مهتزَّةً وهضابُهـــا
وزُعْزِعَ آطــامُ الهــدى وحصونُه ... وقُوِّض فُسْطاط العــلا وقبابُها[٩]

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيديّا مصاب كبير لشريعة الدين الحنيف ، وكأنما قاستْ حزن سيدة فقدت واحدها أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١٦ .
(٢) هوامل : مسايل .
(٣) جدثين : قبرين .
(٤) مثان : تتكرر وتتردد .
(٥) مركسٌ : مضروب . أخامص جمع أخمص : باطن القدم .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٢٣ .
(٧) الملة البيضاء : الدين الحنيف وشريعته .
(٨) غوطها : رياضها . حدابها : كثبانها .
(٩) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

وكثبانها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضابها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدِّمت خيام العلا وقبابها . وهى مبالغات شديدة فى الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذى أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفى. ونتوقف قليلا إزاء أحد شعراء الرثاء .

باب[1] بن أحمد بيب العلوى

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه – كما يقول الشنقيطى – فى بلده وجيله ، ملحوظا بعين التعظيم فى معشره وقبيله . ويقول عن باب إنه العالم الأوحد الذى أغار ذكره وأنجد . ومرَّ بنا أنه أكمل كتاب الديباج فى تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفَّ عمه – وكان قاضيا – أنابه عنه فى قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرَم الذى مرت ترجمته فى مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطى عنه : قلما مات أحد ممن يشار إليه فى قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

كان عبد الإله بَرًّا تقيًّا ... نَزِهَ النَّفْسِ طاهرَ الأثوابِ
صحب الصالحين وهْو صغيرٌ ... لم يَنَلْ منه عنوانُ الشبابِ
كان بَرًّا بأمِّه وأبيهِ ... ورفيقا بجاره ذى الجَنابِ[2]
وهْوَ فى لَزبةِ الزمان ربيعٌ ... ذو جِفانٍ كأنهنَّ جوابى[3]
كلَّ يومٍ تراه يدرسُ علمًا ... وهْو بالليل قائمُ المحرابِ

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصغائر طاهر الأثواب ، صحب الصالحين ناشئا فى شبابه ، وكان بارا بأمه وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجدب يصبح ربيعا للناس وتكتظ مائدته لهم بقصاع كالحياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

---

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) ذى الجناب : يريد البعيد .

(٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة . الجوابى جمع جابية : الحوض .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فارْضَ ما فَعَلا رَمَى بقلبك شَجْوًا أو رمى جَذَلا[1]
واذكُرْ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تَسْلُ بها إذا عليك مُصابٌ معضلٌ نَزَلا[2]
به تيتّم – إذ أوْدَى – بنو حسنٍ يُتْمَ ابنِ يومين والعافون والنُّزَلا[3]
لو ساعدتنى القوافى ما تركتُ لمن يَرْثى مقالا ولا يشفى لِىَ الغُلَلا[4]

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة فى خير الخلق رسولها الكريم يجعل كل فرد فيها يتعزّى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتم من يعولهم من بنى حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافى ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول فى رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

هَمٌّ تأوَّبه من بعد ما هَجَعا قد بات منه يراعى النجمَ مَكْتَنِعا[5]
أضْحَى الفؤادُ به من لوعةٍ خَبِلاً والعَيْن تسكبُ من تَذْرافها دُفَعا
يَبكى علىٍ مريمٍ يوما وحَقٌّ له أن لا يزال عليها باكيا وَجِعا
يا ليلةً بِتُّها جَنْبَ المليحة لم أهْنأْ وقد نام عنى القومُ مضطجعا
حتى دعاها إلى المولى المهيمنِ ما يدعو الملوك ويدعو الأعْصَمَ الصَّدَعا[6]
يا ربِّ مريمُ قد وافتْك وافدةً فاجعلْ لها جَنَّةَ الفردوس مُرْتَبَعا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شبابها فى سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن همًّا ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم فى غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته خَبَل ، وعينه تذرف الدمع مدرارًا ، ويبكى على مريم بكاء حارًّا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى ربها الموت الذى يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتيَّة ، ويدعو لزوجته ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر فى القصيدة ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصلى عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون فى صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

---

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .
(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .
(٣) العافون : السائلون .
(٤) الغلل جمع غلة : حرارة العطش وتستعار لنار الوجد والحزن .
(٥) مكتنعا : مائلا إلى الغروب .
(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتىّ القوى .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

فلما يخلو شعر شاعر موريتانى من أبيات ومقطوعات – وأحيانا قصائد – تصف تعلقه بفتاة فى شبابه ، غير أن شاعرا لم يعش لوصف الحب وتباريحه ، مثل شعراء الغزل العذرى فى عصر بنى أمية من أمثال قيس بن ذَريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبى ربيعة والعَرْجى ، إنما هى خواطر تلم بالشاعر الموريتانى إزاء عاطفة الحب الخالدة فى الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب فى التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظعان وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف فى عرضنا للغزل الموريتانى عند هذا الجانب لأنه – فى واقعه – محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير الموجدة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التى انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إباه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا ، وممن أنشد له مقطوعات وقصائد طريفة فى الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة[1] :

فيمن أهيمُ بها لاموا ولو هاموا ... فيمن أهيمُ بها يوما لما لاموا
هام الفؤادُ بِمَنْ لولا ملاحُتها ... ماسُفِّهتْ من ذوى الأحـلام أحلامُ
تلك التى مِنْ لَمَاها مسَّنى لَمَمٌ ... بادٍ ومن سَقَم الأجفـان أسقام[2]
نـامَ الأخـلاَّءُ عن ليلى وأرَّقنى ... شوقى وما صدق العُشَّاقُ إن ناموا
مَنْ لى بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما ... تبديه فى سِنَةِ الوَسْنانِ أحلام
إن تمنع الوَصْلَ أيـامٌ لنـا فعَسَى ... أن تمنح الوصـلَ للمشتاقِ أيـامُ

وهو يقول إن من حولى يلوموننى فى هيامى بصاحبتى ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلى وكفُّوا من لومهم ، وقد هام الفؤاد بها لحسنها ولولاه ما سُفِّهت عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هى التى مسَّنى من جمال شفتيها وفتنتها ما يشبه الجنون وأصابنى من سقم أجفانها ما لا يحد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو مؤرَّق مسهَّد لأنه عاشق ،

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لماها : سمرة شفتيها . لمم :طرف من الجنون أو شدة .

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبته ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فعسى أيام أخرى تسمح باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسنفرد له ترجمة . ويقول المختار[1] بن محمد الحسنى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأْنُ المحبين أن يبكوا وأن يقفوا بين المنازل فابكوا بينها وقِفُوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سَرَفٌ بل البكــاء على غير الهــوى سَرَفُ
إن لم تكن عبراتُ العَيْن واكفةً فيهـا ففى أىِّ دارٍ بعدهـا تكِفُ[2]
والعينُ ما برحتْ من فَيْضِ عَبْرتها إنسانُهـا يختفى طـورا وينكشف
تُصْمى القلوبَ بِسَهْمَىْ لحظها عَرَضًا إن القلـوبَ لسهْمَىْ لحْظها هَدَفُ[3]

وهو يقول لصحبه إن عادة المحبين إذا ألموا بديار محبوباتهم أن يستوقفوا الركب ويبكوا فقفوا وابكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تَسِلْ عبراتى ، ففى أى دار غير دارها تسيل وإن عبراتى لتهمى حتى ليختفى إنسان عينى وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، وإنها لتصيب القلوب بسهام لحظها دون قصد حتى لكأن القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد[4] بن حنبل الحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م :

اسكُبى الدمع وَاهجُرِى النومَ عينى صَرَمتْ حَبْلَ الوَصْـلِ أُمُّ حكيـم[5]
تلك مَن جرَّعتْ فؤادى كئوسًا من هواهـا تُبيتنى كالسَّليـم[6]
لا تَظُنَّ الظنـونَ أنَّ مقـامى باليُنَيْبِيــع لاطِّــلاب العلــوم
بـل لغَرْبيَّـةٍ تهـبُّ عَشِيًّا بشَذاهـا فأشتفِـى بالشَّميـمِ
وأرى عـينَ من رآهـا فأُطْفى لَهبَ الوجـد من حَشاىَ الكليـمِ

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرانا ، فقد قطعت أم حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعته كئوسا من حبها جعلته يبيت طوال الليل كالملدوغ . ويذكر أنه ينبغى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالينبوع من أجل طلب العلوم ، وكان شغوفا بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغربية التى تحمل عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا أحشائه . ونتوقف قليلا إزاء بعض شعراء الغزل .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .
(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .
(٣) تصمى : تصيب .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .
(٥) صرمت : قطعت .
(٦) السليم : الملدوغ .

الأحول[1] الحسنى

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالما باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلّ معهم سيفه ، ونظم فيها أشعارا كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملا سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م وأنشد له الشنقيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شَدُّوا المهارَى بأكوارٍ وأَحْداجِ ... وأدلجوا تحت ليلٍ أَلْيَلٍ داجِ[2]
فأصبحتْ دورُهم قَفْرا معطَّلةً ... تَبْكى دواعى هَديلٍ شَجْوُها شاجِ[3]
تلوح آثارُ من بانوا بمعهدها ... مثلَ البُرود وَشَتْها كفُّ نسَّاجِ
فما علمتُ ولم أشعر بِبَيْنِهِمُ ... إلا بِجَوْنٍ من الغربانِ شحَّاجِ[4]
تبًّا لعِيسٍ نأتْ عنا بناعمةٍ ... غَيْداءَ ريَّانةِ الحِجْلَيْنِ مِغْناجِ[5]

والأحول يقول إنّ أهل صاحبته شدوا الإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والهوادج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها الهديل وحماماته بكاء يثير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكأنها ثياب زيَّنها نساج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى ببينهم وبعدهم إلا نعيب غراب شديد السواد . ويقول هلاكًا لإبل بعدت عنا بحسناء ممتلئة الخلخالين ذات دلال يزيدها حسنًا ، ويقول :

أمستْ معاهدُ سُعْدَى باللِّوَى دُرُسَا ... من صَوْب وَدْق الغوادى بُكْرةً ومَسَا[6]
كم حاورتْنى بها حوراءُ آنسةٌ ... غرَّاءُ مَنْ حاورتْه منطقا أَنِسا[7]
ألهو بِسُعْدَى وسُعْدَى لا يُخَبِّبُها ... نَمُّ المريدين تَخْبيبا من الجُلَسَا[8]
بيضاءُ من مدَّ فيها العينُ فاقتبستْ ... تحت الدُّجى من سَناها أنكر القَبَسا
بل لورآها أهالى يوسفٍ قُطِعتْ ... منهم قلوبُ رجالٍ لا أكفُّ نِسا

وهو يقول إن ديار سعدى صاحبته أصبحت عافية من طول ما انسكب عليها من أمطار السحب صباحا ومساء ، ويذكر صاحبته اللطيفة الحسناء وأنسه بها وبأحاديثها حين كانت

---

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنقيطى ص٣٠٤ والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .
(٢) المهارى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأحداج : الهوادج . أدلجوا : صاروا ليلاً . أليل : شديد السواد .
(٣) هديل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج : كثير الحزن .
(٤) بينهم : بعدهم . جون : أسود . شحاج : يكثر من النعيب والصياح .
(٥) العيس : الإبل . غيداء : حسناء . ريانة الحجلين : ممتلئة الخلخالين . مغناج : ذات دلال .
(٦) درسا : عافية . ودق : مطر . الغوادى : السحب .
(٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء : بيضاء .
(٨) يخببها :يخدعها . المريدين : المعجبين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجبين النمّامين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قَبسَ من جمالها المضيىء ما يفوق قبس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللائى قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم افتتانا بها . ويقول :

غرّاءُ لا يرقبُ الراءون وَجْنَتَها ... إلا ثَنى النـورُ منهـم حِدَّةَ النَّظرِ
لم تَدْرِ هل هىَ من شَذْرٍ مركّبةٌ ... أم من صريف لُجَيْنٍ أم سنا قَمرِ[1]
كـلٌّ تلابسَ إلا أن يميِّزهـــا ... من ذا ومن ذَيْن وَسْمُ الدَّلِّ والخفَر

فهى بيضاء لا يرمقِ المبصرون وجنتها النيِّرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياء اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

محمد[2] بن الطلبة اليعقوبى

عشيرة اليعقوبيين أو قبيلتهم فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز اليعقوبيون بالتعمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يُدْرِّس للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النابهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقرؤه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حلِّزة والشماخ وأضرابهما من الجاهليين . وهيَّأ لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيئتها كانت تشبه البيئة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحَّل وراء المراعى ومساقط الغيث ، وبإبلها وأنعامها الراعية وبآبارها الآجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زايلوها . وكما يكثر الشاعر الجاهلى من قطع المفاوز على ناقته كذلك يكثر الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حيـاته الذى لا يختلف عن واقع حيـاة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

---

(1) شذر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضه . سنا : ضوء .

(2) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقيطى ص ٩٤ وقد أنشد فى كتابه معارضاته جميعا وكثيرا من شعره ، وراجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

فى تيرس ومراعيها وريفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الظاعنات محبوبته ، كما تغنى طويلا بحيوانات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا ، وكأنما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختار قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحابيين تكتظان بالغريب وبوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وظعنها وعارضهما معارضة رائعة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحِّين ما ينظمه ممتلئا بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطبا محبوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلُّد لا تجلُّدَ بعدما ... شَطَّتْ بأمِّ المؤمنين نَواها[1]
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى ... قد شفَّ نفسى منكمُ وبَراها[2]
ما كان ضَرَّكِ لو رَدَدْتِ تحيَّةً ... فيها لنفسى - لو رددتِ - شِفاها
واهًا لما أَبْدَى لنا يومَ النَّوَى ... منها الوداعُ وقلَّ منَّا واها[3]
يا ليت شعرىْ والفراقُ موكَّلٌ ... بالعاشقين متى يكونُ لقاها

وهو يقول كيف التجلُّد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النَّوَى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شفوف نفسه وضنا جسمه بحبها ، ويقول إنه حيَّاها ولم تحيِّه ولو حيته لشفت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتحسر متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أمِّ المؤمنين سَلا ... ولا أرى عاذلاتى تترك العَذَلا[4]
بل لا أرى لوم من يَلْحو ومن عذلا ... إلا يزيدُ علىَّ الهمَّ والخبَلا
ولا أرانى أرى رَسْما ولا طَلَلا ... إلا وساءلتُ عنها الرسم والطَّللا
هى التى أنا لا أَبْغِى بها بدلاً ... ونَيْلَ الوصْلَ منها نَيْلِىَ الأملا

فهو لن يسلو صاحبته مهما لامته اللائمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيده هما وجنونا بحبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طللا إلا سأله عنها كأنما تملأ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبغى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق والبعد .
(٢) عوجى : توقفى وميلى . براها : نَحَلها .
(٣) واها : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إنْ قلبـى متيَّـمٌ بالحسـانِ من ذوات الأحْساب من حسَّانِ
كلُّ بيضـاءَ خَدْلَةِ الساقِ رُودٍ تَتَثنّى كأنهـا غُصْنُ بـانِ[1]
جعلتْ فـوق نَحْرِها الشَّذْرَ والـدرُّ وناطتْ قلائـدَ المَرْجـانِ[2]
غير أنى مـا إنْ وجـدتُ كـأمِّ المـؤمنين العَروبِ فى النِّسوانِ[3]
ولهـا منطـقٌ لـو اصْغَى لـه الرُّهْبـانُ أصبَى مشـايخَ الرُّهبانِ[4]

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل فتاة بيضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تتمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتنتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو أرهف الرهبان السمع إليه لأصباهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزليات كثيرة . وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م .

يقوى[5] الفاضلى

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين فى القرن الثالث عشر الهجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسى والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بابكر ، وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضلى الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأنشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولاهما يتغزل فى صاحبته سليمى منشدا :

زعمَ الجاهلون أنَّ عهودًا كـنَّ بينى وبَيْنهـا أنْساهـا
أو منحتُ الوداد غير سُلَيْمى لا ومَنْ زيَّـن السَّما وبَنَاهـا
ما تغيَّرتُ لا ولكنْ عَدانى عن لِقاهـا أجلُّ ممـا عَداها[6]
ومهاوٍ تهابُ – إن نظرتْها – عَيْنُ مجتازها الجليدِ سُرَاها[7]
قد تجشّمتُ هولهـا أتخطَّى لسُلَيْمَى حتى دخلتُ حِماهـا

(١) خَدْلة الساق : ممتلئة . رود : شابة جميلة .
(٢) الشذر : قطع الذهب . الدر : اللالىء . ناطت : علقت . المرجان : حجارة كريمة بيضاء وحمراء .
(٣) عروب : لطيفة .
(٤) أصبى:جعل مشايخ الرهبان تتصابى وتتكلف الهوى.
(٥) انظر فى غزل يقوى الفاضلى الشعر والشعراء فى موريتانيا ص٩٩ ومابعدها وانظر فى وفاته وتاريخها ص٧٤.
(٦) عدانى : شغلنى .
(٧) مهاو : جمع مهوى يريد مفازات يسقط فيها الإنسان ويهلك الجليد القوى : المتحمل للمشقة بصبر . السرى : السير ليلا .

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لها ظنوا أنه نسى ما كان بينه وبينها من عهود أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدا لها ولا تغير. إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقائها من مفازات مهلكة، يهاب الجليد الجرىء الصابر السُّرى والسير فيها ليلا، وقد تحمل هولها متخطيًا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وحِماها، يقول:

وتميَّزتُها فـدَلَّ عليهــا ... فى الدُّجَى طِيبُ نَشْرِها وبُرَاها[1]
فعلتنى مهابــةٌ ووجــومٌ ... من لِقاها وما علانى عَلاهـا
وأشارتْ بأنَّ فى البيت ناسًا ... ينشرون الحـديث عَمَّنْ أتاهـا
قلتُ لأْيًا وَصَلْتُ قالتْ تَنَحَّ ... قبـل دهيـاءَ مُعْضلٍ ألقاها[2]
وصفا بيننا الحديثُ وقالتْ ... لا تُعِدْ مِثْلها وألقتْ عصـاها[3]
ثم بِتْنَا بقيَّـةَ الليـل نلهـو ... بأحـاديثَ لا يُمَلُّ جَنـاها[4]

وهو يقول إنه بحث عن سليمى ودلَّه فى الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخلاخيلها، ويذكر أنهما حينما تلاقيا علتهما مهابة ووجوم. وأشارت إليه أن فى البيت ناسا يذيعون الخبر عمن أتاها وتخشاهم، فقال لها لقد تحملت مشاقَّ حتى وصلت إليك فقالت له: الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها، وباتا بقية الليل ينعمان بأحاديث شتَّى. والقصيدة سلسة مثل هذا الحوار بينه وبين سليمى. ويقول فى قصيدته الثانية:

مغانٍ سقانى الدهرُ فيها على الظَّما ... كئوسَ المنى من كلِّ أحورَ أهيفا[5]
لعمرى لئنْ أمستْ عفاءً لفى الحشَا ... لها منزلٌ لم يَعْفُ قـطُّ وما عَفا
وناهـدةٍ تَجْلُـو أغـرَّ كأنما ... بِتِرْيَاقِهـا صبَّ المهيمـنُ قَرْقَفَا[6]
على وَجْنَتيهـا قد جـرى متحيِّرًا ... ولَبَّتِها مـاءُ الملاحـة والصَّفـا[7]

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاه الدهر فيها – وهو ظامىء – كئوس المنى من كل بيضاء ضامرة الخصر فاتنة، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبته ودارها فى حشاه لا يعفو أبدا. ويصف صاحبته بأنها شابة تفترُّ عن ثغر مشرق وكأنما امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة، ويقول إن رونق الملاحة والصفا يجرى مترقرقا على وجنتيها ولبَّتها الجميلة.

---

(١) نشرها: عطرها. البرى: الخلاخيل والأساور.
(٢) دهياء: داهية. معضل: شديدة.
(٣) ألقت عصاها: اطمأنت واستسلمت.
(٤) الجنى: الثمر الحلو.
(٥) أهيف: ضامر. ذكَّر الصفة لضرورة الشعر.
(٦) ناهدة: شابة. أغر: أبيض يريد ثغرا أبيض. قرقف: خمر.
(٧) لبتها: موضع القلادة من الصدر.

٢

شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالاتحاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلوله فيهم ، ومذهب سنى يقف عند أداء الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبته محبة صادقة . وطبيعى أن لا يتعلق الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقيه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادًا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السنى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعًا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعًا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها وبمؤسسها ويدافعون عنها دفاعًا حارًّا ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منوها بطريقته وولايته(١) :

طالعْ جواهرَهُ واصحَبْ رسائلَهُ ... وما يبثُّ من الأنوار والحِكمِ
تجدْ ولايتَــه لاحتْ معالمهــا ... كما تُرَى فى الدُّجَى نارٌ على علَمِ

وهو يشيد برسائل له فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره وِرْده الذى يُقْرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعًا عنه ضد خصوم طريقته(٢) :

مَنْ كان فى مذهب التيجانِ مُمْترِيًا ... فإننى لكمــال الشيخ معتقــدُ
مَنْ ينظــرِ الكتُبَ التى أفادَ بها ... ينظــرْ كلامَ محقٍّ كله رشَدُ
أما الذيـــن تعاطــوا وِرْده فلقد ... أعيا على العــدِّ حَصْرا منهمُ العَدَدُ

---

(١) الشنقيطى ص ٣٣ .

(٢) الشنقيطى ص ٢٨٩ .

فهو من المعتقدين فى إمامة أحمد التِّيجانى الصوفية وقطبيته ويقول إن من ينظر فى رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقه وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقرءون ورده يفوتهم العدّ والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوى[1] :

إنا حماةُ طريقِ أحمدَ شَيْخِنا   ونجيبُ عنه المنكريـن ومَنْ جَفا
ونُعِدُّ للعادى عليه صوارمًا   وأسودَ غابٍ فى الكريهةِ زُحَّفا[2]

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجانى أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضارية . ونقف قليلا بإزاء شيخَيْن موريتانيين من شيوخ التصوف .

المختار[3] الكنتى

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطى عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدًا يطعن فى ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لِما بلغه من أن الشيخ الكنتى يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، ويقول الشنقيطى : « على أنه لا يوجد ولى إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر فى كتبه سواء كانت فى الحقائق الصوفية أو غيرها يتبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذو العرش للناس نائبًا   عن المصطفى والأمرُ فاشٍ وذائعُ
ويُرْضع من ثَدْى المعارف مَنْ أتى   مُريـدا ولـم تُرْضِعْ كذاك المَراضعُ

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول فى هداية الناس ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون العهود عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استعدادا للآخرة :

أيقظْ جفونَك إن القلبَ وَسْنانُ   وصمِّمِ العزم إنَّ العـزم كسلانُ[4]
وجِدَّ شوقا إلى أُخْراك مُبْتدرا   إن اللبيب إلى أخـــراه حنَّـــانُ[5]
واعملْ لدارٍ بها اللذّاتُ قاطبةً   رَوْحٌ وراحٌ وراحاتٌ ورَيْحانُ
ظلٌّ ومـــاءٌ وأزهـــارٌ مفتَّقةٌ   عن الكمائم أشكـــالٌ وألـــوان
قيعانُ مسكٍ بهـا الأنهـارُ جاريةٌ   خمرٌ ومـــاءٌ وماذِىٌّ وألبـــانُ[6]

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٨ .
(٢) صوارم :سيوف قاطعة .
(٣) انظر ترجمة المختار الكنتى وشعره فى الشنقيطى ص ٣٦١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩٠ .
(٤) وسنان : نائم .
(٥) حنان : مشتاق .
(٦) ماذىّ : عسل مصفًى .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزما صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عبقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل فى وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

بيضٌ نَواعِمُ أبكارٌ منعّمةٌ تحار فيهن ألبابٌ وأذهانُ
يَرْفُلْنَ من سُنْدسِ الفِرْدَوْس فى حُلَلٍ من فوقها حُلَلٌ من تحتها بانُ[1]
نشأْنَ وسْطَ مقاصيرٍ مزخرفةٍ لم يَطْمِثْها بها إنسٌ ولا جانُ[2]
رِيقٌ لذيذٌ وأنفاسٌ معطَّرةٌ ومنطقٌ ساحرُ الألفاظ فتّانُ
مهورُهنّ صلاحٌ دائمٌ وتُقىً زهدٌ وصبرٌ وإخلاصٌ وإيمانُ

وهو يستمد فى وصفه للحور العين من سورة الرحمن فى القرآن الكريم ، فيقول إنهن بيض ناعماتٌ أبكار مترفات تحار فى جمالهنّ العقول والألباب يتبخترن فى حلل الفردوس السندسية ، وقد نشأن فى غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إنس ولا جان ، رِيقهن لذيذ ونَفْحهن شذى وعطر ، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا ، ومهورهن صلاح وتقى وزهد وتقشف وإخلاص لله ودينه الحنيف وإيمان صادق .

الشيخ سيديًا[3]

هو الشيخ سيديًّا (بتشديد الياء ومدّها) بن المختار بن الهيب التدغى الأَبْيَيْرِىّ ، يقول الشنقيطى : « هو العَلَمُ الذى رُفع على أهل قطره ، واستظلَّ به أهل دهره .. اشتغل فى شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لأستاذه حُرَم بن عبد الجليل العلوى . ولما تضلع من علمه شدَّ الرحال إلى الشيخ المختار الكنتى بآزواد .. ولازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فبقى عند ابنه محمد خليفته فى الطريق الصوفى ، ولازمه عشرين سنة حتى برع فى معرفة الطريق ، ورجع إلى قبيلته أولاد أَبْيَيْر فتلقوه بما هو أهله واعترفوا بفضله . ولم تزل فضائله تنمو حتى أذعنت له قبائل الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يرد أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تنثال عليه . وجعلت العرب منزله فى أرض شنقيط حَرَمًا آمنا ،

---

(1) يرفلن : يتبخترن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .

(2) يطمثها :يَمْسَسْها .

(3) انظر فى الشيخ سيديا الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع متفرقة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم ومآربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلّل من هذا الكرم الفياض فلا يستمع إليهم إلى أن توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعًا ، وله من قصيدة :

رفعتُ إلى مولاىَ جُلَّ شكيَّتى ... وأمّلتُ نشلى عنـده من بَليَّتى
بُليتُ وهل يُبْلَى مريدٌ بمثل ما ... بُليتُ به من خُبْثِ نَفْسٍ غَوِيَّةِ
حجابٌ عَماها عن شهودِ صِفاتها ... بِهِ حُجِبَتْ عن مشهـدِ الأحَدِيَّةِ
لذلك أفْنتْ جِدَّهـا واجتهادها ... ومَرْغَبَها فى الفانيــات الدَّنِيَّـة
صحتْ من سحاب الواردات سماؤها ... بعصفِ ريــاح الهاجساتِ الـرَّدِيَّةِ
مددتُ إليـك الكفَّ يا خـيرَ واهبٍ ... فلا تحرِمِ الخـيرَ المُفـاضَ يُدَيَّتى[1]

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بليته ، وهل يُبْلَى مريد محب ربه بمثل ماأبْلِى به من نفس خبيثة ممعنة فى الغواية إمعانا حجبها عن مشهد الصوفى لأحديته واتحاده بربه ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها فى المتاع الفانى ، مما جعل الواردات الربانية تنحسر عن سمائها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرع إلى ربه مادًّا كفَّيه أن لا يحرم يده من خيره الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخَير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفناء فيه . وله دعاء طويل يستهلّه بقوله :

يـا واسـعَ الرَّحَمــات يا فتَّاحُ ... يا مَنْ دُعـاه لبابِه مفتـاحُ
يا بَرُّ يا رزَّاقُ رزقُك شاملٌ ... تُغْذَى بِـهِ الأرواح والأشبـاحُ
يا فارجَ الهـمِّ المُرِبِّ وكاشفا ... كَرْب العبيد إذا دعوك وباحوا[2]
فَرِّجْ كروبَ المسلمين جميعِهم ... وأغِثْ بمـا لهمُ بـــه إصـلاحُ
أنت المغيثُ وأنت ذو الرُّحْمَى التى ... بنزولهـا شِدَدُ الـوَرَى تنزاحُ[3]
تلك الأراضى وَهْدُهـا ونِجادُهـا ... جُرُزٌ بهـا تتخافقُ الأرواحُ[4]

وهو يدعو ربه قائلا : اشملنى برحمتك الواسعة وافتح لى باب الرزق المغلق ، يا من يستجيب للداعين ،يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج الهم المقيم وكاشفا غم العبيد فرِّج كروب المسلمين وأغثْهم بما يصلحهم ، فأنت المغيث الرحيم الذى برحمته تزول كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها ، فالأراضى منخفضاتها ومرتفعاتها أجدبت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

---

(١) يديَّتى : تصغير يد .

(٢) المرب : المقيم .

(٣) شدد جمع شدة .

(٤) جرز : مجدبة . تتخافق : تضطرب . الأرواح : الرياح .

وأصبحت عِجافا مهزولات ،ويضرع إلى ربه طويلا أن يرسل على البلاد سحبا تتدفق بالأمطار ، فينبت الزرع ويمتلىء الضرع ، وتنشأ الرياض وتجود الأشجار ويَرْوَى الظمآن ويشبع الجائع ويعم رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

٣

شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح فى حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر فى العصر العباسى على لسان أهل السنة مصورين فى الرسول المثل الأعلى للمسلم فى تقواه ونسكه ودعوته لرسالته وجهاده العظيم فى نشرها ، وبالمثل على ألسنة الشيعة مرددين أن نوره المحمدى سرى فى أئمتهم .. وأخذ المتصوفة – منذ الحلاّج – يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحى للحياة البشرية ، بل مبدأ النور والوجود فى الكون . ويشيد المادحون له دائما بمعجزاته المبثوثة فى كتب السيرة النبوية وبمعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر فى موريتانيا نرى شعراءها –مثل شعراء الأقطار الإسلامية– يتغنون بمديح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته الباهرة وجهاده الرائع فى نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه فى غفران ذنوبهم والشفاعة يوم العَرْض . وتكثر هذه المدائح فى الشعر الموريتانى ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة لبعض من برعوا فى نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسنى –من شعراء القرن الثانى عشر الهجرىّ – فى مديح الرسول ﷺ (١) :

فإن لم تكنْ لى خَيْمَةٌ حـول رَمْسِهِ ... فهذا هـواهُ فى فـؤادىَ خيَّمـا(٢)
ويـا ليتَ خَدِّى كان مَوْطِىءَ نَعْلهِ ... وصدرى ضَريحًـا جامعا منه أعْظُما
وما مثلُـه البحـرُ الخِضَمّ تكرُّمًا ... ولا كَثنايـاهُ البـروقُ تبسُّما(٣)
ولو قِسْتَهُ ضَوْءًا وجودا وجرأةً ... بشمسٍ وضرْغامٍ ووَبْلٍ متى هَمَى(٤)
لكنتَ كمن قد شبَّه الشمسَ بالسُّهَا ... وبالطَّـلِّ وكَّافًـا وبالهِـرِّ ضَيْغما(٥)

وهو يقول إن لم تكن لى خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيَّم فى فؤادى واستقر به ، ويتمنى لو عاش فى زمنه وكان خده موطىء نعله وصدره قبرا لأعظمه العطرة ، ويقول

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٤٣ .
(٢) رمسه : قبره .
(٣) الخضم : الواسع الزاخر .
(٤) ضرغام : أسد . وبل : مطر غزير . همى : سال .
(٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل . وكاف : مطر منهمر . ضيغم : أسد .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرما ولا البروق المضيئة تماثل ثناياه تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّها الضئيل ، ولو قاسه بالوبل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطَّلَّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارفال البوصادى – من شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى – مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما[1] :

محمدٌ سيِّدُ الكَوْنين سيِّدُ مَنْ ... يَمْشى على الأرض من حافٍ ومُنْتَعِلِ[2]
محمدٌ سيدُ الأقطـارِ سيِّدُ مَنْ ... حاز العُلا من ذوى الأمصـارِ والنُّقَلِ[3]
مَنْ للعُصاةِ شفيعٌ للمُضَام حِمًى ... للمُسْنِتين ربيـعٌ كالحَيـا الهَطِـلِ[4]
للمهتديـن سَنـًا للمُرملـين غِـنًى ... عَـلاؤه فـوق كـلِّ المرسلين عَلِ[5]
بَدْرٌ حُـلاه بـه الآفـاقُ حاليـةٌ ... للمشتكـين مُنًى للمرسلـين وَلِـى[6]

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومنتعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيع العصاة حمى لهم ، وللمجْدبين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهتدين ، وغنى للفقراء المُعْوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه بدرٌ ازدانت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها[7] :

قدوةُ الأنبياءِ قطبُ رَحَى الكَوْ ... نِ وإنسانُ مُقْلـةِ الإيجـادِ
وسراجُ الـوَرَى المُنـيرُ المُحَيَّا ... وبشير الـوَرَى النذيرُ العبـادِ
وكتـابٌ عليـه أنزلـه اللـ ... ـهُ شفـاءً ورحمـةً للعبـادِ
بشَّرَتْ آيُهُ وأنْذرتِ النَّـا ... سَ بوعدِ الثـواب والإيعادِ
وفنـونٌ من البلاغـة تُعْيى ... بلغاءَ الجـوابِ فى كل نـادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثلى للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسانُ عَيْن الإيجاد والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يبشرهم بثوابه وينذرهم بإيعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله[8] :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٥٠ وما بعدها .
(٢) الكونين : الدنيا والآخرة .
(٣) ذوو النقل : البدو الرحل .
(٤) المسنتين : المجدبين . الحيا : الغيث .
(٥) سنا : ضوء . للمرملين : للفقراء .
(٦) حالية : مزدانة . ولى : سيد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٦٥ .
(٨) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧١ .

أهلا بشهر المَــوْلدِ	شهر العُلا والسُّؤْدَدُ	شهـر النبيِّ أحْمَدِ
شهر ربيعِ الأوّلِ

أهلا بِشَهْرِ الهــادِى	لمنهـج الرَّشـــادِ	وقائـدٍ وحـــادِ
إلى الطريقِ الأمْثَلِ

أهلا بليل اثْنَىْ عَشرْ	فيه ويومــهِ الأغرّ	وطيبِ ذلك السَّحَرْ
ونـورِ أُفقهِ الجَلى

والمدحة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبى: شهر العلا والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادى إلى الرشاد والقائد والحادى إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثانى عشر ، وبما نشر سَحَرُها من طيب عطر ونور منتشر فى أفقه بل فى كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيدىّ الأبْيَيْرِى خليفة أبيه فى الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله(١)

أهلا بميلاد مولـودٍ بــه كملتْ	بُشْرَى البشائـر للبـــادى وللْقَرَوى
أكرمْ بهـا ليلةً غَرَّاءَ ضاحيةً	فيها يتيمــةُ سِمْط اللــؤلؤ اللُّأوِى(٢)
أكرمْ بها ليلةً غراء مظهرةً	سِرَّ الوجود الذى فيه الوجودُ طُوِى
لولاه ما أُنْــزل الذكرُ الحكيـــمُ ولا	الدِّينُ القويمُ ولا ما فى الصِّحاح رُوِى
ولا أقيمتْ من الإســــلام قاعـدةٌ	ولا بدا فَضْــلُ سُنِّىٍّ على حَشَــوِى
ولا أبـــان بيـــــانِىٌّ معانِيَــــــه	ولا نَحَا النَّحْوَ نَحْــوِىٌّ ولا لُغَــوى
لـــولاه لم يَغْلِبِ الـــرومَ الغِلابَ ولا	ملـــوكَ ساســانَ تَيْمِىٌّ ولا عَــدَوِى

وهو يهلل لميلاد الرسول الذى به تمت بشرى البشائر لكل بدوى وحضرى ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضيئة بيتيمةِ عقد اللؤلؤ الفريد المنتمى إلى لُؤَى بن غالب جدّ الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرتْ سر الوجود ومبدأه الذى استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول فى خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوى هو لب الوجود الكونى ووجود حسىّ مادىٌّ حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولاه ما أُنْزِل القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رُويت أحاديثه فى كتب الصحاح الستة : صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، ولولاه ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السُّنِّى على

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٨٩ .
(٢) ضاحية : مضيئة . اللأوى : نسبة إلى لؤى بن غالب جده صلى الله عليه وسلم .

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كتابه التى اهتدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الرومَ الأقوياء وملوكَ الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية(١) :

ألا قد أقرَّ الكونُ أنَّ محمدا ... لكلٍّ فروع الفضل أصلٌ مقدَّمُ
فمنه استفاد الحسنَ كلُّ يتيمةٍ ... من الــدُّرِّ يُكْسَاها غزالٌ منعَّم
ومنه استفاد الضوءَ وجهُ غزالةٍ ... جَنَى الضوءَ منها زِبْرِقانٌ ومِرْزَمُ(٢)
ومنــه استفاد الاقْحُــوانُ نضــارةً ... وحُسْنَ جَمــال الثَّغْــر إذ يتَبَسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرَّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسنَ كلُّ درة يتيمة فى عقد على لبَّة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقحوان نضارته واستفاد كل ثغر لسيدة من جماله حين يبتسِّم . ونكتفى بما قدمنا من أمثلة المديح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

مولود(٣) بن أحمد الجواد اليعقوبى

يقول الشنقيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعراء الفخر ، ويقول الشنقيطى أيضا : « كان مدَّاحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

أزكَى صلاةٍ وتسليمٍ على قمرٍ ... بدرٍ بــهِ قد أنـارَ اللّهُ أكوانَهْ
يارَبِّ صَلِّ عليــه دائمًا أبدًا ... ما حلَّ أعراضُ هذا الكونِ أعيانَه(٤)
دينٌ حنيفٌ مَحَا الماحى به وعفا ... آثــارَ مَنْ كان فى خُسْرٍ وأديانَــــه
أنت الذى أزلفَ اللهُ الجنــــانَ لمن ... والَى وأبـــرز للعاديـــه نيرانَه(٥)
لو كان ذا الكونُ إنسانًا لكنت لــه ... طَرْفًا ولو كانَ طرْفًا كنت إنْسَانَه(٦)
أنت السراجُ المنــير الَّذْ أنــارَ بــه ... نــورُ السمواتِ والأرْضين أكوانه

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .
(٢) الغزالة : الشمس . الزبرقان : البدر . المرزم : نجم من نجوم المطر .
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنقيطى ص ١٩٠ وما بعدها .
(٤) لأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول والبياض .
(٥) أزلف : قرَّب وقدم .
(٦) الطرف : العين . إنسانها : سوادها المبصر .

وهو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أنار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وينوه بالإسلام وأنه دين حنيف محا به الماحى (من أسماء الرسول) آثار الخسران والديانات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعداءه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه المبصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجه ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدَّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ ... فاقْرَعْ تجدْ بابَ مُولِى الأَنْعُمِ انْفرجا
وارغبْ إلى ربِّكَ الأعلى ليجعلنا ... ممَّنْ على النهج نَهْجِ المصطفى دَرَجا[1]
نهجِ الذى أنزل اللهُ الكتاب هُدًى ... لنا عليه ولم يجعل له عِوَجَا[2]
منه استفادَ النَّبيّون النبوَّة إذ ... مما له ما لهم منها قد اختلجا[3]
ألا طَرِبتُ ألا إنى طربتُ إلى ... مَنْ حبُّه مع لحمى والدَّم امتزجا
مَنْ للنبيين مَنْ للرُّسْل أين لهم ... مِنْ قابِ قوسين معراجٌ كما عرجا[4]

وهو يقول اقرعْ باب الربِّ الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا ممن سار على نهج المصطفى وكتابه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معراجه الذى خَصَّه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

محمد[5] بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عنفوانه فى العلوم وصرف همته إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلغا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطانها عبد الرحمن العلوى (١٨٣٤ – ١٨٥٩ م) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

---

(١) درج : مشى وسار .
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .
(٣) اختلج فى النفس : اضطربت به ، ومنه الخوالج .
(٤) قاب : قدر . عرج : صعد .

(٥) انظر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥١ وفى مواضع متعددة .

إنه توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م ويذكر الشنقيطى أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدّاحا بارعا للرسول ﷺ ، وفى إحدى مدائحه يقول :

وجَّهتُ وَجْهى إلى خير الوَرَى وأرى ... لنفسى الفـــوزَ بالمطلـــوب والظَّفَرا
وجهتُ وجهى إلى مُغْنى الفقير ألا ... إنى لمعروفـــه مـــن أفقـــرِ الفُقَرا
وجَّهت وَجْهى لذى الخُلْقِ العظيمِ وذىالـ ... ـمجد الصميمِ عديمِ الشَّكْل والنُّظَرا
وجهت وجهى لمحمود المقام ومقـ ... ـصود الأنام إذا الخطبُ الجليلُ عَرَا
من آيهِ وكفى القـــرآنُ معجـــزةً ... ما كان من خارقٍ فى بدئه ظَهَرا
يكفيك أن إلـــه العَـرْشِ صـــوَّره ... كما يشاء ومنـــه صَـــوَّرَ الصُّـــوَرا

ويبدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها فى طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهى إلى خير البشرية ، وفى ذلك فوزى وظفرى بكل ما أطلب إذ وجهت وجهى إلى مغنى الفقير روحيا ، وإنى لمن أفقر الفقراء إلى معروفه . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤثل عديم النظير ، صاحب المقام المحمود والمقصود فى نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر فى البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صوره الله فيها صورة رفيعة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صوَّر الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقوله فى مدحة مولدية :

إنسانُ عَيْن الكونِ غُرَّةُ وجههِ ... حاوى التفرُّد بالمقـــام الأرفعِ
بابُ الإلــه ومصطفاه لسرِّهِ ... وسراجُ حجَّته الذى لم يُقْشَعِ[1]
من خصَّه بِحُلَى الكمال إلهُه ... والكونُ واقعُ أمــرِه لــم يوقعِ
يا مولدَ الهادى لشهرِك نفحةٌ ... أرِجَ الزمانُ بنَشْرِها المتضوِّعِ[2]
أكرِمْ بمولدِ ذى الخِتام بيَوْمهِ ... وبشهرِه وبعامـــهِ والموضـــعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسانُ عين الكون وغرَّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرانه ومصطفاه لسره ورسالته وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبدًا ، وقد خصه بالكمال الأسمى قبل حدوث الكون وخلقه . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التى خُلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

---

(١) يقشع هنا : تنحسر أضواؤه .
(٢) أرج الزمان : تعطّر . نشرها : شذاها الطيب . المتضوع : الشديد الرائحة .

محمد[1] بن حنبل

يقول الشنقيطى فى ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر فى اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى فى البيان . وكان حريصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات منقطعا لطلب اللغة » وأنشد الشنقيطى له قصيدة فى مديح الشيخ سيدِّيا حضَّ فيها على طلب العلم ومدارسته حضًّا شديدا ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيدِّيا عارض بها مقصورة أبى صفوان الأسدى وما تصور من حيوانات الصحراء وطيرها وما تحمل من ألفاظ بدوية آبدة مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وأنشد له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة فى نحو مائةٍ وثمانين بيتا ، وهى نبوية رائعة ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدًا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طَه الصِّراطُ المستقيـمُ محمدٌ ... تـاجُ الخلائق سيدُ الأبــرارِ
أصلُ الوجودِ وحَلْيُهُ وعَتادُه ... ومُفيضُ بحر الجــود والأنــوارِ
نورُ السراجِ وكلِّ نَجمٍ طالعٍ ... من نــورِهِ والشمسِ والأقمــار
والحُورِ والوُلْدانِ فى غُرفاتها ... والدرِّ والياقــوتِ والأزهــارِ
والعَرْشِ والكرسىِّ والألواح والأ ... قلامِ والأفهــام والأبصـــارِ
والمسكُ فى فاراتـــهِ والندِّ فى ... أحقاقه والروض ذى الأنــوارِ[2]

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذى لا ينحرف أبدا تاج الخلائق سيد النسَّاك . ويأخذ ابن حنبل فى ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينته وعُدّته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور فى السراج وفى النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال فى حور الجنان وغلمانها وفى اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود فى العالم العلوى من عرشٍ وكرسىٍّ وألواح وأقلام وفى العالم السفلى من أفهام وأبصار وهو طيب المسك فى أوعيته وطيب النَّدِّ فى حِقاقه وشَذَا الأزهار فى روضها المونق . ويستمر ابن حنبل فى نفس الفكرة قائلا :

وبهِ نَجَا فى الفُلْك نوحٌ وأهلُه ... ونَجَا الخليلُ من التهاب النَّارِ
وأقام آدمُ فى الجِنان وزوجـُه ... وبنوهما فى البَدْو والأمصــارِ
وبيُمنِهِ قَبِلَ الإلـــهُ متابـَهُ ... من بعد مَكْر الخادع الغرَّارِ[3]

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حنبل الحسنى وأشعاره الشنقيطى ص ٣١١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧٨ وفى مواضع مختلفة .

(٢) فارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الغرار : إبليس .

ونجا الذبيحُ بذبْحه من بعد ما أنْحَى عليـه بصـارم بتّـارِ
وبه سَرَى موسى الكليمُ بقومه وبه انفلاقُ الخِضْرِم الزخّار[1]

وهو يردُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسل إليه وكذلك كلّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسل مستمد منه ، فبه نجا نوح ومن آمن به فى الفلك من الغرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كُرِّم آدم وزوجه بمقامهما فى الجنة وأغواه إبليس فقبل الله بيمنه توبته وأكرم ذريته فى البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، وبيمنه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجبل العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل فى بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود فى الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل بيمنه وفضله . ويتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وأتى بكلِّ مهيمنٍ ما إنْ تَفِى لُسْنُ المنـاطق منه بالمعشـارِ[2]
آياتُ عيسى والكليمِ بجَنْبِهِ كالطَّـلِّ جَنْبَ مُزَمْزِمٍ همّـارِ[3]
سُوَرٌ كأشباه الرياضِ تضوَّعتْ بِشَذا العَبيرِ وجَوْنَةِ العطـارِ[4]
وتناسقتْ ألفاظُها وتناسبتْ آياتُهـا كتناسب التَّقصـارِ[5]
وطِوالُها كِقصارها وقصـارُها كالدرِّ يَبْرُزُ فى نحـورِ جَـوارِ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرآن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمطر القليل بجانب السحاب المرعد الذى تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق اللآلىء فى القلادة البديعة ، وطوالها مثل قصارها تشبه الدرر فى نحور الجوارى الفاتنات .

٤

الشعراء والشعر التعليمى

عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدَّى إلى استحداث فن الشعر التعليمى ، وكان من السابقين إليه أبان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .
(٢) مهيمن : قاهر معجز . لسن المناطق : ألسنة البلغاء .
(٣) الطل : المطر القليل . مزمزم : سحاب ملىء بالرعد . همار : مدرار كثير المطر .
(٤) تضوعت : فاحت . شذا : عطر . العبير : الطيب . جونة : رعاء .
(٥) التقصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظَم مزدوجات أخرى فى التاريخ والفقه . ومن حينئذ شاع هذا الفن الجديد فى العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته فى الأندلس والمغرب ، وتأخذ فى الظهور بموريتانيا فى القرن الثانى عشر الهجرى وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة فى القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها فى أواخر القرن الثانى عشر نظم المُجَيْدرى لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولامهاسين مثل طاووس وناقوس[1] . ونلتقى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وله فى النحو نظم سماه الاحمرار ذكر فيه من تسهيل ابن مالك ما لم يذكره فى الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة[2] . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع فى أصول المذهب المالكى للسبكى وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطى : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف فى علم البيان نظمه « نَوْر الأقاح » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتاح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألغى فيه الغث وأخذ السمين ، وله فىَ مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا[3] ولابنه محمد منظومة فى الأفعال جمع فيها ما فى التسهيل لابن مالك وما فى لاميته وما فى شرح بحرق اليمانى للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوى بارع ، ويقول الشنقيطى معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به[4] . ولعبد الله بن أحمد الغلاوى معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه فى العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات[5] متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، أنشد الشنقيطى من فاتحتها قوله :

ولم أكن جُذَيْلَ هذا الفنِّ ... ومـا علىَّ لَـوْمةٌ لأنّـى[6]
شُغلتُ بالنَّحْو وبالبيـانِ ... و (إنَّ هذان لساحران)

ويذكر الشنقيطى أنه نظم متنًا فى الفقه لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى صاحبَ متن السلم المشهور فى المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإلهِ الشنقطىُّ يشترى ... بعقده المنظوم تِبرَ الأَخْضَرِى

وقال إنه نظم أيضا متن الخزرجية فى العروض ، واستهلَّ نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجى ... مسائلَ العلوم بالتدريجِ

---

(١) الشنقيطى ص ٢١٥ .

(٢) الشنقيطى ص ٢٨٠ – ٢٨١ .

(٣) الشنقيطى ص ٣٨ – ٣٩ .

(٤) الشنقيطى ص ٨٣ .

(٥) انظر ترجمة الغلاوى عند الشنقيطى ص ٩١ وما بعدها.

(٦) جذيل : خبير .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطي إنه همّ بنظم مختصر خليل في الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف[1] .

وللتجاني بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة في أزواج النبي ﷺ وأولادهن منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطي شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجويني إمام الحرمين في علم الأصول[2] . واشتهر أحمد البدوي المجلسي بمنظومتين[3] : منظومة في أنساب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمدًا لمن رفَع صيتَ العربِ وخصَّهم بين الأنام بالنبي

والمنظومة الثانية في غزوات الرسول ﷺ ، وينوه الشنقيطي بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره في السيرة النبوية ، افتتحها بقوله :

حمدًا لمن أرسل خيرَ مُرْسَلِ لخير أمـــةٍ بخـير المللِ
وأفضـلُ الصـلاة والسـلامِ على لُبـــاب صفوة الأنـــامِ

وأنشد له الشنقيطي قطعتين في غزوة الخندق وغزوة حنين . وممن أكثروا من الشعر التعليمي في النحو عبد[4] الودود بن عبد ألّ من نحاة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وشعرائه ، وله مقطوعة في مد المقصور استهلها بقوله :

ومدُّ مقصورٍ خلافُه اشتَهَرْ وفَصَّـــلَ القُرَّاءُ تفصيلا بَهَرْ

ومضى في المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطي : « له قصيدة غزلية في المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة في النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن ألمَّا ، يقول الشنقيطي : توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة في النحو[5] ، ومثلهما الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريبا من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنقيطي : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كتبه بالحمرة لا لتبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه في مسائل نحوية[6] .

(1) الشنقيطي ص ٩٢ .
(2) الشنقيطي ص ٧٠ .
(3) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٥٠ .
(4) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٧٤ .
(5) الشنقيطي ص٢٣٩ .
(6) الشنقيطي ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

القسم الرابع

السودان

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

السودان جنوبى مصر فى القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبى نهر النيل من وادى حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهى مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولا وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضا . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوضى نهر السوباط وبحر الغزال ، والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعا .

والصحراء تطل على جانبى النيل فى السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما فى السودان الأوسط جنوبى الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهل ، ويمتد السهل شرقا حتى مرتفعات الحبشة وجنوبا شاملا السودان الجنوبى حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملا ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففى شرقيه حتى تلال الحبشة سهل طميىّ خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثانية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتجود فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة فى دارفور وما وراءه وأيضا حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراع واسعة يتجول فيه أهله صيفا وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون فى بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفى الشرق الاقليم بين حوضى النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

---

(١) انظر فى جغرافية السودان كتاب السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية للدكتور إبراهيم رزقانة ودائرة المعارف الإسلامية .

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراع واسعة ومناطق زراعية على شواطىء النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطىء النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجّة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أنعامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر ففى الصيف يسقط فى الداخل ، ويتزايد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشاريين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل العشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والعشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، وأبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السوباط وبحر الغزال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تُغَطّيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الغزال . وتجرى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكانها قراهم ويرعون أنعامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . وبجانب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠ °م ويزيد الجوّ الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحرُّ شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

٢

التاريخ

(أ) السودان فى العصور[1] القديمة

يرتبط السودان فى تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حِفاظ تلك الأسرات على الأمن فى جنوبى مصر وعلى طريق التجارة . وفى أخبار الأسرة الرابعة أن سنفروقام بحملة فى الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات فى عهد الدولة الوسطى بغرض السيطرة على أرض النوبة فى الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع فى عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسميت الأراضى الممتدة إلى ذلك الشلال – منذ ذلك الحين – باسم أراضى النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصِّرت تماما فى عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطوابع الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة فى أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائبا للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطردون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حينئذ ثلاث دول نوبية : الأولى فى الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية فى الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبى الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى عَلْوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية المسيحيين فى مصر فرَّ كثيرون من معتنقى للمسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحى واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية فى روما دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت فى نوباديا البعثات التبشيرية ، وممن اشتهروا بهذا النشاط التبشيرى تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحى كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحى فى عهد الإمبراطور جوستنيان (٥١٧ – ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستنيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهزها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برياسة جوليان ، ووصلت

(١) انظر فى تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة (نشر وتوزيع دار الثقافة ببيروت) وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان فى دائرة المعارف الإسلامية .

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهزها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة فى مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستنيان ، وتوفى جوليان فعيِّن مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجنيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة فى الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر فى طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها فى المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبيعتين فى المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت فى التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك فى التنصر تدريجا على مذهبهما اليعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبيعتين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت فى مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبيل الإسلام أو بعده بقليل .

(ب) السودان[1] فى العصور الإسلامية

ذكرنا فى حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لمغانم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تتوغل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القائمين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصلى فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذُكْرانا وإناثا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية فى مصر بمملكة مقرة النوبية قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجّة السودانية تنزل فى الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى دهلك (مصوع) وقامت بغارات على أسوان فى عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجّة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم –قبل هذا التاريخ فيما يبدو– قبائل أو بعبارة أدق جماعات

---

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقريزى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ص ٢٥ وما بعدها وكتاب دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين (طبع جامعة الخرطوم) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

من قبيلتى بَلِىّ وجُهَيْنة للرعى وللتجارة ولاستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أيدى العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويزور بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى واشترك فيها كثير من قبيلتى ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقريزى أن ابن طولون جنَّد من النوبيين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولابد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم .

وبدون ريب هيَّأ نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويزور بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسوانى ، ويروى المقريزى عنه أن المسلمين هناك معزَّزون وفى حالة استقرار وأنَّ كثيرين من النوبيين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى – بتشجيع منها – خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة – فى العهد الفاطمى – مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقَّبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كنز الدولة وعُرِفَ قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أيدى الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثغر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصَّليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحوُّل الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م أغار النوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكنده متظلما منه ، وانتهز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشا مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكنده (إسكندر) ملكا على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكنده سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمامون ملكا على مقرة ونائبا لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمامون لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيدمر والى قوص ، وهزم سمامون وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيدمر .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمامون الملك الجديد نائبَ قلاوون وأيدمرَ إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمامون سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففرَّ سمامون أمامه متوغلا فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنُصِّب ابن أخته بدنقلة ملكا على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمامون ثانية إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهدا له بأداء كل الالتزامات ، وقَبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمامون عن أداء الجزية والضرائب ، وجهز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونُصِّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نائبا له فى دنقلة وملكا مسلما عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونصَّب شيخ ربيعة نفسه ملكا على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جدا . وتلك حسنة واضحة لاقتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضى النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائيا على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلاطين المماليك بولائه ، وحين كان يعصى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويَفرُّ إلى الأبواب كان كثيرا ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية ، إذ قُطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مقرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلبهم عدديا على سكانها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحى منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثنى .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبى بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلغله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم ، وكان ملوك الكانم من الطوارق الملثمين المسلمين وكانوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يبسطوا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداى ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجعادنة والمحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوَّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداى بين سنتى ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطنته الكانم بجانب واداى وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م — ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقيه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر — كما رأينا — بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

(جـ) دولة الفونج[١]

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير وكتاب قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقيل إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربيه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالى النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم ينسبون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكأنهم تغلغلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوبا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جمّاع شيخ عرب القواسمة من جهينة وشيخ قبائل العبدلاّب ، وكان يسود المنطقة من التقاء النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصارًا حاسما ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذابوا فى سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م وأقاموا فيهما حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يقنع العثمانيين بأنه ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرّر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ/١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أفخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعداها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا (حاكما) معلوما وقنّن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعْنَى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدثت فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والعبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانهزم جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرّى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرباب عند عدلان وداى فأقام العجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرّى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رياط وفى عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/١٧١٨ م اكتفت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والهمم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تابعا لمملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهرى وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملكُ المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جلَّتْ عن العَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسة ود ناصر ، وفى عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمالى السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلأب وبالتالى عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلأب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكى وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيىٌ سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش متجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إبلهم وأنعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدًا فلما بلغته الهزيمة آثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزيَّنوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءًا شديدًا وغيَّر كثيرا من القوانين واستعان بأهل النوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبًا شديدًا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفونج – منذ هذا التاريخ – ألعوبة فى أيدى الوزراء من الهمج ، وكانوا جماعة أو قبيلا واضحا فى سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيلك ، أما جماعته وهم الهمج فيقال إنهم من الجعليين الذين كانوا ينزلون شمالى قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك بادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى انحدر منه الشيخ محمد أبو لكيلك يرجع إلى جعلى ، تزوَّج من نساء الأبواب . وقد مكنته مجموعة أخواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتدبيره . وعُزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيلك وتولى المشيخة بادى ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الهمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .

٤

محمد على والسودان – عهد إسماعيل

(أ) محمد على[1] والسوادان

تَرْجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبابه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتيحت لجيشه كتيبه أو كتائب سودانية بدلا ممن فيه من الترك والأرنئوط والألبان . ومن أهم المغريات أن المماليك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبحة القلعة المشهورة فرَّ كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكوِّنوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ،فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاظوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرنئوط والألبان وعربان البوادى ، ورُحِّل الجيش إلى حلفا وعيَّن محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايقية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم واسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولَّتْ وجوهها

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة : تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ، ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى مدينة شندى وفيها سلموا له ، وطمأنهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المماليك قد انسحبوا إلى شندى وآثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلّم له الشايقية وحكام دنقلة وبربر وشندى والجعليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقر أم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير العبدلاّب وسلّم له فى أوائل رمضان سة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقيه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقيه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار فى الثانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدّت للإسلام والعروبة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعدّ حملة بقيادة محمد بك الدفتردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفتردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليُعدّ العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعًا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فغضبوا غضبًا شديدًا فاضطر إلى تخفيضها . وأحسّ بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدنى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل — بعد غيابه عن القاهرة مدة سنتين — أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنمر ملك شندى والجعليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وأعقبت ذلك حملات انتقامية للدفتردار قتل فيها آلاف غير من أُسروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التنكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفتردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقةَ للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فرّ إلى الحبشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقى وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ورُقّى خورشيد إلى رتبة الميرميران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذى أنساهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين فى تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة فى نفسها » . وتوفى أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد على تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأسًا إلى مصر ، ويتعاون المديرون فى المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائى مصوع وسواكن إلى السودان وأجابته إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين فى الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون فى الطريق أو فى معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قويمة وتحسين الرى والزراعة وزيادة الإنتاج الحيوانى وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقى وحفر الترع .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد على سنة ١٨٤٨ وفى عهده أنشئت القنصليات فى الخرطوم ، ومع أنه أغلق فى مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين رفاعة الطهطاوى ناظرا لها . غير أن سعيدا حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفى عهده أبطلت تجارة الرقيق السودانى نهائيا وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية فى جمع الضرائب وخففها ، ورأى أن تبقى كتائب الجند فى السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق فى منازلهم .

(ب) عهد إسماعيل[1] (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م)

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السودانى فى الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته إلى أن توفى بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانيين الإدارية ،وطالبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران فى السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وأنشئت فى السودان

(١) انظر فى السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكى شبيكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير .

زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديريات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بحاجتها من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإنفاق على المساجد وكتاتيب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الغزال وعُيِّن الزبير السودانى مديرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وفرَّ مشايخهم إلى سلطان دارفور فنازله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الأستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزيين أحدهما مكتشف مهم هو صموئيل بيكر مكتشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والثانى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ/١٨٦٩ م بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية ، فتعرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الاستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بكير وحُرِّر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الاستواء ظانا أنه سيخدم مصر ، وأسرَّ صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجعل منطقة خط الاستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصيب عينية تأليب السودانيين على مصر والمصريين ، وأنفقت الحملة ثمانمائة ألف من الجنيهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مظنونا ، وكل ما جنته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث محطات هناك فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل ليتمم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الاستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناوشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحسَّ بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقنعه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده .

وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنتى ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعالى النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطت حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويجيبه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكمدارًا عامًّا على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكمدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانيين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأوروبيين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وان ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل متمتعا بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدما فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية وازدهارا فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

٥

حركة المهدى – خليفته عبد الله التعايشى

(أ) حركة[1] المهدى

المهدى هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجارا فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوبا ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخا صوفيا من أتباع الطريقة السمانية وعنه تلقّن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

وانصرف فى كهف بها على شاطىء النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفى الشيخ محمد شريف إذ وجده يحتفل فى ختان أحد أبنائه بصور من اللهو لم يَسْتَسِغْها تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقته السمانية جدّد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدىّ المنتظر الذى بشَّر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصَّه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيُلازمه ، وأخذ مريدوه من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدى أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعده على التحصن ضد القوة الكبيرة التى سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة تقلى فى كردفان ونزل فى جبل قدير واستقر به ، ووجَّه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرابيون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلمى ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدى سنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م فى مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه فى الجزيرة ولكن الحكومة أخمدت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلمى الهدوء . وفى سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيِّض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولى الله».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندى بقيادة هكس باشا الإنجليزى وهاجمت المهدى فى الأبيض وأبيدت إبادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدى غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تفد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدى وأخذ النساء فى الأفراح وفى أعمالهن من احتطاب وغيره يتغنين بالمهدى ومناقبه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفى ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدى الضابط النمساوى سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصرَّ شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال فى أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة فى إنجلترا أن غوردون هو الذى يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظانا أنه يتمتع بشخصية شعبية فى السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التى أشعلها المهدى فى نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل توا إلى المهدى خطابا يعينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيح تجارة الرقيق ، وأجابه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالا ذاتيا تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدا أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدى الأنصار أو المهديين ، وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدى فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدى يعدّ جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقـاءُ ثباتُ ... والموتُ فى شأن الإله حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طابية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدى فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقنا للدماء . وبلغ المهدى أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت المتمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتكوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدى حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أسسا واضحة سنتحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواعظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك » .

(ب) عبد الله التعايشى[1] خليفة المهدى

استخلف المهدى – وهو يحتضر – عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدى مبكرا وهو لا يزال فى جزيرة أبا وبايعه ، وأخذ المهدى يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبيعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدى أسرة المهدى وسُموّ الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس

---

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى .

بموجب الكتاب والسنة ، وقسم السودان إلى عمالات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكما ، يسيطر على الجيش والإدارة ومنح كل حاكم عدد من الموظفين يساعدونه فى أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميتها من ميناء مصوع فاحتلها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشى وعين على مدينة القلابات عاملا ناوش الأحباش وقُتل فى إحدى المعارك ، ويرسل إليها قائده أبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندى لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومُنى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قُنْدر (غوندار) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شئونه ، وبالمثل مديرية خط الاستواء وكانت سقطت فى أيدى أتباع المهدى سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمَّها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يغسل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتقوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح فى المعركة جرحا مميتا وانسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية فى الأنصار إلى الذروة .

وصمم التعايشى على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وأعدَّ لذلك فى نفس السنة جيشا بقيادة عبد الرحمن النجومى ، وهو من الجعليين ، وسار إلى الشمال متجها إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أنزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحيث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائيا . وفى السنة نفسها انتشرت فى السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشى محاطا بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشى قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية فى الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة فى طاعته ، وكان ذلك تعويضا له عن خسائره فى الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقنة قائد التعايشى بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد مَنَليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأنزل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشى من خطر الطليان . غير أن خطرا أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد رؤى إنشاء خط حديدى من وادى حلفا إلى مدينة أبى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كتشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرّ الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى أبى حمد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كتشنر بالجيش وانتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحتمى به ، وظل أشهرا يعدّ العدة للقاء كتشنر ثانية ورفع كتشنر العلمين المصرى والأنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعقبيه من جند كتشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وبموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

الحكم[1] الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كتشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢° شمالا حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولمنشوراته حكم القانون ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن الحاكم العام يكون إنجليزيا وترشحه الحكومة الإنجليزية ، ومُنح سلطات كبيرة تجعله حاكما مستقلا . ورأى كرومر أن تكون مناصب المديرين والمفتشين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والمأموريات . وربما كانت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعيِّن كتشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثانوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وافتتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تُعين السودان ماليا حتى سنة ١٩٥٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية وللتعليم

---

(١) انظر السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم الحديث لنعوم شقير وراجع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال للرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كتشنر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، وأنشىء - حسب الاتفاقية الثنائية - مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعُنى الحكم الثنائى بالمواصلات والبرق (التلغراف) ومُدَّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وأنشىء خط ملاحة نهرى من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدراسة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجُرِّبت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ، وأنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وأنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخمد ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائيا ويصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد - بحق - بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

الفصل الثانى

المجتمع السودانى - الثقافة

١

المجتمع(1) السودانى

رأينا فى الفصل الماضى كيف أن الإسلام أخذ ينتشر فى السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التى نزلت فى حوض النيل جنوبى حلفا وفى شرقيه بقبائل البجّة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة فى الدين الحنيف وقامت فى دنقلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبى دنقلة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره فى غربى السودان أسرع بفضل كثرة من نزله من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكانم ، وتكونت سريعا فى دارفور ووادای مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجرى .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا فى مملكة علوة وفى جبال النوبة وعلى شاطىء النيل الأبيض وفى جنوبى السوباط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتتأسس سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م دولة الفونج الإسلامية فى مدينة سنار على النيل الأزرق وتنشر سلطانها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تقلى فى جبال النوبة .

(أ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه فى الانتشار بأنحائها وكان أول من حاول نشره فى ديارها الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان فى أثناء حجه ، وأقنعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى الحسينى نسبا المتوفى ببغداد

---

(1) انظر فى المجتمع السودانى كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر للدكتور محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والتربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ومنشورات المهدى .

سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنيتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م أشاعتهما بغداد فى العالم العربى ، ويقول ابن تغرى بردى عن الجيلانى إنه « أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم فى الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب فى إقليم سوكى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاَّب وعبد الله دفع الله العركى جد العركيين وبان النقا الضرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهارى قلَّده شعار الرياسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورَّثوها أبناءهم ، وارتحل الشيخ البهارى إلى تقلى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السمانية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزله أحد أتباعها المغاربة — وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعاتها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ/١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ/١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمالى الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَّل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيين يأخذون طريقتهم الصوفية عن حجازيين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

آنفا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النيجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويتعمَّم بالشيشان الفاخرة ، ويتبخَّر بالعود المندى ويتعطَّر ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريقته أبى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ، فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجبب والمرقَّعات فقال : ثيابى تقول للخلق : أنا غنية عنكم ، وثيابهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج (٩١٠ هـ/١٥٠٤ م – ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وإنها « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لابد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى » ومما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله العركى فإنه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريقته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكانة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله العركى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ أبى القاسم الوديانابى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرأ على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويُكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذاك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

ومما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يلتفُّون حولهم التفافا لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسابا لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صورا متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حينئذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقراء (أتباع المتصوفة) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذووى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلبى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هيبة شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهيبة فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكابر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضرته كانوا كالأطفال من هيبته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألمت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أفواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته وانتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يغلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يلتفّ به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية العيلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فجٍّ سودانى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة آهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شُدَّت إليه الرجال وضُربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشتمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

وإقليم التاكا فى شرقى السودان ، وحظى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلى يتخذ مركز دعوته فى الحلفاية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مريديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزًا لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما وهما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايقية ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرىء فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مريديه من موطنه إلى موطن آخر لبثّ دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض ديرى شمالى الخرطوم إلى غابة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

(ب) المرأة ومكانتها فى التصوف

لم نعرض – حتى الآن – للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكانة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى التعزية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنها ينتسب إلى خاله يقول المقريزى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضَّل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعا فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسانية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرب وكانت هى المسئولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمريُم من أن النساء اللائى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كُنَّ أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

فزارة ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جهينة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة – كما يقول ود ضيف الله – فتنشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمعن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن إليه مثل الرجال .

(جـ) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « وِرْد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفين متقابلين ومنشد أو منشدة ينشدان أشعارا تزيد الذكر حماسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصِّل له المنهج الذى ينبغى أن يتقيَّد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمريم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والعُجْب ، ولا يسعى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المغتصبين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذمم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته – أو من تعهد له بزواجها – من فاسق أو آثم كالحلاَّف بالطلاق والمغتصب وآكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بغض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال مغصوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رُبِّىَ بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تابعه بمواصلة ذوى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جيرانه شكر الله وعبد الكافى والفقيه محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : انقلوا الجبل فإنهم ينقلونه » .

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملا لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قويمة . وحقا لم تكن كل العهود تتشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مريديها بسلوك دينى قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقى واجتماعى سديد فى العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والنقباء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا فى الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغيبات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشىء كن فيكون والكبرى درجة القطبانية » . وهى شعوذة ، وقد تكون قولا نُسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله فى حديثه عن الصوفية ذكر الملامتية ، وهى فرقة صوفية خراسانية كانت تتستر — فى زعمها — بفعل أشياء تغض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهى فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من اعتنق مبادىء هذه الفرقة سوى محمد الهميم الذى زاد فى زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين » وهو لا يعد بذلك من الملامتية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذُكر عن إسماعيل صاحب الربابة من أنه كان من الملامتية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادىء هذه الفرقة فى التصوف السودانى وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قويمة .

(د) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج فى الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السودانى وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعاتها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مرَّ بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقى . واشتهرت بمكة حينئذ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتمَّ له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت فى السودان الطريقة السمانية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا فى السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر فى السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكوّن حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضعاف العصبيات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التى ربطت بقوة بين أفراد الشعب السودانى من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقى من جيوب وثنية بالسودان فى جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنتسب إلى شيخ واحد كقرية العيلفون التى كانت تنتسب إلى إدريس ود الأرباب ، وقد نزلها وسكنها لعهده سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادى النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هى مدينة الدامر التى دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المريدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية فى زمن دولة الفونج وانتشارها فى السودان من حينئذ عمل على إضعاف ما كان به من عصبيات قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تتنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هى وحدها التى تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت –طويلا – من عوامل الألفة والوحدة .

(هـ) دعوة المهدى ومبادؤها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدى محمد بن عبد الله فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض كما مر بنا فى الفصل الماضى وأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدى المنتظر والتف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة فقهرها ، وترك جزيرة أبا ونزل فى جبل قدير بمنطقة تقلى ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة فقضى عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلالى ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م وتعاظم شأنه وكثر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزى لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأبيدت إبادة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور فى نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده فى أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفى فى شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نتبين مبادىء دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادىء التى دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد فى متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك فى بيعة كل مبايع له ، إذ يقول فى بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويَشْرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاهتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبناؤهم فصار شغلهم – عن الإنابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين – بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتنوروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلئا بهذه الفانيات فلا محل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخسيس » .

والمبدأ الثانى فى دعوة المهدى العمل بالدين والشريعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص فى عبادته يقول فى منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامتثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادىء دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامى كبير ، ويصرِّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إنى قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبِّعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنما قصدنا منكم المعاونةِ فى تقويم الدين ، وإنى – فى ذلك – كواحد منكم » . والمهدى – بذلك – كان يريد أن ينشىء مجتمعًا إسلاميًا جديدًا على أساس قويم من الدين ، وكأن ثورته كانت ثورة إصلاح دينى لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامى إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة فى الدين التى هى – فى رأى المهدى – أقوى من الأخوة فى الأبوين . ولم يقم المهدى فى دعوته أى اعتبار لشىء سوى الدين الحنيف ، فلا اعتبار لنزعة قومية ولا لنزعة عنصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفرَّستم فى قدرة خالقكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغى لكم إلا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه إليه .. فهيًّا إلى ذلك فإن أسلمتم فلكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار فى دولة المهدى إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربى وغير عربى ولا بين سودانى وأوربى . ومما يدل على أن الأساس الدينى فى الدعوة كان كل شىء ما يقوله نعوم شقير فى الجزء الثالث من كتابه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدى جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم فى دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهدية ، وهم أبكاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزروه فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو فى جبل قدير بتقلى ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه فى الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم فى اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث فى دعوة المهدى هو الأخذ بالبساطة فى الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركى والأوربى فى الحياة المادية الحضارية لأهل السودان فى العادات والمأكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق فى وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوى ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع فى دعوة المهدى نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة فى السودان ، وبذلك حلَّ كل الطرق الصوفية ببلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع ينتمون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقيت ، كل يزعم أن طريقته هى طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الآخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد فى السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدى وما وضعه لها من مبادىء .

ومبدأ خامس فى دعوة المهدى هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة فى فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحالت هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يغرق المسلم فى لججها وخضمها الزاخر ، ولا يكاد يتبين نور الدين ، إذ حجبوا عنه الكتاب والسنة ، وزجوا به فى هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدَّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهادى جديد فى الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ فى دعوة المهدى أنه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفتاه يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب أن أحرقا أحمالا من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدى إلى الهجرة إلى المواضع التى اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمَّى أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرَّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرَّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التى سنّها المهدى فى المجتمع السودانى ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزانى والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيِّب ، وجعل وليمة العرس طبقا من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجَّه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه فى يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّرَ له أن يتوفى سريعا فى سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافق انتصارَه الكبيرَ ولا دعوتَه طويلا ، ولم يكن لخليفته التعايشى علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كتشنر حملة مصرية فى أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشى سنة ١٨٩٨ وقام فى السودان حكم ثنائى مصرى إنجليزى ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدى بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدى إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

٢

الثقافـــة[١]

(أ) كتاتيب – زوايا – مساجد

عرفت السودان مبكرة الكُتَّاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة فى كل قرية ومدينة وتجمُّع بدوى للمسلمين وقبائلهم التى نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتاتيب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذى يعد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويطرد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبى سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبَّب يكتب به واجبه اليومى ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءًا مما حفظ من القرآن لتثبيته فى ذهنه .

(١) انظر فى الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله وكتاب التربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد وتاريخ الثقافة العربية فى السودان لعبد المجيد عابدين والثقافة العربية فى السودان المعاصر لمحمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان عبر القرون لمكى شبيكة ومناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

وبجانب الكتّاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتاتيب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهى أيضا لتحفيظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كتّابا ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتاتيب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابته وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كانت تُشْغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنايته على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولابد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولَصْق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عاله ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والنوافل كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ — أو أحد طلابه — فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أرّخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م فى كتابه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يمدنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السودانيين الذين درسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذْنُ شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له فى نهاية المصنف الذى أذن له بروايته ، وقد يفردها ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السودانى كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ علىَّ الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكبابى نسبا البربرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشَرْحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذُكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسانى من الدعاء بسعادة الدارين .. وكتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . ويلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزين بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى العبدلاَّب وولاة علوة يغدقون على العلماء . ووثَّق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول (١٠١٩ هـ/١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ/١٦١٦) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مديح متعددة ، أنشد منها نعوم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السودان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجيعا لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسودانيين عامة حبَّب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(جـ) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لعهد دولة الفونج سودانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقانى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون العدّة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثانى حتى توفّى عدّتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

ومن تخرج فى الأزهر أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكى البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقانى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكى فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من دَّرس مختصر خليل ببلاد الفونج وشُدَّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخاً للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقته يبلغون – كما يقول ود ضيف الله – ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . وممن تتلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول « محمد يصلح للتدريس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . وممن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرَّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عُنى بأن ينهل من حلقات شيوخ العربية الأزهريين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه – كما يقول ود ضيف الله – علوم النحو واللغة والمنطق ، وتتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العربية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته – كما يقول ود ضيف الله – فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقعى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام وممن ندب نفسه لهذه المهمة – كما يقول ود ضيف الله – محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميذ الخطيب الشربينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى

أن توفى بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقه الشافعى من مثل الشيخ عبدالله العركى والقاضى دشين الشافعى وإبراهيم بن عبودى الذى اشتهر ببراعته فى تدريسه لعلم الفرائض أو المواريث وفيه ألَّفَ حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقه المذهب الشافعى أن يعم فى السودان ، إنما الذى عم فيه فقه المذهب المالكى للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمته فى مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكانم والبرنو وغربيهما ومن الليبيين والتونسيين والمغاربة فى حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكى هو الذى شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهريين الذين رحلوا إلى السودان فى عصر الفونج الشيخ محمد القناوى تلميذ الزرقانى الإمام المالكى الكبير استوطن مدينة بربر بين ديار الشايقية فى الشمال ثم جزيرة سنار فى الجنوب لأوائل النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وبنى فيها مسجده ودرَّس فيه رسالة ابن أبى زيد الفقيه القيروانى والعقائد (فى التوحيد) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به فى عفة ونزاهة » ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوى نزيل مدينة شندى جنوبى مدينتى بربر وعطبره ، وفيها درَّس فى الفقه المالكى رسالة ابن أبى زيد القيروانى مثل جده ، ودرَّس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع فى حلقته طلاب كثيرون . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشتغل بتدريس رسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقة المالكى ، كما كان يشتغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقانى على مختصر خليل وبالمثل شرح الشبرخيتى المالكى على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصرى الذى عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسى الجزائرى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م ألف فى علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال فى مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا فى الجزائر وحدها بل فى بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامى . وكان الشيخ محمد المصرى يدرس علم التوحيد للشباب السودانى من خلال هذه الأعمال ويفيض فى شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتبا شأنها أن تكتب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسى ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسى قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى فى عصر السنوسى ألف فى العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمدًا المصرى يشرحها أيضا - كما يقول ود ضيف الله -

ويشرح الأجرومية فى النحو . ولتلميذه الشيخ مكى النحوى الرباطابى شرحان على السنوسية : كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانيين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجى الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يماثله أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، وممن نزله من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفا ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شايقى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلا لنعرف ما الذى كانوا يدرّسونه للطلاب فيما عدا التلمسانى ، إذ يقول إنه درّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيله . ونظن ظنا أن التلمسانى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكانم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسانى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه – كما ذكرنا – لنحو مائتين وخمسين صوفيا وعالما وشاعرا فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . ويلى هذا المؤرخ وكتابه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة – والمراد بالشونة مخزن الغلال – وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويبدو وأنه كان موظفا فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار وللإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيله وقراءاته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لمحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السودانيين شعب متدين ويعتنق مناهج كثير من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجّه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والشيخ أحمد البقلى الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون – كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يُجبَر معتنق مذهب (فقهى) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السودانيين ورُتبت لرواق السناريين جراية أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأنشىء رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أُنشىء الجامع العتيق بالخرطوم ، وأُريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرّس فيه جِلّة من العلماء ، وممن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحروقى الشاذلى. ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضياً حنفيا، وعادة يكون مصريا وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

(د) التعليم المدنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشئات عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السودانيين إلى القاهرة ليلتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السودانيين تتألف من مائة طالب سافرو إلى مصر والتحقوا بمدرسة المبتديان .

وإذا صحّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر لمحمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسودانيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن وللعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسودانيين قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالى يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم » . ويبدو أن هذه الطريقة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وولى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ/١٨٦٣ م فعيَّن موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصِّلوا – كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – العلوم والفنون النافعة ، وأنشئت مدرسة سادسة فى سواكن . وأخذت – بعد ذلك – بعض الإرساليات التبشيرية تنشىء مدارس لها فى الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع فى نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تتأثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث فى السودان وبين التعليم القديم فى الخلوات والزوايا والمساجد من فروق تأثره بما فى الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة فى كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة فى كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم فى كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشىء من الوجهة التربوية السديدة .

وعيَّن إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حمدى حكمدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبثَّ فى مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض فى المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك فى الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم فى الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرِّج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والحاسبين وعمال التلغراف والموانىء إذا المهدى يقوم بثورته التى مرت بنا فيغلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية فى المآكل والملبس والأفراح والأحزان ، فأنصاره ينبغى أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة الفطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان فى أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشي منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهدوى وقيام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكانتها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حينئذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانيين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث

أنشىء فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بُنى له مبنىً مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أولى ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعُيّن كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسَدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للناشئة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديريات من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ افتتح الشيخ بابكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريماته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريماتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدنى إنشاء كلية غوردون ، وكان كتشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت – كما أسلفنا – نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورُوِّى – فى أول الأمر – أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وافتتحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقون سودانيون ، وفى سنة ١٩٠٥ أنشىء بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محجوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإنماء دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأخذت ترتسم أمامه مثل عليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يعتلون منابره معبرين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعدّ لثورة سنة ١٩٢٤ وهى – فى رأينا – تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرُّب(١) السودان

عرف السودان الجنس العربى قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطىء الإفريقى ، ويُظنُّ أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطىء أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطىء المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعَدّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ/٦٥١ م حملة تغلغلت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة. وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخِدْمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلِىّ وجهينة نزلت فى قبائل البجّة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغِير قبائل البجّة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنصُّ على أن لا تهدم البجّة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فُتحت الأبواب على مصاريعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجّة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

(١) انظر فى تعرب السودان ما كتبناه فى الفصل الأول عن السودان فى العصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ – ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمنه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م ويدل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفا من مقاتلة البجّة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حاميّة وتسمى التبداوية ، وكانوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام – ومعه العربية – ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لغتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتبداوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعوم شقير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقرة النوبية المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قرونا ، وتُغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديبية ، وتتغلغل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائبا فى النوبة عن بيبرس ، ويولّى عليها نائبا له ملكا مسيحيا من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولّى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكا مسلما من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبية قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك انمحت مملكة النوبة المسيحية نهائيا ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائيا دولة الفونج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبية إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى لتبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكانوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكانم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المغربية المسلمة ومن عرب الشاوية (رعاة الشاة) إلى إقليمى دارفور ووادای فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكانم ووادای وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التنجور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة أبى جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجرى إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائيا مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما فى البجة والنوبة وبعض جوانب الغرب فى دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فإنهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتؤسَّس دولة الفونج فى سنار سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية فى نظمها السياسية والإدارية وأن العربية لغتها الرسمية وكتبت بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية فى بلادها التى امتدت شمالا حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوباط وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية – هى دولة الفونج – لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرَّب فى عهد هذه الدولة . ومرَّ بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست فى جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تقلى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل فى الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينيها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية فى حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست فى دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كانوا من عرب الهلالية الذين اكتسحوا تونس فى القرن الخامس الهجرى إذ كانوا ينتسبون إلى أبى زيد الهلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م وتبعتها واداى وبرنو فى عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتى ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويعيدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول بأننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرَّب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التى لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة فى أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرأر من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها تتأخر فى التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات فى الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة فى كردفان وبنى سليم عند كاكا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا فى بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كانت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

٢

شعراء المديح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثرون من مديح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم فى سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودتكتوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ/١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن ينعى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والعطايا قائلا[١] :

يا واقفًا عند أبواب السلاطين ... ارفقْ بنفسك من همٍّ وتحزينِ
إن كنت تطلب عزًّا لافناء له ... فلا تقفْ عند أبواب السلاطين
خَلِّ الملوك بدنياهم وما جمعوا ... وقم بدينك من فرضٍ ومَسْنونِ
استَغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْـ ... ـتَغْنى الملوك بدنياهم عن الدِّين

والشيخ فرح ود تكتوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين انتظارا لأعطياتهم ويقول لهم : رفقا بأنفسكم وما تحمّلونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركا للملوك دنياهم وما جمعوا مع أداء فروض دينه ونوافله ، مستغنيا بالله وما يرزقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدنياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المديح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدى الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالا وانتصارات متعددة وكأنما أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشعر بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتغنون بمديحه وانتصارات جيوشه باثين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وأنه يأخذ فيها بهدى القرآن والسنة النبوية من مثل قول عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة[٢] :

ما هَدْيُه غير الكتاب وسنَّةٍ ... والتاركون لذاكَ هم كُفَراءُ
أجْلَى الصَّدا وأزاح أنواع الرَّدَى ... وسمتْ به فوق السَّما علياءُ
أمستْ بهِ آثـار طَهَ ونورُها ... يعلو ولا يعلو عليه سناءُ
فالمجـدُ فيـه مؤَمَّلٌ والفضل منـ ... ـه مؤمَّلٌ والنـاس فيـه سواء

(١) انظر طبقات ود ضيف الله (طبع صديق) ص ١٥ وشعراء السودان جمع سعد ميخائيل (طبع القاهرة) ص ٢٦٠ .

(٢) نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع لمحمد عبد الرحيم (طبع الخرطوم) ص ٨٣ وانظر شعراء الوطنية للدكتور صلاح الدين المليك (طبع دار جامعة الخرطوم ، ص ٣٣٢ .

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَّى الصدأ والكدرة عن وجه الحياة فى السودان ونَحَّى أنواع الهلاك والبوار ، ويقول إن علياءه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وسنترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدى هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقنة فى شرقى البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشى خليفة المهدى أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجىء عثمان دقنة فى هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقنة بالجيش الإنجليزى فى هشيم ، وفى ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه فى قصيدة حماسية[1] :

هندوب تعرف صَبْرنا ... كيف ارتكبْنا للمصاعبْ
وهَشيمُ تشهدُ عزمنا ... كيف ادَّرَعْنا للمصائب
يا طالما صدنا بها ... صَيْدَ الغَضَنْفَرِ للثعالب[2]
نَحمِى لديـن الله بل ... فى شأنهِ نَلْقَى المعاطبْ[3]
متوسلين إليـه بالـ ... ـمهدىِّ وِجْهة كلِّ راغب
وخليفةِ المهـدىِّ عَبْـ ... ـدِ الله مفتاح المطالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا فى الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . وإننا لنَحْمِى للدفاع عن دين الله معرِّضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلهنا بإمامنا المهدى وخليفته عبد الله التعايشى مفتاح كل مطلب للشعب السودانى . ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبيرَ باشا حاكم بحر الغزال للخديوى إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدى ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فعُفى عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها[4] :

هو فخر سنَّارَ الذى عظمتْ بهِ ... وجَدَاه عمَّ بها جميع السَّاحِ[5]
وتواضعتْ عظماؤها لعلاه إذ ... علموا بما أوتى من الفتَّاح
من فطنةٍ ونزاهةٍ وشهامةٍ ... وشجاعةٍ فى الغارة المِلْحاح

---

(١) نفثات اليراع ص ٩٣ وانظر شعراء الوطنية فى السودان ص ٩٠ .
(٢) الغضنفر : الأسد .
(٣) المعاطب : المهالك .
(٤) نفثات اليراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣٣٨ .
(٥) جداه : عطاؤه .

يحنـــو على مسكينهـم بتعطُّفٍ ويسدُّ ثَلْمهمُ يَخفض جَنَـــاحِ
فلذا تراهم يلهجـــون بذكرهِ لا يطربـــون بغير هذا الـرَّاحِ[1]
فالله يبقيـــه ويجعـــل سَعْيـــه فى كل ما يهوى قرينَ نجـــاح

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سنار » الذى أتاح لها عظمة ومجدا ، والذى عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإنه ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطربون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفق فى كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقى السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية – قائلا[2] :

بكم – آلَ طَـهَ ما حييتُ – متيَّمٌ وفيكَ مديحى دون غيرك يا عَلِى
ومَنْ ذا يَرَى فى العمر وجهك مرَّةً تَقَرُّ بـــه عينـاه يومًا وتَمْتَلِى
فيسلو هَـــوَى آلِ النبـىِّ ، وحبُّهـــم جرى فيه مجرى الروح فى كل مفصلِ
وإنك للإســـلام ركـــنٌ ومَوْئِـــلٌ لتحفظه يـــا خيرَ ركـــنٍ ومَـــوْئِلِ
ورثتَ كريم المجـــد عن أكرم الـــوَرَى ونـــورَ الهُـــدَى عن وجهـــه المتهلِّلِ

وهو يقول إننى متيمٌ صبابة بحب آل طه ، حبا يتعمقنى طوال حياتى ، وإنى لأقصر عليك – لهذا النسب الكريم – مديحى ، وإن من يرى وجهك فى حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلىء فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبى ، وكيف يسلوهم وحبهم يسرى فيه مسرى الروح فى أعطاف الجسد ومفاصله ، وإنك لركن للإسلام وحصن لتصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيىء .
ونتوقف قليلا لنترجم لشاعرى المهدى : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

الشيخ حسين[3] زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالى سنة ١٢٤٨ هـ/١٨٣٣ م بقرية وادى شعير فى المسلمية جنوبى الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفى سنة ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م . عُنى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكائه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين. وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمى عاد

(١) الراح : الخمر .
(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل (طبع القاهرة) . ص ٢٠٢ .
(٣) انظر فى ترجمة الشيخ حسين زهراء نفثات اليراع ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص٦٥ و ٣٢٢ وما بعدها .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدى بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدى على حملة هكس باشا الإنجليزى فى الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقابله بغير قليل من الجفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه فى وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة همزية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغى على المهدى من عناية بالعلماء من أمثاله وإسناد الوظائف المهمة إليهم . ويبدو أن المهدى لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضًّا بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رياسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشى استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتى الحديث النبوى وعلم الفرائض (المواريث) . وخلت وظيفة قاضى القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضى الإسلام ، وكان يُحق الحق لا يبالى بأحد ، فعرضت عليه قضية ومعها فتوى تهم الخليفة التعايشى ، فحكم فيها بالحق الذى يقتضيه الشرع . وعزله التعايشى فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبرا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهمزية فى مديح المهدى طويلة ، ومن تلويحاته فيها له بما ينبغى فى دولته من تقديم العلماء قوله فى تضاعيفها :

برح الخفا ما الحقُّ فيه خفاءُ ... وتوالتِ الآيـــاتُ والأنبــاءُ
بالآية الكبرى التى بظهورها ... كمل الرِّضا وانجابت الأسْواء[1]
مهدىُّ ربِّ العَرْشِ مُنْتَظرُ الوَرَى ... والَى الولى والأكرمــون وراءُ
علماءَ أمةِ أحمدٍ ناشَدْتكم ... ردُّوا جوابىَ إنكم علمــاءُ
أرْضَى وترضون الضلالَ بُعَيْدَ ما ... ظهر الهُدَى وانجــابَ عنه قذَاءُ
ويخيبُ ظنى فيكمُ وعشيرتى ... أنتــم ويقمع جمَعنا الغُربــاءُ[2]
جَهْلُ الـولاة أمــات دينَ محمَّدٍ ... وأهَيْلُه ماتـــوا وهـم أحيــاءُ

وهو يهلل لظهور الحق وتوالى العلامات والأنباء بظهور الآية الكبرى المتجسدة فى المهدى والتى كمل للشعب السودانى بها الرضا وانزاحت الأسواء والشرور ، فقد أُظهر رب العرش المهدى منتظَر الأمة السودانية . ولا يلبث فى الشطر الثانى أن يقول إنه يقدِّم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويبعدهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أترضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأقذاء عنه ، ويخيب ظنى فيكم ويقهرنا الغرباء ، ويتمادى الولاة فى جهلهم . ويتساءل ثانية أماتت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حملة عنيفة على المهدى وأوليائه وأنصاره الذين يقربهم قربى رفيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

---

(١) أسواء جمع سوء (٢) يقمع : يقهر .

عمادُ الهدى أُسُّ الجَدَا معدمُ العِدَا ... بَدا وإليه الناسُ فى الأرض نُجَّعُ[1]
مَلاكٌ أساطينُ الخلافة كفؤُها الـ ... مُعَدُّ لها الحصنُ الحصينُ الممنَّعُ
إمامُ الهُدَى الهادى لكلٍّ ومرشدٌ ... بهامتــه التــــاجُ النفيسُ المرصَّع
بهِ أخبرتْ من قبلُ وقتَ ظهــورِه ... صحـاحٌ رواها هِبْرِزِىٌّ ومُوضِعُ[2]

وهو يقول إن المهدى العماد الذى يقوم عليه الهدى وأس العطاء ومميت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفء المعد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام الهدى الهادى المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج الهدى النفيس المرصَّع . ويبالغ حسين زهراء مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشَّرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدام مسرع فى خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمــر جِدٌّ والخطــوبُ جِدادُ ... وجنــودُ مهدىِّ الوَرَى أمجــادُ
حربٌ بمحراب الهدى من بأسِه ... بِشَبَاتهـــا تتزلـزل الأَطْـــواد[3]
لِمْ لا وأملاكُ السموات العُلا ... فى جيش مهدىِّ الوَرَى أجنادُ
للحق جـاء وللمنــاكر قاتـــلٌ ... وعلى الفِعال من المقــال مـــزاد

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدى أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدى من محراب الهدى لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم فى الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدى لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

الشيخ محمد[4] عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا فى رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م وتوفى سنة ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة فى مطالع شبابه وخسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفى الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدى بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص فى بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

---

(١) نجع جمع ناجع : طالب الكلأ .
(٢) هبرزى: شجاع مقدام. موضع : مسرع فى خطاه .
(٣) الأطواد : الجبال .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره نفثات اليراع ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية) وشعراء الوطنية فى السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدهما .

التعايشى ، وقرَّبه منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعايشى والدعوة المهدية عيَّنته الحكومة الثنائية قاضيا ثم مفتشا للمحاكم الشرعية إلى أن لبَّى نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان فى زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره فى المهدى والدعوة المهدية يكتظ بحماسة قوية على نحو ما نرى فى تائيته التى طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحـربُ صَبْرٌ واللقـاءُ ثباتُ … والموتُ فى شأن الإلهِ حياةُ
والجبنُ عارٌ والشجاعةُ هيبةٌ … للمرء ما اقترنتْ بها العزماتُ
والصبر عند البـأسِ مكرمةٌ ومقـ … ـدامُ الرجـال تهابُـه الوقعـاتُ
والفخر كلُّ الفخر بيعُ النَّفْس للـ … ـه العلىِّ وأجرُهـا الجنَّـاتُ
إن الجهـاد فضيلـةٌ مرضيَّةٌ … شهدتْ بِمُحْكم أجرِها الآيـاتُ
قد حاز هذا الافتخـارَ جميعَـه … صَحْبُ الإمـام السادةُ القاداتَ

وهو يقول لأنصار المهدى محمسا لهم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة فى نصرة دين الله ، والجبن والقعود عنها عار لا يماثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالعزيمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعانَ الرجال ، وإن بيع النفس لله العلى فخر لا يماثله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا فى سبيل الله ودينه الحنيف الذى نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوابه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون فَرِحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدى وقواده . ويشيد بجهادهم فى نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمِىَ الوطيسُ رأيتهم … شُمَّ الجبـال ، وللضعيف حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديد وبأسهم … شهدتْ به يوم اللِّقا الغاراتُ
وخَلوقُهم صَدَأ الدروع ، لحزمهم … قتـلُ الأعـادى عندهم عـاداتُ
فى السِّلْم تلقاهمْ ركوعًا سُجَّدًا … أثَرُ السجـودِ عليهمُ وسِماتُ
وتخالُهم يـوم الجِلاد ضراغمًا … أسْدٌ وأَسْلُ رماحهـم غـاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شِلْوَ العِدَا … رزقَ النسور ولحمُهم أقـواتُ
والأرض سـالتْ بالدمـاء وما بها … غيرُ الجماجم والشعـور نبـاتُ

فهم قوم بواسل إذا دارت رحا الحرب رأيتهم جبالا شاهقة لا ينالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم فى قتل الأعادى والتنكيل بهم .

أما فى السلم فدائما راكعون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنها غابة ضخمة . ويقول إنهم يبادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلَّفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكأنما أنبتت جماجم ورءوسا لكثرة القتلى . ويشيد البنّا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدى على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهاد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنىء الشهداء من جيشه ، فالحور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدومهم . والقصيدة شعلة من الحماسة الملتهبة . وللبنّا قصيدة يمتدح بها عثمان دقنه قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثتْ لهم همـمُ الجهاد مـلابسَ النَّصـــر العزيزِ يمـــدُّه التصـويبُ
وأمدَّهم جيشُ المـلائك ناشـرا رايـاتِ نَصْرٍ للبـلاد تجوبُ
فسيوفهم مسلولـةٌ ورماحهـم مسنونـــةٌ وعدوُّهم مرعوبُ
وعدوُّهم دَوْمًا يَغَصُّ بريقهِ والرعبُ منهم للقلوب يُذيب
إن نوزلوا كانوا الليوثَ معاركًا أو غولبوا فعدوّهم مغلوبُ
أو حوربوا فالرُّعْبُ من أعْوانهم دَوْمـًا وعَقْلُ عِداتهم مسلـوبُ

وهو يقول : كأنما همم الجهاد القعساء أرسلت إليهم ملابس النَّصْر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوَّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أغمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصُّون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أنصارهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزالهم الضارى .

٣

شعراء الفخر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، ونلتقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العرابية ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية بديعة فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وستخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سودانى فخر حماسىٌ ، وهو يتخذ صورا متعددة ، من ذلك فخر الشخص بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكردى المولود سنة ١٣٠١ هـ/١٨٨٤ م[١] :

إنِّى ابنُ أُنثى حُرَّةٍ عربيةٍ ... آباؤها بِيضُ الوجـوه فُحولُ[٢]
إنِّى عريقٌ فى النِّجار وأبلجٌ ... فى بُرْده كَـرمٌ يكَـاد يسيلُ[٣]
تنميه للحىُّ اللَّقاح عشيرةٌ ... وأبٌ وقـورٌ ماجـدٌ بُهْلـولُ[٤]
وأنا امرؤٌ زَيْنُ المحافلِ شاعرٌ ... لى هِـزَّةٌ نحـو السَّماح تميلُ
هتَفَتْ بذكرى فى البلاد قصائدى ... وشَدَا بهـنَّ على الغصون هَديلُ

وهو يفتخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فائقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق فى أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، يُنسب فى عشيرته لحىٍّ لم يدنْ للملوكِ أبدًا ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وإنه لزين المحافلِ شاعر يهتز للشيم الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره فى البلادِ لقصائده البديعة ، وغنى بها على الغصون هديل الحمام وكأنه يرددها فى تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرا بنفسه فيما يقدم لوطنه[٥] :

إذا أنا لم أرفعْ إلى المجد موطنى ... فلا ساعدى يوما علته مناكبُهْ
أقومىَ إنْ مِتُّ اذكرونى فإنما ... حياتىَ وَقْفٌ للعـلا ومراكبه
ومالىَ مقسـومٌ لكلُّ عشيرتى ... وصدرىَ رَحْبٌ لا تضيقُ جوانبه
ولا أنا فعَّالٌ لشىءٍ يَشيننى ... ولستُ بعـذَّالٍ لخِلِّى أعاتبه
هل الخيرُ إلا أن تقـوم بواجبٍ ... تسـاعد مسكينـا ويُعْطَى رغائِبُهْ

وهو يقول إنه حرىٌ به الموت إن لم يعش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرىٌ بقومه أن يذكروه حين يموت ، فحياته كانت وقفا للعلا وأسبابه . ويذكر أن لكل فرد فى عشيرته حظا فى ماله ، وأنه حليم لا يضيق صدره بشىء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئا يشينه ، ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يعتب عليه فى شىء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدى واجبا فتساعد مسكينا ، وتحقق له بعض رغائبه وأمانيه . ويفاخر عبد الرحمن شوقى بجدوده فى الزمان القديم[٦] :

---

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .
(٢) بيض الوجوه كناية عن حسن أفعالهم . فحول : متفوقون .
(٣) النجار : الأصل . أبلج : مشرق الوجه
(٤) قوم لقاح : لم يدينوا للملوك . بهلول : سيد كريم .
(٥) شعراء السودان ص ٢٤٣ .
(٦) نفثات اليراع ص ١٨٣ .

زمانٌ تولَّى كان فيهِ جدُودنا ليوثا يقودون الخميسَ العَرَمْرَما[1]
إذا ابتسموا فالخُلْد فِي بَسماتهم وإن عَبَسُوا فالكونُ صار جهنَّما
وإن عصروا عُودَ الزمان أطاعهم ولان لهم عاصيه حتى تقوَّما
وإن ضربـوا دَكُّوا القِـلاع بعزمهم وأَوْمَـــؤا إلى بنيانهــــا فتهدَّمـــا
شموسُ سمـاء المجد أيان أشرقوا بدورُ الدياجى حيث كانوا وأنجما
لقد نصروا الدين الحنيف وسدَّدوا إلى الكفر سهما فى الفؤاد مصمِّما
وساسوا فما جاروا ولا تبِعوا هَوًى ولا حمَّلوا النَّفسَ الضعيفةَ مَغْرَما
إلى أن دعـا داعى الـرَّدى فتتابعوا نجوما هـوتْ فالكـونُ أصبحَ مظلما

وهو يصور المجد التاريخى العظيم لأمتنا العربية فى الأزمنة الغابرة ، ذاكرًا أن زمانا مضى كان جدودنا فيه أسدا ضارية ، إذا رضوا وابتسموا فكأنما فُتحت أبواب الجنان ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عصروا عود الزمان انعصر لهم ، وإن عصا قوَّموه حتى ينعصر ، وإن ضربوا دُكَّت القلاع بعزمهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنيانها لخرَّ منقضًّا . هم شموس سماء المجد فى كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجى فى كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصروا الدين الحنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأفئدته سهاما مصمية . وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحمِّلهم مغرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعى الموت فتتابعوا نجوما تهاوت وأصبح الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسى حماسية فى الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون فى بعض المواقع ، وفيها يقول[2] :

يـروم بنو روما طرابُلُسًا وقبد غزوها بجيشٍ ضاقَ ذَرْعًا بِهِ القَفْرُ[3]
أثاروا وَغًى دارتْ رَحاها عليهمُ وراموا بها فخرًا ففاتهمُ الفَخْرُ
أُعدُّوا لها من عُدَّة الحرب كلَّ ما يضيق بِهِ التعدادُ والبَرُّ والبحر
وقد زعموا أنْ سوف ينجح سَعْيُهم ولكنــه زعم الأضاليل والهَذْرُ
أُبيدوا فكانوا عبرةَ النـــاس بعدهم وحلَّـق فى آثـــار موتاهمُ النَّسْرُ

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرابلس بجيش كثيف ضاق به القفر وُسْعًا ، ودارت رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا ففاتهم ، مع ما أُعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس العرمرم : الجيش الكثيف الكثير .
(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع الخرطوم) ص ٢٣٩ وانظر ديوانه .
(٣) ذرعا : وسعا .

أبيدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عبرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثثهم النسور وانقضّت عليها انقضاضا . ويقول مفاخرا بشيمه الرفيعة وأجداده(1) :

أَلْقَى بِصَبْرِى حُسامَ الحادثاتِ ولى عزمٌ أُصدُّ به ما قد يلاقينى
ولا أَتـوق لحـالٍ لا تُلائمُها حـالى ولا منزلُ اللذَّاتِ يُلْهينى
ولستُ أرضى من الدنيـا وإن عظمتْ إلا الذى بجميـل الذكـر يرضينى
وكيف أقبلُ أسبابَ الهـوانِ ولى آبـاءُ صِدْقٍ من الغُـرِّ الميامينِ(2)
النازلـين على حكم العـلا أبدًا مَنْ زيَّنـوا الكَـون منهـم أىَّ تزيينِ
من كـل أروعَ فى أكتـاده لِبَـدٌ كالليث ، واللَّيْثُ لا يُغْضِى على هُونِ(3)

والعباسى يقول إنه يتدرع أو يتسلّح بصبر أمام جسام الحادثات فلا تنال منه ، ويصد بعزمه القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف يقبل هوانا أو ضيما ، وآباؤه آباء صدق من المشهورين ميمونى النقيبة الذين لا ينزلون أبدا إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كأنه ليث حقيقى ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيم . وحرىّ بنا أن نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

الشيخ يحيى(4) السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ/١٨٤٦ م وهو ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدى وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين نشبت ثورة عرابى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى مصر ، ويرفض طلبه ، فيبرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التاليين :

مـولاىَ عـزَّ ترحُّلـى وغدوتُ مقصوصَ الجناحْ
فأَرِشْ جَنـاحى مثلمـا عوَّدْتنيـه ولا جُنـاحْ .

فأبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترحيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عرابى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

---

(1) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونفثات اليراع ص ١٣٩ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٢٩ وما بعدها وانظر ديوانه .

(2) الغر : المشاهير . الميامين : المباركين .

(3) أكتاده جمع كتد : مجتمع الكتفين .

(4) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نفثات اليراع ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ، ٢٩٩ .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات اليراع إنه نظم – تلبية لعرابى – قصيدة يائية من تسعة وتسعين بيتا عثرنا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرابى والشعب المصرى بها أن طُبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة منها جنيها ذهبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

شُغِل العِدَا بتشتُّتِ الأحزابِ   واللّهُ ناصرُنا بسيفِ عرابى
والقطرُ فيه من الرجال كفاءةٌ   للحادثات فهمْ أولو الألبابِ
وحميَّةُ الإسلام تقضى بالوفا   حتما على كلِّ امرىءٍ أوَّابِ(١)
ومحبَّةُ الوطن العزيز تحثُّهم   والفَلْجُ إذَنْ باتِّباعِ صوابِ
والمشركون خواسرٌ فى سعيهم   هُزِموا وقد نكصوا على الأعقابِ(٢)

والشيخ يحيى يقول إن الإنجليز شغلوا بتشتت جندهم ، وسماهم الأحزاب أسوة بغزوة كفار قريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف أحمد عرابى ، والقطر مليء برجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر كل مسلم أواب متبتل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالرُوح ، وأيضا مملوءون محبة للوطن تحثهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهى إلى النصر المبين ، وقد نصرنا فعلا فى بعض المواقع ، وهو إذَنْ ويبشر بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هُزموا ورجعوا ناكصين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

هيَّا بنا يا أهل مصرَ إلى الرِّضا   والفوزِ فى العُقْبَى بغير حسابِ
أنتم أولو الهمم التى بسهامها   كم من عدوٍّ آبَ شَرَّ إيابِ
لا تشغلَنكم الحياةُ فإنها   ذلٌ لمن يَرْضَى بهتك جَنابِ
ولقد نرى إخواننا فى حالةٍ   تحتاجُ للأعوان والأصحابِ

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرابى ويشتركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى الآخرة ويقول إنكم أولو الهمم المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آبوا شر مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإنه لذل لأى أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود وقادتهم لفى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرت عرابى وأمدته بعون قيم .

(١) أواب هنا : متبتل إلى ربه .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا اعتزموه .

والقصيدة وثيقة مهمة فى موقف الشعب من ثورة عرابى وتأييده له فى حربه ضد الإنجليز الغاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلى بجيشه الإنجليزى إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغنى ، فساعده على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشا للغة العربية فى وزارة المعارف التركية .

عثمان[1] هاشم

ولد فى مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التى شاركت بقوة فى العلوم الإسلامية ، وهى تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمى الدينى بأم درمان سنة ١٩١٢ والطيب أحمد هاشم مفتى السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتّاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائى فى كلية غوردون وتخرج فيه وعمل فى الحكومة السودانية موظفا منذ سنة ١٩١٥ . وشُغف بالشعر العربى مبكرا فأكبَّ على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعا ، ونظم فى موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين أُلف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية فى بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى فى هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشطر كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركى إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقا ، حتى اضطر من بقى منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا – بفضل مصطفى كمال – إلى الظهور ببطولتها الحربية القديمة ، وحيَّاه عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له فى مطلعها :

ضربتَ بسيف الحقِّ فاندكَّ باطلُ ... وجئتَ بما لم تستطعْه الأوائلُ
ودافعتَ عن دين النبيِّ محمَّدٍ ... ولم تَثْنِ منك العــزمَ تلك القنــابلُ
غضبتَ لدين الله لما رأيتَه ... تُمَدُّ لـــه من كلِّ حَـدْبٍ غَوائل[1]
فلما توسَّطتَ الأناضول صِحْتَ في ... بنيه ألا هُبُّوا دفاعًا وناضلوا
فلبَّتْك من أبناء عثمانَ عصبةٌ ... لها فى صميم الترك مجدٌ ونائلُ
وهاجوا غِضابا كالأسـود وأقسموا ... بأن يَصْدُقوا بالفعــل ما أنت قائل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان بسيف الحق فاندكَّ حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تثنيك قنابل الأعداء ، إذ غضبت للدين الحنيف

(١) انظر فى ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

غضبة ضارية ، فقد رأيت دواهى كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت فى أهله : هبُّوا وناضلوا عن حماكم ، ولبّاك من أبناء الترك عصبة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياجَ الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك فى الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائى العظيم قائلا :

أحاطَ بك الأعداءُ حتى كأنهم ... خِضَمٌّ عظيمٌ لم يَبِنْ منه ساحلُ
وكم سفكوا منكم دماءً بريئةً ... وكم سفحتْ للدَّمْع منكم أراملُ
وما هدَّ هذا منك حزمًا عزمته ... وكيف تهدُّ الراسيــاتِ المعــاولُ
فسَقْيًا لأقوامٍ سَقَوا بِدمائهم ... ثَرَى وَطــنٍ مُدَّتْ إليه الحبائلُ[2]
وذادوا عن الدين الحنيفِ بغيرةٍ ... كأن صدور القومِ منها مَراجلُ[3]
هنيئــًا لك النَّصْرُ المبـين وليتنى ... بجيشك جنــدىٌّ تطـوُّع باسل

ويقول عثمان هاشم إن جنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تبين له سواحل ، وكم أراقوا من دماء الترك الطاهرة ، وكم بكت منهم أرامل فقدن أزواجهن ، وما هدَّ ذلك منك شيئا من حزمك وعزمك ، وحقا لا تهدُّ المعاول الراسيات الشامخة . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاء لدمائهم التى سقوا بها ثرى وطنهم المفدَّى ، وقد مُدَّت إليهم مصايد المكر والغدر ، ودافعوا عن الدين الحنيف بغيرة وحمية ، حتى كأن صدورهم مواقد مشتعلة من شدة الغضب . ويمضى عثمان هاشم فى قصيدته ويختمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المبين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا فى جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرا بقومه :

إنى لمن معشرٍ طابتْ أصولهمُ ... فطاب فَرْعُهمُ والنَّسْلُ والنَّسَبُ
إن نابك الدهرُ فاستنجدتَهم نَجدوا ... أو مسَّك الضُّرُّ فاستنْهَضْتَهم وثبــوا
غُــرٌّ جحاجحةٌ شُــمٌّ غَطارِفــةٌ ... صيــدٌ جهابذةٌ بل سـادةٌ نُجُبُ[4]

يشير إلى أنه من معشر شريف – إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب – معشر طابت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والانتماء إليهم ، إن أصابك الدهر بنائبة أو كارثة واستنجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهضتهم

(١) الحدب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الداهية .

(٢) الحبائل جمع حبالة : المصيدة .

(٣) مراجل جمع مرجل : القِدر . يريد أنها تغلى غليان القدر .

(٤) غر : مشهورون . جحاجحة جمع جحجاح : السيد السمح الكريم . شم جمع أشم : المترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : المزهو بنفسه . جهابذة جمع جهبذ : المجرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعا ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهوون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية فى الفخر يقول فيها عن قومه :

قومٌ لقد طابتْ سرائرُهم فلم ... تَرَ غيرَ بَذْلِ نَدًى وبَسْطِ كفوفِ
هم أفضلُ العربِ الكرامِ عشيرةً ... وأعزّ أنسابًا وشُمُّ أنوفِ[1]
وهمُ الشموسُ إذا الحوادثُ أظلمتْ ... وهم البدورُ بنورها المعروفِ

وهو يقول إن قومه قد طابت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة فى الجود والكرم . وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزَّ أنسابًا وشُمَّ أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شموسها المنيرة وبدورها المضيئة .

٤

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يأخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى أشكالا ثلاثة هى الندب والتأبين والعزاء ، والندب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلىء بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأبين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيدٍ ومسود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مراثيها ، وخاصة لرجالاتها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدى ، وهو أهم الشخصيات السودانية فى القرن الماضى ، وقد حقق للسودان استقلاله فى سنوات معدودات ، ولبىَّ سريعا نداء ربه وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفى مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، ويستهل مرثيته بقوله[2] :

كيف التئامُ فؤادىَ المفطورِ ... ورُقُوءُ دَمْع محاجرى المفجورِ[3]
أم كيف ينفكُّ الضَّنا عن مُهْجَةٍ ... أحشاؤها تَصْلَى على التَّنُّورِ[4]
أسفٌ على المهدىِّ من مَهْدِ الصِّبا ... قد كان معصومًا عن المحظورِ
فَتَحَ الفتوحَ ودمَّر الكفَّار فى ... كلِّ البلاد بجيشهِ المنصورِ
هو مجمعُ البحرين : بحرِ شريعةٍ ... طامٍ وبحرِ حقيقةٍ مَسْجورِ[5]

وهو يقول إن فؤاده انفطر وانشق حزنا لموت المهدى ولن يرقأ أو يجف دمعه المتفجر ،

---

(١) شم أنوف : متعالون مترفعون .
(٢) انظر القصيدة فى شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء الوطنية ص ٣٣٦ .
(٣) المفطور : المنشق . رقوء : انقطاع .
(٤) التنور : الموقد .
(٥) مسجور : مملوء .

ولن ينفكَّ الضنا عن مهجته ، وكأنما تصلى أحشاؤها وتحترق على تنور مشتعل ، ويأسف على المهدى ويقول إنه كان معصوما عن المحظور المحرم منذ صغره ، ودمَّر جيشه الجيوش التى لقيته . وينعته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نُسُكا . ويمضى الشاعر فى مرثيته منشدا :

قد كانَ قَوَّامَ الدُّجَى متبتِّلاً … متواصلَ الإحسان غيرَ فَخورِ
طلْقَ المحيَّا خاشعا متواضعا … كهفَ الفقير وجابرَ المكسور
لا يبتغى جاهًا ولا مالاً ولا … عزَّ الملوك ولا ارتفاعَ الدورِ
تبكى المساجدُ والمحاربُ فَقْده … ومواطنُ الأذكار والتذكير
يا طيبَ أرضٍ ضمَّ جِسْمَك تُرْبُها … تُزرِى بعَرْف المِسْك والكافورِ

وهو يصف المهدى بأنه كان نوَّام الليل مصليا متبتلا لربه ، مواصل الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو مَنٍّ ، طلق المحيا بشوشًا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجابرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيَّدة ، وبكته المساجد والمحارب وبقاع أذكاره وتذكيره ، وما أطيب الأرض التى ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويبكى المهدىَّ الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله[1] :

دَهَتْنا دواهٍ يَضْرِسُ القلبَ نابُها … ويوقد فى الأحشاء نارا منابُها[2]
غداةَ نَعَى الناعون مهديَّنا الذى … به مِلَّةُ الإسلام جَلَّ مُصابُها
إمامُ الهدى المهدىُّ أفْضَلُ مَنْ دَعَا … إلى الله مفتاحُ النجاة وبابُها
ألا قد أُصِبْنا إذ عَدِمْنا حَبيبنا … وضاقتْ بنا الأرضُ الوسيعُ رحابُها
لِيَبْكِ له الدينُ الحنيفُ ومِلَّةٌ … أبانَ هُداها حين تَمَّ خَرابُها

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه يعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدى الذى جَلَّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أُصِبْنا فى حبيبنا وضاقت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليبكه الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكثر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضى المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه[3] :

---

(١) نفثات اليراع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ وشعراء الوطنية ص ٣٣١ .
(٢) يضرس : يعضّ .
(٣) نفثات اليراع ص ١٥٠ .

لقد آن أنْ أبكى وأُغرِى البواكيا ... وأَنظمَ من حَبِّ الدمـوع المراثيـا
وأصبغَ عَبْراتى دمًا ليس ناضبًا ... يخدُّ خدودى مُتْرَعـًا والأماقِيا[1]
أبى ما أبى حرٌّ كريمٌ وذو وفًا ... وما كان ذا وجهين وَغْلاً مُدَاجيا[2]
أمينٌ على سرِّ الأخلاء حافظٌ ... وكان لإخـوان الصفـاءِ مواسيا
تبوَّأ مهدَ العـزِّ من نَشْأة الصِّبـا ... وشَبَّ على هـام المكـارم ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكى ويغرى الباكيات بالبكاء وينظم من درر الدموع عقود المراثى ويصبغ عبراته بالدم الذى لا ينضب ولا يجفّ ، بل يشق الخدود وآماق العيون شقوقا ملأى به . وينوه بأبيه فهو حر كريم وفىّ ، وما كان يوما ذا وجهين نَذْلا منافقا ، بل كان دائما أمينا على سر إخوانه : إخوان الصفاء مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبَّ على رءوس المكارم ساميا سموا متصلا . ويبكى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أباه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذى ترجمنا له بين شعراء المديح بمرثية مؤثرة ، وفيها يقول[3] :

عَيْنُ الكمالِ لهول يومك تَذْرِفُ ... والمجـد يَرْعُدُ والشريعةُ تَرْجُفُ
رفَّاعَ ألويةِ العلاء أرى العُلا ... مهجـورةً طرقاتُهـا تتلهَّف
كشَّافَ غمَّاءِ المظـالم بالهدى ... حارَ الهدى لما ثَوَى مَنْ يُنصِفُ
يا قومُ حامى السَّرْح أقصده الرَّدَى ... بكُّوا لـه بدم القلوب ونَزَّفُوا
حجبوا السَّناءَ عن النواظـر حينما ... هالـوا عليك من التـراب وأسرفوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدرارا لهول يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشريعة ترجف فزعا لموتك ، ويخاطبه : يا رافع ألوية العلاء والشرف أرى العلا هُجِرت طرقاتها وتلفت متلهفة لو تراك . ويا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . ويلتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعَن حامى الحمى طعنة نافذة فابكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتفنوه ، ولقد حجبوا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسى ، وأنشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثى .

(1) ناضبا : نافدا . يخد : يشق .
(2) وغلا : نذلا . مداجيا : منافقا
(3) ديوان البنا ١/١٦٥ .

الشيخ محمد[1] سعيد العباسى

ولد بالكوة على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمانية سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م وعُنى بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهمين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولابى وإبراهيم الركابى ومحمد بدوى وأحمد العاقب الرطانى ، ولما أصبح كتشنر حاكما للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين فى تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زناتى ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديه التى كان يرتادها فى غربى السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يجوب بواديه متمتعا بمناظرها ويصفها فى شعره مرارا وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان – وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان – تأثيرها العميق فى شعره . وقد ظل وفيا لمصر بارا ومحبا ، وشعره يكتظ بها وبالعواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسى اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التى نجعلها فاتحة العصر الحديث فى السودان ونهاية للعصر الذى نؤرخ فيه للشعر السودانى ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السمانية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م وهو جانب صوفى جدير بتتبعه ودراسته عنده . ويعد أهم شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله فى رثاء أبيه :

إن الليالى ذوات الغَدْرِ راعيةٌ ... ختالةٌ ونفوسُ النـــاس مَرْعاها[2]
وكان عهدى بها تسطو على مهلٍ ... واليـــوم صالتْ بيمناها ويُسْراها
بالسيِّدِ السَّنَـدِ بن السيد السَّند الـ ... ـرّاقى سمـاءَ فخـارٍ عزّ مَرْقاهـا
يمحِّض الرشد للغاوى ويوضح من ... مناهج الحـق للقُصَّـاد أهداها
أزالَ عن مشــكلات العلم منطقُه ... براقعَ الوهم عن زاهى مُحيَّاها
وإنْ تكلَّم فى علـم السلوك لـه ... فيـه عبـاراتُ ذَوْقٍ ما أُحَيْلاها

وهو يقول إن الليالى الغدارة الخادعة دائما ترعى نفوس الناس نفسا بعد نفس ، ويذكر

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسى وترجمته وشعره فى شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات اليراع ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع دار الإرشاد بالخرطوم) وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبو سعد ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث فى كتاب الشعر الحديث فى السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسى ديوان ضخم باسم ديوان العباسى مطبوع بمصر .

(٢) ختالة : غدارة .

أن عهده بها تبطش على مهل ، ويراها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أبيه الذى كان سندا يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يبغون منه الرشاد ، وكان يرفع حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهى . أما فى التصوف والتقى فكانت له عبارات محكمة حلوة . ويبكى طائفة من آبائه منشدا :

أولاك آبــائى الذيــن بِطَوْلهــم ... طالتْ يدى وسموتُ مَنْ سامانى[1]
أولاك هم بَصر الكمال وسَمْعُه ... وهمُ لأهـل الفضـل كالعنــوانِ
بمعــارفٍ وعـوارفٍ قُدْسيَّةٍ ... كالشمس لا تَخْفَى على إنسانِ
هم صيَّروا نهج الهداية واضحًا ... للطــالبين قَصيِّهــم والــدَّانى
نظــروا إلى الدنيــا بعينٍ بصيرةٍ ... فتحوَّلوا عن ذا الوجــود الفــانى

والعباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شأنه وسما على من ساماه وفاخره ، ويقول إنهم بصر الكمال وسمعه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيَّروا طريق الهداية واضحا للناس البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياهم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤبنا :

كشف النقابَ عن العلوم فزفَّها ... خَوْدًا تفــوقُ على الحسان الخُرَّدِ[2]
مَنْ للعلوم جميعها ولِفقْه ما ... لِكَ والحديثِ صحيحِــه والمُسْنَدِ
وبيانهــا وبديعهــا وأصــولها ... فى منطــقٍ وعويصهــا المتعقِّدِ
إنى أُعَزِّى كل أمة أحمدٍ ... بمصيبة الحَبْرِ الإمــــام محمــدِ
وعليكِ يا دُنْيا السلامُ فقد خوَتْ ... شمسُ الكمال وغاب بَدْرُ السؤدد[3]

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتلألئات الفاتنات ، ويقول مَنْ يحل محله للفقه والحديث النبوى ولعلوم البيان والبديع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

(ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ رمى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

---

(١) طول: فضل : طالت : علت وارتفعت . ساماه : فاخره.

(٢) الخود : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة : اللؤلؤة والمرأة الفاتنة .

(٣) خوى : هوى وسقط .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومى البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنهم حين سقوطها فى حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بنى هلال وسليم فى أواسط القرن الخامس الهجرى وخربتها . ولم يحدث شيء من ذلك لمدينة فى السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مبانى بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها فى العراء سوى من مات منهم وجرفته السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضّت بها كثرة من المنازل ، وعمّ البؤس كثيرا من الأسر ، وممن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول[1] :

يا آلَ عَطْبرةٍ تعهَّد حيَّكم ... وَبْلٌ بسارية الدمـوعِ هَطُولُ[2]
جَرف المنازلَ ثم طوَّح بعضَهـا ... فإذا بها فوق الفضـاء طُلولُ
لَهْفى على دورٍ هَوَى بنيانُها ... بالأمس فيـه لساكنيه حلـولُ
لهفى على تلك العروشِ فإنها ... طاحتْ وأَقْوَى رَبْعُها المأهـولُ[3]
لهفى على مالٍ غريقٍ ربُّه ... متجلِّدٌ وفـؤادُه متبـولُ[4]
يا معشر الكرماء هل من رحمةٍ ... إنَّ الضعيف لفضلكم موكول
إن تُنفقوا فالفضل لا يُنسَى لكم ... أبدا ويحمدُكم عليـه الجيـلُ
والله يَجْزيكم ومن يُجْزَى غـدًا ... عن صالـحٍ فصنيعُـه مقبـول

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تعهدها ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التى جرفتها ، وطوّحت بها فى الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طلولا خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتاه على تلك الدور التى خر بنيانها وتلك العروش التى تداعت وأقفرت من سكانها ، والأموال التى غرقت فى السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتواسونهم به وتنفقونه لن يُنسَى لكم أبدا ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البارّ الذى لا شك فى أنه عمل صالح ، وسيتقبّله الله منكم . وتنزل بأم دورمان سيول كاسحة ويرثيها مدثّر اليوشى ، ومن قوله[5] .

(١) شعراء السودان ص ١٨١ .
(٢) وبل :مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شديد الانصباب .
(٣) طاحت : ترامت : أقوى : أقفر
(٤) متبول : مذهول .
(٥) شعراء السودان ص ٣٣٨

هَمرَ الرُّكامُ فسامَ أزهارَ الرُّبى خَسْفًا وعاثَ بروضةٍ ووهادِ[1]
تُذْرى الدماءَ على الخدود أراملٌ يندبن خشيةَ ضيعةِ الأولادِ[2]
عَبَس الزمانُ بوجههم فأذاقهم ما لم يُذقه مكبَّلَ الأصفادِ[3]
مَنْ ذا يُسَرِّى همَّهم ويريحهم من نقمةٍ طرقَتْهُمُ وعَوادى[4]
فالغيثُ قد أخطا وما يدرى أبِا لأرضِ السويَّةِ سال أم بالوادى
لكنَّه حُمَّ القضاءُ لتعلموا أن الحياة معونةٌ وأيادى[5]

ومدثر يذكر أن ركام المطر انهمر انهمارا شديدا فأنزل بأزهار الربى خسفا وهوانا وعاث فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويبكين خوفا من ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم فى وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم يذقه المكبّل بالأغلال ، ويهتف الشاعر فى الناس : من ذا يزيل همومهم ويريحهم من عذاب هذه الكارثة التى نزلت بهم ومن عوادى الدهر ونوائبه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط دون أن يدرى أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف فى قومه : لقد حُمَّ القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة ومنن سابغة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم درمان أشقَّاءكم ، وتعينوهم بالمنن والنعم الوافرة .

---

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . سامه خسفا : أنزل به هوانا .
(٢) تذرى : تُسيل .
(٣) عبس : تجهم . مكبَّل : من كبله أى قيده . الأصفاد : الأغلال والقيود .
(٤) يسرى : يزيل . عوادى : نوائب الزمن وكوارثه .
(٥) حم : قضى وقدر .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العفيف

مر بنا فى الجزء الخاص بالعصر الإسلامى أن الغزل حينئذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول فى المدن التى تحضرت على لسان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثانى فى بوادى نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذى يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضرى وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذرى النقى الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم فى فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهرى المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد فى افتتاحه لنبوياته كقوله فى مطلع إحداها[١] :

بادٍ هواهُ وزائدٌ خفقانُه ... صَبٌّ تفرَّق بالنَّوى أَخْدانُه[٢]
قد خانه حسنُ التصبُّر بعدما ... بانوا ووفَّتْ بالبُكا أجفانُه
عجبا لربعٍ باللِّوَى لعبتْ بهِ ... أيدى النَّوَى فتفرَّقتْ سكَّانه
ياظاعنا يطوى الفَلا رفقًا فإنَّ ... الرَّكب ضَلَّ من السُّرَى وخَدانُه[٣]
وقفِ المطىّ ولو كلمْحَةِ ناظرٍ ... فعسى المعنَّى تنطفى نيرانه
وارحمْ محبًّا صَدْرُه ضاقت بهِ ... أسرارُه وتزايدتْ أشجانه

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنًا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شتَّتَ النوى والبعاد أصدقاءه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد نأيهم وفراقهم وقد انهمرت الدموع من أجفانه ، ويعجب لعبث أيدى الفراق بسكان ربع باللِّوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركبه يطوى الفيافى أن يرفق به فإن الركب ضل فى الليل بسيره السريع ،

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .
(٢) أخدانه جمع خدن : الصديق .
(٣) الوخدان : ضرب من سير الابل السريع

ويقول له قف المطىّ ولو لمحة ليتملّى بجمال صاحبته ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنطفىء ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت فى صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عمر البنا فى صدر مدحة قوله متغزلا[1] :

أبــدًا يــؤرّقنى عَبيرُ شَذاكِ ... ويزيدنــى قلقا دوامُ جَفــاكِ
ويردّنى من حالة العقلا إلى ... حال الخبال تذلُّلى وإباكِ
ويزيدنا طربًا وحسنَ مسرّةٍ ... برقٌ تألق من ضياء سَناكِ
يا ربّة الحُسْنِ الذى فَتَن الوَرَى ... أكذا يكون جزاءُ مَنْ يَهْواكِ
عذّبتِنى بالصَّدِّ والهجــران مـا ... ذنبى سوى أنى أرومُ لِقــاكِ

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائما مؤرّق ، يؤرقه طيب عطر صاحبته وانتشاره ، ويزيده قلقا وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختبل عقله من كثرة تذلله لها وشدة إبائها ، وإنه ليسره ويطربه شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلا : ياربّة الحسن الذى فتنت به الناس أهكذا تجزين من يحبك ، لقد عذّبتنى بالصد والهجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقانا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسنفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متغزلا[2] :

ملك النُّهَى والملكُ بعضُ صفاتِه ... رِيمٌ أغنُّ يَتيــــه بين لداتــــهِ[3]
رَشَأٌ شَدَا فَزِعا لأنى رُعْته ... إذ جئتـــه وفَزِعْتُ من لفتاتـــهِ[4]
نشوانُ من خَمْر الدّلال حسبتُه ... هاروتَ كلَّ السحر فى لحظاتِهِ
وسَنانُ كامــلُ يقظــةٍ لكنــه ... كسرّ الجفونَ لكسْرِ قلب دعاتِهِ
كسلانُ أنشطُ من رأيتَ إذا أحــ ... ـسَّ بهائـــمٍ متعشّــق لصفاتـــه
ضَمّتْ جوانحــه اللطيفةُ صَخْرةً ... هى قلبـــه هيهـــات لِينُ صَفاتِهِ[5]
يا نَرْجِسًا يَسْقِى لــروض خدودِهِ ... كَفْكِفْ لنجنى الــوردَ من ثمراتــه

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبته إنها ظبى فى صوته غُنّة يتيه دلالا وجمالا بين لداته ، إنها ظبى لايزال صغيرا ، ترنّم بصوته فزعا لأنه خاف حين رآنى ، وذُعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته منتشيا من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويُرَى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل اليقظة ، وكأنما كَسْر جفونه – كما يقول – لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذا أحس صبًّا عاشقا له ، وقد ضم بين جوانحه قلبا كأنه

(١) شعراء السودان ص ٢٨١ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٦٥ .
(٣) ريم : ظبى . أغن : بصوته غنة . لداته : أترابه .
(٤) رشأ : ظبى صغير . شدا : ترنم .
(٥) الصفاة : حجر أملس عريض .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويذْرى الدّمع كأنما يريد أن يسقى روض خدوده ، ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح[1] عبد القادر :

وغـزالٍ همتُ فيـــهِ أسْهَرَ العـينَ ونامـا
ما كفاه الهجرُ حتى حرَم العـينَ المنـاما
هو عمدا نكث العَهْــدَ ولم يَرْعَ الذّماما
لا تلوموا ذا شجونٍ سنّ للنـاس الغرامـا
كلما نـاح اشتياقـًا علّـم النّـوْحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بغزال أسهره ، وكأنما لم يكفه الهجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا محبا شرّع للناس سنن الحب وكلما ناح اشتياقا وولعا وهياما خُيّل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل .
ويقول عثمان هاشم متغزلا[2] :

يا ظَبْىُ هل لأسير لَحْظِك فادى أم لافكَاكَ لـه من الأصْفـادِ[3]
جَرَّدت من لَحْظَيْك عَضْبًا فاتكا وهززتــه ففتكتَ بالآســادِ[4]
نلتَ المنى فى الحسن أنت ولم أَنَلْ من طيب وَصْلك بُغْيتى ومرادى
لولا الحيـاءُ لقادنى لك فى الدُّجَى شوقٌ أذاب حُشاشتى وفؤادى[5]

وهو يسأل صاحبته هل يوجد من يفدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقيوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أنل شيبا من طيب وصلك ، ولولا حيائى لقادنى إليك فى الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى[6] :

بالله يا حُلْوَ اللّمـا مالك تجفو مُغْرَمَا[7]
صددتَ عنى ظالمـًا أفديك يا من ظَلما
هلا ذكرتَ يا رَشَا عَيْشًا تَقضّى بالحِمَى
رفقا بصبٌّ راح يَهْـ ـوَى طَيْفَك المسلّما
إن شامَ من نحوكُمُ برقا أقــام مأتما[8]
ويكتـم الوَجْـدَ وكم يَغْلِبُــــه أنْ يُكتَما

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .
(٣) الأصفاد : الأغلال .
(٤) جردت: سللت. عضبا: سيفاحادا .فاتكا : قاطعا .
(٥) حشاشتى : بقية روحى .
(٦) نفثات اليراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٩٧ وراجع ديوانه .
(٧) اللما : سمرة فى الشفة .
(٨) شام : رأى .

والغزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمرة الشفة ماله يجفو صبًّا مغرما به . ومع أنه يصد عنه ظالما يفديه بروحه ، ويذكِّره بعيشٍ وأيام مرت بالحمى ، ويقول له : ارفق بصبٍّ ، لم يعد له إلا طيفك فى الحلم يهواه ، وإن رأى برقا لمع من أفقكم ندب وبكى طويلا ، ويكتم الوجد والهيام وكم يغلبه كتمانه . ويمضى فى القصيدة منشدا :

لله محبـــوبٌ رأى   حبَّـــةَ قلبـى فـرَمَى
أُعـيذهُ من جائـرٍ   حكَّمْتـــهُ فاحتكما[1]
لقيتُـــه فى أربـــعٍ   بيضٍ كأمثـال الدُّما
شابهنَ أزهـــار الرَّبيـ   ـع وحكين الأنجما
وقفـــتُ فاستسقيتُـــه   وشدَّ ما بى مِنْ ظَما
جاء بمـــاءٍ قلت هـل   حاجةُ مثلى منك ما[2]

وهو يشكو محبوبه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيذه أن يكون ظالما فقد حكَّمه فتصرف حسب هواه ومشيئته . ويقول إنه لقيها فى أربع جميلات من حولها كأمثال الدُّمَى البديعة ، شابَهْنَ أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعبا :وهل حاجة الصبِّ المغرم مثلى منك إلى ماء ؟ ! . وهو يسترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ، فملكت عليه ذات نفسه ، وظل يمجِّدها ويتغنى بها غناء حارا طوال حياته فى أشعاره وقصائده الرائعة . ونتوقف قليلا لنترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته العفيفة الطاهرة .

الشيخ أبو القاسم[3] أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحى الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألحقه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرَّاء حفَّظوه القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضيا لمديريَّتها ، وألحقه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلا أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علميا عُيِّن مدرسا بجامع بربر واستولى عليها المهدى فقرَّبه منه واتخذه كاتبا له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

---

(١) احتكم هنا : تصرَّف كما يشاء .
(٢) ما : ماء .
(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص ١٧.

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى بالسودان عُيِّن قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولمكانته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأقنع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشىء منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة ينالون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتعهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية عفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمدائحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المدائح قوله :

ليلى بدتْ لما أضــاءَ الكوكبُ ... فمحتْ ضيَــاهُ وزال عنا الغَيْهَبُ[1]
واستقبلتْ قمــرَ الزمـــان فناله ... من حسنها الكَلَفُ الذى لا يذهب[2]
وتفــرَّدت فى حُسْنِهـــا ودلالهـا ... وحوتْ من الأوصاف ما يُسْتَغرب
فتزاحمتْ عشاقُ حسنِ جمالهـا ... كـلٌّ لحسـن وِصالهـا يتطلَّب
والعشق صعبٌ لا يطيـــقُ صُروفَــه ... إلا الــذى لعذابــــهِ يَسْتعــذبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه ليلى محا ضياء الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها – خفرا وحياءً – غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحوت من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكلٌّ يتمنى الوصال ، والعشق – بحق – صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذابه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فتورٌ بَجَفْنَىْ من أحبُّ سبانى ... وتوريدُ خدَّيه استطـار جَنَـانى[4]
ورقَّة خَصْرٍ واحتشامُ شمائلٍ ... حكمن بأسْرِى واسْتَنَّ هـوانى
وإن الهوى العُذْرِىَّ أيْسَرُ حاله ... توقُّـدُ نـيرانٍ بغير دخـانِ
وإنّىَ مذ عُلِّقْتُ ليلى بخاطرى ... جفيتُ منامى وافتقدتُ الأمانى
سلاها فهل قلبى سلاها وهـل جرى ... حـديثٌ سـواها فى فمى ولسـانى

وهو يذكر أن الفتور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستنَّ هوانه . وما أشد الهوى العذرى

(١) الغيهب : الظلام .
(٢) كلف القمر : ما يُرَى على سطحه من بعض التغيرات .
(٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توقد نيرانه فى الصدر والفؤاد ، وإنه مذ أحبَّ ليلى جفاه النوم وفقد كل أمانيه إلا أمنية وصالها ، واسألاها هل سلاها قلبى وهل نطق فمى ولسانى بحديث سواها ، إنها كل شغلى فى الحياة . ويقول :

بسمتْ عن دُرِّ ثَغْرٍ مستبينْ ... مَنَع البـدرَ ضياه أن يبينْ
وبدتْ للورد فى خدٍّ نَضيـ ... ـرٍ فراح الوردُ مصفرَّ الجبين
وأمالتْ قدَّها فالبانُ فى ... خجلةٍ يَضْحك منها الياسمين
ورمتْ باللَّحْظِ منهـا فأصا ... بتْ به حَبَّ قلوب العاشقين
فتراهم من جراحات اللوا ... حظ ما بين قتيـلٍ وطعين
هكذا مَنْ يعشق الخُودَ الحسا ... نَ يَذُقْ مرَّ الهوى عَذْبًا مَعِين(١)
وكـأن الله قد صـوَّرهـا ... من هوى الأنفس لا ماءٍ وطين

فصاحبته أو محبوبته بسمت عن لآلىء ثغر واضح منع ضياء البدر أن يبين ، وبدا للورد خدها الناضر فصار مصفرَّ الجبين حياء وخجلا ، وأمالت قدها الممشوق فخجل شجر البان المشهور بقدِّه الجميل خجلا يَضْحك منه الياسمين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفئدة العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتيل وجريح طعين . وهكذا من يعشق الفاتنات الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح فى فمه عذبا سائغا ، وكأن الله صورها من هوى الأنفس ومحبتها لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إنسى . ويقول متغزلا :

تجنَّى على مقتولـه وتجرَّمـا ... أشأنُ غزالِ الحسن أن يُهْدِر الدَّما
وما حيلتى والقلبُ أسْرُ لحاظها ... ومهمـا رنتْ مـال الضمـير مسلِّما
فإن أقبلتْ فالجنَّـة الخُلْدُ نُزْلُـهُ ... وإن أعرضَتْ قد حَلَّ نُـزْلا جَهنَّما(٢)
فكيف خلاصى يا رفاقى ودأْبُها الـ ... ـصُّدودُ ورُكْن الصَّبْر منى تهدَّما
وإن قلتُ إنى صادق الوُدِّ والوفا ... تقول ألا مُتْ فى صدودى متيَّما
وجِزْتُ لأنى لم أجد مِنْ عَنَا الهوى ... خلاصا فأنجو أو إلى الوصل سُلَّما
وحسبىَ أن أحْظَى بطيفِ خيالهـا ... إذا هى لـم تسمح بوصلى تكرُّمـا

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبته تجنت على قتيلها بسهام عينيها ، وهل ذلك شأن الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتى وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما مسلِّم لها مستسلم ، وإن هى أقبلت أحسَّ القلب كأنه فى منزل من منازل الجنة ، وإن هى أعرضت أحسَّ كأنه فى منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودأبها دائما الصدود

(١) معين : سائغ .
(٢) نزلا : منزلا .

والهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إنى صادق الحب والوفا قالت له : مت فى هجرانى متيما بى عاشقا ، وحارَ لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بحبها ولا طريقا إلى وصالها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبى أن أحظى بطيف خيالها فى الحلم ، مادامت لا تسمح بوصلها كرما وعطفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ أبى القاسم – كما رأينا – سلسة عذبة . وهى غزليات حب عذرى عفيف تقى سامٍ ، فى لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

٢

شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السودانى الطامح فى الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورًا عميقًا بالآلام التى تعيشها أمته وأثقالها ، واقترن ذلك فى نفسه بيأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السودانى بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صوَّر فيه قعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو تارة يعرض على الشباب مجد آبائه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئا من مجدهم ، وتارة ثانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كى يتخلَّص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليقة به ، وممن يتردد على لسانهم اللونان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد فى حفل للمولد النبوى سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله فى مدحة نبوية[١] :

زُرِعَ الجفاءُ بنا وأثمر غرسهُ ... فتنافر الأبنـــاء والآبــــاءُ
وتفاخرتْ بالموبقات صغارُنا ... وشيوخُنا فَهزَا بنا الأعداءُ
وتسايلتْ منا النفوسُ حزينةٌ ... جَرْحَى ونال جميعَنا الإعياءُ
واهًا على الإسـلام ماذا نابـه ... وهو الشفاءُ ومـا سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غُرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزءًا شديدًا ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقى فى ذكرى الهجرة بالسنة التالية[٢] :

---

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ . وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر فى كتابه الشعر الحديث فى السودان .

(٢) نفثات اليراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤

تبيتُ على الهمّ الممضّ نفوسُنا | وتمشى على جَمْرٍ من الذل أُضْرِما
ننامُ وملءُ العين همٌّ وحسرةٌ | وأعْيُننا حزنـــًا تفيض لنـــا دمـــا
فياليت شعرى هل أرى النيل جاريا | طليقـــا كدمعـى إذ يسيل مُعَنْدما[1]
وهل سأرى يومًا عن الغاب أسْدُهُ | تذودُ إذا ما الليـــل فى الغـــاب أظلما
وهل يُرْتَجَى الإصلاحُ والشعب نائمٌ | وهـــل يبلـغ الآمـــالَ من كان نائمـــا
ولِـــمْ لا أرى ما بيننا غير صـامتٍ | وقـد آن للأحجـــــار أن تتكلّمـــا

ونفس عبد الرحمن شوقى ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتعل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملأى بالهموم والحسرات على وطنهم مكتظة حزنا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجرى محملا بذهب الطّمْى الأحمر كعادته ، وهل سيذود أسد الغاب عن عرينه الذى خيّم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملا من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثانية[2]:

مضى زمـــانٌ وقلبى ممتـــلٍ ألمًا | وفى فؤادى أسىً كالنـــار مضطرما
حزنـا على أمـــةٍ بالنيل نائمـــةٍ | تشكو الأُوَار وأخشى أن تموت ظَما

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكتظ بالألم وفؤاده ملىء بلواعج أسى مشتعل كالنار الحامية حزنا على أمته النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمأ والماء مدّ أيديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وسنترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حسيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد[3] :

الإتحـــادُ هو الحيـــاةُ وإنمـــا | موتُ الشعـوب تفرُّق الأفـرادِ
كم أمةٍ نهضتْ به فتمتّعت | بحياتها من بعد ما استعبادِ
ولكم ترَى من قُوّةٍ وممالكٍ | نزل الشقاقُ بها لشَرٍّ مِهادِ
تلك الشعوبُ تروم جَمْعَ شتاتها | وهنـا نَبيع الجمعَ بالآحَـــادِ
إنى سئمتُ النُّصْحَ غيرَ مؤثّـــرٍ | وعتابَ قـــومٍ فى سِنات رُقَـادِ

وهو يدعو قومه السودانيين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمتعت بحياتها لتخلصها من نير

(1) معندما : دما أحمر .
(2) نفثات البراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .
(3) شعراء السودان ص١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

الاستعباد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت فى شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سئمت تقديم نصحى لأمتى إذ أراه غير مؤثر ، وكأنى أنصح وأعاتب قومًا نياما . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له همًّا من وراء هم[1] :

أَلِفَ الهمومَ برغمه وأَلِفْنَهُ فَغَدا بوادٍ والسُّرورُ بوادِى
لا تستقرُّ رِكابُهُ فى بلدةٍ حتى ينادى بالرحيل مُنادِى
وكأننى كرةٌ ودهرى لاعبٌ يرمى بها الحَدَثان باستبدادِ
ليصيبها بى بل بها ليصيبنى والدهر أرمى لاعبٍ ومُعادِ
لكنه مهما ارتقى لا يرتقى لينال من صبرى بِذا الإسآد[2]
إن شاب رأسى بالخطوب فلم يَشِبْ عزمى الفتىُّ ولا ذكىُّ فؤادى

وكان الشيخ حسين ، قد وُظِّف كاتبا فى المحاكم الشرعية ، وكان رؤساؤه ينقلونه من محكمة إلى أخرى فى أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح – منذ توظف – تربا للهموم يألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنما غدا بواد والسرور بواد آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته فى وظيفته ، فلا يكاد يستقر فى بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنما أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمى بالنوائب والأحداث ليصيبها بى ، بل ليصيبنى بها ، والدهر أرمى لاعب ومُعادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رمانى ليلا أو نهارًا فلن ينال من صبرى ، وحتى لو شاب رأسى لما ينزل بى من خطوب فلن يشيب عزمى القوى ولا فؤادى الذكى . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخرا ، وفيها يقول مخاطبا لمرتبه[3] :

أمرتبى مالى أراك قصُرْتَ عن نَيْل المرادْ
أشكوك أم أشكو إليك نوازلَ المحن الشِّداد
الجَيْبُ خالٍ أبيضٌ وبياضُه عين السَّواد
إن رمتُ صبرا عزَّنى وأمضَّنى طولُ السُّهاد[4]
أو رُمْتُ قَرْضًا ردَّنى عنه الحياءُ من العبادْ
أو هكذا حظُّ الأُلَى طلبوا المعالى بالمِدادْ

وهو يذكر لمرتبه أنه لا يكفيه لنيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من المحن الصعاب ، فجيبه خال أبيض ليس فيه أى نقود وهو بياض فى الظاهر لكنه فى حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبرا عزنى ولم أستطعه ، أو فكرت فى قرض ردَّنى

(1) شعراء السودان ص ١٢٤ .
(2) الإسآد : السير ليلا ويريد نزول الهموم به .
(3) شعراء السودان ص ١١٨ .
(4) عزنى : قهرنى . أمضنى : آلمنى .

الحياء عن طلبه من الناس . ونتوقف لنترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأمته ، ولصالح عبد القادر المشارك فى النقد العنيف والشكوى من الزمن .

الشيخ عبد الله[1] البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم فى بيته ، ثم انتظم فى مدرسة رفاعة الأولية ، وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين فى كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا بالكلية فترة ثم عمل فى مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية فى المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وسرعان ما تألق اسمه مع علمين فى الشعر هما محمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن وهم شعراء أفذاذ وتسنمَّ الثلاثة ذروة الشعر السودانى فى النصف الأول من القرن الحالى ، ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا فى الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسى بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نؤرخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميليه بعد هذا العصر .ومن أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم فى كتابه نفثات اليراع قصيدته[2] فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوَّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهلَّ ليلة رأس السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدين حَدِّثْ فإن حديثا منك يَشْفينى
خَبِّرْ عن الأعْصُرِ الأولى لتضحكنى فإن أخبار هذا العصرِ تُبكينى

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلومة الباكية من أخبار السودان وأبنائه . ويرفع أمام أبصار السودانيين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب السودانى منشدا :

---

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبدالله البنا وشعره كتاب شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب نفثات اليراع ص١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع متعددة (انظر الفهرس) . وله ديوان باسم ديوان البنا (طبع الخرطوم) .

(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م – وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة – راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا[١] :

سهرتْ جفونُك والمصاب مسهِّدُ ... يرثـى لليلتك السليـمُ الأرمَدُ[٢]
ورثَتْ لك الخنساءُ ، بعدُ متمِّمٌ ... ورثى لبيدٌ يوم فارقَ أرْبَدا
لمصيبةٍ صَدمتْ فؤادى صَدْمةً ... كادتْ بناتُ الجَوْف منها تَصْعَدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها ... نظمٌ جَرى من سِلْكه متبدِّدُ
وتصدَّعتْ كِبِدى لها وكأنما ... بجوانحى منهـا حريـقٌ موقَدُ
وإذا بكيتُ شَجًى عليه فإنه ... تبكى وتندبُـه جمـوعٌ حُفَّدُ[٣]
وبكى عليـهِ ليلُـه ونهـاره ... والصَّوْمُ يبكى والتهجُّد يَرْعُدُ
وبكتْ بقاعٌ كان يعبـدُ ربَّـه ... فيهـا فيركـع ما يشـاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لُدغ مرات، وكأن تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لبيد لأخيه أربد، كل ذلك كان رثاءًا حارًّا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حبَّاتُه ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول – كما فى البيت الأخير – إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثية بديعة . ولمحمدو بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا[٤] :

ما لراجى الخلودِ نَيْلُ الخلودِ ... إنَّ وِردَ المنـونِ خَتْمُ الـورودِ
أتطيبُ الحياة والشيخُ أمسى ... غَيَّبَتْه مغيَّبـاتُ اللُّحـودِ
إنَّ مالى من اصطبارٍ تولَّى ... إذ تَوَلَّى إنسـانُ عينِ الوجـودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوه كلُّ مُريدٍ ... من حِمـاه يفـرُّ كلُّ مَرِيدِ[٥]
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصٍ ... كان مفتـاحَ بابـه المسدودِ
عَلِم الأصـلَ والفـروعَ إلى أنْ ... ليس فى العلـم يُبْتَغَى من مزيـد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .
(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .
(٣) حفد : حاشدة .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .
(٥) مريد : شيطان .

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملاهى والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأمته ، وحتى لا ينقبض سودانى عن بيان رأيه السديد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة[1] طويلة بعنوان : دمعة على اللغة العربية ، وهو فيها يعرض ازدهارها وعلماءها وشعراءها النابهين ورجالاتها فى العصور الماضية ، ويطيل فى بكائها وعويله على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب أبناءها من النوم والهوان ، يقول :

أطلتُ عَتْبى على الأيام حين جَنَتْ ... عليكِ فاستلبتْ أبهى مزايـاكِ
ولـو أجابتْ لقالتْ إنهم نفرٌ ... ناموا فحالتْ بما ناموا سجاياكِ
ولو أجابت لقالتْ إن قومكِ قد ... رضوا الهوان فطالتْ فيه سُكناكِ
لـو قَـدَّروكِ لعادتْ فيكِ ناضرةً ... روحُ الحيــاة وسرَّ الكونَ محياكِ

وهو يقول للغة العربية التى يبكيها فى قصيدته إنه أطال عتابه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعللت بأن أبناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البيانية ، بل لتعللت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكناها له معهم ، ولو قدَّروها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناضرة ، وسرَّ الكونَ عودُتها إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينعتهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كثير .

صالح[2] عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن شُرِّدوا وسُجنوا فى سبيل الوطنية، واعتُقل بمصر متهما بالاشتراك فى قتل

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نفثات اليراع ص ١٥٣ ، وشعراء السودان ص ١٤٧ ، والشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ١١٠ وكتاب دور الأدب فى النضال الوطنى فى السودان لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

السيرلى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُردَّت إليه حريته .
وشعره يتوزع بين نقد عنيف لأمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى قومه : أهل السودان :

قومٌ قيامُ الفضل بين صدورهم   كقيام هـودٍ بين أمـةِ هودِ
لا يشعرون بما ألمَّ بشعبهم   فكأنما قُـدُّوا من الجُلْمود[1]
ومن الحجارة ما يلين وإنهم   لا يعبأون بقـارص التنديـد[2]
يا أمةً غفلتْ وطـالَ جُمودها   ماذا كسبتِ بغفلةٍ وجمـودِ

وهو يبالغ فى استثارته لأمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يؤتى الفضل ثماره بينهم فمثله فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكأنما خلقوا من صخر ، ومن الصخر والحجارة ما يلين أما هم فلا يلينون ولا يحفلون بأى تنديد مهما كان شديدا عنيفا ، ويقول إنهم أحالوا دنيانا شقاءً وأغلالا ، ويهتف بأمته ضَجِرًا غاضبا ناعتا لها بالغفلة والجمود . ودائما كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وإنه ليصرخ :

ألا هل معينٌ أو مواسٍ فأشتكى   إليه همومًا بِتُّ عفوا لها مُلْقَى
إلى الدَّهر أشكو وهْوَ عنِّىَ معرضٌ   أصمُّ فلم يسمعْ ولم يحسن النُّطْقَا
صموتٌ ويقضى كلَّ ما لا أريدُه   فيا بئسَ ما يَقْضِى ويا شرَّ ما أَلقَى
وأسأله سلمًا فَيَشْهَرُ سَيْفه   فيا دهرُ ما أقسى ويا بؤس ما أبقى
تحملتُ طفلا منك كلَّ عظيمةٍ   وما العدلُ أنى بعد ذا عَلْقَمًا أُسْقَى
وتطلـبُ منى أن أغـيِّر مَبْدئِـى   فيا بُعْدَ مطلوبٍ بهِ طارتِ العَنْقا[3]

وهو يتمنى معينًا له أو مواسيا ليشتكى إليه هموما ثقالا باتت جاثمة على صدره ، ويقول إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى بكل ما لا أريده ، فذمًّا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسالمنى فيشهر سيفه ويسلُّه لحربى ، فما أقساه ويا بؤس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقينى علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد عونا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعْدَ هذا الطلب الذى طارت به العنقاء إلى غير مآب . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

---

(١) قدوا : خُلقوا .
(٢) قارص : لادغ .
(٣) العنقا : العنقاء : طائر أسطورى .

لا تَلُمْنى فتكن متَّهِمى ... إن عقلى لـم يكـن متَّهما
ولُمِ الدهرَ على تقصيره ... أخطأ الدهـرُ وعمدًا ظلما
أبـدا والله لا أعـذره ... طالما جار وحَقِّى هضَما[1]
وطَوانى فى زواياه التى ... ضيَّعتْ ناسًا ووارتْ أمما
ولكـم أزعجنى منتقمـا ... ولكم وجَّه نحـوى تُهَمَا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمنى ولا تتهمنى فإن عقلى كما عهدته لا يأتى ما يتَّهم به ، ولُم الدهر على تقصيره فى حقى ، فقد أخطأ فى ظلمى عمدا ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حقى وطوانى فى زواياه المظلمة التى طالما طوى فيها ناسا وأخفى أمما ، ولكم أزعجنى بما يصب علىَّ من انتقامه الشديد ، ولكم وجَّه إلىّ تهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم منشدا :

مَنْ لقومى ؟ إنهم قد أهملوا ... ما بنَى آبـاؤهم فانهدما
غلب اليـأسُ عليهم إنهم ... ضَعُفوا رأيـا فزلُّوا قدَما
يا بنى قومى أفيقوا إنكم ... ما خُلقتم لتعيشـوا غنما
ولقد يحزننى أنى أرى ... رأيكـم مختلفـا منقسما
فأفيقوا — يغفر الله لكـم — ... واطلبوا العليـا وجاروا الأمما

وهو يتساءل من ينبه قومى إنهم أهملوا ما شاده آباؤهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالهم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بنى قومى أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لتحزننى فرقتكم وانقسامكم شيعا ، فأفيقوا من هذا الهم الثقيل واتحدوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة فى حياتها العاملة النشيطة .

٣

شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا فى العالم العربى منذ أن ظهرت طرق التصوف السنى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن يعم التصوف فى السودان منذ القرن العاشر الهجرى ، إذ كثر فيه بناء الخلايا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التى أسسها ببغداد عبد القادر

(١) هضم : نقص .

الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبى الحسن الشاذلى التونسى المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال - كما أسلفنا - إن الذى أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى . إذ نزل السودان فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية فى النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما فى مدينة الدامر . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن فى السودان أحد طوال عصر الفونج إلا ينتسب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا فى الحديث عن تلك الطريقتين فى صدر عرضنا للمجتمع السودانى . وأيضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارًا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بعصر الفونج كما أسلفنا[1] :

كم دودةٍ فى عميق الأرض فى جُحُرٍ ... يأتى لها رزقُها فى الوقت والحينِ
ألا الزَمِ العلم والتَّقْوَى وما نتجتْ ... من الثمــار تَفُزْ بالخـرَّد العِين
مَنْ باع دينًا بدنيا واستعزَّ بها ... كأنما بــاع فِرْدَوْسًا بسِجِّين[2]
ولقمةٌ من طعـام البُرِّ تُشْبِعنى ... وجرعةٌ من قليل المـاء تروينى
وقطعةٌ من قليـل الثـوب تَسْترنى ... إن متُّ تكفِننى أو عشتُ تكسونى

فالله يرزق كل خلقه حتى الدود فى أعماق الأرض فلا تحملْ هما لجلب رزق والزم التقوى وعبادةَ ربك تظفر فى الآخرة بالحور جميلات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرعة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفّنته ، وإن عاش كسته . ومرَّ بنا فى كتاب الأندلس أن للزاهد أبى إسحق الإليرى قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه فى هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة أنشدها ودّ ضيف الله فى طبقاته من مثل قوله[3] :

اللهُ لى عُدَّةٌ فى كل نائبةٍ ... أقول فى كل حالٍ حَسْبِىَ اللهُ
إلى متى أنت فى لهوٍ وفى لعبٍ ... فما مقالُك فيما يعلم اللهُ
إن الذنوب التى قدمتهَا كُتِبتْ ... إن كنت ناسيَها لـم ينسها اللهُ

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد فى جهنم .

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

وهو يتخذ الله عدة فى كل نائبة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبى الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو فى لعب ولهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النسك والعبادة . وتكثر عند المتصوفة فى عصر الفونج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لتائيته المشهورة قائلا[1] :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم　　تهتَّكُ أستارٌ إليهم برَجْفةِ
تلألأتِ الأنوارُ من نحو خالقى　　بوقتِ قيامى أو جلوسى بخلوةِ

وهى لا تلحق تائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعانى الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أنشده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

(إنْ كان منزلتى فى الحب عندكُمُ)　　نحـولُ جسمى وآلامى وإيلامى
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتْ　　(ما قد رأيتُ فقد ضَيَّعْتُ أيامى)
(أمنيةٌ ظفرتْ روحى بها زمنًا)　　حتى تركتُ مقامى بين أقوامى
كانت بأيـــامِ صَفْوٍ إذ حلتْ فخلَتْ　　(واليـــومَ أحسبها أضْغاثُ أحـلامِ)

وهو يقول إن كانت منزلتى فى الحب الإلهى لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيعت أيامى . وإنها لأمنية فازت بها روحى زمنا حتى نسيت قومى ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناءة ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبتلا لربه[2] :

يا ربِّ أنت حمايتى فتولَّنى　　يا ربِّ أنت من النَّوائبِ مَفْزعى
جُدْ لى – وزيِّنْ ظاهِرى – بعوارفٍ　　وبباطنى نــورَ المعـــارف أَوْدِعِ
واقبلْ شكايةَ فاقتى وتطلُّبى　　لندَاك وارحمْ ذِلَّتى وتوجعى
أنا عبدُ سوءٍ أوثقتْه ذنوبُه　　أنـا لائذٌ بحِمى الرِّحـــاب الأوسعِ
إن لـم تكن لى من ذنـــوبٍ أثقلتْ　　ظَهْرِى فما أقــوى ، وأفقرَ مرتعى[3]

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .

(٣) مرتعى : معيشتى .

وهو يضرع إلى ربه قائلا أنت حمايتي فاحمني ، وأنت ملجئي من النوائب فأغثني وجُدْ لي بإحسان منك أزيِّن به ظاهري ، وأودع بدخائلي نور المعارف ، واقْبَلْ شكوى حاجتي لكرمك الفياض ، وارحم ذلي وتوجعي لرأفتك ، إني عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لائذ بحمى ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لي وملجئي من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعي ومعيشتي .

وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب يائية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله[1] :

زائرى فى الطيف هل من عودةٍ　　　تَحْىَ منهـا مهجتى بـل أُصْغَرَىّ

والأصغران : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسى تخميس لبيتين للشبلى الصوفى على هذا النمط :

هوایَ أنت وهـل فى ذاك من حرجٍ　　　أنتم ملاذى وأنتم فى الدُّجى سُرُجى

يا سادةً قويتْ فى حبُّكم حُجَجِى

(لا أبرح الباب حتى تُصْلحوا عِوَجِى　　　وتقبلونى على عيبى ونُقْصانى)

قلبـى بكـم يا سَـراةَ الحىِّ فى شَغَفٍ　　　دمعـى بعهـدِ ربـوع الظاعنين وَفِى

بالله عطفـا على صَبٍّ لكـم دَنفٍ

(فإن رضيتم فيا عزِّى ويا شَرَفِى　　　وإنْ أبيتم فمن أرجو لعصيانى)

والتخميس محكم ، وشطور العباسى الستة متداخلة فى بيتى الشبلى بدقة ، إذ كان بارعا فى صوغ شعره وأبياته .

٤

شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المديح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوانه : « النور البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوانه : « رياض المديح » والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم وديوانه : « روض الصفا فى مديح المصطفى » . ونلتقى عند الشيخ الأمين الضرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورَّى فيها بسور القرآن الكريم

---

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوية لابن جابر الأندلسى ، أنشدنا منها قطعة فى ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضرير فى فواتح مدحته[1] :

ما للنساء كمثل المصطفى ولدٌ ... إذ منه مائدةُ الأنعـــام والعُقــلا
أعرافُه المسك والأنفال وافرةٌ ... لمن به توبــةٌ كى تُذْهبَ الوجَلا[2]
به ليونسَ أُنْسٌ ثم هودٌ هدى ... ويوسفٌ حسنُه من أجلـــه كملا

والأبيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام فى البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة فى البيت الثانى وسور يونس وهود ويوسف فى البيت الثالث ، واسم السورة يلتحم بمعناه فى البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسما السورتين بعد الأنعام ، وتتوالى السور بترتيب المصحف . ويختم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبى القاسم أحمد هاشم المترجم له فى شعراء الغزل العذرى مدحة نبوية بديعة يقول فيها[3] :

أمحمدٌ ولأنت أكـرمُ مرسـلٍ ... وأحـقُّ من بمديحــه يُتقرَّبُ
أمحمدٌ ما أنت إلا رحمـةٌ ... وبشارةٌ ، لك كلُّ خيرٍ يُنْسَبُ
يا بنَ العوالى الشُّمِّ من مُضَرٍ ويا ... سِرَّ الوجود لك الفِناء الأرحبُ
يا سيدى يا خاتَم الرسل الكرا ... م ومَنْ إليك الملتجا والمهربُ
مدحتْك آياتُ الكتابِ ونَوَّهتْ ... بفضائلٍ عن دَرْك غيرك تُحْجَبُ
كلُّ الكمـال فأنت غايــةُ حَدِّه ... ما نـال ما قد نلتَــه متقرِّبُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمديحه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والملجأ لكل خائف فزع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل (وإنك لعلى خلق عظيم) ونوهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم ينل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا فى مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .
(٢) الوجل : الخوف .
(٣) شعراء السودان ص ٣٣ .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرد له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما[1] :

هـذا محمـدٌ الذى ملأ البلاد هُدىً وجادْ
وهـو الموصِّـل للطريـق المستقيم وللسَّداد
وهـو المبشِّر والمحـذِّر والمحـرِّض للجهـاد
وهو الموصِّل للسَّلا مة فى القيامة والمعادْ
والله أعْلَى ذكـره وأذاعه فى كل نـادْ

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال يجود ويفيض ، وهو الموصل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشد والسداد ، وهو المبشر بنعيم الله والمحذر من عذابه وجحيمه والمحرض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وسنترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ/١٩٢١ م منشدا[2] :

بجلالِ ذكـرك تَفْخر الأعـوامُ وبحسنِ يـومك تَزْدهى الأيـامُ
يا ليلةَ الميلاد حَسْبُكِ مفخرا نـورٌ عليه من النبىِّ تمامُ
ضاءتْ به الدنيا وأزهَر نورُها بالمسلمـين وأشـرق الإسـلام
شرفًا بأحمدَ خيرِ مَنْ وطىءِ الثَّرَى وله على السَّبعِ الطِّباق مقامُ
لولاك يا بنَ الأكرمـين لما اهتدتْ تلك الشعـوبُ ولا استقام نظـامُ

وهو يحيِّى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لها إن الأعوام تفخر بذكرك وتتيه بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلَّج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجه مقاما فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهتدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويبكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى تحية العام الهجرى فى قصيدة ثانية باكيا الإسلام والمسلمين وما عمَّ بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف[3] :

---

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

غَدتْ ملَّةُ الإسلام تبكى تأسُّفًا كأن لم يكن فوق البسيطة مسلمُ
تنـوح على أيامهـا وشبابهـا فيبكى لها البيتُ العتيقُ وزَمْزَمُ
لقد عمِل الأعداءُ كيدًا لسَحْقها فهـا هى بين القـوم نهبٌ مقسَّم
تذكَّرتِ الصِّدِّيقَ إبَّـانَ مجدهـا فبلَّها سَحٌّ من الدمـعِ مُسْجم[1]
تنادى بصوتٍ يَقْطع القلبَ حسرةً دراكِ أبـا حفصٍ فقد كدتُ أُعْدَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تنوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر،ويبكى لها المسجد الحرام وبئر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرتْ أبا بكر الصديق العظيم فى أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتُعْوِل بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركْنى قبل أن يفتك بى الأعداء. وللشيخ مدَّثِّر البوشى المولود سنة١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السودانى ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية،وينشد[2] :

اللّهُ أكبرُ هذا يـومُ مولدِهِ فالكونُ مبتهجٌ من نوره الحسنِ
حُيِّيتِ يا ليلـةَ الميـلاد مشرقةً على الربوع بوجهٍ ساطع الزَّيَنِ
حُيِّيت يا ليلـة الميـلاد جالبةً لِلبشْر مذهبـةً للهمِّ والحـزنِ
حُيِّيتِ يا ليلة الميلاد كم رقصتْ فيكِ النفوسُ فحاكتْ مائسَ الغصُنِ
حييتِ يا ليلة الميلاد إن لنا فخرا بتجديد ذكرى خيرِ مؤتمَنِ
هـو النبىُّ الذى عمَّت فواضلـهُ كلَّ الوجود كَصَوْب العـارض الهَتِنِ

والشيخ مدثر يكبِّر معظما يوم مولد الرسول الذى عمت الكونَ بهجتُه من نوره الوضاء ، ويحيِّى ليلة ميلاده التى استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور ومحت الهم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محاكية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إنه النبى الذى عمَّت أفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الهاطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر همْزية اختصر بها السيرة النبوية فى ١٢٣ بيتا[3] .

الشيخ عمر[4] الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م رُزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

(١) سح : سيل . مسجم دائم السيلان .
(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .
(٣) أنشد هذه الهمزية صاحب نفثات اليراع ص ١٧٥ .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه النبوية كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع نفثات اليراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش فى حديثه عن المديح النبوى وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرَّته دولة الحكم الثنائى فى منصبه. وكان عالما جليلا وشاعرا مجيد ، وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوها به ومشيدا :

المنتقى المبعوث من بين الورى ... للخلق طُرًّا إنْسُهُ أوجانُهْ
لولاه ما كان الوجودُ ولم يكن ... مُلْكٌ ولا مَلِكٌ ولا أعوانه
حتى ولم يَكُ آدمٌ كلاًّ ولا ... شيثٌ ولا نوحٌ ولا طوفانه
ونَجَا الخليلُ بجاهـه من نـار نَمْـ ... ـرودٍ لعمـرى إذ جفـا خِلاَّنــه

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعا من الإنس والجنِّ ، ويستضىء بشعاع ممن نوَّهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفانه . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . ويمضى فى القصيدة قائلا : بجاهه نجا كليم الله موسى من فرعون وهامانه ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضُرّ ، فهو سِرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزلى ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصالُ المرسَلين له كما ... جَمَعَ الذى فى كُتْبهم فُرْقـانُهْ
كم قد عفا عمَّن أساء وكم هَدى ... من ضلَّ عن طرُق الهدى تِبْيانه
يمشى ويَكْنِسُ دارَه ويَخيط ثَـوْ ... بًا قد عفـا والصفـح ذلك شأنُــهْ
يا من علا فوق الطباق ومن عَلا الـ ... ـرُّسُلَ الكـرام هو المكينُ مكانه
يـا سيدَ الثَّقلـين يا مُجْلى الصَّـدَا ... يا عينَ هذا الكـونِ بل إنسانُــهْ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكم هدى أناسا كانوا ضالين ببيانه الرائع ، وإنه مثال للتواضع كما حكى كتَّاب السيرة وقالوا إنه كان أحيانا يكنس داره ويخيط ثوبه ، وكان دأبه الصفح والعفو والغفران ، ويقول إنه علا فى معراجه فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إنه سيد الإنس من الجن ، وإنه يجلو الصَّدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل إنسانه الذى به يبصر . وهذه المدحة أروع مِدَحِه الثلاث ، وهو فى المدحتين الأخريين يعنى ببيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .

الشيخ عبد[1] الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ/١٨٩٢ م لأبيه القاضى عبد الرحمن بن الأمين الضرير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية بديعة له ، وعنى به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بأبى حمد ودنقلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعُيِّن مدرسا للغة العربية بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السـودان من فِتَنٍ ... وكم لأطيـارها من سِحْرِ ألحانِ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نؤرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفذاذ من الشعراء السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهره مدوية فى عالم الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى كثير ، وكل منهم خليق بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى المدائح النبوية الباع الطويل والقدح المعلى » وأنشد له نبوية ألقاها سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م فى حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

نبيٌّ كان للدنيـــا جمـــالا ... وذخــــرا للعديــــم وللغنــىّ
نبيٌّ قد يُجير على الليــالى ... إذا بِمـا جِئْنَ بالأمــــر الفَرِىّ[2]
لعمرُك ما النبىُّ – فدتْك نفسى – ... بمنطلــقِ اللســان على البَذِىّ
ولا هَلِعٌ تزعزعــه خطـوبٌ ... ولا مُهـــدِى الملامـــة للمسىّ
ولكــن قد عرفنــــاه رءوفــًا ... يــردُّ عوادىَ الدهــــرِ العَتِىّ[3]

فالنبى ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكنزا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البذىء المذموم ، ولم

---

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره نفثات اليراع ص١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص ١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٦٤ ومابعدها وفى مواضع مختلفة وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد (طبع دارالمعارف بيروت) ص٣٣. وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين (انظر الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .

(٢) الفرى : المختلق ويريد الخطير .

(٣) عوادى الدهر : نوائبه . العتىّ : الجبار .

يكن جزعا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رقيق الحسّ حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملءَ فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول فى الرسول الكريم :

وهُوْ أصلُ الوجودِ بلا مِراءٍ   وهُوْ سرُّ الحياة لكل حَيٍّ
أتى بالملّــة السمحــاءِ يدعــو   إلى الأخــلاق والشّرْعِ السَّوِيِّ
وأقسمُ مــا سحــابٌ مكفهرٌّ   كأن بريقــه قسمــاتُ مَيٍّ[1]
يروِّى الأرض من غَوْرٍ ونَجْدٍ   بأجــودَ من بَنــان الهاشمىِّ
وما أسدٌ لـه بالغــاب زأْرٌ   يُصِمّ الأُذْنَ من فَـرْط الـدوِيِّ
بأشجعَ منــه فى الهيجــاء قَلْبًا   إذا برقتْ شبــاةُ السَّمْهَرِىِّ[2]

والشيخ عبد الله يستلهم فى البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلىُّ للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود فى الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الحنيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوىّ عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المعتم لكثرة أمطاره وبريقه الذى يشبه قسمات وجه « مى » فى ضيائه ، المروِّى للأرض فى وديانها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائضة بالجود ، وليس الأسد الغضنفر الذى يزأر فى غابه زئيرا يصمُّ دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أنشد منها صاحب كتاب الشعراء فى السودان مقدمتها الغزلية وقوله فى وصف معجزة القرآن الخالدة :

مَثانى حارت الشعراء فيها   وردَّتْ كلَّ جبَّارٍ عنيدِ
متى ما يَتْلها أحـــدٌ بنــادٍ   يقول المُنتدَى هل من مزيدِ

والمثانى يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد فى ألسنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت فى روعتها البلاغية وبُهت كل جبار معاند للرسول ورسالته ، وحين يتلوها أحد بنادٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(١) المكفهر : الأسود المعتم .

(٢) شباة السمهرى : حد السيف .

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة ٥–١٥

القسم الأول : الجزائر

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ١٩–٤٩

١ – الجغرافية ١٩

٢ – التاريخ القديم ٢١

٣ – الفتح والولاة – الأغالبة – الإباضيون – تلمسان ٢٣

٤ – الدولة العبيدية – الدولة الصنهاجية – بنو حماد ٣٢

٥ – دولة الموحدين – الدولة الحفصية – بنو عبد الواد ٣٩

٦ – العهد العثماني ٤٤

الفصل الثاني : المجتمع الجزائري ٥٠–٧٥

١ – عناصر السكان ٥٠

٢ – المعيشة ٥٤

٣ – الثراء – الرفه – الموسيقى ٦١

٤ – الدين – المالكية والحنفية – الإباضية والصفرية – المعتزلة ٦٥

٥ – الزهد والتصوف ٧٣

الفصل الثالث : الثقافة ٧٦–١٠٩

١ – الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون – دور العلم – نمو الحركة العلمية ٧٦

٢ – علوم الأوائل ٨٥

٣ – علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد ٨٩

٤ – علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ٩٦

٥ – التاريخ ١٠٧

الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء ١١٠–١٧٠

١ – تعرب الجزائر ١١٠

الصفحة

٢ – كثرة الشعراء ١١٦
٣ – شعراء المديح : عبد الكريم النهشلي ، عبد الله بن محمد التنوخي (ابن قاضي ميلة) ، ابن خميس ، محمد بن يوسف القيسي الثغرى التلمساني ، الشهاب بن الخلوف ، محمد القوجيلي ١٢٠
٤ – شعراء الفخر والهجاء ١٤٩
(أ) شعراء الفخر : أبو حمو موسى الثاني ١٤٩–١٦٤
(ب) شعراء الهجاء : بكر بن حماد التاهرتي ، سعيد المنداسي ١٥٦
٥ – الشعراء والشعر التعليمي : عبد الرحمن الأخضرى ١٦٤
الفصل الخامس : طوائف من الشعراء ١٧١–٢٢١
١ – شعراء الغزل : محمد أحمد الأريسي ، ابن على ١٧١
٢ – شعراء وصف الطبيعة : عبد الله بن محمد الجراوى – إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني ١٨٣
٣ – شعراء الرثاء : محمد بن على بن حماد القلعى ١٩١
٤ – شعراء الزهد والتصوف ١٩٨
(أ) شعراء الزهد والتصوف ١٩٨–٢٠٩
(ب) شعراء التصوف : أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي ، إبراهيم التازى ٢٠٠
٥ – شعراء المدائح النبوية : محمد بن عبد الله العطار ٢٠٩
الفصل السادس : النثر وكتّابه ٢٢٢–٢٥٢
١ – الخطب والوصايا ٢٢٢
٢ – الرسائل الديوانية ٢٢٧
٣ – الرسائل الشخصية ٢٣٢
٤ – المقامات ٢٣٧
٥ – كبار الكتاب: أبو القاسم عبدالرحمن القالمى، الوهرانى ، أبو الفضل بن محشرة ٢٤٢

القسم الثاني : المغرب الأقصى

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ٢٥٥–٢٩٧
١ – الجغرافية ٢٥٥
٢ – التاريخ القديم ٢٥٨
٣ – الفتح والولاة – ثورة الصفرية– بنومدرار – الأدارسة – بعد الأدارسة والمدراريين ٢٦١

الصفحة

٤ – المرابطون – الموحدون – بنو مرين ٢٧٤
٥ – السعديون – الطرق الصوفية – العلويون ٢٩١

الفصل الثانى : المجتمع المغربى ٢٩٨–٣٢٨
١ – عناصر السكان ٢٩٨
٢ – المعيشة ٣٠٥
٣ – الثراء – الرَّفه – الموسيقى – المرأة ٣١٢
٤ – المالكية – الصفرية – المعتزلة – الظاهرية ٣١٩
٥ – الزهاد – المتصوفة ٣٢٥–٣٢٨
(أ) الزهاد ٣٢٥
(ب) المتصوفة ٣٢٦

الفصل الثالث : الثقافة ٣٢٩–٣٧١
١ – الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون – دور العلم – نمو الحركة العلمية ٣٢٩
٢ – علوم الأوائل ٣٣٧
٣ – علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ٣٤٣
٤ – علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ٣٥٤
٥ – التاريخ ٣٦٧

الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء ٣٧٢–٤٣٣
١ – تعرب المغرب الأقصى – كثرة الشعراء ٣٧٢
٢ – شعراء الموشحات والأزجال ٣٨١–٣٩٣
(أ) شعراء الموشحات : ابن غُزْلة ، ابن الصباغ ، ابن زاكور ٣٨١
(ب) شعراء الأزجال : ابن عمير ، ابن شجاع التازى ٣٨٩
٣ – شعراء المديح : ابن زنباع ، ابن حبوس ، الجراوى ، ابن عبد المنان ، الهوزالى ، أحمد بن القاضى ، الدغوغى ، البوعنانى ٣٩٣
٤ – شعراء الفخر والهجاء ٤٢١–٤٢٨
(أ) شعراء الفخر : الشاذلى ٤٢١
(ب) شعراء الهجاء ٤٢٦
٥ – الشعراء والشعر التعليمى : عبد العزيز الملزوزى ، ابن الونان ٤٢٩

الصفحة

الفصل الخامس : طوائف من الشعراء ٤٣٤–٤٨٤

١ – شعراء الغزل : أبو الربيع الموحدى ، عمر السلمى ٤٣٤

٢ – شعراء الوصف : عبد العزيز الفشتالى ٤٤٣

٣ – شعراء الرثاء : ابن شعيب الجزنائى ، أبو على اليوسى : الحسن بن مسعود ٤٥٢

٤ – شعراء الزهد والتصوف ٤٦٢–٤٧٥

(أ) شعراء الزهد ٤٦٢

(ب) شعراء التصوف : ابن المحلى ٤٦٨

٥ – شعراء المدائح النبوية : ميمون بن خبازة ، مالك بن المرحل ٤٧٥

الفصل السادس : النثر وكتّابه ٤٨٥–٥٣٩

١ – الخطب والمواعظ ٤٨٥

٢ – الرسائل الديوانية ٤٩٠

٣ – الرسائل الشخصية ٤٩٩

٤ – المقامات والرحلات ٥٠٣–٥١٨

(أ) المقامات ٥٠٣

(ب) الرحلات : رحلة ابن رشيد ، رحلة العبدرى ، رحلة العياشى ، رحلة ابن ناصر ، رحلة الوزير الغسانى ، رحلة محمد بن عثمان المكناسى ٥١٠

٥ – كبار الكتاب : القاضى عياض ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، ابن بطوطة ، محمد بن على الفشتالى ، محمد بن الطيب العلمى ٥١٨

القسم الثالث : موريتانيا

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ٥٤٣–٥٥٢

١ – الجغرافية ٥٤٣

٢ – التاريخ ٥٤٥

الفصل الثانى : المجتمع والثقافة ٥٥٣–٥٦٦

١ – المجتمع ٥٥٣–٥٥٥

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية ٥٥٣

(ب) الزروع والمراعى ٥٥٤

(جـ) التجارة ٥٥٤

(د) حياة بدوية ٥٥٥

الصفحة

٢ – الثقافة ٥٥٦–٥٦٦

(أ) نشاط دينى تعليمى كبير ٥٥٦

(ب) التعليم والطلاب والشيوخ ٥٥٧

(جـ) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة ٥٥٩

(د) أعلام العلماء ٥٦٠

(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء ٥٦١

(و) أعلام النحاة والمتكلمين ٥٦٤

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ٥٦٧–٥٩٠

١ – تعرب موريتانيا ٥٦٧

٢ – شعراء المديح : ابن رازكه، محمد اليدالى الديمانى، حرم بن عبد الجليل العلوى ٥٦٩

٣ – شعراء الفخر والهجاء ٥٧٧–٥٨٤

(أ) شعراء الفخر : المختار بن بون ، محمد بن سيدىَّ الابييرى ٥٧٧

(ب) شعراء الهجاء ٥٨٣

٤ – شعراء الرثاء : باب بن أحمد بيب العلوى ٥٨٥

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ٥٩١–٦١١

١ – شعراء الغزل : الأحول الحسنى ، محمد بن الطلبة اليعقوبى ، يقوى الفاضلى ٥٩١

٢ – شعراء التصوف : المختار الكنتى ، الشيخ سيديًّا ٥٩٨

٣ – شعراء المدائح النبوية : مولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ، محمد بن محمد العلوى ، محمد بن حنبل ٦٠٢

٤ – الشعراء والشعر التعليمى ٦٠٩

القسم الرابع : السودان

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ٦١٥–٦٣٣

١ – الجغرافية ٦١٥

٢ – التاريخ ٦١٧–٦١٨

(أ) السودان فى العصور القديمة ٦١٧

(ب) السودان فى العصور الإسلامية ٦١٨

٣ – دولة الفونج ٦٢١

٤ – محمد على والسودان – عهد إسماعيل ٦٢٤

الصفحة

٥ - حركة المهدى - خليفته عبد الله التعايشى ٦٢٨
٦ - الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان ٦٣٢
الفصل الثانى : المجتمع والثقافة ٦٣٤-٦٥٣
١ - المجتمع السودانى ٦٣٤-٦٤٣
(أ) نزعة صوفية عامة ٦٣٤
(ب) المرأة ومكانتها فى التصوف ٦٣٨
(جـ) التصوف والتربية الخلقية والدينية ٦٣٩
(د) طرق صوفية جديدة ٦٤٠
(هـ) دعوة المهدى ومبادؤها الستة ٦٤١
٢ - الثقافة ٦٤٤-٦٥٣
(أ) كتاتيب - زوايا - مساجد ٦٤٤
(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج ٦٤٥
(جـ) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون ٦٤٦
(د) التعليم المدنى الحديث وتوقفه ٦٥٠
(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث ٦٥٢
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ٦٥٤-٦٧٦
١ - تعرب السودان ٦٥٤
٢ - شعراء المديح : الشيخ حسين زهراء ، الشيخ محمد عمر البنا ٦٥٧
٣ - شعراء الفخر والحماسة : الشيخ يحيى السلاوى السودانى ، عثمان هاشم ٦٦٣
٤ - شعراء الرثاء ٦٧٠-٦٧٦
(أ) رثاء الأفراد : الشيخ محمد سعيد العباسى ٦٧٠
(ب) رثاء المدن ٦٧٤
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ٦٧٧-٦٩٩
١ - شعراء الغزل العفيف: الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف ٦٧٧
٢ - شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن: الشيخ عبدالله البنا، صالح عبدالقادر ٦٨٣
٣ - شعراء التصوف ٦٩٠
٤ - شعراء المدائح النبوية : الشيخ عمر الأزهرى ، الشيخ عبد الله عبد الرحمن ٦٩٣

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
الطبعة الأولى ١٠٥٢ صفحة

- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة

- العصر الإسلامى
الطبعة الرابعة عشرة ٤٦١ صفحة

- العصر العباسى الأول
الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة

- العصر العباسى الثانى
الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات
مصر الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الأندلس الطبعة الثانية ٥٥٢ صفحة

- عصر الدول والإمارات
ليبيا – تونس – صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة

- عصر الدول والإمارات
الجزائر – المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان
الطبعة الأولى

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة

- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة

- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

- البحث الأدبى :
طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

- فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغويـة

● البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة

● المدارس النحوية
الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

● تيسيرات لغوية
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

● تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثـاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامـة
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقـد
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحـلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة « اقـرأ »

● العقاد — الطبعة الخامسة
● البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية
● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية
● معى (١) — الطبعة الثانية
● معى (٢) — الطبعة الأولى

---

١ / ٩٢ / ٢٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Tārīkh Al-Adab Al-'Arabī

10

Dr. SHAWQĪ DAYF

'Asr Al Dewal wa'l Imārāt



DAR AL-MAAREF